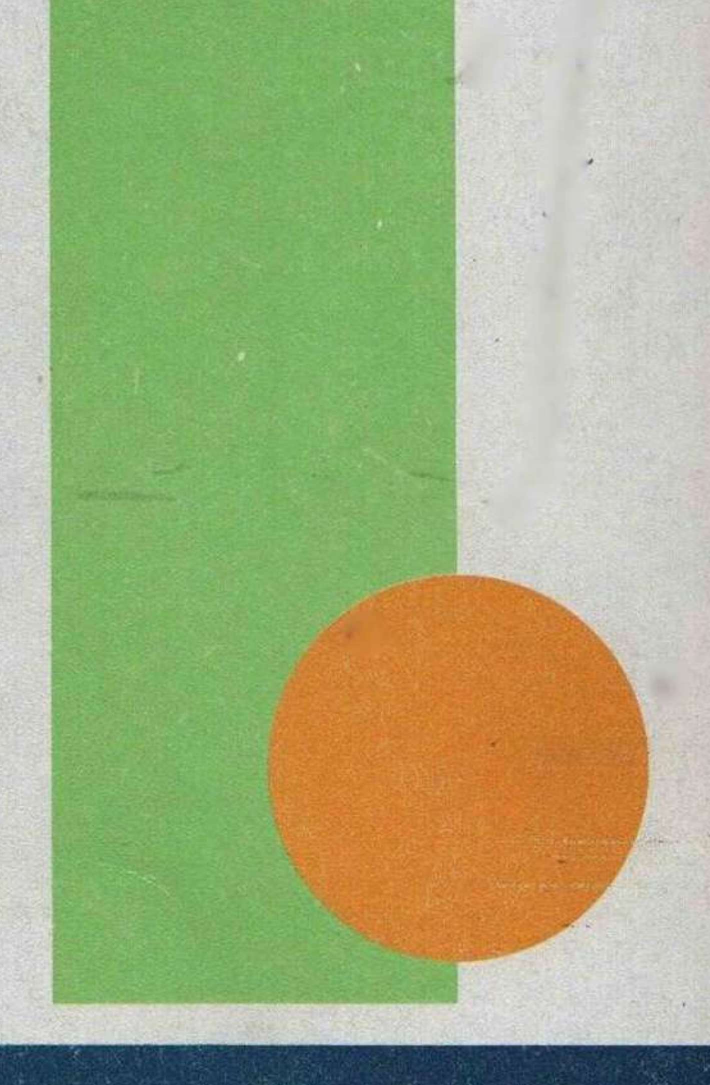
دراسات تاريخية
٢

العصور الوسطى الأوروبية



تأليف
الدكتور
عبد القادر احمد اليوسف

المكتبة العصرية ، صيدا بيروت


MOHAMED KHATAB



المكتبة العصرية، صيدا - بيروت

١٩٦٧

دراسات تاريخية

٢

العصور الوسطى الأوروبية

٤٧٦ - ١٥٠٠

تأليف

الدكتور

عبد القادر أحمد اليوسف


MOHAMED KHATAB

مقدمة

أن هذا الكتاب عبارة عن سلسلة ثانية من دراسات تاريخية ، اعتمدنا فيه على ما جاء به رواد الاختصاص . ولم نشر سوى أشارات خاطفة للدول الاوروبية الشرقية والجنوبية الشرقية حرصا على تفادي تكرار ما ورد من تلك الموضوعات في السلسلة الاولى المعنونة بالامبراطورية البيزنطية . كما أننا لم نبحث موضوع الحروب الصليبية لعزمنا على معالجتها من زوايا متنوعة شاملة شمولاً عالميا في دنيا العصر الوسيط . ولم نر حاجة لاستعراض فصول الكتاب في هذه المقدمة كما جرت العادة ولا تبيان أهمية العصر الوسيط للمدنية الحاضرة وانما نترك الامر للقارىء في تتبع الأحداث وأستخلاص ما يشاء من الخبر والمعايير والعبر . وبذلك عسانا وفقنا في هذا المسعى .

والله ولي التوفيق .

المؤلف

بيروت : ١٩٦٧



الخرائــط

الغزوات البربرية

تقسيم الامبراطورية الكارولنجية

الامبراطورية الرومانية المقدسة

انكلترا في عهد الانكليز والسكسون

فرنسا الاقطاعية

حرب المائة عام

فهرست المحتويات

الفصل التاسع ٢٠٣ – ٢٣٨

الفصل العاشر ٢٣٩ ــ ٢٥٨

ــ الكنيسة الغربية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ــ

الكنيسة الكاثوليكية والأسرار السبعة . قانون الشريعة .
أنو سنت الثالث .
الفرنسسكان والدومنيكان
نشاط الديرية النسائية
محاكم التفتيش
الفرق المارقه والحروب الصليبية ضد الالبجنسيين .

الفصل الحادي عشر ٢٥٩ ــ ٢٧٩

ــ الدول الاوروبية الكبرى في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ــ

١ ــ فرنسا : ١٣٢٨ ــ ١٤٨٣ ، حروب المائة عام

٢ ــ أنكلترا : ١٣٠١ ــ ١٤٨٥ ، السياسة الانكليزية تجاه كل من ويلز وسكوتلاند . التطورات الدستورية . مشكلة العرش الانكليزي ١٣٩٩ ــ ١٤٥٣ ، حروب الوردتين ١٤٥٣ ــ ١٤٨٥ .

٣ ــ الامبراطورية الرومانية المقدسة : ١٢٧٣ ــ ١٤٩٤ : الفترة الشاغرة الكبرى ، عائلة هبسبورك ، العصبة الهنسية ، عصبة مدن المانيا العليا (سويسرا) . أزدياد نفوذ عائلة هبسبورك .

الفصل الثاني عشر ٢٨١ ــ ٣٠٠

ــ الاوضاع السياسية العامة في ايطاليا بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر ــ

الصقليتان : النورمنديون ــ أسرة هو هنشتاوفن ــ الحكم الانجوي ــ الثورة الصقلية . الاركونيون .

المدن الايطالية : سينا ، فلورنس ، فينسيا

الدولة البابوية : روما ــ أرنولد برسكيا . الاسكند ربورجيا

الفصل الثالث عشر ٣٠١ — ٣٢٠

ـ فقدان الكنيسة الغربية لمركزها القيادي

سياسة البابا بونيفس الثامن . أصطدامه مع الملك الفرنسي فليب الرابع .

الاسر البابلي ــ ردود الفعل لبابوية الاسر البابلي .

الفتنة الكبرى . حركة المؤتمرات الدينية وأهدافها .

أتجاهات علمانية في المؤسسة البابوية

الفصل الرابع عشر ٣٢١ — ٣٤٣

ـ دول الاطراف الاوروبية ـ

روسيا : أجناس السكان ــ دولة كييف ــ العهد المغولي

بولندا : القبائل الرئيسية ــ المسيحية ــ بولسلاف الاول ــ بولسلاف الثالث ــ ونسلاس الهنغاري ــ كاسمير الثالث ــ

أتحاد بولندا ولتوانيا

الدول الاسكندنافيه : الدانيمارك ، السويد ، النرويج ، أتفاقيــة كالامار ، المجتمع الاسكندنافي .

شبه جزيرة أبريا : دويلات الاسبان وتطوراتها ــ أندماج عرشي الكاستيل والاراكون .

البرتغال

الفصل الخامس عشر ٣٤٥ — ٣٧٢

ـ تحولات اجتماعية وفكرية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ـ

أ ــ تداعي الكيانات الاقطاعية : تدهور مؤسسة الفروسية . أنهيار مؤسسة القنانــة .

ب ــ النهضة الايطالية ومداها الاوروبي .

الفصل الأول

– نظريات في انحطاط الامبراطورية الرومانية في الغرب وسقوطها –

لماذا سقطت الامبراطورية الرومانية في الغرب ومتى ؟ يختلف المؤرخون اختلافا كبيرا في هذا الصدد . فهم مختلفون في الاسباب وعللها . ومن الطريف حقا تراهم يتساءلون عن تاريخ السقوط ايضا . أهو في سنة ٤١٠ م ام في سنة ٤٥٥ م او في سنة ٤٧٦ م او لا يمكن اعتبار سنة ٨٠٠ م خاتمة المطاف ؟ لذا فهناك نظريات متعددة متنافرة عالجت الموضوع دينيا ودنيويا . فأقطاب المسيحية والوثنية نسبوا سقوط روما من عليائها الى أرادة السماء . أن رائد الفريق الاول هو القديس أوغسطين

St. Augustin ٣٥٤ ــ ٤٣٠ الذي اكد بأن سقوط روما ــ بابل الثانية ، عبارة عن مرحلة تمهيدية لانتصار مملكة الله الخالدة حيث مصير الانسانية ، انها يد الله المرشدة للحوادث الكونية وتوجيهها ولا مفر للبشرية من اتباع الأرادة الألهية والانصياع لها ، وما التاريخ الا مسيرة البشرية نحو دار الخلود . وقد ضمن القديس أوغسطين اراءه في هذا الشأن في كتابه مدينة الله The City of God ، والذي قصد به الدفاع عن الدين المسيحي ضد التهم التي نسبت سقوط روما بيد الاريك Alaric زعيم القوط الغربيين سنة ٤١٠ الى تعاليم المسيحية ولنقمة الألهة الوثنية لترك الدولة عبادتها[١] .

ومن أشد المؤرخين الوثنيين في القرن الخامس الذين وجهوا التهم الى المسيحية وتحميلها مسؤولية سقوط روما هو المؤرخ زوزيموس Zosimus في كتابه (التاريخ الجديد) ارخ فيه الحوادث الرومانية الى سنة ٤١٠ واشار بصراحة الى ان المسيحية من الاسباب الهامة في تردي الاحوال في الامبراطورية ويحمل الامبراطور قسطنطين الكبير المسؤولية الأولى وان سقوط الامبراطورية في الغرب نتيجة لنقمة الألهة الوثنية[٢] .

هذا وقد ذهبت النظريات الدنيوية مذاهب شتى . ومن الأوائل في هذا المضمار أميانوس مارسيلينوس Ammianus Marcellinus المولود عام ٣٣٠ في انطاكيا . دون التاريخ الروماني ابتداء من حكم الامبراطور نرفا Nerva سنة ٩٦ الى مقتل الامبراطور فالنز سنة ٣٧٨ ومع كونه وثنيا فقد نسب الكوارث التي احاقت بالرومان الى ضعف الوازع الخلقي[٣] .

ويشير الأستاذ السورث هنتكتون في مقالة لـه أن انحطاط الأمبراطورية الرومانية في الغرب يتعامد مع فترات الجفاف التي اصابت

(1) St. Augustine, The City of God, an abridged version from the translation by : Gerald Walsh, Demetrius Zema, Grace Monahan and Daniel Honan, Edited with an Introduction by V. Bourke (New York, 1958) 16-31.

(2) A. Vasiliev, History of the Byzantine Empire, vol. I (Madison, 1964) 125.

(3) A. Marcellinus, Roman History, tr. by J. Rolfe (Cambridge, 1935) XVI.

العالم . وقد سجلت احصائياته في فترة ٢٠٠ م ــ ٤٠٠ م نقصاً متزايداً في نسبة هطول الأمطار . ادى الى الجفاف والمجاعات والى تحركات البرابـــرة وطغيانهم على الامبراطورية في الغرب[٤] .

ويرى الاستاذ سيمخوفج Simkhovitch رأي هنتكتون تقريبا. فأنهاك التربة في ايطاليا والولايات التابعة لها حولها الى مراع . ويقــول لو سأل المؤرخ فلاحا انذاك ما هو المربح بالنسبة له لكان جوابه المراعــي وان اخر شيء يفكر به الزراعة . ومع ذلك فان المراعي نفسها اخـــذت بالتحول الى اراضي جرداء في ايطاليا . كما أن أهمال السلطات لمشاريع الري ادى الى تفاقم خطر المستنقعات التي أصبحت بؤرا للملاريا التي حصدت ارواحا كثيرة من الفلاحين . وعليه فالافلاس الزراعي قرر مصير الامبراطورية في الغرب[٥] .

ويعترض المؤرخ بينز Baynes على ذلك التفسير الجغرافــي . ويعتقد ان الدمار الزراعي لم يشمل كافة الامبراطورية . فهناك بــلاد الغال حيث بقيت زراعتها مزدهرة حتى القرن الخامس وكذلك مصـــر . وان التأخر الزراعي في ايطاليا يعود بالدرجة الأولى الى عدم اشـــراف المالكين على مزارعهم الكبرى اشرافا مباشرا . اذ تركت الاقطاعيــات الكبرى في ايطاليا والمسماة لاتيفونديا Latifondia لادارة الوكلاء نيابة عن النبلاء الغائبين في المدن . ولم يكن لهؤلاء الوكلاء ذلك الحرص على رفع المستوى الزراعي[٦] .

اما الاستاذ اندري بيكانويل A. Piganiol فيورد جملة عوامل ادت الى الانهيار الاقتصادي وفي مقدمتها تدهور مؤسسة العبوديــة . تلك المؤسسة التي التهمت الرجال كالتهام افران صهر الحديد للفحـــم الحجري . وقد كان من الضروري المحافظة على استمرار معين العبيد ان

---

(4) Ellsworth Huntigton, «Climatic Change and Agricultural Exhaustion as Element in the Fall of Rome», Quarterly Journal of Economics, 1916.

(5) G. Simokhovitch, «Romes Fall Reconsidered», Journal of Political Science, 1916.

(6) N. Baynes, «The Decline of the Roman Empire in Western Europe : Rome Modern Explanations», Journal of Roman studies, 1943.

أريد الدوام للاقتصاد الروماني . غير أن منهل العبيد اخذ في النضوب منذ توقف الفتوحات الرومانية . وما حدث من جراء ذلك كالذي يحدث لأفران صهر الحديد عند فقدان مصدر الطاقة الحرارية . ويرى ايضا ان الاتجاهات الاقتصادية في الاقطاعيات الكبرى نحو سياسة الاكتفاء الذاتي أضرت بالمدن وادت الى تدمير رأس المال وطغيان الاقتصاد الطبيعي البدائي . ولعل الحروب الأهلية المستعرة في الامبراطورية منذ عهد ماركوس أوريليوس من العوامل الهامة التي ساعدت على اللجوء الى سياسة الاكتفاء الذاتي في المقاطعا تالكبرى . كما أن روما قد اخذت تفقد مركزها التجاري المرموق عندما أصبح الطريق التجاري الممتد بين الراين والدانوب يزاحم طريق البحر المتوسط منذ نهاية حكم الامبراطور تراجان Trajan . ويعتقد ايضا أن تدخل الدولة في المشاريع الاقتصادية جعل البلاد اشبه بمعمل يعتمد على العمل الاجباري ، وبذلك ارتكبت الدولة عملية أنتحارية . اذا ثارت سخط الطبقة العاملة ودمرت الاقتصاد . حقا ان الظروف الاقتصادية المتأزمة حتمت تدخل الدولة لانتشال الاقتصاد المتدهور . وكافحت كفاحا بطوليا لايقاف الاتجاه نحو الاقطاع . وعلى ما يبدو أن هناك نظاما اقتصاديا جديدا في دور التكوين تميز بالعمل الحر في المقاطعات الحكومية على الاخص . الا أن هذه الظاهرة التقدمية اعاقها عدم الاستقرار والضرائب الفادحة . ومصدر الشرور هي افة الحرب[٧] .

ويذهب الأستاذ ولبانك Walbank الى نفس الرأي السابق الى حد ما . اذ يشير الى ان السبب الحقيقي في أنهيار الامبراطورية الرومانية في الغرب بدائية التكنيك المستعمل في الانتاج ، حيث اعتمدوا بصورة رئيسية على مؤسسة العبودية واسفر انهيار تلك المؤسسة عن ظهور الاقطاع وخراب الامبراطورية[٨] .

ان سبب الانهيار الاقتصادي حسب رأي الاستاذ ويسترمان

---

(1) André Piganiol, L'Empire Chrétien (Paris, 1947) 411 - 422.

(8) F. Walbanks, the Decline of the Roman Empire in the West (N.Y., 1935) 3 - 7.

Westerman فقدان الحرية الاقتصادية التي عادت بافدح الخسائر على المشروعات الفردية وقوضت مدينة الرومان في الغرب ، وما عدا ذلك من الاسباب اسباب ثانوية . ولم ير ويسترمان في مؤسسة العبودية سببا في الانهيار ، لأن العمل العبودي يتعامد مع أقصى ما بلغته الحضارة من رقي ورفاه . غير أن سياسة الاباطرة في الادوار المتأخرة في تأجير الاراضي الواسعة الى الملاكين ادت الى سياسة الاكتفاء الذاتي وتزايد القوى الاقطاعية جاعلة من الفلاحين مجرد ادوات انتاجية فاضرت بمؤسسة العبودية وكان منها انهيار أقتصاد المدن [9].

أكان سبب التدهور الاقتصادي تسرب الذهب الى خارج الامبراطورية ؟ يقول كل من المؤرخين ستريز ومونرو « كانت الصناعات الرومانية بدائية ولتشبع الحاجات الاولية وليست للمتاجرة . نعم كانت هناك تجارة بالكماليات كالعاج والحرير والتوابل والجواهرات مع الشرق . الا أن تجارة الكماليات أضرت بالاقتصاد الروماني ، فطالما أن الشرق لا يحتاج للصناعات او المنتجات الرومانية فكان على الرومان دفع ثمن الكماليات المستوردة ذهبا . ونظرا لتناقص كميات الذهب وعدم مقدرة الرومان على تعويضه فقد أثر سلبيا في الاعمال التجارية . وان ندرة الذهب سببت تقليص العملة وانخفاض الاسعار وأختفاء الموارد الاساسية [10] » .

لقد أستند هذا الرأي على ما جاء في كتاب بلني Pliny « التاريخ الطبيعي » حول المتاجرة مع الهند والعرب . حيث يقول : تمتص الهند عن طريق التجارة مع الرومان سنويا ما لا يقل عن خمسين مليون Sisterces ومائة مليون مع العرب والهنود سنويا ايضا [11] . أي ما يعادل مليون ونصف دولار الى الهند وحدها ، وما يقارب الخمسة ملايين دولار الى البلاد العربية والهند سنويا . هذا ويرى الاستاذ

---

(9) W. Westerman, «The Decline of Ancient Cultures», The American Historical Review, 1915.

(10) J. Strayer and D. Munro, the Middle Ages, 395 - 1500 (N.Y., 1942) 5.

(11) Pliny, Natural History, vol. VI (London, 1855) 101.

ويسترمان بأن هذه التجارة كانت في صالح الطرفين ولا يراهـا سببـا في أمتصاص الذهب من الامبراطورية الرومانية . واشار بأن قلة المعادن الثمينة تعود الى اكتناز الذهب والفضة داخل البلاد الرومانية لا الـى تسربها الى الخارج[12] .

ويرى البعض ان فشل الاقتصاد الروماني بصورة عامة يعزا الـى أحتقار الرومان للاعمال التجارية والصناعية . وقد منعت السلطـات الرومانية الطبقات العليا بشكل قطعي من تعاطي تلك الاعمال ، لأنهـا من شيمة العبيد ولا تليق بالأسياد . لذا لم تكن هناك رغبة أبداعيـة لتحسين أدوات الانتاج[13] .

اما الاستاذ روستو فتزيف Rostovtzeff فيعتقد بأن اسباب الانهيـار تكمـن في ظـاهـرة النزاع الاجتمـاعي Social Conflict بين الطبقات ، أنعكس في الصراع الدموي بين البروليتارية الريفية التي ساندها الجيش وبين الطبقات الارستقراطية في المدن . والنظرية بايجاز : أ نالامبراطورية تعرضت الى صراع حاد بين قادة الجيش في القرن الثالث، تحول الى حروب أهلية ضارية ، تميزت بسرعة أختيار الاباطرة والاستغناء عنهم بشتى السبل . أن ذلك الصراع من العوامل الهامة التي أدت الى أستبدادية الحكم . ولكن ما هي أسباب ذلك الصراع ؟ يعتقد البعض أنها اسباب سياسيةتنجت عن التنافس بين مجلسالشيوخوالاباطرة حولالسلطة غير أن هذا الرأي لا يدعمه الواقع . فبالرغم من أن مجلس الشيـوخ يضم الطبقة الارستقراطية العليا ، الا أن مساهمته في المجالات السياسية كانت ضئيلة جدا . فالصراع الحقيقي لم يكن أذن بين مجلس الشيـوخ والاباطرة . ويعتقد البعض الاخر أنه صراع بين الجيش والاباطرة . حيث أن الجيش لم يعد رومانيا منذ النصف الثاني من القرن الثالث ، وانمـا أصبح يتألف من فرق قليلة التأثر في الحضارة الرومانية ، معظمها مـن

(12) Westerman, op. cit., 780.
(13) Strayer and Munro op. cit., 7.

القبائل الجرمانية . هذا وقد أفسد الاباطرة الجيش بعد أنتهاء حكم السلالة الانطونينية خاصة عن طريق التملق لقادته لاحتياجهم الى دعم القادة العسكريين طالما كانت تنقصهم التبريرات الدستورية في أشغال العرش ومن أجل جعله وراثيا . ان محاولة تحويل العرش من منصب أنتخابي الى وراثي يتنافى مع مفهوم الحرية الرومانية . لذا عمد الاباطرة لتأكيد حقهم الوراثي عن طريق أخماد المعارضة عسكريا . واعتمدوا في ذلك على الجيش الذي طغت عليه العناصر البربرية المؤمنة بالوراثة أكثر من أيمانها بالانتخاب كشيمة الشعوب البدائية بصورة عامة . وأصبحت هذه الظاهرة واضحة منذ عهد الامبراطور سبتيموس سيفيروس Septimus Severus .

وهنا يتساءل روستو فتزيف ، لماذا لم يدم توارث العرش في سلالة سيفيروس ما دام الجيش آمن بمبدأ الوراثة بالرغم من معارضة الطبقات الارستقراطية في المدن ؟ ولماذا قلب الجيش ظهر المجن الى الاسكندر سيفيروس وقتلوه ؟ ولماذا هكذا فعلوا بأباطرة اخرين جاءوا بعده ؟ اين أذن تكمن الاسباب الحقيقية ؟ ان جوهر الصراع منذ القرن الثالث هو معركة بين الجيش والطبقات الارستقراطية في المدن صاحبة الاملاك الزراعية . وقد انتهى ذلك الصراع بانتصار الجيش ودمار الارستقراطية القديمة المتمثلة في المدن ، تحت اقدام الجيش والفلاحين . ولكن على علم بأن هذا الصراع لم يتضمن وعيا طبقيا موجها وانما هو صراع عفوي، مثل فيه الجيش قوة مدمرة للنظام الروماني في القرن الثالث خاصة ، لان اكثريته الساحقة مجندة من أولئك السكان الذين لم يكن لهم نصيب يذكر في منافع ذلك النظام . فهم من صغار المزارعين والاقنان . بينما تمثل الطبقات الارستقراطية الملاكين وحكام المدن . وعليه فقد كانت هناك هوة عميقة بين الجيش والطبقات الارستقراطية . وكان المفروض في هذا الجيش البائس أن يقوم بحماية كيان المدنية الرومانية الارستقراطية بالاضافة الى ما يتحمله من اعباء الضرائب والكدح من أجل أعالةالطبقات العليا . وبالرغم من التغييرات التي طرأت على الامبراطورية في نهاية

القرن الثالث ، فأن العداء بقي مستمرا بين الارياف والمدن . ومع أن المدن أخذت تفقد أهميتها في القرن الرابع فقد بقيت أداة للسلطة في جباية الضرائب من الارياف ، فكانت رمزا للتعسف في نظر الفلاحين .

وحدثت عدة معارك عنيفة في الشرق والغرب بين الفلاحين والمدن كان الجيش فيها بجانب الفريق الاول . وعلى العموم فقد أدى ذلك الصراع المديد الى تدهور سكان المدن الذين يشكلون العمود الفقري للاقتصاد الروماني . كما أن الحرب الطبقية لم تأت بنصر الى الفلاحين فقد أستمروا في أوضاعهم المزرية ، وأزدادت حالة البروليتارية الريفية والمدينية سوءا على سوء نتيجة لاصلاحات دقلديانوس .

وفي هذه المعمعة طغت العناصر الجرمانية وتسللت الى مراكز القيادة، وتدنى الاقتصاد الى أدنى مراتبه بتدهور المدن . ولم يعد بمقدور المدن هلنسة جماهير الريف ، بل أن الذي حدث هو العكس من ذلك . اذ أخذ الريف يغزو المدن ويعمل على (ترييفها) وبذلك نشأت عقلية جديدة بين الجماهير ، أنها عقليه الطبقات الدنيا المستندة على الدين المعادية للاتجاهات الفكرية للطبقات الارستقراطية والتي بدورها أفلست من مثلها العليا وأستكانت للضغط الاديولوجي الجماهيري[١٤] .

ويرتأي الاستاذ توينبي Toynbee ان سبب الانحطاط هو فشل المدينة في ترويض البروليتارية الداخلية التي ليست لها مصلحة واقعية بمدنية الرومان . وكذلك فشلها في ترويض البروليتارية الخارجية ويقصد بها جموع البرابرة على الحدود[١٥] .

وللمؤرخ كبون Gibbon نظرية هامة في هذا الموضوع . فقد أشار الى أن الانحلال أخذ يدب في الامبراطورية منذ أواخر القرن الثاني للميلاد على أثر وفاة الامبراطور ماركوس اورليوس سنة ١٨٠ م . ومما يسترعي الانتباه في نظريته أمران . الاول تدفق السيول البربرية على

---

(14) M. Rostovzeff, The Social and Economic History of the Roman Empire, vol. I, (Oxford, 1926) 491 - 501.

(15) A. Toynbee, A Study of History. Abridgement, by D. Samervell (Oxford, 1926) 402 - 412.

الامبراطورية . ومارست تلك الاقوام أعمالها التخريبية عن طريقين ، الاول: بربرةالمجتمع الروماني بمؤسساته ونظامه من الداخل . والثاني : ما سببته هجماتهم المتكررة من أستنزاف للاموال والعناصر الرومانية . وان الثغرات التي أحدثوها في خطوط الدفاع الرومانية زعزعت الايمان بالامبراطورية في الداخل وكسرت هيبتها في الخارج وجرأتهم على التمادي في الاعتداء والدخول عنوة الى الامبراطورية أن أقتضى الامر ذلك .

اما الامر الثاني حسب رأي كبون فهو أنتشار المسيحية . اما كيفية ذلك ، فيراه في أن المسيحية معول هدم لكافة القيم الاقتصادية والعسكرية والسياسية في البداية . اذ أن مواقف المسيحية سلبية ازاء السلطات الوثنية ولم تعترف بقدسية الامبراطور الوثني الذي يمثل الوحدة أو الرابطة الدينية لشعوب الامبراطورية على أختلافها . هذا وأن تعاليمها في أول الامر مثبطة للهم الاقتصادية بدعوتها للكفاف او الرزق اليومي في ابسط أشكاله . وأن دعوتها ضد العنف والحروب أثرت أيضا في الناحية العسكرية . ناهيك عن التطاحن بين الفرق المسيحية من جهة وبين بعضها والسلطا تالحكومية على أثر الاعتراف بها في عهد قسطنطين وشركاه في سنتي ٣١١ و ٣١٣ ، والتي أدت الى فوضى أديولوجية عامة والى أشغال الحكومة الرومانية . اذ حولت جهود الاباطرة من المعسكرات الى المجالس الدينية ، وأن الفرق المضطهدة أصبحت العدو الخفي للامبراطورية فان كان اعتناق قسطنطين للمسيحية قد عجل في انحطاط الامبراطورية فان دينه المنتصر من ناحية أخرى قد خفف من حدة السقوط اذ عمل على تهذيب وحشية الفاتحين[16] .

أنبرى عديد من المؤرخين الالمان بصورة خاصة للرد على الاراء التي جاء بها كبون . فأتباع المدرسة التاريخية Historicism في القرن التاسع عشر ذهبوا الى عكس ما ذهب اليه كبون في أمر برابرة الجرمان[17]

(16) E. Gibbon, Decline and Fall of the Roman Empire, vol. IV (London, 1901) 160 - 63.

(17) A. Momigliano, The Conflict between Paganism and Christianity in the Fourth Century (Oxford, 1936) 4.

وأعتبروا العنصر الجرماني مدعاة قوة للامبراطورية . لان الجرمان لم تكن لهم نية عند نفوذهم الى داخل الحدود الرومانية غير الاحتماء بالامبراطورية من أقوام أشد بربرية منهم وطلبا للعيش بعد أن شحت عليهم الطبيعة بجودها في مواطنهم الاولى . كما أن الحوادث التاريخية قد أثبتت أن القسم الاكبر من هذه الجموع الجرمانية كانت خير عون للامبراطورية في الناحيتين العسكرية والاقتصادية ، بتطوعهم في الجيش وبأشتغالهم بالانتاج الزراعي . ولهم ايضا نظرة اكبار للمدنية الرومانية . هذا بالاضافة الى أن دخولهم الامبراطورية لم يكن كليا عن طريق القوة ولم يكن مفاجئا ، بل أن الرومان كانوا في تعامل مع هذه القبائل سلميا ام حربيا منذ القرن الثاني قبل الميلاد . ويستشهدون بذلك عما جاء به المؤرخ تاكيتوس Tacitus في القرن الثاني الميلادي ، من أخبار عن فضائل الجرمان . اذ وصفهم بالشجاعة والاخلاص، وأثنى على نسائهم وفضلهن عفة على نساء الرومان[18] .

اما الردود على نظرية كبون في تحميله المسيحيه مسؤولية الانهيار فتتلخص بما يلي : أن الكنيسة ذات رسالة قصد بها الخير لتلك المجتمعات آنذاك . فدعت الى الايثار والمساواة والسلم . وهي الاداة التثقيفية للاقوام الجرمانية وغيرها ، اذ كسرت كثيرا من حدتهم وعملت على ترويضهم[19] . وللكنيسة أيضا مواقف عدة كانت فيه عونا للسلطات في حفظ النظام والتوسط بينها وبين الجموع الغازية . ومثلت أيضا وسطا هاما في نقل الحضارة الرومانية من جيل الى اخر . ثم أصبحت فيما بعد من اكبر دعاة الامبراطورية المسيحية .

ولنتذكر بأن المؤرخ كبون ينتمي الى المدرسة العقلية التي اشتد ساعدها في القرن الثامن عشر خاصة ، الناظرة بازدراء الى تراث العصر الوسيط لعدم مسايرة الكثير من جوانبه للتحليل العقلي ، معتبرة ذلك التراث أنتكاسة في تاريخ المدنية الاوروبية .

هذا ولم ير المؤرخ النمساوي دوبش A. Dopsech ان الغزوات

---

(18) Strayer and Munro, op. cit., 25 - 28.

(19) Momigliano, op. cit., 12.

الجرمانية سببا في انهيار الامبراطورية . وان ما حدث هو أعادة تـوزيع الاراضي على نطاق واسع حسب العادات الرومانية ولم يؤد ذلك الـى عودة الى الاقتصاد البدائي او انقطاع في التجارة[19] .

ويتفق الاستاذ Pirenne مع ذلك الرأي مضيفا عليه بـأن العرب هم الذين دمروا وحدة البحر المتوسط وشلوا التجارة بين الشرق والغرب وأمتصوا الذهب من اوربا وأدت توسعاتهم الى انتقال التجارة الاوربيـة من البحر المتوسط الى بحر الشمال . . وأجبرت أوربا بعد أن انقطعـت مواصلاتها مع بيزنطة عن طريق البحر المتوسط على الاعتماد على نفسها[20] .

وهناك تفسيرات بايولوجية او كما يشار لها بالنظريات العضويـة Organic Theories لسقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب . حيث شبه قسم منها حياة المجتمعات بعمر الافراد . فهناك دورة حياتية متمثلـة في الولادة والنضج ثم الفناء . وعليه فالمدنيات كالافراد صائرة لا محـالة الى الموت . ويأخذ بذلك الرأي الاستاذ أسكويث Asquith اذ يقول (ان خلايا الامبراطورية الرومانية وأنسجتها قد بلغت نهايتها المحتمة كأي شيء حي)[21] . ويعتقد الاستاذ شبنكلـر Spengler أيضا بـأن التاريخ عامة يسير في أتجاه قرر سلفا من الولادة الى الطفولة ومن الشبـاب الى المشيب وحيث الموت .

اما الاستاذ فرانك Frank فيعتقد بأن أنهيار الامبراطورية كـان لأسباب رسية اي عندما تغلبت الدماء الشرقية على الدمـاء الرومانيـة . وتستند نظريته على دراسة أجراها على اسماء الموتى في مقابر ايطالية . توصل منها الى أن نسبة المواليد في الادوار الاخيرة من تاريـخ الرومان كانت تسعين بالمائة من غير الرومانيين . لذا سادت القيم الشرقية التـي توضحت في الاتجاهات الدينية وظهور الاستبدادية على الطراز الشرقي وتدهور الاداب اللاتينية وفقر الحكم الى شخصيات موهوبة[22] . وقـد

---

(19) Ibid., 5.

(20) H. Pirenne, Mohammed and Charlemagne (London, 1958), 165 - 73.

(21) H. Asquith, The Legacy of Rome (Oxford, 1932). I.

(22) T. Franks, «Race Mixture in the Roman Empire», in the American Historical Review, XXI (1916).

ردت الاستاذة ماري كوردون M. Gordon على ذلك الرأي بقولها ان الاسماء التي عثر عليها الاستاذ فرانك مضللة تاريخيا . اذ يطلق تجار العبيد عادة اسماء مختلفه على عبيدهم حسبما يشتهون ولا تدل هذه الاسماء بصورة علميه على جنسيات هؤلاء العبيد وأصولهم . بالاضافة الى أن دراسة الاستاذ فرانك آقتصرت على ثلاثة قرون درس فيها (١٣٩٠٠) قبرا كتب عليها اسماء الموتى . لهذا فلا يصح تعميم ذلك الاحصاء نظرا لطول الفترة وقلة الحالات المدروسة نسبة الى عدد السكان . كما أن الاسماء التي عثر عليها كانت في المقاطعات الرسمية ، فما بالك بالالاف البروليتاريه الذين يدفنون في مقابر عامة بلا تمييز ولا شارات ؟ وعليه فان النموذج الدراسي الذي توصل اليه الاستاذ السابق لا يمثل النسبة بين عدد الاحرار والعبيد في الامبراطورية بشكل علمي[٢٣] .

ويأخذ الاستاذ نلسون Nilson بالنظرية الرسية ايضا . حيث يشير الى أن أهم مشكلة صادفتها الامبراطورية هي مشكلة الرس Race اذ قامت مدنية الرومان على نقاوة الرس وقد شابت العناصر الاجنبية نقاء العنصر الروماني في وقت كانت فيه نسبة ولادة الرومان في تناقص . وهنا يعلق الاستاذ بينز Baynes على ذلك بقوله (عندما تستعمل كلمة الرسية في تفسير حوادث التاريخ فمن الاجدر بي ان الوذ بالصمت)[٢٤] .

ويعلق الاستاذ كاتز Katz على الرسية بقوله (أن الذين يعتقدون بأن سبب الانحطاط هو استنزاف العنصر الروماني الممتاز عن طريق الحروب او لعدم رغبة الرومان في أنجاب النسل ، وأن العناصر الرومانية الجيدة أبتلعتها العناصر الرديئة ، لا يستندون الى الواقع . ويمكن للانسان أن يتبين خطل هذا الرأي بعدم وجود أدلة على أن العناصر الممتازة هي وحدها التي هلكت في الحروب . كما أن الدليل لم يقم على وجود أجناس متفوقة وأخرى رديئة بين البشر . ولم يثبت لدينا علميا بأن العناصر

(23) M. Gord on, «Nationality of Slaves Under the Early Roman Empire», in JRS, XIV (1924).

(24) N. Baynes, op. cit., in JRS (1943).

الرومانية ـ الممتازة ، حاولت الانتحار الرسي بأضرابها عن تخليد النسل[٢٥].

ولا يعتقد الاستاذ بيوري Bury بأن سبب الانهيار كان لنقص السكان . اذ يشير الي أنه لا توجد أدلة عملية على ان نفوس الامبراطورية في القرنين الرابع والخامس أقل مما كانت عليه في القرن الاول الميلادي . وأن قلة المواليد في أيطاليا لا تفسر لنا الانهيار في القرن الخامس اذ بقيت الامبراطورية محتفظة بجيش يربو على المائة الف مقاتل[٢٦] . ولا يرى الاستاذ كاتز Katz أيضا بأن نقص السكان من جراء الاوبئة كالطاعون والملاريا في ايطاليا بصورة خاصة سببا اساسيا في الانحطاط[٢٧] .

ويعتقد المؤرخ بورغ Burgh أن الاصلاحات المدنية والعسكرية التي أجراها دقلديانوس ٢٨٤ ـ ٣٠٥ ، مسؤولة الي حد ما عن تصدع الكيان الروماني في الغرب . فبالرغم من أنه أراد تقوية الجهاز الحكومي بوضع حد للمفاسد ولتمكين الامبراطورية من الدفاع عن الحدود الا أن النتيجة كانت عكس المطلوب . فالفصل بين السلطتين العسكرية والمدنية أدى الى أرباك الوضع . هذا بالاضافة الى تعدد الوحدات الادارية الصغرى التي احتوتها الاقاليم الاربعة لكل من الغال وايطاليا واليريا والشرق .وأدت هذه الى زيادة عدد الموظفين وأشتداد البيروقراطية وعرقلة الاعمال . كما أن تقسيم الامبراطورية من ناحية ادارية الى شرقية واخرى غربية بين أمبراطورين وقيصرين لم يساعد على القضاء على النزاع حول الاستئثار بالسلطة عند موت أحد الامبراطورين كما توقع دقلديانوس ، بل أدى الى حروب أهلية منذ سنة ٣٠٥ الى ٣٢٤ ومنذ وفاة قسطنطين الكبير سنة ٣٣٧ الى سنة ٣٥١ . كما أن معالجته الوضع الاقتصادي المنهار بجعله الصناعة والتجارة تحت الاشراف الحكومي المباشر وجعل المهن وراثية قتلت الابداع وولدت التذمر[٢٨] .

---

(25) S. Katz, The Decline of Rome and the Rise of Medieval Europe (Cornell, 1963) 77.

(26) J. Bury, History of the Later Roman Empire, 395-565, vol. I (London 1923) 308-318.

(27) Katz, op. cit., 78.

(28) W. Burgh, The Legacy of the Ancient World, vol. II Middlesex, 1953), 390.

ومهما تعددت النظريـات والاراء في تعليل سقوط الامبراطوريـة الرومانية في الغرب فلا بد وان يستشف المتأمل فيها بان هناك تحـولات خطيرة في المجتمع الروماني . بدت في تصدع مؤسسة الانتاج الكبـرى وأنهيارها ، الا وهي مؤسسة العبودية ، الحجر الاسـاسي في كيـان الامبراطورية في الغرب . ان تدهور تلك المؤسسة حتم ظهور علاقـات اجتماعيةجديدة مستندة على نوع العلاقات الانتاجية الحديثة آنذاك . وكانت هذهالظاهرة هي اليد الخفية وراء البلبلة التي أصابت الرومان في الغرب في كافة نواحي مجتمعهم وفككت عراه . وقد أسرعت السيول الجرمانية المتدفقة على الامبراطورية في عملية تلك التحولات في المجتمع الروماني عن دون قصد طبعا والتي آذنت بحلول عصر جديد .

أهناك أتفاق على السنة التي زالت فيها الامبراطورية الرومانيـة في الغرب ؟ أن الاجابة عن ذلك السؤال حيوية بالنسبة للموضوع طالمـا أن نهاية الامبراطورية الرومانية في الغرب هي بداية العصر الوسيط . يختلف المؤرخون في تحديد تاريخ السقوط أختلافا كبيرا ومحيرا . أيمكن أعتبار انتصار قسطنطين على خصمه ماكستنيوس سنة ٣١٢ في ملفيان في ايطاليا بداية للعصر الوسيط لمجرد أتخاذه الراية المسيحية شعارا له ؟ اذ تشير الراية عند البعض الى تحول اديولوجـي خطير وأن اعترافـه بالمسيحية فاتحه مرحلة جديدة في التاريخ[٢٩] . أيمكن أعتبارسنة ٤٧٦ بداية للعصور الوسطى ؟ وذلك على أثر الانقلاب الناجح الذي دبره الجنرال الجرماني ادوكر Adovacar ضد روميلوس وحصوله على موافقـة مجلس الشيوخ الروماني والامبراطور زينو Zeno الذي كان يحكم في القسطنطينية . أن قسما من باحثي التاريخ لا يرون في تلك السنـة سقوطا للامبراطور ولو أنه فرض نفسه على روما فرضا . كذلك لم يشهد ذلـك التاريخ جيوشا غازيه ولا معارك ضارية وانما تمت عمليه مجيء أدوكـر للحكم بصورة سلمية . ويتساءل البعض لماذا لا تكون سنة ٤١٠ أو سنة ٤٥٥ من التواريخ الفـاصلـة فـي هـذا الشـأن ؟ فقد استولـى الاريك Alaric في التاريخ الاول على روما فعلا بعد حصار شديد

(29) A. Mamigliano op. cit., ch. I.

ومسارك عنيفة وعاثت جموعه الغوطيه الغربيه في أحياء المدينة ولم تسلم منه غير دور العبادة . أن المؤرخ الايطالي فلافيو بايوندي Flavio Biondi قد أعتبر سنة ٤١٠ بداية للعصر الوسيط في كتابه تاريخ روما الذي وضعه في منتصف القرن الخامس عشر[٣٠] . اما التاريخ الثاني أي سنة ٤٥٥ فقد تعرضت فيها روما لمخاطر هائلة من قبل جيوش الواندال التي عبرت اليها من شمال افريقيا ولم ينسحبوا منها الا بعد أمتصاص ثرواتها المنقولة ولتدخلات البابا ليو الكبير . أو هل يمكن أعتبار سنة ٥٦٥ نهاية للحكم الروماني في الغرب ؟ لقد أعاد الامبراطور جستنيان الاول أيطاليا وبعض الاجزاء الاسبانية وشمال أفريقيا الى الرابطة الرومانية ، الا أن اكثرية ايطاليا خرجت عن السيطرة الرومانية بعد قليل من وفاته . أو يمكن أعتبار سنة ٨٠٠ م نهاية لسلطة الرومان النظرية على الغرب كما يراها المؤرخ بيوري ؟ ففيها قد أصبح شارلمان ملك الفرنجة أمبراطورا على الغرب وبذلك أنتهت سيادة الرومان على القسم الغربي من الناحيتين العملية والنظرية[٣١] . غير أن للمؤرخ بيرين Pirenne رأى اخر اذ يعتبر فيه نهاية العصور القديمة في اوربا تبدأ في القرن الثامن أي في الوقت الذي سيطر فيه العرب على مياه البحر المتوسط واستولوا على اسبانيا وشلوا التجارة الغربية[٣٢] .

ومهما يكن من أمر فان السلطة الفعلية في الغرب قد أنتقلت الى عناصر جرمانية منذ النصف الثاني من القرن الخامس على الاخص . ولم يشهد الغرب أمبراطورا يحكم في ايطاليا منذ انقلاب أدوكر . ولعل ذلك من المبررات التي تجعل من سنة ٤٧٦ نهاية للامبراطورية الرومانية في الغرب وبداية للعصر الوسيط بالرغم من أن السنوات لا تحدد التطورات التاريخية من حيث البداية او النهاية . ومع ذلك فان انقلاب ادوكر جاء منسجما مع حصيلة التطورات العامة في المجتمع الغربي .

(30) E. Knapton, Europe, 1450-1815 (Massachusetts 1958) 72.

(31) J. Bury, A History of the Later Roman Empire from Arcadius to Irene 395-800, vol. I (London, 1889) 507.

(32) H. Pirenne, A History of Europe, from the Invasions to the XVI Century (N.Y., 1955). XX - XXI.



الفصل الثاني

ـ المجتمع الروماني في القرنين الرابع والخامس ـ

تميزت الهيئة الاجتماعية الرومانية بفوارق طبقية حادة . فهناك طبقة الشيوخ أو الأعيان Senators الأرستقراطية . ولا يقصد بذلك أن كافة الشيوخ أعضاء فعالون في مجلس الشيوخ في روما . بل أن العين مجـرد لقب يمنحه الأباطرة للمواطنين الأثرياء والمتنفذين . وقد تهافت الاثرياء على الحصول على ذلك اللقب عن طريق الشراء نظرا لما يحمله من جـاه وسلطة وأمتيازات وأعفاء من الضرائب . وكانت مناصب الدولة العليـا

تشغل من بين صفوف هؤلاء[1] . وأدت السياسة الحكومية في منع الطبقات الارستقراطية في تشغيل أموالهم في التجارة والصناعة الى اقبالهم على استثمارها عن طريق تجميع الاراضي بأية وسيلة كانت .

تسمى وحدة الارض المستثمرة زراعيا بالفيلا Villa ، وهي ذات مساحات شاسعة ، اذ تعد الفيلا التي تبلغ مساحتها (١٥٠٠) اكر صغيرة نسبيا . واحتوت الفيلا على العمال الزراعيين وأرباب الحرف الضرورية . وكان المالك هو الحاكم في أمور رعيته . وان الفيلا أصبحت في الادوار الرومانية المتأخرة خاصة وحدة اقتصادية كافية نفسها بنفسها .

يقسم مجتمع الفيلا الى طبقتين كبيرتين هما العبيد والأحرار ، ولو أن الحد الفاصل بينهما لم يكن بذلك الوضوح[2] . ويشتمل العبيد على الخدم وأولئك الذين يشتغلون بالزراعة مباشرة تحت أمرة النبيل . الا أن عدد العبيد اخذ بالتناقص بالنسبة للاحرار في القرن الرابع ، نظرا لتوقف الفتوحات وأنقطاع موارد العبيد . وقد تحسنت حالة العبيد نتيجة للازمة الاقتصادية في القرن الثالث ولصعوبة تعويضهم . وأضطرت الحكومة أن تشرع قوانين في صالحهم . فلم يعد بوسع النبيل قتل عبده حسبما يشاء ولم تعد هناك حاجة لحشرهم ليلا في زنزانات تحت الارض خوفا من هروبهم[3] . ورأى قسم من الملاكين أنه من المربح فيما لو جهز العبد بقطعة صغيرة من الارض يقوم بزراعتها لنفسه قرب كوخه . وهكذا انتشرت ظاهرة عبيد الاكواخ Hut Slaves . وعمدت الحكومة الى تسجيلهم رسميا في السجلات الريفية ومنعت بيع الاراضي بدونهم . ومع ذلك فان حالة هؤلاء العبيد الذين نالوا قسطا من الحقوق معرضة لواجبات ثقيلة ولا يحق لهم قانونيا جمع ثروات لأنفسهم . وعلى كل فقد أخذت حالتهم ترتفع الى درجة المعمر Coloni بشكل ملحوظ في القرنين الرابع والخامس[4] .

---

(1) Strayer and Munro, The Middle Ages, 395 - 1500 (N.Y., 1942) 8.
(2) Ibid., 9.
(3) Robinson An Introduction to the History of Western Europe, Revised and Enlarged by J. Shattwell, vol. I (Boston, 1946) 23.
(4) Strayer and Munro op. cit., 10.

ان المعمرين يكونون غالبية الطبقة الفلاحية في الفيلا . ولهم حق زراعي موروث في أستغلال قطعة الارض لأنفسهم بدون تملكها لأنهـا تعود الى صاحب الفيلا الذي يستوفي لقاء قطعة الارض هذه أيجارا نقدا او نوعا . وطالما كان المعمر موفيا بالايجار فيحق له الاحتفاظ بقطعته ، الا أن القانون لا يسمح له بترك المزرعة او تغيير مهنته . وأن هرب المعمـر فترجعه السلطات بالقوة ويجوز لصاحب الفيلا انزاله الى مرتبة العبيد . ويرث أولاده من بعده واجباته وحقوقه . ومن حقوقه الزواج وأقـامـة الدعوى وجمع المال وتوريثه . الا انه كنظيره العبد يباع ويشترى مـع الارض[5] .

ان مصادر المعمرين متعددة . منها أسرى الجرمان أو عملية أستيطان القبائل الجرمانية من قبل السلطات الرومانية أذ (نسب الى قسطنطيـن الكبير بانه اسكن ثلثمائة الف من الجرمان في الامبراطورية كمعمرين)[6]. وقد تكون مصادر المعمري أيضا من العبيد المعتوقين . غير أن معظمهم من بين صفوف الفلاحين الاحرار الذين نزلت بهم الامور نتيجة لكـوارث القرون المتأخرة من الحكم الروماني في الغرب . اذ اضطروا الى الجـاء أنفسهم Commendation واملاكهم الى النبلاء الاقوياء لقاء حمايتهم والسماح لهم باستثمار سطح الارض . ولعل التعسف في جباية الضرائب من الفلاحين الاحرار سببا في هذه الظاهرة . أذ أشار الكنسي لاكتانتيوس Lactantins الى تعسف الجباة في بلاد الغال بقوله :

لقد أجبر العبيد على أتهام أسيادهم والزوجات على أتهام بعولهن . وحينما لم يعثر على دليل أخفاء الأموال ، يعذب المواطن الى الحد الذي يقبل التهمة على نفسه . وبعد أتهام هؤلاء الناس لأنفسهم يعمل الجبـاة قوائم باسمائهم وبنسبة الضرائب المفروضة على كل منهم . وكأن تسديدها ثمن لحياتهم ونتيجة لهذا التعسف والتعذيب هلك الكثير من الانفس .. [7]

---

(5) Robinson op. cit., 24.

(6) Ibid., 25.

(7) Quoted in Strayer and Munro, op. cit., 5.

ثم هناك طبقة الموظفين Curials وهم من المدن ، وقد أصبحت حالة هؤلاء عسيرة في القرن الرابع . أذ تقع عليهم مسؤولية الجباية وعليهم تسديد النقص من أموالهم الخاصة . أن رداءة الاحوال الاقتصادية في القرن الرابع جعلت مهمة الجباية مهمة شاقة وسببت خراب بيوت قسم كبير من هؤلاء الموظفين . لهذا أخذ الموظفون بالأنهزام من وظائفهم . وأضطرت السلطات ان تلزم كل مدني يملك ثروة ما عدا الاعيان الانخراط في المسلك الوظيفي البلدي . وجعلت الوظيفة وراثية في ابنائهم ، فلا يحق لابناء الموظفين الانخراط في الجيش او السلك الكهنوتي او الاقامة خارج المدن . ومع ذلك فلم تمنع تلك الاجراءات الموظفين من التملص والأنهزام من الخدمة ، وقد تفككت تلك الطبقة من الموظفين في القسم الغربي في القرن الخامس ، ويشير احد القوانين الصادرة سنة ٤٥٨ الى هذا المعنى :

يجب أن ننظر الى طبقة الموظفين بانها روح المدن وعماد البلد ... ومع ذلك فقد لحق بهم الحيف الكبير .. وأن اكثريتهم قد أستغنت عن العمل عن طريق الأنهزام والاختباء في محلات نائية ...[٨]

أن انحطاط هذه الطبقة يعود الى تدهور حالة المدن ولانحطاط التجارة وأنتشار ظاهرة الاكتفاء الذاتي في المقاطعات الزراعية والتي جعلت المهن الصناعية في المدن عسيرة الربح .

بلبلة اديولوجية

ان السواد المحروم من الفرص الاقتصادية لم يهتم كثيرا لما يدور حوله من ملابسات سياسية . فقد شغلته هموم الحياة واخذ يتلمس له مخرجا في قوى ما وراء الطبيعة . فأن فشل الفرد الكادح في تأكيد شخصيته والحصول على حقوقه كأنسان ، فقد وجد في الدين املا

---

(8) Quoted in Ibid., 11.

وعزاء وبلسما لجراح الانسانية المهانة بوعده حياة مثلى في اليوم الاخر .
لذا أخذت النفوس اليائسة الحيرى تستعرض بضاعات المبشرين بالاديان
وترهف السمع لنداء الخلاص ، عساها أن تجد فيه ما تفهمه وتلوذ
به وتستكين اليه .

ان الاراء الصوفية كانت فوق ما يعيه الجمهور . أنها طريقة
المثقفين والطبقات الارستقراطية المستنيرة في التفلسف في المخلوق
والخالق بالرغم مما أحتوت عليه من مثل لا يستهان بها . اذ اشارت هذه
الى أن السعادة الانسانية وكرامتها متأتية من اطاعة الفرد الاختيارية
للقانون الطبيعي الازلي[9] . وقد يتسنى لهذا الانسان ان يهنأ بعيشه من خلال
ضبط النفس وحب الحق والعدالة ، والاعراض عن الظروف التي لا
أمكانية له في السيطرة عليها . واعتقدت الصوفية ان التفاوت
الاجتماعي لم يكن هاما ، وان الناس سواسية امام قانون الخلود . ماذا
يفهم الفرد المحروم في الحياة من تلك الاراء ؟ فبالاضافة الى أنها مجرد
أقوال عسيرة الفهم فهي فردية متطرفة . أن الفرد الاعتيادي يحتاج الى
من يؤكد له بان هناك ربا يحنو عليه ويرعاه ويسدد خطاه ويهتم بمشاكله
بدلاً من جمل فلسفية مستمدة من قانون الطبيعة الازلي الموهوم ، ذلك
القانون الذي اذل الناس أزمانا واقر اوضاع البؤس والنعيم على حد
سواء وختمها بازليته . فأن كانت هناك حياة ثانية لهذا الانسان المهان
في حياته الاولى فمن الطبيعي أنه لا يود ان تكون الحياة الثانية نسخة من
الاولى ، وان عسر الدنيا يقابله يسر الاخره . لهذا وجدوا في الاديان
المستوردة من الشرق ضالتهم المنشودة . فالتفوا شيعا حول رب الشمس
Mithra وغيره من الاديان التي جعلت علاقة الفرد مباشرة مع
ربه وان الانسان محاسب على ما جنت يداه .

أن مهد المتراسية Mithraism أو عبادة الشمس هي البلاد
الايرانية . ومترا هذا هو اله النور والحق والبطل المجاهد دائما وابدا ضد

(9) G. Sabine, A History of Political Theory (N.Y. 1964) 148-51.

قوى الشر والمبدد لجيوش الظلام . أعتقدت المتراسيه بخلود الـــروح والقيامه والحساب . وكان لها مسلك كهنوتي دقيق النظام ، أرتكز على فكرة ان مترا وسط بين الله والانسان وهاديه نحو الخير . واعتقدت المتراسيه ايضا بالاندماج الروحي بالرب عن طريق العبادة . ومارست التعميد Baptism والتثبيت Confirmation وسر التناول . واعتبرت يوم الاحد يوما مقدسا ، واليوم الخامس والعشرين من شهر ديسمبـــر عيدا لنهوض مترا او ولادته الثانية ومعراجه الى السماء . أن مترا في شباب دائم له مقدرة على استئصال الشر في داخل النفـــس وخارجهـــا وهو في روح عسكريه عاليه . وقد انتشر ذلك الدين بشكل يلفـــت الانظار في الامبراطورية الرومانية في القرن الاول الميـــلادي واستهوى بصورة خاصة رجالات الجيش . وأصبحت المتراسية دين اباطرة الرومان في القرن الثالث[10] .

لقد شهد المجتمع الروماني ايضا منذ القرن الثالث محاولة فلسفيـــة للتوفيق بين الانسان وروحه من جهة وبينه وبين خالقه من جهة ثانيـــة توضحت بالافلاطونية الحديثة المتأثرة أيضا بتعاليم ارسطو والصوفية . انها اتحاد الفلسفات القديمة والحديثة أنذاك او المزاوجة بين الفلسفة والدين . وتضمنت احياء الفلسفه الفيثاغورية والافلاطونية . أكـــدت على أنقاذ الانسان من مصائب الدنيا عن طريق حب الله والاندمـــاج الرمزي بذاته . واشارت بان الروح مصدرها الله وهو في علاقة مستديمه معها . أن اول اساتذتها وأعظمهم شأنا هو فلوطين Plotinus ٢٠٤ ـــ ٢٧٠ . نشأ هذا في الاسكندرية وأثر كتابه التساعي Enneads تأثيرات بالغة في العقيدة المسيحية . ويحتوي الكتاب على ستة أجزاء واحتوى كل جزء على تسع مقالات . لذا سمي بالكتاب التساعي لان Enned معناهـــا رقم تسعه[11] .

---

(10) Burgh, The Legacy of the Ancient World, vol. II, (Middlesex, 1953) 339-41.

(11) Ibid., 345.

اعتمدت فلسفة فلوطين على التناقض بين العالمين المحسوس والمجرد. وحاول جهده ان يوفق بين هذه الثنائية . وقال كأفلاطون بان الشيء الحقيقي هو الروح والعالم المادي عبارة عن أنعكاس عن العالم الروحي، وان كل شيء يصدر عن السبب الاول فهو البداية والنهاية لهذا الكون[12] لقد ازدهرت الافلاطونية الحديثة لمدة قرنين تقريبا من بداية ظهورها حتى أمر جستنيان بغلق معاهدها في اثينا سنة ٥٢٩ .

المسيحية وسيادتها الاديولوجية :

أن الديانة التي أستهوت الجماهير الرومانية وكتب لها النصر هي المسيحية . أنها ثورة كبرى في تاريخ الرومان . بدأت بتعاليم بسيطة افزعت الارستقراطية والوثنية والاباطرة . ناضلت بعناد وبطولة حتى أصبحت الديانة الرسمية للامبراطورية الرومانية . والركن الاساسي في المسيحية تضمنتها العبارة التالية :

أعتقد بالله الآب القوي الجبار ، وسيدنا أبنه الوحيد عيسى المسيح المولود من روح القدس Holy Spirit والعذراء ماري ... صلب ودفن ثم نهض في اليوم الثالث ورفع الى السماء حيث تبوأ مكانه على يمين الله وسوف يأتي من هناك ليحاسب الاحياء والاموات . واعتقد بروح القدس وبالكنيسة المقدسة وبغفران الذنوب وبالنشور[13] .

أستندت المسيحية على اليهودية وتأثرت بالتراث الهلنستي . فالمسيح أسرائيلي المولد ، واجرى له الختان في اليوم الثامن حسب التعاليم اليهودية ثم مارس كافة طقوسها . وجه الدعوة في البداية الى (قطيع بني اسرائيل التائه) واخذ يعظ في معبد اليهود في الناصرة . جاء محققا للنبؤات التي حوتها التوراة ، فرفض اليهود تصديقه . لان اليهود توخوا من مسيحهم المنتظر الانقاذ من ظلم الرومان وجورهم وان يؤسس لهم دولة في صهيون. دولة ثيوقراطية قومية تسود أمراء الارض وشعوبها . بينما تعدى

(12) Ibid., 346.
(13) Quoted in Ibid., 360.

المسيح عيسى حدود القومية الاسرائيلية . اذ جاء مبشرا للعالم أجمع وان المملكة التي وعد الله بها هي في السماء وليست على هذه الارض . وهكذا أخذت المسيحية تنسل عن اليهودية تدريجيا[14] . وأصبح العداء مستحكما بين الطائفتين في القرن الرابع . واخذت كلمة (اليهود) تفيد معنى اعداء المسيح . لهذا اشار اليهود في العصور الحديثة بأن موجة الكراهية لليهود anti-Semitism بداها واضع الانجيل[15] . غير أن المسيحية ورثت الكثير من المعتقد اليهودي . كالاعتقاد باله واحد وانه الاب الروحي للبشريه الذي حتم على أبنائه أتباع الحق وورثت كذلك العهد القديم .

ان الاسباب التي ادت الى أنتشار المسيحية من المواضيع التي تناولتها اقلام رجال الدين والدنيا باهتمام كبير . أنها ارادة الله بالنسبة للفئة الاولى . ومن امثلة الفئة الثانية المؤرخ كبون Gibbon اذ يورد هذا خمسة اسباب لانتصار المسيحية نوجزها اولا بغيرة المسيحيين وتعصبهم لدينهم وتمسكهم به . ثانيا الوعد بحياة مثلى في الاخرة . ثالثا المعجزات التي حققتها الكنيسة . رابعا حياة الزهد التي حياها المسيحيون الاوائل . خامسا الضبط في الادارة والتنظيم للمسلك الكهنوتي[16] .

وبالاضافة الى ما قدمه كبون من أسباب في هذا الشأن فهناك جملة عوامل أخرى تكمن فيما يأتي : اولا ، أستعمال اللغة اليونانية في التبشير . حقا أن الكنيسة في بداية أمرها أستعملت اللغة الشائعة في فلسطين الا وهي الارامية الا أنها لجأت لاستعمال اللغة اليونانية في منتصف القرن الاولى عند خروجها من الحيز الفلسطيني . اذ أن اليونانية لغة التجارة المفهومة في الشرق والغرب وهي التي تتكلم بها معظم الطبقات البائسة ، بينما اللاتينية هي لغة الطبقة الحاكمة الارستقراطية .

---

(14) Ibid., 321.
(15) S. Neill, A History of Christian Missions (Middlesex, 1964), 32.
(16) E. Gibbon, The Decline and Fall of the Roman Empire, An Abridgement by D. Low (Middlesex 1966) 141.

ثانيا : انتشار الجاليات اليهودية . أن جذور المسيحية حسبما قدمنا كائنة في اليهودية . وان من يتعرف على الديانة الاخيرة لا يعسر عليه فهم ما تدعو اليه النصرانية ، وقد قدرت نسبة اليهود فيالامبراطورية بمقدار سبعة بالمائة[17] . وقام اليهود بادوار خطيرة في الامبراطورية الرومانية ما قبل المسيح وبعده . ولم يتضعضع نفوذهم الا بعد الضربات القاصمة التي سددها اليهم الامبراطور هادريان سنة ١٣٦ م وتدمير القدس . وقد سهلت الاراء اليهودية نجاح مهمه القديس بولص بين اليهود أنفسهم وبين اولئك المتعرفين على اليهودية والتوحيد من الرومان . وأصبحت المسيحية مقبولة خاصة عندما لم يعد (الختان) هاما عند المسيحيين . والختان من الظواهر اليهودية التي كرهها الرومان باعتبارها عملية وحشية[18] .

ثالثا : الاضطهادات : ان الاضطهادات الوحشية التي شنت ضد المسيحيين ادت الى خدمة المعتقد . أذ انتشر الدين في بداية الامر بين البروليتارية في المدن ، تلك العناصر الناقمة على الامبراطورية والتي جرعت العذاب الوانا . ويكمن سبب الاضطهاد في سرية التنظيم وسرعة تزايد المسيحيين ، وعدم تسامحهم مع الاديان الاخرى[19] ،ولعدم أيمانهم بقدسية الامبراطور الوثني . ولم تنس السلطات الرومانية بأنها أعدمت مؤسس المعتقد بتهمة التامر على الدولة . بالاضافة الى أن مثلها في الحياة تتنافى مع الاتجاهات الرومانية بصورة عامة في النواحي الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية . لذا بدا الصراع بين المسيحية والسلطات الرومانية وكأنه صراع طبقي بين البائسين والارستقراطية ، أنها قصة حياة أو موت . ولم تكن الاساليب الرومانية في الشدة واللين ومساعي السلطات بالسير على النهج التقليدي في توفير الخبز والتسليات بنافعة للجماهير في أحسن ايام عزها في وقت كانت فيه تلفهم وحدة

---

(17) Neill, op. cit., 27.

(18) Ibid., 27.

(19) Momigliano, The Conflict Between Paganism and Christianity in the Fourth Century (Oxford, 1963), 20.

المبدأ ، فما بالك الان وقد تسلح الدهماء بعقيدة المسيح الناصري .

حقا لم يكن الاضطهاد الذي تعرض اليه المسيحيون متواصلا ولم تكن التهم جميعا واحدة على مر العصور . فقد نسب الامبراطور نيرون لهم حرق روما سنة ٦٤ وأسند اليهم الامبراطور Domitian سنة ٩٦ أرتكاب جرائم معينة .ولم يشرع قانون ضد المسيحية الا في عهد الامبراطور تراجان ، اذ اعتبر المسيحية جريمة ضد الدولة[20] . اما سبب الاضطهاد في عهد ماركوس اوريليوس فكان تعصبه للفلسفة الصوفية . وان آخر موجة اضطهادية شاملة تعرض لها المسيحيون كانت في عهد الامبراطور دقلد يانوس ، وسببها سياسته المركزية ومحاولته تعميم عبادة الشمس ، ويعتقد المؤرخ كلوفر بأن تعصب كالريوس شريك دقلد يانوس المسبب للاضطهاد سنة ٣٠٣ [21] .

ادى أستشهاد المسيحيين الى تقوية المعتقد الديني والاعجاب ببطولاتهم وجلدهم في مقابلة الموت بأبشع صوره . فأخذت اعدادهم بالازدياد . وغزت المسيحية السلطة الرومانية في شخصية قسطنطين الذي دخل روما بعد أنتصاره على خصمه ماكسنتوس سنة ٣١٢ حاملا الراية المسيحية .

وبالرغم من ذلك الانتصار السياسي الرائع الذي حققته الكنيسة في القرن الرابع بقي عليها أن تجاهد ضد العناصر الدخيلة ومكافحة البدع والوثنية . اذ لم يكن المثل المعروف ـ الناس على دين ملوكهم ، لا يمثل الواقع كثيرا . فان السياسة الرومانية العليا نحو المسيحية ما عدا فترة (جوليان المرتد) ٣٦١ ـ ٣٦٤ ، كانت من العوامل الهامة في أنخراط أصحاب المصالح في صفوف المسيحية حفظا على استمرار مراكزهم واملاكهم ، وقد ولد هذا الاتجاه رد فعل شديد في بعض مناطق الامبراطورية وخاصة في الشمال الافريقي . اذ رفض هؤلاء قبول مسيحية

---

(20) Burgh, op. cit., 331-332.

(21) T. Glover, The Ancient World (Middlesex, 1966) 328.

تلك العناصر الوافدة المدفوعة بمصالحها الاثرة ، وكان ذلك من جملة أسباب عداء الفرقة الدوناتيــة Donatism للسلطـات والتي حـــاول قسطنطين عبثا معالجتها سلميا وعسكريا .

تفكك الرابطة المسيحية :

لقد عملت البدع على تفكيك عرى الوحدة الدينية . وتمثلت الفرق الدينية في القرنين الرابع والخامس في المانوية والاريوسية والدوناتيــة والبلا جيوسية والمونوفستية .

حاولت المانوية التوفيق بين الزرادشتية والمسيحية . اذ اعتقــدت بالرحمان والشيطان أو ألهي النور والظلام[٢٢] . وان العهد القديم من صنع انه الشر أهرمان بينما العهد الجديد من صنع اله الخير أوهــارا مزدا . وبالرغم من اعدام ماني سنة ٢٧٠ فقد أنتشرت اراؤه في الجهات الشرقية وشمال افريقيا ومنها الى اسبانيا . اذ أتهم الاسقف الاسباني بريسليــان Priscilian سنة ٣٨٥ بتهمة المانوية واعدم حرقا مع قسم من أتباعه[٢٣] واستمرت هذه الفرقة تظهر باسماء مختلفة وعصور متفاوتة كالبوليصية والالبوكوميلية والالبجنسية .

ومن الفرق العنيفة هي الدوناتية نسبة الى الراهــب دونــاتوس . بدأت المشكلة في أختلافات عقيدية بسيطة حول نزاهة الاساقفة واشتدت على أثر المنافسة بين دوناتوس ومنافسيه على منصب رئاسة أسقفيـــة قرطاجة في اوائل القرن الرابع . الا ان الفرقة أتخذت طابعا ثوريا ووجهت نقمتها ضد الارستقراطية والسلطات الرومانية[٢٤] . وطالبت بتحرير العبيــد وأجبروا الاسياد على تأدية وظائف خدمهم . وبقيت الدوناتية قوة كبرى منذ عهد قسطنطين حتى الفتح الواندالي لشمال افريقيا سنة ٤٢٩ أذ رأوا في الواندال منقذين لهم من بطش السلطات الرومانية وتعســف

---

(22) Eusebius, The History of the Church from Christ to Constantine, tr. by G. Williamson (Middlesex, 1965), 319-320.
(23) W. Durant, The Age of Faith, 325-1300 (N.Y., 1950) 47.
(24) Neill, op. cit., 38.

رجال الدين الموالين للسلطات[٢٥] .

ولاقت كنيسة روما الامرين من الاريوسية التي أعتنقتها معظم القبائل الجرمانيه المغيرة على ايطاليا . وسميت الاريوسية نسبة الى أريوس المتوفي عام ٣٣٥ . اذ قال بأن الابن لا يسمو الى الاب جوهرا وقدسية وازلية . ومع أن أراءه قد دحضها المؤتمر الديني العالمي الاول المنعقد في نيقيا سنة ٣٢٥ بأمر من قسطنطين ، غير أن الاريوسية أستمرت في الانتشار . كما أن قسطنطين نفسه أخذ يؤمن بها وقد عمده الراهب يوز بيوس الاريوسي عندما كان على فراش الموت سنة ٣٣٧ . وقد أنقسم المسيحيون في تلك المرحلة المبكرة بين مؤيد لاريوس او رافض له والتمسك بقرارات مؤتمر نيقيا ، وكانت كنيسة روما من اتباع النيقيه .

ثم هنالك الفرقة النسطورية . وكان نسطور رئيس اساقفة القسطنطينية سنة ٤٢٨ . قال بان الطبيعة البشرية هي الطاغية على المسيح وأن العذراء هي أم المسيح البشري . وحرمت اراؤه في مؤتمر افيسوس سنة ٤٣١ . غير أن المذهب أتتشر في الجهات الشرقية من سوريا والعراق وأيران واواسط اسيا . وقام النساطرة في نقل التراث الهلنستي الى الجهات التي حلوا فيها عن طريق الترجمة .

ونادت الفرقة البلاجيوسية بحرية الارادة وان الانسان مخير لا مسير وأنكرت توارث الخطيئة الاولى في صلب ادم ، تلك الخطيئة التي سببت نقمة الله وخروج ادم من الجنة[٢٦] . وسميت الفرقة بذلك الاسم نسبة الى بيلا جيوس . وهو راهب بريطاني قدم روما سنة ٤٠٠ وغادرها الى قرطاجة سنة ٤٠٩ ومنها الى فلسطين . وكدرت اراؤه الدينية الاجواء في كل من اوربا وافريقيا واسيا . لذا أصدر البابا أنوسنت الاول قرارا بتحريم الاراء البلاجيوسية وأعتبارها هرطقة سنة ٤٠٢ . وأكد ذلك القرار مؤتمر أفيسوس سنة ٤٣١ . وأخيرا حرمت البلاجيوسية بشكل نهائي

---

(25) E. Gibbon The Decline and Fall of the Roman Empire, vol. II (London 1962) 260.

(26) L. Duchesne, Early History of the Christian Church, vol. III (London, 1933) 143.

في اوربا في المؤتمر الديني المنعقد في أورانج سنة ٥٢٩ والذي ثبت سيادة المنطق الاوغسطيني في القضايا الدينية[٢٧] .

اما المونوفستيه (الطبيعة الواحدة) فقال اتباعها بوجود الطبيعة الالهية بالمسيح ناكرين الطبيعة البشرية[٢٨] . وقرر مؤتمر خالقدونيا سنة ٤٥١ بطلان ذلك الرأي . الا أن كنيسة الاسكندرية بطلة المنوفستيه ومهدها لم تأبه لتلك القرارات . وأصبحت المنوفستية المذهب الوطني في الحبشة ومصر وسوريا وكانت من العوامل الهامة في وقوع القطرين الاخيرين تحت الحيازة الاسلامية فيما بعد[٣٠] .

طغيان البرابرة على القسم الغربي :

لقد عانت الامبراطورية الرومانية بقسميها الغربي والشرقي الشدائد من القبائل الجرمانية والاسيوية . وأدى كفاح القبائل الجرمانية بصورة خاصة الى أقتطاع القسم الغربي والاستئثار بالحكم وتشكيل دول كتب لبعضها ان تصبح اساسا للدول الاوروبية الحديثة . والجرمان من الشعوب البدائية انذاك عاشت حياة قبلية وقطنت المناطق الكائنة بين نهري الراين غربا والدنيبر شرقا وبين بحري الشمال والبلطيق شمالا والدانوب وجبال الكربات والالب جنوبا . اي كانت مضاربهم خارج حدود الامبراطورية .

أن العلاقات بين الجرمان والرومان السلمية منها والحربية قديمة نسبيا . فمنذ ١٠١ ق.م حاولت قبائل الكمبري Cimbri والتيوتون Teuton الاستيلاء على وادي البو Po في ايطاليا[٣١] . وحاول الهلويتيون Helvetians أقتطاع سهول يرغندي ، ولم يكتب لتلك المحاولات النجاح للمقاومة الرومانية . لذا أضطر قسم من القبائل

---

(27) G. Leff, Medieval Thought, from St. Augustin to Ockham (Middlesex, 1958) 53.

(28) T. Ware, The Orthodox Church (Middlesex, 1964) 34.

(30) من اجل التفصيل في مصدر عربي راجع للمؤلف ، الامبراطورية البيزنطية (بيروت ، ١٩٦٦) ٢٣ — ٢٨.

(31) Glover, op. cit., 267.

الجرمانية التجوال شرقا على حساب المناطق السلافية في سهول روسيا الجنوبية . فسكنت جموع قبائل الغوط الشرقية Ostrogoths في أقصى الشمال الشرقي من مناطق البحر الاسود وبجوارهم الغوط الغربيون والى قرب هؤلاء سكنت قبائل الواندال في جهات الدانوب الوسطى الكائنة حاليا بين فينا وبودابست .

أن تحركات هذه المجاميع القبليه الثلاث من جملة العوامل التي أدت بالقبائل الجرمانية الاخرى للتكتل باتحادات دفاعا عن مناطقها . لذا تكون الاتحاد القبلي المعروف بالالماني Alamani اي اتحاد جميع الرجال ، في الاجزاء الجنوبية الشرقية من نهر الراين ، والاتحاد البرغندي حول نهر المين Main وأتحاد الفرنجة Ripuarian Franks الساحليين في جهات الراين السفلى . وكون الفرنجة الساليون Salian Franks أتحادا في الاراضي المنخفضة حول نهر سالا Sala . وقد سمي الفرنجة بهاتين التسميتين نسبة الى موقعيهما الجغرافيين اللذين سمح جوليان للفرنجة باحتلالهما [٣٢] . وهناك أتحاد الانكليز والسكسون والجوت الذين سكنوا المناطق بين نهري الراين والالبا على سواحل بحر الشمال حيث يسكن الى شرقهم اتحاد القبائل اللمباردية .

كان المتوقع من توسعات القبائل الجرمانية على حساب المناطق السلافية أن تقي الامبراطورية من الضغط الجرماني . ولكن الذي حدث هجرة ثانية عكسية من قبائل الغوط والوندال الى الجهات الغربية ونحو الامبراطورية الرومانية . وزعزعت هذه الهجرة المعاكسة اماكن الاتحادات القبلية السالفة وجعلتهم في حركة دائمة مستهدفين مناطق الامبراطورية . والسبب الرئيسي في هذه الهجرة العكسية أنهيال موجات اسيوية على جهات اوربا الشرقية من خلال الممر الكائن بين جبال أورال وبحر الخزر منذ القرن الرابع . ومن أهم الجموع الاسيوية الزاحفة آنذاك هي قبائل الهون Huns المغوليه [٣٣] .

---

(32) Strayer and Munro, op. cit., 28-29.
(33) Ibid., 29.

كانت مناطق الهون في القرن الثالث بين بحيرة بلكاش Balkash والاورال . أخذوا في التجوال غربا حينما أعيتهم المقاومة الصينية ، وزحفوا على السهول الروسية سنة ٣٥٥ فأنهارت مقاومة الآلان Alans المجموعة القبلية القاطنة الى الجهات الشرقية من منازل الغوط الشرقيين . ثم عبر الهون الفولغا سنة ٣٧٢ مهاجمين الغوط الشرقيين في جهات اليوكرين حيث أنتحر فيها ملك القبائل الاخيرة والمسمى ارمانريخ Ermanrich على أثر خسرانه المعركة[34] . وبقيت جموع الغوط الشرقية خاضعة لحكم الهون حتى سنة ٤٥٥ .

لذا ألتمست قبائل الغوط الغربية الامبراطور فالنز Valans سنة ٣٧٦ السماح بعبور الدانوب للاحتماء بحدود الامبراطورية . فاستجاب ذلك الامبراطور لطلبهم على أعتبارات عدة ، منها للاستفادة منهم في الدفاع عن الحدود ولتشغيلهم بالزراعة ولتقوية الاريوسية التي يؤمن بها ذلك الامبراطور . لان الغوط أعتنقوا المسيحية الاريوسية قبل انعقاد مؤتمر نيقيا سنة ٣٢٥ ، وعمل الراهب يولفيلاس Ulfilas على تدعيمه منذ سنة ٣٤١ بين تلك القبائل[35] . ومع ذلك فان موافقة الأمبراطور اشترطت عليهم تسليم السلاح وايداع اولاد زعمائهم رهائن لدى السلطات للدلالة على حسن نواياهم تجاه الامبراطورية . الا أن تصرفات الجند الروماني واحتكارهم المواد الغذائية ونهبهم حيوانات الغوط الغربيين ادت بهم الى الثورة سنة ٣٧٨ . فاسرع الامبراطور فالنز لاعادة الهدوء الا أنه قتل في اشتباكه مع تلك القبائل في موقعة أدريانوبل في السنة المذكورة .

أعتبرت موقعة أدريانو بل من المواقع العسكرية الهامة وكانت لها نتائج خطيرة مدمرة للامبراطورية حسب رأي المؤرخ المعاصر أميانوس

(34) G. Vernadsky, A History of Russia. (New Haven, 1954) 23-24.

(35) L. Fisher, A History of Europe, From the Earliest Times to 1713. (London, 1950) 108.

مارسلينوس Ammianus Marcellinus [٣٦] . وأشير اليها بأنها نقطة تحول بين التاريخين القديم والوسيط . ولم يغادر البرابرة ارض الرومان منذ ذلك الوقت . وجرأت عليها الجموع القبيله . كما أن الموقعة من ناحية اخرى نبهت الرومان الى عقم اساليبهم العسكرية القديمة . اذ ثبت في تلك المعركة عدم جدوى فرق المشاة الرومانية والى ضرورة استبدالها بفرق الخيالة السريعة الحركة[٣٧] .

تمكن الامبراطور ثيودوسيوس الاول ٣٧٩ ــ ٣٩٥ من مهادنة الغوط الغربيين غير أن خطرهم تفاقم على ايطاليا من جهات الأدرياتيك في عهد امبراطور الغرب أنوربوس الحدث السن . وكانت السلطة الفعلية في الجزء الغربي بيد الجنرال الجرماني Stilicho الذي تمكن بأساليب عسكرية ودبلوماسية من ايقاف تعديات الغوط الغربيين وغيرهم . الا أن هذا الجنرال ذهب ضحية الوشايات حيث أتهم بالتامر على العرش فحكم عليه بالاعدام سنة ٤٠٨ واعدم معه العديد من أتباعه ولاذ الباقي منهم بالفرار الى زعيم الغوط الغربيين الاريك Alaric . لذا أنتهز الزعيم الغوطي هذه الفرصة فطالب انوريوس الاسراع في دفع الاتاوات البالغة حوالى اربعة الاف دينار وان يعينه حاكما على جهات الادرياتيك الشمالية ، وزحف على روما عندما رفض طلبه . وكان الحصار شديدا على تلك المدينة اذ نضبت الاغذية وقتل الناس بعضهم بعضا من أجل القوت . وقام سكان روما بمفاوضة الاريك على على الصلح . فأشترط الاخير تسليم كافة ثرواتهم المنقولة . وحينما سأله الوفد المفاوض ماذا أبقيت لنا ؟ فاجابهم تركت لكم أرواحكم ... ومع ذلك وافق الاريك على عقد هدنة لقاء خمسة الاف باوند ذهب والف باوند فضة واربعة الاف بدلة حريرية وثلاثة الاف باوند من التوابل[٣٨] .

---

(36) A. Marcellinus, Works, Loeb. Lib. (London, 1935) XXXI, 13.

(37) Katz, The Decline of Rome and the Rise of Medieval Europe (Cornell, 1963) 88-9.

(38) E. Gibbon, The Decline and Fall of the Roman Empire Abridgement of Low (Middlesex, 1966) 445.

غير ان الهدنة نقضت حينما رحب الرومانيون بأنضمام أحد أتباعه المسمى ساروس Sarus الى صفوف الروم والذي أخذ يهاجم جيش الاريك . لذا أعتبر الاخير ذلك العمل خرقا للهدنة فاقتحم روما سنة ٤١٠ مستبيحا اياها لثلاثة ايام عدا الكنائس . واخذ الاف الاسرى ومن بينهم اخت الامبراطور كالا بلاسيديا Galla Placidia ثم غادر روما في اليوم السادس متوجها لفتح صقلية . وقد داهمته المنية في الطريق في محل يقال له كوزانزا Cozanza سنة ٤١٠ فدفن في نهر هناك بطريقة دراماتيكية تليق باسياد البرابرة[39] . وهكذا فقد أنزل الغوط الغربيون ضربتهم الثانية في الامبراطورية .

وكان وقع سقوط روما بيد البرابرة شديدا على الرومان . اذ أعتقد الرومان بخلود عاصمتهم الاولى والتي حاول عبثا هنيبال النيل منها . أنها من الكوارث الهائلة عسكريا ودينيا . اذ كشف السقوط عن مدى موارد الدولة العسكرية وادى الى تذمر الوثنيين من سياسة أباطرتهم التي ضحت بالمعتقد القديم الذي كان حاميا لروما في سبيل المسيحية التي عجز ربها عن انقاذ بيته . وأدى الحادث أيضا الى رد فعل ضد المسيحية حيث اتهمت تعاليمها بتثبيط الهمم العسكرية وأنها من عوامل كارثة السقوط[40] . وقد أنبرى القديس أوغسطين للرد على تلك الاراء في كتابه مدينة الله والذي سيأتي ذكره فيما بعد .

وعلى كل فلم يكن في نية الغوط الغربيين أسقاط الامبراطورية اذ أن هدفهم أمتصاص ثرواتها وأقتطاع قسم من أراضيها . لهذا وافق أوتولف Ataulf على الانسحاب من أيطاليا مقابل السماح له باحتلال مناطق الغال الجنوبية وأن يكون تابعا للامبراطورية مقابل زواجه من أخت الامبراطور أنوريوس[41] . ووافق الامبراطور على الشروط الاولى

---

(39) Jordane, Origin and Deeds of the Goths tr. by C. Mierow (Princeton, 1915) 167.

(40) St. Augustin, The City of God, tr. by Gerald... etc. (N.Y., 1958) 16.

(41) M. Deanesly, A History of Early Medieval Europe, 476-911 (London, 1960) 28.

ورفض الشرط الاخير . الا أنه لم يحرك ساكنا حينما وافقت الاميرة بلاسيديا على الزواج من أتولف . وقد أتخذ هذا عاصمته في طولوز سنة ٤١٤ . وعادت بلاسيديا الى اخيها عند وفاة زوجها حيث زوجت لاحد القادة واصبحت اما لفالنتين الثالث[٤٢] .

حاولت السلطات الامبراطورية الدفاع عن أيطاليا أثناء تهديد الغوط الغربيين لها بسحب الحاميات من المحلات النائية لتقليص حدود دفاعها والتركيز على الدفاع عن روما . لهذا انتهزت القبائل الجرمانية هذه الفرصة للاندفاع الى داخل الحدود . هذا بالاضافة الى أن اندفاعهم يعزى أيضا الى استعانة قسم من الجنرالات بتلك القبائل في سبيل تحقيق مطامعهم الشخصية . وكان الواندالیون من اوائل تلك القبائل التي نفذت الى بلاد الغال ثم اسبانيا حيث غادروها الى افريقيا بقيادة كيسيرك Gaisaric سنة ٤٢٩ نتيجة لضغط قبائل الغوط الغربية عليهم او على بعض الروايات لاستعانة بعض حكام الرومان بهم ضد منافسيهم[٤٣] وقد دان لهم معظم الانحاء الافريقية الشمالية الليبية بعد ان تمت لهم السيطرة على قرطاجة سنة ٤٣٩ .

هذا وقد شن الواندليون هجوما بحريا على ايطاليا . ويعزا السبب المباشر الى استنجاد أرملة فالنتين الثالث بكيسيرك ضد خصومها بعد مقتل زوجها . وتمكن هذا من أمتلاك روما سنة ٤٥٥ ومكث فيها احد عشر يوما أمتص فيها ثرواتها . ولولا جهود البابا ليو الاول لتضاعفت اعمالهم الاجرامية . اذ وعد القائد الواندالي ذلك البابا قبل دخوله روما بانه سوف لا يسفك دما ولا يلجأ الى التعذيب او حرق الاحياء[٤٤] . هذا وقد عملت الفتن بين ورثاء كيسيرك منذ سنة ٤٧٧ دورا هاما في أضعاف الدولة الواندالية في الشمال الافريقي . كما أن سياسة الاضطهاد الديني التي أتبعوها ضد أتباع كنيسة روما ولتعسفهم في الجباية قد مكنت

---

(42) T. Hodgken, Italy and Her Tnvader, vol. 1 (Oxford, 1892) 888.

(43) Procopius, History of the Wars III Loeb. Lib. (London, 1951) 25.

(44) Deanesly, op. cit., 76.

الامبراطور جستنيان بجهود قائد بليساريوس من تقويض حكم الواندال سنة ٥٤٣ .

اما الاجزاء البريطانية فقد تركها الرومان لشأنها عند أنسحـاب حاميتهم منها في مطلع القرن الخامس . ولم يعد بمقدور السكان الاستمرار في مقاومة الانكليز والسكسون والجوت الذين انهالوا على الجزيرة . واستمرت عمليات أحتلال ذلك القطر لقرن ونصف القرن عفا خلالها القتال المرير على مظاهر المدنية الرومانية هناك[٤٥] .

كما أدت هجرة القوط الغربيين والواندال الى زحزحة القبائـل البرغندية عن مناطقها . وقد سمح الامبراطور انوريوس للبرغنديين دخول الامبراطورية الا أن الجيش الروماني أنزل بهم هزيمة كبرى حينما حاولوا تجاوز المناطق التي خصصت لهم . ومع ذلك فقد وافقت السلطـات الرومانية على أبقاء قسم منهم حول بحيرة جنيف والتي توسعوا منهـا فيما بعد الى جهات وادي الرون حيث شكلوا مملكة عرفت باسمهم[٤٦] .

أستوطنت قبائل الهون الامنيوية بعد نفوذها الى الامبراطـورية سنة ٤٢٥ الجهات المعروفة حاليا ببلغاريا . وعند وفاة ملكـهم Rua سنة ٤٣٣ تولى الحكم ولدا أخيه بلدا Belda وأتيـلا Attila وأنفرد الثاني بالحكم بعد مقتل أخيه سنة ٤٤٤ . ويعتبر أتيلا من أقوى الحكام في أوربا انذاك . اذ دفع له الاتاوات كل من جزئي الامبراطورية الرومانية الشرقي والغربي ، وقدر جيشه بنصف المليون مقاتل . ومـع ذلك فقد توجه لفتح القسم الغربي بعد أن عاث خرابا في جهات البلقان[٤٧]. ويروى عن السبب المباشر في تحركه نحو الغرب خبر نادر . يتلخص في أن أنوريا Honria اخت الامبراطور فالنتين الثالث نفيت الى القسطنطينية نتيجة لفضيحة أخلاقية . وارسلت من هناك خاتمها الى أتيلا طالبة منـه أغاثتها . وأعتبر أتيلا ذلك بمثابة أقتراح للزواج . لذا خطبها من أخيها

---

(45) Strayer and Munro, op. cit.., 34.
(46) Ibid., 35.
(47) Durant, op. cit., 38.

فالنتين مشترطا ان يقدم له هدية زواج نصف الامبراطورية الغربي[48] .
وحينما لم يلق اقتراحه هوى في نفس الامبراطور هاجم أتيلا القسم الغربي متوغلا في بلاد الغال سنة ٤٥١ . وتصدت لمقاومته القوات الرومانية هناك بقيادة أتيوس Atius والى جانبه قبائل القوط الغربية . فانزلت بجيوشه هزيمة في موقعة شالون Chalon في السنة السابقة[49] . غير ان تلك الهزيمة لم تقض على المقاومة الهونية . اذ غزا أتيلا أيطاليا مدمرا عدة مدن في جهاتها الشمالية ثم زحف على روما سنة ٤٥٢ . وتشير المصادر الكنسية الى انه أرتد عن روما نتيجة لمعجزة حققها البابا ليو الثالث عندما نجح باقناعه بالانسحاب . ولعل الاسباب الواقعية لانسحابه تعود لانتشار الطاعون في جيشه ولاقتراب جيوش أتيوس منه . وقد تحطمت الامبراطورية الهونية على أثر وفاة أتيلا سنة ٤٥٣ نتيجة للحروب الاهلية بين اولاده ولثورة القبائل الجرمانية الخاضعة لهم وخاصة قبائل القوط الشرقية التي تحررت من النير الهوني سنة ٤٥٥ [51] .

تدهور مؤسسة العرش الامبراطوري في الغرب : ٣٦٤ — ٤٧٦

لقد اسند الجيش ومجلس الشيوخ العرش على أثر وفاة جوفيان الى فالنتين الاول ٣٦٤ — ٣٧٥ ، وجعل هذا أخاه فالنز امبراطورا على القسم الشرقي . وقام فالنتين بعدة اصلاحات كالمحافظة على مستوى العملة ووضع حد لسوء تصرفات الحكام وأعلن التسامح لكافة المذاهب وتمكن من صد هجمات القبائل الجرمانية في جهات الراين . تولى بعده ابنه كراتيان Gratian ، الذي سار على خطة أبيه لمدة سنتين ثم أنجرف في ملاذه تاركا الامور بيد وزرائه الجشعين . وقد تمكن الجنرال ماكسيموس من أقصاءه عن العرش مستبدلا به فالنتين الثاني ، وكان هذا في العشرين من عمره سيطر عليه الجنرال الوثني اربوكاست Arbogast الفرنجي . واصبح أربوكاست على أثر مقتل فالنتين الثاني

---

(48) Ibid., 40.
(49) Gibbon, op. cit., 485.
(50) Ibid., 491-92.
(51) F. Lot, The End of the Ancient World and the Beginnings of the Middle Ages (London. 1931) 288.

سنة ٣٩٢ سيد الموقف في أختيار الاباطرة . وكانت تصرفاته في هذا المجال سابقة سار عليها جنرالات البرابرة في الغرب . أذ عين اربوكاست للعرش الامبراطوري يوجنيوس Euginius . لذا قاد الامبراطور الشرقي ثيودوسيوس الاول حملة عسكرية ضد ذلك الجنرال . وكان جيش الامبراطور الشرقي يضم خليطا من البرابرة الجرمان والاسيويين ومن بينهم مثلا ستليكو Stilcho الوندالي والاريك Alaric زعيم القوط الغربيين . وتمكن من الانتصار على أربوكاست سنة ٣٩٤ الذي فضل الانتحار على الوقوع في الاسر ، كما أسفر انتصار تيودوسيوس عن مقتل يوجينيوس[52] . وعليه فقد عين تيودوسيوس ولده أنوريوس البالغ من العمر أحدى عشرة سنة أمبراطورا على الغرب وأبنه الاخر أركاديوس على الشرق وله من العمر ثمان عشرة سنة[53] وقد توفي تيودوسيوس في مدينة ميلان سنة ٣٩٥ .

هذا ولم يكن كل من ولدي تيودوسيوس الاول في مستوى الاحداث . فقد تسلط الوزراء الجرمان عليهما في كل من القسمين فكان روفينيوس Rufinius المهيمن في الشرق و Stilicho في الغرب . ويقول المؤرخ كبون (أن حكم أركاديوس وأنوريوس الحق أعظم الاذى بالامبراطوريه . أذ تركوا الكنيسة للرهبان والدولة للخصيان والولايات لبرابرة الجرمان)[54] . ومع ذلك فقد تمكن ستليكو من أيقاف زحف الاريك أثناء حياته . الا ان الامبراطور أنوريوس أمر بقتل ستليكو سنة ٤٠٨ مع العديد من أعوانه بناء على تحريضات الوزير اوليمبيوس Olympius الذي أتهم ستليكو بالتامر على العرش والتواطؤ مع القوط الغربيين .

أما في عهد الامبراطور فالنتين الثالث ٤٢٣ — ٤٥٥ فقد سيطرت أمه كالا بلاسيديا على السياسة حتى وفاتها سنة ٤٥٠ ، حيث أعتمدت

---

(52) Gibbon, op., cit., 40".

(53) Ibid., 405-6.

(54) Gibbon, the Decline and Fall of the Roman Empire, vol. IV, (London, 1901) 160-63.

على الجنرال أتيوس . وعمد فالنتين الى قتل ذلك الجنرال سنة ٤٥٤ لتحريضات وزيره بترونيوس Petronius . والسبب في ذلك محاولة أتيوس تزويج أبنه من يـودوكيـا Eudocia بنت فالنتين . وكان قتله خساره بالنسبة للقسم الغربي اذ أشار أحد الحاشية الذين حضـر مقتل ذلك القائد مخاطبا الامبراطور (سيدي لقد قطعت بمناك بيسراك)[٥٥] وبعد أشهر قليلة حرض Petronius أتباع أتيوس على أغتيال فالنتين ، ثم رشح نفسه للعرش وأجبر أرملة فالنتين يودوكسيا Eudoxia علـى الزواج منه ثم زوج Eudocia الى أبنه بالاديوس . وعلـى حسـب رواية بروكوبيوس لقد أستغاثت يودوكسيا بكيسيرك ملك الوندال . لذا قاد الاخير حملته من شمال أفريقيا ضد روما سنة ٤٥٥ . وقد أصطحب معه يودوكسيا وأبنتها الى قرطاجة حيث زوج الثانية الى أبنـه وارسل الام الى القسطنطينية بناء على طلب الامبراطور ليو الاول[٥٦] .

حقا لقد أصبح جنرالات الجرمان (هم المتحكمون في مؤسسـة العرش الامبراطوري في الغرب ولم يعد الاباطرة هناك سوى اشباح هزيلة لا تملك من الحكم غير الاسم[٥٧]) وقد توضحت هذه الظاهرة بصورة خاصة منذ سنة ٤٥٥ حتى ٤٧٦ . وتميزت هذه الفترة القصيرة بظهـور تسعة أباطرة . حيث رشح الغوط الغربيون في بلاد الغال افيتوس Avetus سنة ٤٥٥ وعدل عن المنصب لعدم موافقة مجلس الشيوخ في روما .فأختار الجيش الجنرال الغوطي Majorian ٤٥٦ ـ ٤٦١ الذي اضطر على التنازل لمعارضة الجنرال البربري ريكيمر Ricimer ورشح الاخير صنيعتـه الجنرال سيفروس Severus ٤٦٧ ـ ٤٧٢ المتهم بالوثنية وتمكن الجنرال ريكيمر من القاء القبض عليه وأعدامه . ثم اختار ريكيمر اولبريـوس Olybrius الذي حكم لشهرين فقط سنة ٤٧٢ حيث مات بصـورة طبيعية وتولى بعده كليكريـوس Glycerius سنة ٤٧٣ وسرعان ما

---

(55) Gibbon, op. cit., 495.
(56) Procapius, History of the Wars, leab. lib., vol. V, (London 1951) 4.
(57) Katz, ou. cit., 87.

خلع في نفس السنة . ثم حكم بعده نبوس Nepos لسنتين فقط . اذ تمكن الجنرال اورستز Orestes من خلعه وأسناد العرش الى ولـده روميلوس Romulus سنة ٤٧٥ .

هذا وقد أنهالت على أيطاليا في هذه الفوضى قبائل بربرية متعددة وطلب الغزاة من أورستز ثلثي الاراضي الايطالية وعند رفضه عمـدوا الى قتله وأستبدال روميلوس بـادوكر Adoavacar سنة ٤٧٦ . وكان الاخير أبن أدكون Adecon احد وزراء أتيلا . وقدم أدوكر طلبـا الـى الامبراطور زينو في الشرق من خلال مجلس الشيوخ في روما يلتمسه الموافقة على حكمه الغرب نيابة عن الامبراطور ، واضطر الأخير علـى الموافقه . وبذلك انتهى حكم أباطرة الغرب منذ ذلك التاريخ .

هذا ولم تكن تلك الحادثة لتثير في أذهان المعاصرين انذاك بـأن روما قد سقطت من عليائها . بل قد يكون العكس هو الاصوب . اذ أن الاعتقاد السائد أن محاولة ادوكر هدفت الى أعادة توحيد شقـي الامبراطورية تحت امبراطور واحد ، اذ نصب مجلس الشيوخ فعـلا تمثالا للامبراطور زينو[٥٨] . والحقيقة أن عملية جرمنة أيطاليا أمتـدت عبر دهور عدة وأن نتائجها السياسية جاءت منسجمة مع ذلك التحـول التدريجي في كافة أرجاء القسم الغربي الذي وقع في قبضة القبـائـل الجرمانية . ولم تكن محاولة جستنيان في أعادة ايطاليـا الـى حظيـرة الامبراطورية فيما بعد سوى محاولة مؤقتة اذ عادت معظم ايطاليا الـى قبضة الجرمان في سنة ٥٦٧ .

---

(58) Durant, op. cit. 42-43.

THE BARBARIAN INVASIONS

الغزوات البربرية

الفصل الثالث

تطورات عامة في المجتمع الايطالي بين القرنين الخامس والثامن

تميزت هذه الفترة في ايطاليا من ناحية سياسية بالصراع بين الجرمان وأباطرة الشرق حول السيادة في ذلك القطر. وتميزت من ناحية دينية باشتداد ساعد كنيسة روما عن طريق البابوية والمؤسسات الرهبنية.

لقد ذكرنا في معرض الحديث عن الامبراطورية البيزنطية في السلسلة الاولى من دراسات تاريخية ان الامبراطور زينو دفع بزعيم قبائل الغوط الشرقية تيودوريك لتحطيم حكم الجنرال أدوكر في الغرب ، وتكللت فعلا حملة تيودريك بالنجاح ٤٨٩ ـ ٤٩٣ . وقد أصبح هذا حاكما

مطلقا في أيطاليا مع انه يدين بالتبعية الاسمية لامبراطور الشرق . ثم أخذت العلاقات بالتدهور بين ثيودوريك والدولة البيزنطية . منذ أعتلاء جستين سنة ٥١٨ العرش البيزنطي ووصلت حد الانفجار قبيل وفاة ثيودوريك سنة ٥٢٦ وأسباب الخلاف المباشرة كانت في بدايتها دينية ، أذ أن ثيودوريك وقومه من أتباع الاريوسية .وبالرغم من تسامحه مع الكاثوليك فان الكنيسة الرومانية ناصبته العداء . واضطر تيودوريك الى اتخاذ اجراءات مشددة ضد الكاثوليك الذين أتهموا بالتامر مع الامبراطور جستين لاسقاط حكمه . ومما فسح المجال لتدخلات البيزنطيين في شؤون الغوط الشرقيين هو النزاع حول العرش الغوطي أثر وفاة تيودوريك . اذ تمكن الامبراطور جستنيان من أستغلال ذلك الخلاف لصالحه دبلوماسيا وعسكريا . وكان جستنيان اخر امبراطور روماني حاول جديا اعادة الوحدة الرومانية . وتمكن فعلا من استعادة شمال أفريقيا من الواندال سنة ٥٣٤ ثم عبرت جيوشه منها لاستعادة ايطاليا من الغوط الشرقيين في حرب استطالت من سنة ٥٣٥ الى سنة ٥٥٢ تمكن فيها القائد البيزنطي نارسس Narses أخيرا من كسب النصر النهائي بمقتل الملك الغوطي توتيلا[١] .

خرجت اكثرية ايطاليا عن الحكم البيزنطي سنة ٥٦٨ اي بعد وفاة جستنيان بثلاث سنوات . اذ اغار عليها اللمبارديون بقيادة ملكهم البيون Albion ويشير المؤرخ الشماس بولص اللمباردي الى بني قومه بأن تسميتهم باللمباريين كانت للحاهم الطويلة Longobardi [٢] ويعتقد بان مواطنهم الاولى شبه جزيرة سكندناوة الا أن مضاربهم في القرن الاول الميلادي كانت في جهات حوض الالبا السفلى ثم في جهات الدانوب في القرن السادس . أستعان بهم القائد نارسس في قتال الغوط الشرقيين في ايطاليا سنة ٥٥٢ . ونتيجة لضغط الافاريين من الشمال والشرق هاجر ما يقارب الثلاثين الفا منهم الى سهول نهر البو Po

---

(١) من اجل التفصيل في مرجع عربي راجع : للمؤلف ، الامبراطورية البيزنطية (بيروت ، ١٩٦٦) ص ٥٣ — ٦٠ .

(2) Paul the Deacon, History of the Longobards, tr. by Faulke, vil. I, (Uni. Penn., 1907) 10.

في ايطاليا سنة ٥٦٨ . واحتلوا في سنة ٥٧٣ فيرونا وميلان وفلورنس وبافيا التي اصبحت عاصمة لهم . ثم استولوا على بادوا Padua وكرمونـا Cremona ومانتوا Mantua سنة ٦٠٣ ثم جنوا سنة ٦٤٠ في عهـد الملك روتاريس faris ، [3] ٦٣٦ — ٦٥٢ .

يقع تاريخ اللمبارد في ايطاليا في ثلاث مراحل أمتدت الاولـى من سنة ٥٦٨ الى ٥٨٤ وتميزت بالفتوحات على حساب المناطق البيزنطية وقاد الفتوحات اللمبارديه كل من الملكين اللذين ماتا اغتيالا وهما اليبون ٥٦٨ — ٥٧٢ وكليف Cl ٥٧٣ — ٥٧٤ . وقرر الامراء عند مقتل الاخير عدم الحاجة الى انتخاب ملك . ودامت فترة حكم الامراء حتـى سنة ٥٨٤ . وحاول البيزنطيون أثناء حكم الامراء أستعادة المناطق التـي استولى عليها اللمبارد . فارسلوا حملة بقيادة بادوريوس Baduarius سنة ٥٧٥ الذي فقد حياته أثناء أحد الاشتباكات مـع اللمبارد فـي جهات نابلي . الا أن الامبراطور موريس Maurice تمكن من تثبيت أقدام البيزنطيين في رافينا بمساعدة الفرنجة[4] .

اما الفترة الثانية ٥٨٤ — ٧١٣ فهي التي قرر فيها الامراء اعـادة الملكية عساها تنقذهم من التوسعات البيزنطية . وقد أستطاع الملـك أوتاري Authari ٥٨٤ — ٥٩٠ من أيقاف الزحف البيزنطي .

اما حكم الملك أجيلوف Agiluf ٥٩٠ — ٦١٦ فيعتبر هامـا وذلك لتحالفه مع امير بافاريا واستئنافه الحرب ضد البيزنطيين ومحاولته الاستيلاء على روما سنة ٥٩٣ . وقد اضطر البابا كريكوري الاول الى عقد هدنة مقابل دفعه سنويا خمسمائة باوند ذهبا لعجز البيزنطيين عـن الدفاع عن روما . هذا وقد بقيت العلاقـات العدائيـة بين اللمبـارد والبيزنطيين طيلة القرن السابع ، وقد حاول عبثا الامبراطور قسطـان

---

(3) H. Pirenne, A History of Europe, from the Invasion to the XVI Century)N.Y., 1955) 44.

(4) M. Deanesly, A History of Early Medieval Europe from 476-911 (London, 1960) 248.

الثاني استعادة المناطق الايطالية بحملة قادها بنفسه نظرا لاغتيـاله سنة ٦٦٨ .[5]

بدأت الفترة الثالثة والأخيرة من تاريخ اللمبارد في ايطاليا بحكـم الملك ليوتبراند Liutprand ٧١٤ ــ ٧٤٤ . اذ استولى هذا على بولونـا Bolonga سنة ٧٢٨ وحاصر روما سنة ٧٣٩ . فاستعان البابا بالفرنجـة في عهد شارل مارتل . الا أن الاخير لم يسعف الطلب نظرا للمساعـدات القيمة التي قدمها له اللمبارد اثناء حربه مع المسلمين سنة ٧٣٢ . كمـا استولى اللمبارد في عهد ملكهم ايستولف Aistulf ٧٤٩ ــ ٧٥٦ علـى رافينا سنة ٧٥١ . واستفزت توساعاته البابوية في عهد البابا ستيفـن الثالث الذي التجأ شخصيا الى ملك الفرنجة ببين الثالث Pippin . وأسفرت مباحثاته مع ببين عن حملة عسكرية فرنجية سنة ٧٥٤ ضـد اللمبارد . وقد اضطر الملك أيستولف الى الاعتراف بتبعيته الى ببيـن ووعد بالتنازل عن رافينا . قد سلم ببين مفاتيح المدن اللمباردية المفتوحة سنة ٧٥٦ الى البابا[6] . ومع ذلك فلم يسلم اللمبارد الى البابوية كافـة الاراضي المتفق عليها . هذا وسار الملك اللمباردي ديزيدريوس ٧٥٦ ــ ٧٧٤ بسياسة معادية للبابوية مما استفزت ملك الفرنجة شارلمان الذي قوض حكم اللمبارد نهائيا سنة ٧٧٤

لقد ترك اللمبارد طابعهم على الايطاليين وخاصة في الاقسـام الشمالية ويتوضح ذلك في المفردات اللغوية في اللغة الايطالية الحديـثة وكذلك بقسمات الوجه ولون الشعر والعيون . وكون اللمبارد دولـة متحضرة في ايطاليا أهتمت بالدرجة الاولى في نظام الحكم . اذ اسسـوا مجلسا استشاريا من النبلاء لمساعدة الملك في الحكم . وأنشأوا مجلسـا اخرا يضم الاحرار في سن العسكرية لاخذ ارائهم في قضايا القوانين . وشرع الملك راتوري Rathori سنة ٦٤٣ دستورا عالج فيه الامـور

---

(5) Ibid., 250.

(6) Ibid., 253-54

القضائية وأشار الى جواز استبدال الثأر بالديات وحماية الفقراء من جور الاغنياء ومنح حرية العبادة لكافة الفرق المسيحية وغيرها[7] .

الحياة الفكرية في عهدي الغوط الشرقيين والبارد :

بالرغم من خمول تلك الفترة فكريا فقد ظهر ثلاثة كتاب نالوا حظوة كبيرة طيلة العصر الوسيط وهم :

١ ــ فلافيوس كاسيودوروس ٤٨٠ ــ ٥٧٣ Flavius Cassiodorus

أشتغل هذا سكرتيرا في عهدي ادوكر وتيودريك . والف بناء على اقتراح الاخير تاريخ الغوط ، لكي يظهر فيه للرومان ان هناك تاريخيا لهؤلاء الاقوام لا يقل مأثرة ومجدا عن الرومان . ثم الف كتات الحوليات Chronicon ارخ فيه الحوادث منذ بدء الخليقة الى عهد تيودوريك . واقام كاسيودوروس عند انهيار دولة الغوط في كاليبريا معتزلا الحياة ومترهبنا حتى وافاه الاجل في التسعين من عمره . والف في اواخر حياته كتاب الدراسات الدينية والدنيوية Religious and Secular Studies بدر فيه اطلاع المسيحيين على التراث الوثني . ويعتبر كاسيودوروس من اوائل الذين اعتنوا بالمخطوطات وحفظها .

٢ ــ انيكيوس بوثيوس Anicius Boethius ٤٧٥ ــ ٥٢٤

ولد من عائلة رومانية أرستقراطية . درس لثمانية عشر عاما في أثينا، ثم أشتغل في أحياء التراث الكلاسيكي بتراجمه المتعددة عن مشاهير اليونان . ومن أهم تراجمه : المنطق لارسطو والرياضيات لاقليدس . ودافع عن العقيدة في مقالة حول الثالوث . وأشار فيها الى ان الايمان يجب ان يسود على المنطق اذا تعارض احدهما مع الاخر . لقد انخرط في معمعة السياسة متقلبا في عدة مناصب في عهد تيودوريك ثم توصل الى رئاسة الوزارة سنة ٥٢٢ . واشتهر في اسلوبه الادبي الرفيع الا أن

---

(7) Voltaire, Essay on the Manners and Morals of Europe, in Works, vol. XIII (N.Y., 1901) 80.

(8) Deanesly, op.cit., 33-51.

الغوط قد كرهوا منه حب الرومان المفرط وتقربه من الكاثوليك[9] .

أتهم بالتامر على عرش تيودوريك . وقد جاءته التهمة بصورة عرضية. اذ كان المتهم الاول هو صديقه البينوس Al binus رئيس مجلس الشيوخ . فاراد بوثيوس التشفع لصديقه عند تيودوريك وخاطب الاخير الاخير بقوله (ان كان البينوس خائنا فأنا ومجلس الشيوخ من الخونة أيضا) . ثم شهد ثلاثة رجال على بوثيوس باشتراكه في المؤامرة وأبرزوا وثيقة تحمل توقيع بوثيوس موجهة الى الامبراطور جستين يحرضه فيها على احتلال ايطاليا[10] . فامر ثيودوريك بايداعه السجن . والف في سجنه كتاب عزاء الفلسفة Consultation of Philosophy تحدث فيه عن تاريخ حياته واعرب عن اسفه عن طريقة عيشه المترف واعتبر الاعتزاز بالسعادة الدنوية من انكى انواع الشقاء . وقد اعدم سنة ٥٢٤ في سجنه بطريقة وحشية[11] .

٣ ــ بولص الشماس Paul the Deacon ٧٢٥ ــ ٧٩٧ .

وهو مؤلف كتاب تاريخ اللمبارد سنة ٧٤٨ . وبالرغم من ان الكتاب من المصادر الهامة في ذلك الموضوع فانه عكس تردي الاسلوب اللغوي اللاتيني وضعف مقدرة التأليف . ومع ذلك فقد اصبح بولص من اقطاب النهضة الكارولنجية فيما بعد [12] .

الاوضاع الدينية :

١ ــ البابوية : أن البابا الذي يتزعم العالم الكاثوليكي في الوقت الحاضر لا يفرق في مركزه في البداية عن اي اسقف من الاساقفه . الا أن اسقف روما اخذ يحتل مكانة خاصة منذ القرن الثاني . اذ أشار اسقف مدينة انطاكيا اكناتيوس Ignatius ١١٠ ــ ١١٧ الى (أقدمية كنيسة

(9) R. Mekeon, Selections from Medieval Philosophers from St. Augustin to Albert the Great, vol. 10 (N.Y., 1957) 65-70.

(10) H. Milman, the History of Latin Christianity, vol. I, (London, 1860) 439.

(11) Deanesly op. cit., 42-43.

(12) G. Loff, Medieval Thought, St. Augustin to Ockham (Middlesex, 1962) 61.

روما في الاعمال الصالحة .. وأن لها الزعامة في بلاد الرومان .) وهناك جملة عوامل ساعدت على زعامة رئيس أساقفة روما . فكنيسة روما ذاتها لها قدسية خاصة . حيث اشار أرنوس Irenaeus سنة ١٨٥ الى ذلك بقوله (أنها أقدم وأعظم كنيسة عرفها العالم . أسسها في روما أثنان من اجل القديسين قدرا الا وهما بطرس وبولص . يلتجيء اليها المسيحيون من كل حدب وصوب . أنها الكنيسة التي حفظت التراث الحواري[١٣]) وقد تسلح بابوات روما بالنظرية البطرسية أو نظرية التوارث الحوارية Apostolic Succession . ومفادها أن الاسقف الذي يشغل كنيسة روما يرث منصب بطرس أول الحواريين وخليفة المسيح . واستندت النظرية على آية من الانجيل خاطب بها المسيح في مدينة قيصرية الحواري بطرس (أنت الصخرة ، وعلى هذه الصخرة سأبني كنيستي وان أبواب الجحيم لن تقوى عليها وسأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات ، فكل ما ربطته على الارض يكون مربوطا في السماوات وكل ما حللته على الارض يكون محلولا في السماوات) . ويقول الاب اليسوعي في هذا الصدد (وقد اراده ليس فقط الحجر الاساسي في بناء الكنيسة بل الصخرة عينها التي تمنح البنيان الوحدة والصمود والبقاء . ثم قلده سلطان الحل والربط ، مفاتيح ملكوت السماء ، ومن المعلوم ان المفاتيح ترمز الى السلطة على البيت . وأخيرا بعد قيامه ، اي المسيح ، من الاموات قال له ثلاثا أرع خرافي ، أرع خرافي ، أرع نعاجي)[١٤] .

هذا وأن أضمحلال السلطة الرومانية في روما أبعد الكنيسة الرومانية عن التأثيرات السياسية المباشرة لاباطرة الرومان مما جعل لها كيانا متميزا ازداد استقلالا منذ اواخر القرن الرابع ، بخلاف ما هي عليه كنيسة القسطنطينية التي هيمن عليها الاباطرة .

بالاضافة الى ذلك فان كنيسة روما ورثت مجد العاصمة الرومانية الاولى التي تنظر اليها الشعوب اللاتينية والجرمانية نظرة أكبار وتقديس

---

(13) Deanesly, op. cit., 171.

(14) الاب بولس اليسوعي ، خلاصة الدين المسيحي (بيروت ، ١٩٦٥) ص ٨٦

منذ القديم[15] . وأصبحت روما أثناء أنغمار اوربا بالسيول الجرمانية منطلقا للتبشير الى مختلف جهات اوربا الغربية والشمالية والوسطى . كما أن الانجيل المترجم الى اللاتينية المتقنة Volgate والذي قام بترجمته القديس جيروم في اواخر القرن الرابع ساعد على نجاح مهمة المبشرين في الجهات اللاتينية . وكان هؤلاء المبشرون يدعون الى الزعامة الروحانية لرئيس اساقفة روما .

وقد تميزت كنيسة روما في هذه الفترة بوحدة صفها وعقيدتها بتمسكهابقرارات المجالس العالمية الدينية الاولى . لذا قاومت البدع الدينية بدون هوادة بخلاف رجال الدين في الكنائس الشرقية الذين مزقتهم الاتجاهات المذهبية المتصارعة . ولعل تلك الوحدة الدينية لاتباع كنيسة روما من جملة العوامل الهامة التي مكنتها فعلا من الجهر بالزعامة الروحانية على سائر المسيحيين .

ظهر في كنيسة روما عدة شخصيات كبرى سواء أكانوا من بين السلك الكهنوتي او الاتباع او البابوات عملوا على اعلاء شأن كنيسة روما . ومن أشهر هؤلاء الافذاذ هم :

١ ـ القديس امبروس St. Ambrase ٣٤٠ ـ ٣٩٨

ولد أمبروس في مدينة Trier في بلاد الغال . وأعد بأن يكون سياسيا حيث تقلد فعلا ادارة المناطق الشماليه في ايطاليا وكان مقره مدينة ميلان . وحدث نزاع بين رجال الدين حول أنتخاب رئيس اساقفة لمدينتهم فتدخل بينهم كحكم . وأخيرا وقع عليه الاختيار بأن يكون رئيس الاساقفة لميلان سنة ٣٧٤ . وهنا طرأ تغير أساسي في حياته . اذ عكف على التقشف بعد أن وزع ثروته على الفقراء . وكان من المتمسكين بقرارات مؤتمر نيقيا وبسمو الكنيسة في القضايا الدينية والزمنية[16] . اذ دافع بشجاعة ضد تعديات السلطة السياسية على المصالح الكنسية . ووقف مواقف صلبة في عهدي ثيودوسيوس الاول وكالا بلاسيديا

(15) Robinson, An Introduction to the History of Western Europe, Vol. I (Boston, 1934) 63.

(16) Socrates, Ecclesiastical History ,London, 1892) 30.

الوصية على ابنها انذاك الأمبراطور فالنتين الثالث .اذ أشار الى ان لكنيسة روما سلطان روحي على كافة المسيحيين بما فيهم الامبراطور ، لان الاخير مسيحي وهو أبن الكنيسة فهو أذن في ضمن الكنيسة وليس فوقها . وقال برسالة بعثها الى الامبراطور فالنتين الثالث (جرت العادة ان يحاكـــم الاساقفة الاباطرة وليس للاباطرة محاكمة الاساقفة)[١٧] .

وليكن معلوما أن أمبروس لم يعترض على واجب الطاعة الــى السلطات المدنية في القضايا السياسية ، غير أنه اكد من ناحية أخرى حق القساوسة وواجبهم في توجيه اللوم الى السلطات العلمانية فيما اذا زلت من ناحية دينية . وطبق رأيه هذا قولا وفعلا . ففي احدى المناسبات رفض أن يقيم أحتفال العشاء الاخير بحضور الامبراطور ثيودوسيوس الاول لكونه مسؤولا عن سفك الدماء في مدينة سالونيك على أثر أخمــاده ثورة هناك . وفي مناسبة أخرى أمتنع عن اقامة ذلك الطقس الديني الا اذا سحب الامبراطور مرسوما أعتبره أمبروس ماســا بامتيــازات احــد الاساقفة . كما تحدى أمر الامبراطور فالنتين الثالث بعدم تسليمه احدى الكنائس لاستعمالها من قبل الاريوسيين . وصــح أن أمبروس أعتــرف بسلطة الامبراطور على الممتلكات العلمانية واراضي الكنيسة ، غير أنه لا يحق له مساس دور العبادة المخصصة للاغراض الروحانية ، وبصورة عامة ان مقاومته للتدخلات السياسية في الشؤون الكنسية لم تكن عن طريق العنف وانما بالمناقشة والاقناع والاصرار على الرأي[١٨] .

٢ ــ القديس أوغسطين St. Augustin ٣٥٤ ــ ٤٣٠

وهو من أشهر تلامذة القديس أمبروس . أستوعب العلوم القديمة ، وأصبحت تآليفه منارا للعصر الوسيط . وأهم الاراء التي جــاء بها فكرة الكومنويلث المسيحي المقترنة بفلسفة تاريخية توضح تطورات ذلــك الكومنويلث من ناحية دينية . لذا أصبحت تفسيراته في هذا الشأن جزء لا يتجزء من العقيدة المسيحية ، ليس في العصور الوسطى فقط وانما في

---

(17) G. Sabine, A History of Political Theory (1964) 187.
(18) Ibid., 188.

العصور الحديثة أيضا بالنسبة لكل من الكاثوليك والبروتستانت[19] .

ولد أوغسطين في مدينة تاكوستا Tagosta في نوميديا (في الجزائر الان) من أب وثني وأم مسيحية . شب في بداية عمره وثنيا . وأهلته دراسته للخطابة في قرطاجة ان يقوم بتدريس تلك المادة هناك وفي مدينة ميلان في ايطاليا . أعتنق المانوية لعشر سنوات ٣٧٤ ـ ٣٨٤ وظنها خير عقيدة مفسرة لهذا الكون . ثم مر بفترة تشكك عند دراسته الافلاطونية الحديثه . وأخيرا عمد مسيحيا في ميلان سنة ٣٨٧ على يد القديس امبروس ، فرجع الى أفريقيا حيث اسس النظام الديري المعروف باسمه في تاكوستا سنة ٣٨٨ . ثم أصبح قسيسا سنة ٣٩١ وانتخب بعد مرور خمس سنوات اسقفا لمدينة هبو Hippo بونه حاليا[20] .

أسهم اوغسطين في مكافحة الدوناتية فكريا . وذلك على أثر اصدار الامبراطور أنوريوس سنة ٤١١ مرسوما بعقد مؤتمر ديني في قرطاجة لمعالجة تلك المشكلة ومثل الدوناتيين ٢٧٩ اسقفا والكاثوليك ٢٨٦ اسقفا

وبعد المناقشة اصدر الممثل الامبراطوري ماركلنوس Marcellinus قرارا ضد الدوناتية . منعهم فيه من اقامة الاجتماعات العامة ومصادرة دور عبادتهم واعطائها الى الكاثوليك . ورد هؤلاء على ذلك القرار بالعنف. لذا اخذ القديس اوغسطين يدعو السلطات لمطاردتهم بقساوة بعد أن كان يدعو الى التسامح معهم ومعالجة مشكلتهم عن طريق المنطق الديني .

واصطدم اوغسطين أيضا مع بلا جيوس مؤسس البلاجيوسيه حول موضوع حرية الارادة وتوارث الخطيئة الاولى[21] .

ان من أشهر مؤلفاته هما الاعترافات Confessions الذي كتبه ٣٩٧ ـ ٣٩٨ ومدينة الله The City of God ٤١٣ ـ ٤٢٦ .

يمثل الكتاب الاول تاريخ حياته وهدايته نحو الدين الصحيح . اما

(19) Ibid., 189-90.

(20) Saint Augustin, Comfessions, tr. by R. Coffin (Middlesex, 1964) 11-20.

(21) للتفصيل في مصدر عربي راجع : يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الاوربية في العصر الوسيط (دار المعارف بمصر ، ١٩٦٥) ٢٣ ـ ٥٧ .

الثاني فهو دفاع عن المسيحية . والسبب الذي دفعه الى تأليف مدينة الله سقوط روما في اليوم الرابع والعشرين من شهر اب سنة ٤١٠ على يد الاريك زعيم القوط الغربيين[22] . يمثل السقوط حدثا عظيما الاول من نوعه في التاريخ الروماني . اذ عزا الوثنيون والمتشككون في المعتقد المسيحي الكارثة التي المت بروما الى غضب الالهة الوثنية لترك الدولة عبادتها . وقد أنتشرت هذه التهمة في كافة أرجاء الامبراطورية وأصبحت محط نقاش بين كافة فئات المجتمع الروماني واخذت تزداد حدة من يوم لاخر .

ان الموضوع الذي دار حوله الجدل الوثني ارتكز على اساسين . الاول أن المسيحية دعت الى الانسحاب من العالم ، لذا أبعد المواطن عن خدمة الدولة . والثاني أن مصير روما كان مرتبطا دائما بأذهان الوثنيين بعبادة الهتها . ويشير الوثنيون منذ بدء المسيحية بالانتشار الى أن الالهة الوثنية ستنزل عقابا هائلا بالامبراطورية . وقد قويت حجتهم حينما تحققت نبؤتهم بسقوط روما في عهد الحكم المسيحي[23] .

رفع الزعيم الوثني فولوسيانوس Volusianus تلك الاعتراضات الى الحاكم الروماني ماركلينوس في شمال أفريقيا سنة ٤١٢ . وأرسلها الاخير بدوره الى اوغسطين رئيس اساقفة هبو راجيه الاجابة عنها . وأشارت أعتراضات فولوسيانوس الى أن المبادىء المسيحية لم تعد متفقة مع حقوق المواطنة وواجباتها . اذ حوت تعاليمها ما نصه (لا تقابل الاذى بالاذى ... ومن ضربك على خدك الايمن فدر له خدك الايسر .. ومن نازعك على معطفك فدع له جبتك أيضا .. ومن أجبرك على السير معه ميلا فسر معه ميلين ...) ولذا فقد أتضح الان أن اراء كهذه لا يمكن وضعها موضع التطبيق الا على حساب دمار البلاد وخرابها . أو هل يسكت المرء على مضض وهو يرى امواله نهبا بيد العدو ؟ الا يحق لنا معاقبة اولئك الذين عاثوا في البلاد الرومانية بموجب ما تنص عليه قوانين الحروب ؟

(22) Augustin, op. cit., 20.
(23) St. Augustin, The City of God, tr. by Walsh... etc. (New York, 1958) 16.

وما هو جدير بالملاحظة أن الاتهامات التي وجهت الى المسيحية اعتقد بصحتها الحاكم المسيحي ماركلينوس . اذ قال (يبدو واضحا أن الكوارث الكبرى التي حلت بالبلاد كانت في عهد حكم الاباطرة المسيحيين) ثم تسائل أيضا كيف يمكن للانسان العيش في دولة مسيحية ، وكيف يتسنى لدولة مسيحية البقاء ما دامت القيم المسيحية تؤدي بلا شك الى الدمار ؟[٢٤]

اما جواب أوغسطين فأشار الى ان الفضائل التي تدعو اليها المسيحية هي نفس الفضائل التي دعت اليها الوثنية . الم يمتدح سالوست SalIust الرومان لاخذهم بقاعدة العفو عند المقدرة ؟ الم يمتدح خسرو قيصرا لان الاخير اعتاد الا ينسى شيئا سوى الاعتداء على شخصه؟ فان احتكمنا الى تاريخ الرومان نرى ان تلك الاعتبارات لم تسء الى الدولة . ويجب أن نعى ثانية ما يأمر به الانجيل . اذ لم تكن فيه وصايا تحتم على المسيحيين القاء أسلحتهم جانبا أو رفض الخدمة العسكرية . ان الانجيل لم يمنع اي شخص سخر نفسه لخدمة الدولة . هاتوا لنا أناسا كما ينبغي ان يكون الناس حسب اوامر الله ثم ليجرأ أي شخص على القول بان ذلك يتنافى مع مصلحة الدولة .

ثم يتسائل القديس أوغسطين كيف يمكن للانسان تفسير الحقيقة بان تلك الكوارث التي حلت بروما جاءت في عهد أباطرة مسيحيين ؟ انه مجرد افتراء . فلم تكن العقيدة المسيحية للاباطرة هي التي أنزلت الدمار بالامبراطورية . فلولا أنجراف الناس في المآثم والشرور لما غرس الله الصليب في تلك الربوع . دونك ما كتبه سالوست جوفينال Sallust Juvenal فتدرك عندها ما بلغ اليه التدهور الخلقي . يلومون المسيحية الناشئة والاحرى بهم لوم الوثنية المحتضرة . هدفت المسيحية تحقيق غايتين أساسيتين . الاولى الحفاظ على المجتمع البشري والثانية بناء مجتمع فاضل . انه من العسير على المرء أن يفهم بأن الدولة تساورها المخاوف من تحقيق هاتين الغايتين[٢٥] .

(24) Ibid., 17.
(25) Ibid., 18.

أكد اوغسطين على أن الفرد مواطن في مدينتين . هما مدينة الارض ومدينة السماء او دار الخلود . أن جوهر الانسان كائن في جسمه وروحه، اذ يعود الجسم الى هذا العالم الفاني بينما تعود الروح الى عالم الخلود . تمثل المدينة الاولى مملكة الشيطان . بدأت تاريخها منذ عصيان ادم امر الله وكشفت عن نفسها بشكل خاص في الامبراطوريات الوثنية الاولى كالاشورية والفرعونية والرومانية . وتمثل الثانية مملكة المسيح التي كشفت عن نفسها لاول مرة في الشعب اليهودي ثم في الامبراطورية المسيحية المنتصرة . وما التاريخ الا صراع بين المملكتين سيكون النصر فيه حتما الى مملكة الرحمان فلا سلام ولا خلود الا في تلك المملكة .

وهكذا فسر أوغسطين سقوط روما . وان كافة ما على الارض من مظاهر دنيوية سائرة نحو الزوال . ان التاريخ مسيرة الله في العالم وصراع بين خير الله وشرور الارواح المتمردة . ولا يتقرر المصير النهائي الا في اليوم الاخر . وما التاريخ ايضا الا مراحل اعداد لظهور المسيح الذي يرمز الى بداية النهاية وهي صفحة جديدة في الصراع بين الخير والشر[٢٦] .

لذا فقد مثلت اراء اوغسطين ثورة كبرى في تاريخ المسيحية . اذ برر لاول مرة الحرب بالنسبة لابناء دينه وذلك بتقسيمه الحرب الى نوعين هما الحرب العادلة التي تشن من اجل الدفاع عن الدين والنفس وفي سبيل نشر المعتقد واعلاءه . ثم الحرب غير العادلة وهي التي تثار من اجل غير تلك الاغراض . واشار الى ان السلطة مصدرها الله وهي أداة عقابية لخطيئة الانسان . ومع ذلك فان العلاقة بين السلطتين السياسية والدينية لم تكن واضحة في كتابات أوغسطين الى درجة انها مكنت العلمانيين ورجال الدين الاستشهاد بها عند مساس الحاجة . غير أن الشيء الواضح لديه في هذا الشأن أن الدولة يجب ان تكون مسيحية وفي خدمة الهيئة الاجتماعية المؤمنة بالله وتعاليمه .

---

(26) Ibid., 19-21.

اما البابوات الذين اسهموا بشكل ملحوظ في اعلاء كنيسة روما فأهمهم :

١ ـ ليو الاول Leo the Great ٤٤٠ ـ ٤٦١

عمل ليو الكبير على بلورة الزعامة البابوية . واصبحت مواعظه التي تضمنت تلك الزعامة الروحانية ترد في المراسيم الدينية الغربية في العصر الوسيط . اذ جاء في احدها :

لي الثقة ان حشدكم هذا يمور بالحب الخالص الى الحواري بطرس. ان ذلك القديس يبارك لكم حماسكم هذا . ذلك الحماس الذي وحد بينكم وجاء بكم الى هذا المكان . جئتم للاعراب عن تقديسكم له .. لم يزل القديس بطرس رئيس كنيسته ... فهو خليفة المسيح والحجر الاساس في صرح الكنيسة .. ان خلفاء بطرس يستلهمون منه الوحي والارشاد في نشر الرسالة[٢٧] .

ورفع ليو الاول منزلة الكنيسة ومقدرتها على معالجة الاوضاع السياسية في أعين المسيحيين في الغرب . ويقول المؤرخ روبنسون Robinson (ان تسنم ليو الكرسي البابوي الفترة التي بدأ فيها تاريخ البابوية .. اذ اشار على الامبراطور فالنتين الثالث اصدار مرسوم سنة ٤٤٥ جاء فيه الاشادة بالرسالة البطرسية وحتم على كافة رجال الدين في الغرب اعتبار ما يصدر عن البابوية له مفعول القانون . وأن على السلطات الرومانية ان تحضر اي رجل من المسلك الكهنوتي لم يلب الدعوة للحضور الى المحكمة البابوية عند اقتضاء الامر[٢٨] .)

لقد برهن ليو الاول على أن السلطات الدينية لا تقل قدرة عن السلطات المدنية في الاهتمام بشؤون الرعية عن طريق الاساليب الدنيوية . اذ تمكن أثناء عجز السلطات الرومانية في الدفاع عن روما من قيامه بالمسؤوليات التي تتطلبها الساعة . حيث فاوض أتيلا أثناء حصاره لروما . في وقت كان فيه فالنتين الثالث لائذا بالبابوية في روما . وقد عزا

(27) Deanesly, op. cit., 172.
(28) Robinson, op. cit., 64.

رجال الدين أنسحاب أتيلا الى جهود ذلك البابا بفضل الله . كما أنه قلل من وحشية الوندال عند احتلالهم لروما سنة ٤٥٥ ، باتفاقه معهم على احترام حياة الافراد .

٢ ــ جيلاسيوس الاول Gilasius ٤٩٢ ــ ٤٩٦

قام البابا جيلاسيوس ببلورة العلاقات من ناحية نظرية بين السلطتين الدينيــة والزمنيــة . وأخــذت تعــرف نظريتــه بنظريــة السيفــين The Theory of the Two Swords . ونالت هذه النظرية قبولا في الاوساط الاوربية حتى القرن الحادي عشر[٢٩] .

ان جيلاسيوس أفريقي الاصل . عاصر أدوكر وشهد المآسي التي جرتها الحروب بينه وبين ثيودوريك . وعبر عن رأيه في السلطتين برسالة وجهها الى الامبراطور اناستاسيوس الاول امبراطور الشرق . جــاء فيها (أيها الامبراطور العظيم . هناك قوتان تقتسمان حكم العالم . هما سلطة البابوات الروحانية المقدسة والسلطة الملكية . غير أن مسؤولية السلطــة الاولى أعظم من الثانية . لان على البــابوات محاسبــة الملوك ... يوم الحساب .)[٣٠] أن الامبراطور هو أبن الكنيسة وواجبه التعلم لا التعليم في القضايا الدينية ...[٣١])

٣ كريكوري الاول Gregory I ٥٩٠ ــ ٦٠٤

تعد بابوية كريكوري العظيم من الفترات الحاسمة في تطــور كنيسة روما من ناحية تنظيمية وفي التاريخ الايطالي بصورة عامة . اذ وقعت عليه مسؤولية أعادة بناء روما التي لم تزل في عهده مخربة من جراء ما أنزل بها القوط الغربيون من دمار . وكذلك مكافحة المجاعة والتخفيف من ويلات الطاعون وأيقاف توسعات القبائل اللمباردية .

بدأ حياته العملية الاولى كموظف كبير في روما . وقرر على حين غرة اعتزال المنصب والانقطاع للحياة الديرية . فباع ممتلكاته ووزع ثروته

---

(29) Sabine, op. cit., 194-96.

(30) Deanesly, op. cit., 173-74.

(31) W. Ullman, A History of Political Thought, in the Middle Ages (Middlesez, 1965) 40.

على الفقراء مؤسسا ستة أديرة على اراضيه في صقلية مهديا اياها الى القديس أندرو ومقتنعا بمنصب راهب بسيط . ثم عينه البابا جيلاسيوس سكرتيرا للمجلس البابوي . وأنيطت به مهمة أعانة الفقراء ، واستمر في ذلك المنصب لسبع سنوات . ثم أرسل أثناء ذلك في مهمة رسمية للتفاوض مع الامبراطور موريس في الشرق . وعند رجوعه أنتخب للبابوية على أثر وفاة البابا السابق سنة ٥٩٠ . تولى البابوية على مضض منه في وقت كانت فيه روما تعاني الشدائد من كوارث الفيضان والطاعون[٣٢] .

وقعت على عاتقه في ذلك الظرف الشديد مهمة أطعام الفقراء حسب العادة الجارية في روما . ولهذا قام بوضع نظام مالي دقيق للاوقاف الكنيسة . وجاء في احدى رسائله في هذا الشأن الموجهة الى اسقف من الاساقفة :(يجب عليك حالا دفع ربع موارد كنيستك الى الكهنة حسبما يستحق كل منهم . وعليك أيضا عدم التأخر في دفع ربع عوائد الكنيسة من هبات المحسنين نوعا او نقدا حسبما جرت العادة . ان الباقي من الثروة المنقولة هو تحت تصرفك . غير أن الثروة غير المنقولة يجب ان تضاف الى ممتلكات الكنيسة[٣٣]) . أصبحت مسؤولية الدفاع عن روما جزء من سياسته لعدم وجود حاكم روماني قوي يركن اليه حينما هددها اللمبارد سنة ٥٩٢ [٣٤] وتفادى خطر الحرب بعقده معاهدة مع الملك اللمباردي أجيلوف Agiluf . واخيرا أضطرت الحكومة البيزنطية على الموافقة على ذلك الاجراء سنة ٥٩٨ .

ألف البابا كريكوري الاول ثلاثة كتب هامة تناولت تنظيم المراسيم الدينية والخدمات اليومية لرجال الدين . ويعرف نظامه هذا بالمراسيم الرومانية التي حواها كتابه الاول Regula Pastorlis . اما الكتاب الثاني الذي احبه الناس كثيرا في ايطاليا فهو Dialogues لاحتوائه

---

(32) Gregory of Tours, History of the Franks, tr. by Brehaut (N.Y., 1916) 227.
(33) Deanesly, op. cit., 178.
(34) Leff, op. cit., 52.

على الاخبار النادرة عن حياة القديسين والنبؤات . اما كتابه الثالث Magna Moralia فهو عبارة عن تعليق عن النبي أيوب ويقع في ستة مجلدات[٣٥] .

قام كريكوري بدور فعال في نشر المسيحية الكاثوليكية . فقد أعتنق في عهده الغوط الغربيون الكثلكة في اسبانيا . وفعل كذلك الملك اللمباردي أجيلوف سنة ٦٠٢ . كما عمل على تنصير الانكليز والسكسون في بريطانيا عن طريق الراهب اوغسطين سنة ٥٩٧ . ونجح هذا في مهمته في مملكة كنت Kent [٣٦] ، ولقب لدوره البطولي هذا بالاب الروحاني لاوروبا[٣٧].

أما علاقته مع رئيس اساقفة القسطنطينية فقد أصابها التصدع . وذلك لتسمية رئيس اساقفة العاصمة البيزنطية نفسه بالاسقف العالمي Oecumenical Bishop وتضمن ذلك الانتقاص من سيادة كنيسة بطرس في روما . ولم تثمر احتجاجاته في هذا الشأن عن نتائج ايجابية[٣٨] .

السياسة البابوية ٦٠٤ — ٨٠٠

لم تكن سياسة البابوات منذ سنة ٦٠٤ حتى منتصف القرن الثامن موفقة في معالجة المشاكل الدينية مع البيزنطيين . وقد تعرض قسم منهم الى الاذى من السلطات البيزنطية في رافينا او المناطق الايطالية الجنوبية في محاولاتهم الرامية للاحتفاظ بعقيدتهم المذهبية . اذ اضطر الامبراطور هرقل البابا أنوريوس الاول الى الموافقة على مرسومة توضيح الايمان الصادر سنة ٦٣٨ والقائل بالارادة الواحدة Monothelism . وهذه محاولة توفيقية بين المونوفستية القائلة بالطبيعة الواحدة المقدسة وبين كنيسة روما التي تأخذ بالطبيعتين . الا أن رجال اللاهوت في الغرب لم يوافقوا البابا على ذلك[٣٩] . وعندما أصدر

---

(35) Deanesly, op. cit., 179.
(36) Ibid., 182-83.
(37) Ullmann, op. cit., 50.
(38) Deanesly, op. cit., 182.
(39) Voltaire, op. cit., 90.

الامبراطور قسطان الثاني مرسوما يؤيد فيه المونوثليتيه سنة ٦٤٨ عارضه البابا مارتن الاول . فأمر ذلك الامبراطور بالقاء القبض على مارتن ونفيه الى شبه جزيرة القرم حيث مات سنة ٦٥٥ في منفاه[٤٠] . غير أن المؤتمر العالمي الديني السادس المنعقد في القسطنطينية سنة ٦٨٠ قـرر ابطـال المونوثيليثية[٤١] . وقد وافقت الحكومة البيزنطية على ذلك القرار لرغبتهـا الاحتفاظ بعلاقات ودية مع كنيسة روما لمقاومة التوسع الاسلامي فـي جهات افريقيا بعد ان قطعت الامل في استعادة سورية ومصر المونوفستيتيين من ايدي المسلمين .

لقد أتجه البابوات منذ منتصف القرن الثامن بشكل جدي للملـوك الفرنجة في بلاد الغال طلبا لحمايتهم من اللمبارد . وذلك لعدم مقـــدرة السلطات البيزنطية على اسعافهم ولتدهور العلاقات بين الطرفين حول موضع الايقونية . لذا تجشم البابا ستيفن الثاني ٧٥٢ ، ـــ ٧٥٧ عناء السفر الى ببين الثالث . وأسفرت المفاوضات عن اعادة الفرنجة الممتلكات البابوية التي استولى عليها اللمبارد وتقديم كافة وسط ايطاليا الى البابوية هبـة عرفت بهبة ببين Donation of Pippin سنة ٧٥٦ . واصبحت تلـك المناطق دولة بابوية دامت حتى سنة ١٨٧٠ .

لقد شهد نهاية النصف الاول من القرن الثامن أعظم حادث تزويـر في العلاقات بين السلطتين الدينية والزمنية بما يسمى هبة قسطنطيـن Donatian of Constantine . ولم يكتشـف تزوير هـذه الـوثيقـة الا في سنة ١٤٤٠ من قبل المؤرخ لورنزو فالا[٤٢] وأخذت هذه الوثيقـة قبل التاريخ الاخير وكأنها من الحقائق المسلم بها . والوثيقة هذه مـع أنها وضعت لمعالجة الاوضاع المتردية بين البابويـة والامبراطـوريـة البيزنطية الا أنها أحتوت على مبادىء يمكن تطبيقها على حكام الغرب . لقد

---

(40) G. Ostrogorsky, History of the Byzantine State, tr. by Hussey (Oxford, 1961) 106-7.

(41) T. Ware, The Orthodox Church (Middlesex, 1964) 37.

(42) E. Knapton, Europe, 1450 - 1815 (Massachusetts, 1958) 72.

أصبح من المفروغ منه أن تلك الوثيقة زورت في مقر البابوية في روما . حدث التزوير قبيل سفر البابا ستيفن الى ببين[43] . اعتمدت محتوياتها على خرافة منسوبة الى البابا سلفستر الاول . اذ أشارت الوثيقة الى أن قسطنطين الكبير منح كنيسة روما قبل أنتقاله الى القسطنطينية أمتيازات كبرى جعلها زعيمة كافة الكنائس . وتزعم الوثيقة أيضا أن الامبراطور أعتنق المسيحية على يد ذلك البابا باسلوب دراماتيكي . اذ حاول قسطنطين التكفير عن سيئاته بارتمائه على الارض تحت أقدام البابا مجردا من كافة شارات الحكم بما فيها التاج . ثم أخذ يجهش بالبكاء حتى أبتل رداؤه المطروح أرضا . وقد سلم قسطنطين كافة شارات الحكم بمافيها التاج والصولجان والراية الى البابا . ثم أمسك بعنان جواد البابا وقاده لمسافة قصيرة للدلالة على الامعان بالتواضع . وسلم البابا القصر الامبراطوري في روما وكافة الولايات الغربية . وأخيرا رغب قسطنطين أن يضع التاج الامبراطوري على رأس البابا غير أن الاخير رفض ذلك . وبالرغم من أن البابا رفض التاج الامبراطوري الا أنه في رأي المزور قد أصبح للبابا . وللبابا حق استرجاع التاج في أي وقت يشاء وان يتصرف به حسب أرادته. حقا لقد اراد المزور أن يوضح للاباطرة اللاأيقونيين تبعيتهم للبابا وليس لاي منهم أن يكون قيصرا وبابا في آن واحد . ويفهم من ذلك أن المزور نوه عن نظرية السيفين لجيلاسيوس في حكم العالم المسيحي[44] .

وبتلك الاراء التي حوتها الوثيقة المتقدمة فاتح البابا ستيفن ملك الفرنجة ببين . ومما قاله الاول للثاني أن ممتلكات كنيسة القديس بطرس بموجب هبة قسطنطين قد سطا عليها اللمبارد . وأشار الى أن كنيسة بطرس أنها أم الكنائس في الغرب بما فيها بلاد الفرنجة . وأن وقوعها بيد اللمبارد سوف يجعل نفوذهم سائدا في تلك الانحاء . كما أن تلقيب ستيفن ببين بأنه حامي الرومان يحمل مظهرا اخرا من تطبيق ما جاء من مبادىء في تلك الوثيقة وأنها أيضا خطوة تمهيدية الى منح البابوية التاج الروماني الى شارلمان سنة ٨٠٠ م .

---

(43) Ullmann, op. cit., 59.
(44) Ibid., 60-64.

انتشار الحركة الديرية في ايطاليا Monastic Movement : كان الزهد بالحياة عن طريق الابتعاد عن المغريات وكبت العواطف وأيلام النفس وتطهير الروح بتعريض الجسم للاذى والانعزال في الاماكن النائية ، من الظواهر المألوفة في التاريخ قبل ظهور المسيحية . فهناك أناس بين الشعوب القديمة في الهند والصين تنسكو وابتعدوا عن مغريات الدنيا[٤٥] . وتعتبر عادة ظاهرة التنسك من المراحل التمهيدية للحركة الديرية .

بدأت الحركة بين المسيحيين في مصر السفلى بصورة خاصة في القرن الثالث بشكل انفرادي وخارج نفوذ الكنيسة . ويعلل المؤرخان مونرو وستراير Strayer and Munro ظاهرة التنسك بانها (عبارة عن احتجاج على ما طرأ على العقيدة المسيحية من أراء دخيلة وعلى أنغماس بعض رجال الدين في شؤون الدنيا . اذ بدت فيه الرسالة الدينية عند البعض وكأنها دنيوية .)[٤٦] لذا التجأ قسم من الافراد الى العزلة هربا من المعاصي في الصحاري أو على قمم الجبال أو في المغاور والمقابر للانقطاع الى التأمل والعبادة . وعلى كل فأسباب الرهبنة متعددة ، منها ما يعود الى اسباب دينية صادرة عن أيمان صادق . ومنها ما يعود لفشل في الحياة او لاضطهاد ديني او لتظاهر بالزهد والتقوى والتشبه بحياة القديسين سعيا وراء شهرة او مكسب .

والرهبنة في عصورها الاولى عبارة عن أمتزاج بين التعاليم المسيحية والاراء الصوفية والفلسفة الافلاطونية الحديثة . وهي تقوم على ثنائية الروح والجسم . فلتطهير الروح وجب أحتقار الجسم والاعراض عن شهواته وتعريضه للخشونة وشظف العيش وكبت عواطفه وأيقاع الالم به . ويعتقد أصحاب الرهبنة بأن هناك أشارات في تعاليم القديس بولص الى أهمية حياة العزوبة Celibacy وأعتبارها الظاهرة الرئيسة في الانصراف للعبادة وهجر مغريات الحياة[٤٧] .

---

(45) Robinson, op. cit., 70.
(46) Strayer and Munro, The Middle Ages, 395-1500 (N.Y., 1942) 19.
(47) S. Painter, A History of the Middle Ages, 284-1500 (London, 1963) 17.

أشتهر من بين العديد من النساك في القرن الرابع كل من القديس أنطون St. Anthony ‏٢٥١ ـ ٣٥٦ وباخوميوس Pachomius ‏٢٨٦ ـ ٣٤٦ ، اذ نظم صوامع الرهبان وجعل لكل راهب صومعته الخاصة غير أن عليهم جميعا الاشتراك في أنتاج ما يحتاجون اليه من ملابس وطعام . أما الثاني فقد حث جماعة الرهبان على الاشتغال والانتاج الوافر وتوزيع ما زاد عن الحاجة على الفقراء . ومع ذلك فقد اكد التعبد الانفرادي والعيش المنعزل في الصوامع[٤٨] .

أما القديس بازل Basil ‏٣٣٠ ـ ٣٧٩ فنظم مسلك رهبانه على أسس جديدة ، أذ حتم على الرهبان العيش المشترك في أديرة بدل الصوامع المنفردة وان يباشروا تعبدهم في أوقات معينة بشكل جماعي[٤٩] . ولذا يعتبر بازل المؤسس للحركة الديرية في العالم المسيحي[٥٠] .

يعزا أدخال الرهبنة الى ايطاليا الى الراهب أثناسيوس Athanasius في النصف الثاني من القرن الرابع . وكانت اراؤه مستمدة من الرهبنة الانطونية . لهذا لم يكتب لها النجاح في الغرب لتزمتها فوق ما تتحمله الطبيعة الانسانية[٥١] . على أن المسلك الرهبني أخذ يستهوي الكثير من المؤمنين في الغرب في القرن السادس على أثر التعديلات التي أجراها القديس بندكت Bendict ‏٤٨٠ ـ ٥٤٣ . اذ تمكن هذا من أخراج الرهبنة من عزلتها الاجتماعية وسار بها على غرار باخوميوس . فبالاضافة الى تأكيده على شعارات الرهبنة المتضمنة العفة والفقر والطاعة أضاف شعارا اخرا الا وهو التنظيم . ويتضمن ذلك تقسيم العمل بين الرهبان حسب الاختصاص ، والتوفيق بين العمل المنتج والعبادة[٥٢] .

تحدر بندكت من عائلة رومانية ارستقراطية . ولد في سبوليتو Spolito في أيطاليا وتثقف في روما وقد ذهلته الموبقات هناك . ويقال

---

(48) Baynes and Moss, Byzantium (Oxford, 1961) 137.
(49) Ibid., 141-42.
(50) Painter, op. cit., 18.
(51) Strayer and Munro, op. cit., 20.
(52) H. Dudden, Gregory the Great, vol. I (London, 1905) III.

أنه احب حبا فاشلا . بدأ حياته الانعزالية في عمر الخامسة عشر في رواي سابين على بعد خمسة أميال من ســوبياكــو Subiaco . وأشار البابا كريكوري العظيم في كتابه Dialogue الى كيف أن بندكت جاهــد نفسه لنسيان المرأة بقوله (لقد وعي نفسه على حين غرة فالقــى بجسمه على الاشواك عاريا متمرغا عليها مدة من الزمن وما أن نهض حتى كان لحمه ممزقا . أن جراح الجسم أبرأت جراح الروح ...)[٥٣] وبعد بقاءه هناك بضعة سنوات هرع اليه الرهبان من الاماكن المجاورة وانتخبوه رئيسا . ولكنه حذرهم بأن طريقته الديرية قد لا تروق لهم . وبعد بضعة أشهر حاولوا التخلص منه عن طريق دس السم له في كاس شرابه . وعندها عاد ثانية لحياة الانعزال وتجمع حــوله عدد من المؤمنين الاحداث . وأخيرا قرر التوجه الى مونت كاسينو Monte Cassino. مع قسـم من أتباعه . فاسس هناك ديرا على أنقاض معبد وثني سنة ٥٢٩ . ووضع فيه أنظمته الديرية التي أصبحت قدوة لمعظم أديرة الغرب . وأهم ما جاء في تعاليمه أن يمر الموشح للرهبنة بفترة تجربة . فان قرر فيها الاستمرار فعليه ان يكتب تعهدا خطيا مشهدا عليه الشهود . ثم يودع التعهد في الديــــر باحتفال ديني . وعلى الراهب عدم مغادرة الدير بدون أذن الرئيس . والرئيس ينتخبه الرهبان وعليه ان يشاورهم في كافة الامور الهامة . والقرار النهائي له وعلى الرهبان اطاعته . يجب على الرهبان التصرف بجد وصرامة. فلا ثرثرة ولا ضحك بصوت مرتفع ولا همز ولا غمز . لا يملكون شيئــا لانفسهم . أن كل شيء يعود الى الدير[٥٤] .

ان الدير يرحب بالضيوف كما لو كان يرحب بالمسيح نفسه . ويجب على كافة الرهبان الاشتغال في الحقل او الحانــوت أو في استنســاخ المخطوطات . ومن واجب الراهب الاستقامة الخلقية وأسعاف الفقراء

(53) B. Russell, History of Western philosophy (N.Y., 1945) 379.
(54) F. Ogg, Source Book of Medieval History (N.Y., 1907) 87.

وأكساء العريان والاعتناء بالمرضى . وبذلك أصبحت الديرية البندكتية
تحمي وملاذاً للبؤساء الذين أناخ عليهم الدهر بكلله في عهد الفوضى .

هذا وقد أخذ قسم من النساء في القرن الرابع يقلدن الرهبان في العيش الانعزالي والتعبد متخذات العفة والفقر والطاعة شعارات لهن . وقامت شقيقة القديس بندكت بشولا ستيكيا Scholasticia بتأسيس دير نساء قرب مونت كاسينو باشراف أخيها سنة ٥٣٠ .

الفصل الرابع

الفرنجة — The Franks

القسم الاول

الميروفنجيون — The Merovingians

٤٨١ — ٧٥١

لقد أشرنا الى أن الفرنجة من القبائل الجرمانية . أستوطنت الجهات الشمالية الشرقية من نهر الراين في جهات فلا ندرز ومنها الى بلاد الغال . هذا ومن الصعب الوقوف على أخبارهم التاريخية وتنظيماتهم الاجتماعية والسياسية في مرحلتهم المبكرة ، لعدم تيسر المصادر عن تلك الفترة . وقد يكون كتاب تاريخ الفرنجة الذي الفه كريكوري اسقف مدينة تور في القرن السادس من المصادر التي تلقي ضوء على الموضوع بالرغم من نواقصه . ومع ذلك فقد أصبح هذا الكتاب مرجعا لثقاة المؤرخين في هذا

الشأن[1] .

ان اول ملك فرنجي عرف باسم كلوديو Chlodio الذي هاجم كولون سنة ٤٣١ وتوغل في بلاد الغال حتى نهر السوم جاعلا مدينة تورني Tournia عاصمة له . الا أن العلاقات بين الفرنجة والسلطات الرومانية طرأ عليها بعض التحسن في عهد الملك ميروفج Merovich . وقد ساهم هذا مع القوات الرومانية التي كانت بقيادة أثيوس سنة ٤٥١ في مقاومة قبائل الهون الاسيوية التي كانت تحت قيادة أتيلا . وميروفج هذا عبارة عن اسم استعاري معناه (ابن البحر) . تولى الحكم بعده شلدريك الاول Childeric سنة ٤٥٦ الذي استأنف الغارات على المناطق الرومانية في بلاد الغال . فاستولى على مدينة أنجر Angers على نهر اللوار . وقد اغرى شلدريك زوجة ملك ثورنجيا Thuringia المسماة بازينا على الزواج منه فولدت له كلوفس Clovis مؤسس فرنسا وتحدر من صلبه ثمانية عشر ملكا[2] .

كلوفس ٤٨١ — ٥١١

ينتمي هذا الى الفرع السالي من قبائل الفرنجة . بدأ حياته ملكا على احدى الدويلات الفرنجية الكائنة في الاجزاء الشمالية الشرقية من بلاد الغال الا وهي اوستراسيا Austrasia. وتمكن من السيطرة على المناطق الكائنة بين نهري السين واللوار بما فيها باريس والتي كانت تابعة الى الحاكم الروماني سياكريوس Syagrius سنة ٤٨٦ بعد معركة سواسون[3] . كما بسط نفوذه على قبائل الاتحاد الالماني القاطنة الجهات الجنوبية الشرقية من بلاد الغال سنة ٤٩٦ .

يعتبر كلوفس المؤسس الحقيقي للمملكة الميروفنجية . وهناك جملة حوادث هامة في عهده . فقد اعتنق المسيحية الكاثوليكية . ويعزى ذلك

(1) Strayer and Munro, The Middle Ages, 395-1500 (N.Y., 1942) 44.

(2) W. Durant, The Age of Faith, 325-1300 (N.Y., 1950) 91.

(3) M. Deanesly, A History of Early Medieval Europe, 476-911 (London, 1960) 58.

على الاغلب لتأثيرات زوجته المسيحية كلوثيدا احدى أميرات البرغنديين . أما المناسبة التي اعتنق فيها ذلك الدين فكانت على أثر انتصاره على قبائل الالماني . حيث نذر للمسيح نذرا قبيل المعركة بانه سوف يعتنق المسيحية الكاثوليكية هو وأتباعه ان كتب له النصر ، وقد وفى بنذره على اثر الانتصار[4] . ويقال بأنه أعتنق المسيحية نتيجة للمساعدات القيمة التي قدمها له الرهبان في معركته مع قبائل الالمان .

كان لاعتناق كلوفس المسيحية حسب مذهب كنيسة روما نتائج بعيدة المدى في تاريخي فرنسا والبابوية . فهو اول ملك جرماني يعتنق الكاثوليكية لان القبائل الجرمانية المنتصرة في جهات اوروبا الغربية كانت أريوسية . واتخذ كلوفس وخلفاؤه من الدين ستارا لتوسيع مملكتهم ودعم حكمهم واصبحوا حماة الكثلكة في داخل فرنسا وخارجها . وساهمت الكنيسة بشكل فعال في انتصار كلوفس على القوط الغربيين في الاجزاء الجنوبية الغربية من فرنسا . اذ بدأت غاراته عليهم سنة ٥٠٧ بحجة ان هؤلاء من المارقين الاريوس[5] . وكتب له النصر في موقعه على بعد عشرة أميال من بواتيه قتل فيها ملك القوط الاريك الثاني واضطر أبنه املوريك Amaloric الى الانسحاب الى اسبانيا . وبهذه المناسبة أرسل اليه الامبراطور البيزنطي أناستاسيوس وفدا للتهنئة وأسبغ عليه لقب القنصل مع شارات الحكم المتعلقة بذلك المنصب الروماني[6] .

شهد حكم كلوفس بداية أمتزاج القيم الثقافية البدائية للفرنجة مع التراث الروماني . اذ أتبع اساليب الحكم الادارية التي كانت شائعة في بلاد الغال . واصدر عملة شبيهة بالعملة الرومانية واضعا عليها حرف اسمه الاول بجانب اسم الامبراطور أناستاسيوس . ثم دون القوانين الفرنجية في فترة ٥٠٧ ــ ٥١١ . ويشار الى شريعته بالقانون السالي Salic LaW نسبة الى مجموعة القبائل الفرنجية التي ينتمي اليها

---

(4) Ibid., 59.
(5) Gregory of Tours, History of the Franks, tr. by Brekaut (N.Y., 1916) 37.
(6) Deanesly, op. cit., 60.

كلوفس . وقام بجمع ذلك القانون أربعة من زعمائهم وصادقت عليه ثلاثة مجالس عقدت تباعا من أجل التأكد من صحته[7] . بحثت الشريعة السالية في العقوبات والتعويضات ووراثة العرش بعد مقدمة طريفة لمدح الفرنجة . اذ جاء فيها (ان الفرنجة شعب مجيد حكيم ... نفض عن كاهله النيـــر الروماني العاتي ..)

اعتمدت الشريعة الساليه في القضاء على دلائل البراءة عن طريـــق الشهود والتحكيم المحني Ordeal والمبارزة . اذ يحتاج المتهم لاثبـــات براءته على عدد معين من الشهود حسب أهمية الجريمة . فالبراءة مـــن القتل تحتم على المتهم أحضار أثنين وسبعين شاهدا . أما في حالة الطعـــن في عفاف الملكة فيحتاج الامر الى ثلثمائة نبيل ليشهدوا على صحة نسب طفلها . ويلجأ الى التحكيم المحني فيما اذا كانت دلائل أثبات البراءة غير واضحة . وهناك انواع متعددة من التحكيم المحني . فقد يرمي بالمتهم موثوق اليدين والرجلين في نهر او بحر او بركة . فان غطس قليلا فيعتبر بريئا وأن طفا فوق سطح الماء بسرعة غير متوقعة ، فيؤخذ بجرمه ، لان الماء لا يحتضن غير الطاهرين[8] . أو أن يجبر المتهم على السير بين النيران الملتهبة او عليها او على حديد متوهج أو أن يمسك به أو أن يلتقط قطعة ما من قعر مرجل تغلي فيه المياه . ثم تشد حروقه لمدة من الزمن فان لم تشف في الوقت المعقول فهي الدلالة على أن النار قد أمضت به وان النار لا تمس الابرار . أن التحكيم المحني من الاساليب القديمة التي لجأ اليها البشر في تحكيم قوى الطبيعة الخرساء في معرفة البريء من المسيء .

ثم هناك التحكيم عن طريق السيف لاظهار الحق وان الله مع المنتصر . وكانت المبارزة اجبارية عند القبائل الدانية Danes في شبه جزيـــرة سكندناوة منذ القرن الاول الميلادي وكذلك كانت منتشرة بين القبائـــل الجرمانية . وحدث أن أحتج احد رجال الدين لدى ملك البرغنديـــن كوندوباد Gundobad بأن المبارزة تظهر البراعة لا البراءة فأجابـــه

(7) E. Gibbon, The Decline and Fall of the Roman Empire, vol. IV (London, 1900) 65.

(8) C. Lea, Superstition and Force (Phila., 1892) 318.

الملك الم يكن صحيحا بأن نتائج الحروب تتحكم فيها ارادة الله ؟[9]

لقد عين القانون السالي غرامات على أختلافهـا . فدية القتيـل Wergild يدفع ثلثها للدولة والباقي لعائلة المجنى عليه . وتتـراوح الديات والغرامات بحسب منزلة المجنى عليه اجتماعيا . فان قطع رجـل كف امرأة فيغرم بما يعادل خمسة عشر دينارا . ويغرم بما يعادل خمسة وثلاثين دينارا ان قطع ذراعها . وأن قاربها بدون رضائها فعليه غـرامة خمسة وعشرين دينارا . أما الاعتداء الذي يقوم به الروماني ضـد الفرنجي فغرامته (٢٥٠٠) دينارا وان حدث العكس فالغرامة (١٤٠٠) دينارا . أن دية القتيل الفرنجي تساوي (٨٠٠٠) دينـارا والرومـانـي (٤٠٠٠) دينارا . وان لم يقبل أهل القتيل بالدية فيمكنهم الاخـذ بالثـأر[10] .

ولعل أهم فقرات الدستور السالي هي التي نصت على عدم توريث المرأة اي جزء من التركة . وعلى هذا الاساس رفضت فرنسا في القـرن الرابع عشر ادعاء الملك الانكليزي ادورد الثالث بالعرش الفرنسي عـن طريق والدته ازابيلا فكان من الرفض حرب المائة عام . والسبب في حرمان المرأة من الوراثة للممتلكات أن الاخيرة تحتاج الى قوة الرجال للدفاع عنها وعلى العموم فان الدستور السالي لم يكن ملائما للمرأة . ومع ذلك فقد جعل دية المرأة ضعف دية الرجل وذلك لانها من المحتمل ان تكون امـا لعدة أطفال . غير انه من ناحية اخرى كالقانون الروماني جعل المـرأة تحت وصاية أبيها أو زوجها أو ابنها .. وجعل الموت عقوبة للزانية بعد الزواج ولم تكن تلك العقوبة للرجل الزاني[11] .

خلفاء كلوفس ٥١١ — ٥٦١

يبدأ حكم الاسرة الميروفنجية بالتفكك حال وفاة المؤسس . ويعزا ذلك بالدرجة الاولى الى عدم وجود قاعدة ثابتة لوراثة العرش والتـي ادت الى حروب اهلية تكاد أن تكون متواصلة . اذ قسم كلوفس المملكة

(9) Gibbon, op. cit., 70.
(10) F. Ogg, Source Book of Medieval History (N.Y., 1907) 63-65.
(11) A. Brittain, Women of Early Christianity (Phila., 1907) 208.

بين اولاده الاربعة . فاصبحت اوستراسيا من حصة الابن الاكبر ثيودوريك وتعتبر أوستراسيا الموطن القديم للفرنجة الريبوريين واشتملت على حوضي الراين والمين *Main* وكان مقر الدولة في كولون الا أن الملك كان دائم التنقل بين مدينتي ريمز ومتز . وسع ثيودوريك حدوده على حساب الغوط الغربيين . وعهد كلوفس الى ابنه شلدبير Childebert وداي السين وكانت باريس عاصمته . وحكم الابن الثالث شلودمير Chlodomer وادي اللوار والكارون متخذا عاصمته في أورلين . أما مناطق الراين السفلى فكانت من حصة شلوتاشاريوس Chlotacharius وعاصمته سواسون . ولقد تقاسم هذا مع شلدبير حصة أخيهم شلودومير عند مقتله سنة ٥٣٣ [١٢] .

كان التوسع الهام الذي حدث في عهد خلفاء كلوفس على حساب الجهات الشرقية . اذ تمكن ثيودوريك سنة ٥٣١ من الاستيلاء على ثورنجيا Thuringia الكائنة في الاقسام الشمالية من نهر المين ثم أصبح محاددا لمناطق السكسون . أما خلفه تودبير Theudebert ٥٣٣ ــ ٥٤٨ فأضاف الى أوستراسيا أمارة بافاريا . وقد استغل هذا حروب جستنيان ضد الغوط الشرقيين في ايطاليا فسلك سبيلا أنتهازيا بين الطرفين واغار على المناطق الشمالية الايطالية وكان يطمح في اعداد حملة للاغارة على القسطنطينية . ويمثل حكم ابنه تيودبالد Theudebald ٥٤٨ ــ ٥٥٥ كارثة بالنسبة لاوستراسيا . اذ هاجم ايطاليا في أوج انتصارات نارسس Narses قائد جستنيان على الغوط الشرقيين والذي انزل بجيوش الفرنجة هزيمة كبرى في موقعة أبوليا .

لقد مات ثيوبالد بلا وريث من صلبه فانتخب القادة عمه لوثر الاول او كما يسمى شلوتاشاريوس والذي كان من اكثر حكام الميروفنجيين شرا[١٣] . ومع ذلك فقد توحدت البلاد في عهده سنة ٥٥٨ على أثر موت أخيه شلدبير والاستيلاء على املاكه . وهكذا حكم لوثر الاول كافة

(12) Deanesly, op. cit., 65-66.
(13) Ibid., 67-68.

المناطق التي خلفها كلوفس بما فيها برغندي وسائر المناطق التي ضمتها سابقا أوستراسيا . وكان عمر لوثر سبعين سنة حينما انفرد بالحكم ولم يقلل كبر السن من ضراوته وقسوته . فقد اعدم ابنه شرام Chramm وعائلته حرقا حينما اشترك بثورة فاشلة ضده . غير أن هذه الوحدة الميروفنجية لم تدم غير ثلاث سنوات ، اذ قسمت البلاد ثانية على اثر وفاة لوثر سنة ٥٦١ ، وبذلك انتهى عصر التوسع الميروفنجي[١٤] .

يقع تاريخ الميروفنجيين في الفترة الكائنة بين ٥٦١ — ٧٥١ في ثلاث مراحل . حكم الميروفنجيون بصورة فعلية في المرحلة الاولى ٥٦١ — ٦٣٩ واستبد الامراء في المرحلة الثانية ٦٣٩ — ٦٧٩ . أما المرحلة الثالثة فقد ساد فيها حجاب القصر في أوستراسيا على كافة البلاد ٦٧٩ — ٧٥١ .

المرحلة الاولى : ٥٦١ — ٦٣٩

قسمت المملكة سنة ٥٦١ على أثر وفاة لوثر الاولى فكانت حصص الورثاء كالآتي : (١) حكم شاريبر Charibert أمارة نوستريا Neustria وتشمل باريس والجهات الغربية من بلاد الغال .(٢) فاز سيجبر Sigebert باوستراسيا . (٣) أصبحت برغندي وبعض المدن الهامة بما فيها مارسيل من نصيب كونترام Guntram (٤) حكم شيلبريك Chilperic المناطق حول سواسون وتورني Tournai هذا وقد تقاسم الاخوان الثلاثة سنة ٥٧٦ مملكة نوستريا عند وفاة أخيهم شاريبر . وادت هذه القسمة الى حروب دامت أربعين سنة .

أقترن النزاع حول الاستئثار بالحكم بحروب ثأرية بين سيجبر وشيلبريك وأحفادهما وأشترك فيها كافة النبلاء والاساقفة تقريبا . وبداية ذلك زواج سيجبر من الاميرة القوطية الغربيه برونهيلد Brunhilde بنت ملك القوط . وحفز ذلك الزواج أخاه شيلبريك للاقتران بالاخت الاخرى كالسونتا Galsuintha غير أنه هجرها مفضلا عشيقته فريدكوند

(14) W. Thompson, The Middle Ages, vol. I (London, 1931) 114.

Fredegund وعندما طالبت زوجته الرجوع الى أبيها وجدت ميتة في فراشها . لذا طالب سيجبر بثأرها . وقد فضل شيلبرك أن يقدم مقاطعة اكويتين الى سيجبر كدية للقتيلة . غير ان زوجة الاخير برونهيلد اصرت على الثأر من القتلة . وهكذا بدأت الحرب الاهلية سنة ٥٧٣ واستمرت اربعين سنة هلك فيها الكثير من الناس والملوك والامراء وولدت كراهية بين قسمي الفرنجة الشرقي والغربي .

تمكن سيجبر من أحراز أنتصارات متوالية على جيوش أخيه ووقعت تحت سيطرته المناطق الممتدة بين نهري اللوار والسين . وبينما كان يحتفل باعلانه ملكا في مدينة تورني بدل شيلبريك تمكن والدا فريدكوند سنة ٥٧٥ من اغتياله . وبذلك رجحت كفة شيلبريك . ومع انه القى القبض على برونهيلد فقد عفا عنها وتوج احد ابنائها البالغ من العمر خمس سنوات شلدبير الثاني ملكا على اوستراليا[15] .

أما كونترام ملك برغندي فقد تحالف مع العناصر المناوئة لاخيه شيلبريك . واخذ يحيك المؤامرات مع انصار برونهيلد واعلن بأن ابنها شلدبير الثاني سيكون خليفته . وقد هدأت الامور نسبيا عند اغتيال شيلبريك سنة ٥٨٤ أثناء تصيده في احدى الغابات .

لم يرتح رجال الدين الى تصرفات شيلبريك طيلة حكمه . اذ قال عنه كريكوري أوف تور :[16]

لقد حرق ودمر مناطق عديدة ، ولم يشعر بوخز الضمير لا بل تراه فرحا مستبشرا بفظائعه . ما أشبهه بالطاغية نيرون الذي طفق بالغناء وقصره يشتعل نارا .. ومع أنه الف كتابين في التراتيل الا أنه ضعيف الالمام باللاتينيه وبالموازيين الشعرية ... كان شديد المقت والازدراء لملابس الرهبان ولم يتورع بكيل الشتائم الى الاساقفة . وكثيرا ما يسوق النكات الجارحة ضدهم في مجالسه الخاصة . كثير الحسد لثروات الكنيسة . وما

---

(15) Deanesly, op. cit., 267.

(16) Ibid., 268.

اكثر ما سمع عنه القول : أنظروا الى حالتنا الاقتصادية المزرية بينما ترون بام أعينكم كيف أن الاموال تنهال على الكنائس لقد أصبح الاساقفة اسياد البلد ...

أن مقتل زوجي برونهيلد وفردكوند أحدث أرباكا في توازن القوى في الصراع الميروفنجي مما فسح المجال الى كونترام ان يستغل الوضع لصالحه بأساليب مهدئة . اذ أصدر الامان لاتباع شيلبريك واغدق الامتيازات على الكنائس وتعاون مع شلدبير الثاني الذي كان قد اعلنه ولي عهده . فعاد الهدوء موقتا على أثر معاهدة أندلوت Andelot التي عقدت سنة ٥٧٨ بين كل من برونهيلد وكونترام وشلدبير الثاني عند اقتسامهم نوستريا .

لقد توفي كل من كونترام سنة ٥٩٢ وشلدبير الثاني سنة ٥٩٥ ، فأصبحت برونهيلد وصية على حفيدها تيبر Thibert متخذة مدينة متز مقرا لها .وحكم حفيدها الاخر تيري Thierry يرغندي .وعانت برونهيلد الشدائد من تمرد امراء اوستراسيا الذين اجبروها سنة ٥٩٩ على الفرار الى يرغندي . واخذت من هناك تدير الحرب ضد الأوستراسيين . غير أن الاوضاع أزدادت أرتباكا حينما أنقسم الاخوان ثيري وتيبر على نفسيهما واسفرت الحرب بين الاخوين سنة ٦١٢ عن مقتل الاول . ولم يتمتع ثيري بهذا الانتصار اذ توفي سنة ٦١٣ تاركا اربعة ابناء دون سن الرشد . لذا أرادت برونهيلد أن تكون وصية على اكبرهم البالغ من العمر اثنتي عشر سنة . ولم يرق ذلك لامراء برغندي فتحالفوا سرا مع ملك نوستريا لوثر الثاني . واسفر هذا التحالف عن القاء لوثر القبض على اولاد ثيري فاعدم الاخويين الكبيرين واحتفظ بالثالث ميروفج Merovich ولم يعثر على اثر الرابع . ثم القى القبض على برونهيلد حيث أتهمت بالمآسي التي أصابت الميروفنجيين وبتدبير الاغتيالات فحكم عليها بالاعدام بعد تعذيب لثلاثة ايام . وكان اعدامها بطريقة بشعة سنة ٦١٣ . لقد ذهبت برونهيلد ضحية لازدياد نفوذ الامراء الذين أصبحوا ينازعون الملوك سلطانهم . كما أن الانتصارات التي حققها

لوثر الثاني ملك نوستريا على برونهيلد كانت تأكيدا لازدياد سطـوة الامراء وخاصة في برغندي .

جرت عملية أعادة الهدوء الى الممالك الميروفنجية الثلاث في عهـد لوثر الثاني في مؤتمر باريس المنعقد في اكتوبر سنة ٦١٤ . ويلحظ من بعض القرارات المتخذة في هذا الشأن مقدار ما خسرته الملكيه من حقوق الى رجال الدين والامراء . وأهم النقاط التي بحثها المؤتمر هي :

١ ـ التأكيد على حرية أنتخابات رجال الدين للمراكـز الدينية في بلاد الغال . اذ اشارت احدى فقرات مقررات مؤتمـر باريس الى حالة حصول الشاغر في اسقفية ما (فيكون أختيـار المرشح الجديد بموافقة كل من رئيس اساقفة المنطقة الدينية ورفاقه وبقية السلك الكهنوتي في المدينة وسكانها . ويجب أن يجرى الانتخاب بدون استخدام التأثيرات الماليه . وأن شغل أسقـف منصبه بدون موافقة اي من الاطراف السابقة فلا يعترف به .) ومع ذلك فلم يراع لوثر الثاني ولا من جاء بعده ذلك القرار .

٢ ـ تعهد لوثر باجراء اصلاحات عامة وتنازلات للنبلاء ثمنـا لاعترافهم بسلطانه . وهذه الحادثة الاولى من نوعها في تاريخ الفرنجةوالتي يعترف بها ملك ميروفنجي بمسؤولياته القانونية . اذ عدد لوثر الاخطاء التي أرتكبها الحكام قبله ووعد بعدم تكرارها في المستقبل .

تمكن لوثر الثاني من الاحتفاظ بالحكم منذ سنة ٦١٣ عـن طريق تنازلاته الى النبلاء . حيث أصدر سنة ٦١٦ مرسومـا منح فيـه أمتيازات محلية الى الارستقراطية في برغندي وعلى رأسها حاجب القصر Mayor . كما عهد بأبنه الى وصاية كل من أرنولف رئيس اساقفة متز في اوستراسيا وحاجب القصر الاوستراسي ببين الاول Peppin ومع ذلك فقد تمكن من عدم جعل حجابة القصر وراثية في برغندي . أذ أنتهز فرصة وفاة الحاجب البرغندي سنة٦٢٧ . فعقد مؤتمرا من نبلاء تلك المملكة سألهم فيه فيما اذا كانت لهم رغبة في أنتخاب حاجب للقصر فكان جوابهم سلبيا مفضلين حكم الملك المباشر[١٧] .

(17) Ibid., 271-73.

اما داكوبير Dagobert الاول ٦٢٩ ــ ٦٣٩ فيعتبر اخر ملك ميروفنجي تمتع بسلطان حقيقي ، وحاول جاهدا الترفيه عن شعبه[١٨] . وقع الاختيار عليه بعد وفاة أبيه لوثر الثاني بدلا من أخيه الاكبر شاريبر Charibert لاصابته بلوثة عقلية . حكم داكوبير الاول المنطقة المتمركزة حول باريس المسماة Regnum Francorum التي اصبحت فيما بعد نواة فرنسا الحديثة . وكان من المنتظر ان يجعل داكوبير عاصمته في أوستراسيا التي نشأ فيها الا أنه فضل الاقتداء بسيرة اباءه باتخاذه باريس عاصمة له وكذلك لوقوع اوستراسيا على الحدود ولا تصلح أن تكون مركزا للحكم لبعدها عن اجزاء البلاد الاخرى .

هدف في سياسته الخارجية الى حماية الحدود خاصة من الجهات الشرقية من تعديات السلاف والسكسون ، اذ اخذت الجموع السلافية المستوطنة بين نهري الاودر والالبا تهدد اوستراسيا وطرق التجارة المؤدية الى بلاد الغال . لذا تحالف مع اللمبارد سنة ٦٣٢ الا أن جيوشه منيت بهزيمة نتيجة لاشتراك ملك بوهيميا سامو Samo مع بني قومه السلافيين ضد الفرنجة . وعليه استعان داكوبير بقبائل السكسون بعد أن وافق على استئناف دفع الاتاوات لهم والتي كانوا يتقاضونها منذ عهد لوثر الاول . الا ان خطته هذه جاءت بنتيجة عكسية . اذ أدت الى استفحال خطر قبائل السكسون والى ازدياد نفوذ الامراء المحليين على الحدود لتزايد صلاحياتهم العسكرية . لقد توفي داكوبير سنة ٦٣٩ وبموته أنتهى سؤدد العائلة الميروفنجية من ناحية واقعية .

لم يعد الملوك الميرفنجيون منذ سنة ٦٣٩ الا مجرد هياكل تتقاذفها أهواء الامراء وحجاب القصر في كل من نوستريا وأوستراسيا[١٩] اذ حكم كلوفس الثاني ٦٣٩ ــ ٦٥٧ نوستريا وبرغندي بواسطة الامير أوكا Aoga حتى وفاته سنة ٦٤١ ثم استعان بالامير الاقطاعي الكبير

(18) F. Guizot, History of France, vol. 1 (London, 1872) 177.

(19) Lot, The End of the Ancient World and the Beginning of the Middle Ages (London, 1931) 337.

أرشينولد Erechinoald . كما طمحت اوستراسيا الى حكومة منفصلة في عهد الملك سيجبر الثالث ٦٣٢ ـ ٦٥٦ وكانت السلطة الفعلية في تلك المملكة بيد كل من ببين حاجب القصر وهمبرت رئيس الاساقفة . وتمكن كريمولد Grimoald من الفوز بمنصب الحجابه عند وفاة والده سنة ٦٤٣ .

حاول الحاجب كريمولد في أوستراسيا الاستئثار بالملكاثناء وصايتهعلى داكوبير الثاني سنة ٦٥٦ فاعلن ابنه شلدبير ملكا وأمر بنفي داكوبير الى بواتيه ومن هنالك ابعد الى ايرلند . ودام حكم كريمولد لأوستراسيا سبع سنوات . حيث القى عليه القبض سنة ٦٦٢ من قبل زعماء المعارضه في نوستريا اثناء طريقه الى باريس وقد توفي في سجنه في السنة المذكورة. وهكذا أختفى اسم عائلة ببين المسماة بالعائلة الارنولفية لعدة سنوات من مسرح السياسة الاوستراسية[٢٠] .

وافق امراء أوستراسيا على أختيار شيلدريك الثاني ملكا ٦٦٢ ـ ٦٧٥ ، وهو أبن كلوفس الثاني ، ونظرا لصغر سنه فقد عهد بالوصاية عليه الى كل من عمته اخت الملك داكوبير الثاني والحاجب فولفولد Vulfoald كما تقلد لوثر الثالث عرشي نوستريا وبرغندي ٦٥٧ ـ ٦٧٣ ، بعد سلسلة مؤامرات حيكت بين أميرات العائلة الميروفنجية ورجال الدين والارستقراطية في نوستريا وأوستراسيا .

لقد أحتلت الارستقراطية في بلاد الفرنجة مركزا قويا في هذه الفترة وأصبح الحجاب في مراكز تضاهي مراكز الملوك . وحاول شيلدريك الثاني عبثا الموازنة بين قوى الحجاب والامراء . وعاد التنافس على اشده حول العرش عند اغتيال شيلدريك سنة ٦٧٥ في اوستراسيا . كما استمرت الحروب الاهلية بين نوستريا واوستراسيا عند عودة داكوبير الثاني سنة ٦٧٦ الى عرشه ثانيه في اوستراسيا والذي دام حكمه حتى سنة ٦٧٩ [٢١] .

---

(20) Deanesly, op., cit., 277.
(21) Ibid., 279.

المرحلة الثالثة : ٦٧٩ — ٧٥١

تميزت بسيادة الحجاب المطلقة والتى اسفرت عن نهاية الحكم النظري للعائلة الميروفنجية .

لقد شهدت سنة ٦٧٩ اغتيال داكوبير الثاني وكان ذلك أيذانا بعودة الاسرة الارنولفية الى الحجابة والحكم . اذ تمكن ببين الثاني من السيطرة على نوستريا واوستراسيا . ومع أن هذا الحاجب ابقى الملك ثيري الثالث على العرش النوستوري ٦٧٣ — ٦٩٠ الا أنه احتفظ لنفسه بالسلطة الفعليه . فهو الذي يأمر بمصادرة الاملاك وتوزيعها وتعيين الحجاب في البلاطات الاخرى . ولم يعد الملوك الميروفنجيون غير اشباح هزيلة لم يذكروا في المناسبات العامة الا لماما[22] . وقد رشح ببين الثاني عند وفاة تيري الثالث طفله المعتل كلوفس الثالث ٦٩٠ — ٦٩٤ .

لقد نهض حاجب اوستراسيا ببين الثاني بالدفاع عن البلاد . اذ كانت قبائل الفريزيين Frisians الوثنية القاطنة بين نهر الويزر Weser وبحر الشمال تحاول التوسع جنوبا . وانتزعت فعلا يوترخت من الفرنجة. وقد نجح ببين الثاني في صدها والانسحاب الى ما وراء نهر الراين .

لم يترك ببين الثاني عند وفاته سنة ٧١٤ وريثا مباشرا نظرا لوفاة اولاده جميعا وهو في قيد الحياة . فارادت زوجته بلكترود Pléctrude الحكم بواسطة احفادها فلم يوافق النبلاء . وتمكن احد احفاد ببين غير الشرعيين الا وهو شارل بمساعدة اوستراسيا والفريزيين من الانتصار على مناوئيه . كما انتصر على جيوش نوستريا . وحسن علاقاته مع امارة اكوتين حليفة نوستريا بصلح عام سنة ٧١٩ ، حيث اعترف شارل بامارة يودس Eudes في اكويتين ونفذ مطاليبه في اسناد التاج الى ملك نوستريا شلبرك الثاني ٧١٥ — ٧٢١

شارل مارتل Charles Martel : ٧١٤ — ٧٤١ .

عندما مسك شارل مارتل بزمام السلطة في البلاد الفرنجية كان

---

(22) S. Painter The Middle Ages, 284-1500 (London, 1963) 69.

عليه مواجهة مواقف صعبة تمثلـت في الفتن الداخلية والتهـديدات الاسلامية من جهات طولوز . كما اخذ الالمان والسكسون والبافاريون بالاستعداد للتحرر من السيطرة الفرنجية . أعتبر شارل مارتل رجـل الساعة والذي أستحق لقب المطرقة Hammer اي طارق الاعداء[٢٣] . ونظرا لان فترة حكمه كرست بالدرجة الاولى للدفاع عن البلاد فهي فتـرة حكم تعسفي ايضا وخاصة في قضايا الضرائب .

أنصرف شارل مارتل اولا لاعادة الهدوء الى الجهات الشرقية من بلاده وكذلك لمقاومة الخطر الاسلامي من الجنوب . فوجه حملاته لسنين عدة ضد السكسون والالمان والبافاريين . ثم قاد سنة ٧٣١ حملة ضـد اكويتن لتمردها . غير ان الخطر الاسلامي المهدد ليودس اميراكويتيـن وشارل مارتل قارب بين الطرفين . وتمكن شارل مارتل من الانتصار على الجيوش الاسلامية في ضواحي بواتيه والتي كانت بقيادة عبد الرحمـن الغافقي الذي استشهد في المعركة سنة ٧٣٢ .

لقد اوقفت موقعه بواتيه الزحف الاسلامي في بلاد الغال وادت الى خضوع اكويتين الى شارل مارتل . كما أن نهوضه بالدفاع عـن المسيحية ضد الغزو الاسلامي اعتبره من المبررات لمصادرة الاراضـي الكنسيه من اجل استخدام عوائدها لتدريب كتائب الفرسان على الطريقة الاقطاعية[٢٤] .

كان شارل مارتل صاحب السلطان الفعلي والنظري طيلة حكمـه وخاصة في السنوات الاربع الاخيرة . أذ أنه لم يرشح ملكا على فرنسـا اثر وفاة داكوبير الثالث ٧٢١ ــ ٧٣٧ ومع ذلك فلم يحاول تتويج نفسه . وقد قسم قبيل وفاته سنة ٧٤١ المملكة بين اولاده الثلاثة . فعهد الى ابنه الاكبر كارلومان اوستراسيا وثورنجيا والى ببين الثالث الملقب بالقصير نوستريا وبرغندي وبروفانسي أما أبنه الثالث كريفـو Crifo فخصص له أقطاعات موزعه بين الممالك الثلاث .

---

(23) Ibid., 69.
(24) Deanesly, op., cit., 285-287.

ببين القصير وكارلومان :

أمضيا ردحا من الزمن في أخماد الثورات في جهات بافاريا وصد غارات السكسون وكذلك مقاومتهما ثورة أخيهما كريفو . اذ التفت حول هذا العناصر المعارضة وأنتهت به ثورته الى السجن . ونظرا لان مطاليب العناصر المتذمرة تنادي بأسناد التاج الى ملك ميروفنجي لذا أتفق ببين وكارلومان سنة ٧٤٣ على تتويج شلدريك الثالث[٢٥] .

شهد الحكم المشترك لببين وكارلومان انتشار المسيحية بين قبائل السكسون على يد المبشر الانكليزي بونيفس Boniface ورفاقه وتنظيم الاديرة . كما وافق الاخوان على أيقاف عملية مصادرة الاراضي الكنسية . الا أن الاراضي الدينية التي صودرت في السابق لاغراض دفاعية فتبقى بحيازة من وزعت عليهم من الاقطاعيين على ان يدفعوا منها حصة الحكومة الى الكنيسة [٢٦] . وحكم ببين منذ سنة ٧٤٧ حتى سنة ٧٦٨ بمفرده وذلك لاعتزال اخيه الحكم ودخوله مسلك الرهبنة .

نهاية الاسرة الميروفنجية : سنة ٧٥١

لقد أنتهى حكم الاسرة الميروفنجية من ناحيته العملية والنظرية على يد ببين القصير سنة ٧٥١ . اذ قرر هذا أن يكون نفسه ملكا بعد اخذه موافقة البابوية[٢٧] . اذ أرسل في السنة المذكورة وفدا متألفا من فولارد Fulard رئيس دير القديس Denis والاسقف بوركارد Burchard الى البابا زكريا ليسألانه رأيه حول من هو اجدر بحكم المملكة ، أهو شلدريك الذي ليس له من السلطة سوى اللقب ام هو ببين السلطان الحقيقي ؟ فاجاب زكريا بأن ببين بمباركة القديس بطرس هو الملك ، وامر البابا رئيس اساقفة مينز Mainz باقامة مراسيم التتويج في سواسون سنة ٧٥١ . ويشير المؤرخ هنري بيرين الى هذا الحادث بالانقلاب الكارولنجي Carolingian Coup d'Etat [٢٨] .

---

(25) Ibid., 288.

(26) Painter, op., cit., 70.

(27) Robinson, An Introduction to the History of Western Europe, vol. I (N.Y., 1934) 99.

(28) H. Pirenne, Mohammed and Charlemagne (London, 1958) 188.

ان القوة الروحانية التي اكتسبها ببين ثبتت أقدامه في الـداخل ومكنته من التدخل في الشؤون الايطالية وخاصة بعد ان اسبغ عليـه البابا ستيفن الثاني اثناء زيارته لببين سنة ٧٥٤ لقب حامي الرومـان . واصبح دوليا يحسب له الحساب في اسبانيا وبغداد والقسطنطينية .

اهمية زيارة البابا ستيفن الثاني لببين :

التقى البابا ستيفن الثاني في اليوم السادس من يناير سنة ٧٥٤ مع ببين على بعد ثلاثة اميال من قصره في بونثايون Ponthion وقد مثـل ببين دور المرشد لجواد البابا بمسكه العنان وقيادة الحصان حسـب الطريقة التي نسبت الى قسطنطين الكبير في قيادته جواد البابا سلفستر حسب منطوق هبة قسطنطين المزورة . وتوج البابا ثانية بنفسه ببين في كنيسة القديس Denis في شهر يوليه (حزيران) من السنة المذكورة. ولم يعد خافيا على ببين ان غاية البابوية هي أن يكون حاميها من اللمبارد الذين اعتدوا على الأملاك البابوية[٢٩] .

هذا ولم يكن مشروع الحرب ضد اللمبارد مرغوبا فيه من قبـل النبلاء ولا من أخيه كارلومان . نظرا لان اللمبارد حلفاء الفرنجة بالاضافة الى ما تكلفه الحرب من نفقات في الأموال وضحايا . واراد كارلومان فعلا ان يقنع أخيه بعدم محاربة اللمبارد الا أن محاولته ادت بايداعه السجـن حيث توفي فيه سنة ٧٥٥ . كما أن لببين غايات اخرى من محـاربـة اللمبارد لان الملك اللمباردي ايستولف أصبح حاميا لاخيه المتمرد كريفو .

لقد تمكن ببين من الانتصار على اللمبارد وأجبرهم على أعـادة ما استولوا عليه الى البابوية بما فيها رافينا . وقد احتجت الحكومـة البيزنطية على ذلك رسميا سنة ٧٥٦ لأعتبار أن رافينا تابعة لها اصلا .

هذا وقد سلمت مفاتيح المدن المستردة فيما بعد الى البابوية والتي أخذت تعرف بمنحة ببين Donation of Pippin . وكونت هذه مع دوقيه روما الدولة البابوية تحت حماية ببين . واشرف الاخير على عملية تخطيط الحدود بين الجانبين[٣٠] .

---

(29) Ullmann, A History of Political Thought (Middlesex, 1965) 63-64.
(30) Ibid., 64.

الفصل الخامس

الفرنجة

القسم الثاني : شارلمان والامبراطورية الكارولنجية

بدأ عهد جديد في سماء السياسة الفرنجية والاوروبية على أثر وفاة ببين الثالث الذي عهد بحكم المملكة مشاركة بين ولديه كارلومان الثاني وشارل الذي اخذ يعرف بشارلمان Charlemagne او Carolus Magnus اي شارل العظيم[1] . توضحت أتجاهات ذلك العهد بعد أنفراد شارلمان في الحكم على أثر وفاة أخيه سنة ٧٧١ . ونهض شارلمان بمشاريع خطيرة في المجالات العسكرية والداخلية والدبلوماسية .

---

(1) H. Pirenne, A History of Europe from the Invasion to the XVI Century (N.Y., 1955) 80.

المجالات العسكرية :

حتمت عملية مشاريعه التوسعية في الجهات الشرقية نقل عاصمتــه من باريس الى اكس لا شاپيل (آخن) فــاصبحت جهات الراين مركز الثقل السياسي في العهد الكارولنجي[2] . واعظم الفتوحات التى قام بها شارلمان هي على حساب القبائل السكسونية . نعم حاول الميرفونجيــون فعلا ضم المناطق السكسونية وكذا فعل الحاجب شارل مارتل الذي قام بعشر حملات على السكسون . ومع ذلك فقد بقيت هذه القبائل وثنية ومستقلة ومعادية للفرنجة .

تألف السكسون من ثلاث مجموعات قبلية هامة : الويستفاليــــه Westphalians في جهات نهر أمز Ems وهضاب أرسبـــورك Eresburg ، ثم الانكارية Angarians القاطنون حول نهر ويذر Weser ،والمجموعة الثالثة هي الايستفاليه Eustphalians الساكنة حول نهر الالبا وجبال الهرز Harz [3] . أتبع شارلمان للاستلاء على السكسون اسلوبين . الاول تشجيع الفعاليات التبشيرية المسيحية بيــن هذه القبائل لا سيما أن أنتشار المسيحية معناه انتصار الفرنجة حلفــاء كنيسة رومــا .

أما الاسلوب الثاني فكان عسكريا . ودامت حملاته على السكسون من سنة ٨٧٠ حتى ٨٠٤ [4] . وبالرغم من دفاع تلك القبائل عن استقــلالها وتراثها فقد تمكن شارلمان من اكراه الزعيم السكسونــي ودوكاينــد Widukind على الاستسلام وأعتناق المسيحية . ومع ذلك أستمرت المقاومة بين الطرفين . وخير شارلمان السكسون بين الموت او أعتنــاق المسيحية ، واعدم في يوم واحد (٤٥٠٠) من هؤلاء لرفضهــم ذلـــك المعتقد[5] .

---

(2) M. Deanesly, A History of Early Medieval Europe, 476-911 (London, 1960) 312.

(3) Ibid., 356.

(4) Pirenne,op.cit., 82.

(5) Cambridge Medieval History, Vol. 11, 613.

قادت حربه مع السكسون الى الاصطدام بقبائل أخرى . وكتب النصر لشارلمان على بافاريا واجبار زعيمهم تاسيلو Tassilo على الاعتراف بتبعيته اليه[6] . كما أستولى على بوهيميا سنة ٧٩١ . واتبع حرب ابادة ضد الافاريين سنة ٧٩٩ [7] .

أمتدت فتوحات شارلمان الى أيطاليا على حساب اللمبارد بالدرجة الاولى . والسبب المباشر لهذه الحرب هي الدعوة التي تلقاها من البابا أدريان الثاني Hadrian سنة ٧٧٣ لانقاذه من غزو الملك اللمباردي دزيدريوس للولايات البابوية[8] . وصادفت حملته ضد اللمبارد معارضة قوية من قبل والدته برترادا Bertrada ذات التأثيرات الكبرى في سياسة المملكة . اذ أعتقدت هذه بأن العلاقات السلمية مع اللمبارد خير من نقيضها وذلك لاواصر المصاهرة بين العائلتين الحاكمتين . أذ كانت زوجة شارلمان الاولى أخت الملك اللمباردي . غير أن شارلمان رأى في عدم مساعدته البابا تناقضا للسياسة الفرنجية التقليدية في تحالفها مع البابوية هذا بالاضافة الى أحقاده الخاصة على اللمبارد . اذ أن شارلمان قد استولى على ممتلكات أخيه بعد وفاته متجاهلا حق ولديه الصغيرين . وقد التجأت أرملة كارلومان مع طفليهما الى البلاط اللمباردي[9] . وتمكن شارلمان من القضاء على الدولة اللمباردية سنة ٧٧٤ واسند في تلك السنة التاج اللمباردي الى ولده ببين . وقام بدوره باعطاء البابوية منحة جديدة عرفت بمنحة شارلمان عند زيارته للبابا في عيد الفصح سنة ٧٧٤ . وتألفت المنحة من منطقة رافينا وسبوليتو Spolito وبنيفنتو Benevento [10] . لذا كافأه البابا على ذلك بمنحه لقب حامي الرومان. واتخذ شارلمان على أثر ذلك لقب ملك الفرنجة واللمبارد وحامي الرومان. وقادته سياسته الايطالية الى الاصطدام مع البيزنطيين . اذ تحالف

---

(6) Deanesly, op. cit., 368.
(7) Pirenne, op. cit., 33.
(8) W. Durant, the Age of Faith, 325-1300 (N.Y., 1950) 462.
(9) Deanesly, op. cit., 326.
(10) Ibid., 346.

وريث العرش اللمباردي مع القوات البيزنطية . غير أن شارلمان انتصر على هذا الحلف سنة ٧٨٨ واحتل أستريا Istria العائدة للدولة البيزنطية[11] .

شارلمان يصبح امبراطورا سنة ٨٠٠ .

التجأ البابا ليو الثالث الى شارلمان سنة ٧٩٩ طالبا المساعدة ضد ثورة داخلية في روما . فاستجاب له واعاد الامور الى نصابها . وفي يوم عيد الميلاد لسنة ٨٠٠ بينما كان شارلمان زائرا كنيسة بطرس في روما اذ البابا يضع تاج الامبراطورية الرومانية على رأسه واعلنه امام الملأ امبراطور الرومان . ويذكر لنا أينهارت Einhard مؤرخ البلاط الكارولنجي بأن شارلمان لو عرف بخطة البابا تلك لما دخل الكنيسة ذلك اليوم[12] . وعلى كل يجب أن يؤخذ ذلك القول بتحفظ . لان شارلمان يطمح الى التاج الامبراطوري وكانت تمهد له حاشيته . وهذا ما يمكن فهمه من احدى الرسائل التي بعث بها الكوين Alcuin احد اقطاب الاكاديميه الكارولنجيه ، الى البابا المذكور يحثه فيها على تتويج شارلمان أمبراطورا ويبين له مبررات ذلك[13] . وقد أصبح اللقب الامبراطوري هذا موضع اراء تاريخية مختلفة[14] .

حقا أن حادثة التتويج هذه تبدو تافهة لاول وهلة ، وذلك لان شارلمان كان فعلا صاحب السلطان وما المنصب الامبراطوري الا أعتراف بالامر الواقع . ومع ذلك فقد اعطى الحادث شارلمان وخلفاءه حجة شرعية للسيادة الامبراطورية . والتتويج ايضا من الحوادث الهامة التي أمتزجت فيها السلطتين الدينية والزمنية وأصبحت فيما بعد من النقاط الجدلية العويصة التي كدرت العلاقات بين السلطات الزمنية والدينية .

---

(11) Ibid., 348.

(12) Strayer and Munro, the Middle Ages, 395-1500 (N.Y., 1942) 90.

(13) A. Vasiliev, History of the Byzantine Empire, vol. I (Madisan 1964) 265.

(14) J. Bryce, The Holy Roman Empire (London, 1950) 60-62.

اما الاسباب التي دعت ليو الثالث لتتويج شارلمان امبراطورا فأهمها : عدم الوئام بين الكنيستين الغربية والشرقية ونفور البابوات من سياسة أباطرة البيزنطيين في المجالات الروحية والزمنية . وكذلك استنكار البابوية والمسيحيين في العالم الغربي اعتلاء الامبراطورة أيرين Irene العرش البيزنطي سنة ٧٩٧ بطريقة غير أنسانية بأعتدائها على ولدها . هذا ولم يسبق أن تولت امرأة العرش الامبراطوري ولا يتسنى لها وراثة بطرس في سلطته الزمنية على العالم المسيحي ، لذا فقد أعتبر البابا ليو الثالث ان عرش الامبراطورية قد أصبح شاغرا[15] . وهناك ايضا عامل حاجة البابوات المستمرة للحماية من اعدائه في داخل روما وخارجها .

سياسته الداخلية

أصبح شارلمان أثر التتويج حاكما ثيوقراطيا وان حقه في الحكم حق الهي حسب نظرية السيفين . وأهتم بنشر المسيحية بين السكسون وحماية البابوية من اعدائها فساهم بصورة مباشرة في تثبيت الدولة البابوية التى لم تعد لتعترف من الناحيتين الواقعية والنظرية بالنفوذ البيزنطي منذ سنة ٨٠٠ م . وتتوضح الخدمات التي قدمها شارلمان للدين في تشجيعه الاديرة وحمايتها وفي تقوية وسائل الدفاع على الحدود الاسبانية منعا لتسرب النفوذ الاسلامي الى الجهات المسيحية . وكذلك في شنه الغارات على اسبانيا .

وحاول من ناحية ادارية الحد من الاتجاهات الاقطاعية اللامركزية المتزايدة وذلك عن طريق جهاز التفتيش الاداري . اذ خصص هيئات مراقبة Missi Dominici أي رسل السلطان تتألف كل منها من رجل دين واخر علماني[16] . مهمتها التجوال في المناطق الادارية مرتين سنويا لغرض عقد المحاكم العليا وتقديم التقارير عن ثروات الضياع الاقطاعية .

ومع أن شارلمان توخى من سياسته السابقه السيطرة على الامراء فأن سياسته العسكرية قدادت الى أزدياد نفوذهم . اذ أوعز الى كافة الفرسان

(15) Vasiliev, op., cit., 265.

(16) S. Painter, A History of the Middle Ages, 284-1500 (London, 1963) 79-80.

الانضواء تحت قيادات أقطاعية كبرى وان يجتمعوا تحت الوية هؤلاء مرتين سنويا باستعراضات عسكريه يشرف عليها الامبراطور . كما أن مشاريعه الحربيه حتمت عليه زيادة الجند . اذ أمر كل حر يمتلك مساحة تعادل ٢٧ اكرا تأدية الخدمة العسكرية سنة ٨٠٨ حسب مرسوم صدر في هذا الصدد . بينما كانت الخدمة العسكرية في العهد الميروفنجي الزامية على من يمتلك ٣٦ أكرا . وحتم على المؤسسات الكنسية التي تمتلك الاراضي القيام بارسال حصتها من الفرسان الى الجيش المركزي[17] .

أتخذ شارلمان عدة اجراءات لمعالجة الاوضاع الاقتصادية في امبراطوريته . اذ أمر باصلاح طرق المواصلات الرومانية القديمة وربط الانهر الرئيسية بعضها مع بعض بالقنوات . ثم أوجد اوزانا ومقاييس موحدة[18] . وعمل على توحيد العملة ومركزيتها . ونظرا لندرة الذهب لجأ الى اصدار العمل النحاسيه والفضية . الا أنه أوجد عملة ذهب للمملكة اللمباردية نظرا لاستمرار التجارة في تلك الجهات عن طريق البحر المتوسط[19] . هدف من هذه السياسة تبسيط التبادل التجاري داخليا وخارجيا في الجهات البحرية . غير أن هذه الاجراءات لم تمنع التجارة من التدهور لانتشار الاقطاع والتعود على التعامل النوعي ولتدهور المتاجرة عن طريق البحر المتوسط للسيطرة الاسلامية . وكذلك لاعراض المجتمع المسيحي الغربي عنها لاعتبارات دينية ولاعتمادهم الكلي على الزراعة[20] .

تعتبر سياسة شارلمان في المجالات الثقافية الفريدة من نوعها في العصر الوسيط الاوروبي . لذا أشير اليه بأنه من واضعي أسس النهضة الاوربية . احدثت سياسته في ذلك المجال نشاطا ادبيا ملحوظا اطلق عليه المؤرخون فيما بعد النهضة الكارولنجية Carolingian Renaissance .

ولكن على علم بأن هذه النهضة لم تكن شاملة كما أن الكثير من جوانبها قد زال بزوال أقطابها . ومع ذلك نجحت بأمرين حيويين . الاول أنها

---

(17) Deanesly, op., cit., 341.
(18) H. Pirenne, Mohammed and Charlemagne (London, 1958) 247.
(19) Ibid., 244.
(20) Ibid., 262.

عملت على انتشال الثقافة الاوروبية من موت بطيء محقق ، والثاني أنها أشيدت على اساس ثقافي متين استمر من بعد سقوط الامبراطـوريـة الكارولنجية . وهكذا كونت تلك النهضة نقطة الانطلاق الثقافي للعصر الوسيط[21] .

طالما أن امبراطورية شارلمان محاولة لاعادة توحيد أوروبا الغربية أو اعادة بناء الامبراطورية الرومانية هناك فقد جعلت التراث الكلاسيكـي قدوة لها . وهدفت الى وصل حاضرها بالتقاليد الرومانية . اذ أشار قطب النهضة الكارولنجية ألكوين Alcuin مخاطبا شارلمان (لو تم تنفيذ ما يجول بخاطرك فمن المتيسر لنا انشاء أثينا جديدة في فرنسا أفضل وأجل من أثينا الاولى لان التعاليم المسيحية قد شرفت أثينتنا ...)[22] . هنـا يكمن جوهر النهضة الكارولنجية . اذ هدفت من جهة الى ربط حاضرها بالتراث القديم مؤكدة من جهة ثانية أختلافها عنه . فلـم يطمح اقطاب تلك النهضة الى العصور القديمة فحسب بل واصلوا الجهود لايجاد تعليـم أثيني في اطار مسيحي .

أحتل الاهتمام بالتعليم مكانة كبرى في سيـاسة الامبراطوريـة الكارولنجية . ولا عجب في ذلك . فلا يمكن للامبراطورية الدوام انذاك بدون كادر ديني متعلم مدرب . وها نحن نلحظ لاول مرة وجود سياسة تعليمية واعية ذات أهداف دينية منذ البدايـة .

كان من المتعذر حقا على الكارولنجيين القيام بمشروعهم التعليمـي بغير الاستعانة بقادة بعض المراكز التعليمية المتبعثرة المنعزلة هنا وهنـاك في المؤسسات الديرية الاوروبية، فبالرغم من أن الاقطار الاوروبية آنذاك في بحرلجي تسوده دياجير الظلمة فكانت مثلا في نورثمبريـا Northumbria في بريطانيا حركة تعليم دينية قدر لها أن تكون قبسا للنهضة الكارولنجية . اذ أستعان شارلمان بمشروعه الثقافي بألكوين Alcuin ٧٣٥ — ٨٠٦ ، الذي كان مديرا لمدرسة يورك . دعاه شارلمان الى بلاطه ليتولى الشـؤون

(21) G. Leff, Medieval Thought, St. Augustin to Ockham (Middlesex, 1962) 55.
(22) Ibid., 55-60.

التعليمية في مدينة آخن Achen او اكس لاشابيل سنة ٧٨٥ . تقلد في البداية رئاسة مدرسة البلاط وانتهى به المطاف رئيسا لدير القديس مارتن في مدينة تور حيث أنكب فيه على تطوير الخط اللاتيني مستعيضا عن الحروف الكبيرة بأخرى صغيرة واصبح يعرف ذلك الخط بالكارولنجي الذي اعتبر من أجمل الخطوط وأوضحها في العصر الوسيط . هذا ويعتبر الكوين قلب النهضة الكارولنجية النابض وان فعالياته الثقافية أصبحت جزء من التراث التعليمي للعصر الوسيط[23] .

كانت هناك ثلاثة انواع من المدارس هي الديرية والكتدرائية ومدارس القصر الامبراطوري . ثم اسس شارلمان مركزا للدراسات العليا دعاه بالاكاديمية . والاخيرة أشبه بكلية متألفة من حلقات دراسية تقليدا لليونان . وأصبح شارلمان الرئيس الفخري للاكاديمية . وكانت هذه مقتصرة على نخبة من الطلاب والاساتذة لمناقشة مواضيع اللاهوت والفلسفة اليونانية . واعطى شارلمان أهمية خاصة لمدارس القصر من شأن تثقيف الامراء وتدريبهم على الاعمال الادارية[24] .

احاط شارلمان نفسه بحاشية ضمت نخبة من علماء العصر استقدمهم من أقطار أوروبيةغربية . ومن بين هؤلاء بولص الشماس Paul the Deacon ٧٢٥ ــ ٧٩٧ مؤلف كتاب تاريخ اللمبارد والذي أختص بتدريس اللاهوت وبطرس اوف بيزا أستاذ اللاتينية في مدرسة البلاط . وهناك اساتذة من اسبانيا أمثال رئيس اساقفة ليون اكوبارد Agobard وهو من أقطاب علماء الدين ، ثم اسقف مدينة اورلي ثيودولف Theodulf المختص بالشعر والادب[25] .

ومن اساتذة الاكاديمية الشهيرين أينهارت Einhard فرنجي الاصل تخصص في الفلسفة والتاريخ وأصبح مؤرخ البلاط الكارولنجي . ولد سنة ٧٧٠ وتلقى ثقافته الاولى في دير فلودا Fluda ثم التحق ببلاط

---

(23) Ibid., 59-62.

(24) Robinson, An Introduction to the History of Western Europe, vol. I (Boston, 1946) 116.

(25) Leff, op., cit., 61.

شارلمان سنة ٧٩١ . فاعجب به الكوين الذي اوصى شارلمان به خيرا لما توسمه فيه من ذكاء . وكان اينهارت قصيرا ونحيفا وأن هيئته الجسمية لا تتناسب مع مواهبه العقلية . لذا أشار اليه الكوين ذات مرة مداعبا (لا ضير في ذلك فالنحلة الصغيرة تنتج العسل وبالرغم من صغر العين فهي تقود الجسم) . استمر اينهارت صديقا لشارلمان ووفيا لورثاءه لمدة عشرين سنة . وقد وثق به النبلاء وثوقا مطلقا . فعندما عقد شارلمان مؤتمرا سنة ٨١٣ لاستشارة النبلاء في أمر ولاية العهد اختاروا اينهارت ممثلا عنهم . توفي هذا سنة ٨٤٠ ومن أشهر مؤلفاته التي خلفها هو كتاب تاريخ حياة شارلمان[٢٦]

ومن بين الاساتذة الاخرين في النهضة الكارولنجية ، الفيلسوف الانكليزي تلميذ الكوين الا وهو فردجيزوس Fredegisus صاحب كتاب Nihilo et tenebris وهذا عبارة عن موضوع في طبيعة العدم Nothingness ،واثارت اراؤه معارضة رئيس اساقفة ليون اكوبارد . ثم الاستاذ رابان مور Raban Maur الذي يعزا له نشر التعليم الكارولنجي في جرمانيا واعتبر المؤسس للتعليم في ذلك القطر . ومن كتبه المؤسسة الاكليروسية وضعه لتثقيف الراغبين الانخراط في السلك الكهنوتي اكد فيه دراسة العلوم الحرة واهمية الفلسفة اليونانية فيمساعدتها على فهم الدين[٢٧] .

ومما يؤخذ على هذه النهضة الكارولنجية خلوها من الابداع والاصالة وان انتاجها لا يتعدى حدود النقل من الفلسفة اليونانية وخاصة فلسفة افلاطون التي اعتمدت عليها الكنيسة . وتتسم النهضة الكارولنجية أيضا بمحاكاتها لافكار فلاسفة المسيحية الاوائل واساليبهم . ومع ذلك فكان لها تاثيرات ملحوظة على جيل الامبراطورية الثاني . اذ ظهرت مساجلات حول القضاء والقدر وطبيعة المسيح وعلاقته بالله[٢٨] . ومهما

(26) Deanesly op., cit., 317-319.
(27) Leff, op. cit., 62.
(28) Strayer and Munro, op. cit., 94.

يكن من أمر هذه النهضة فقد بقيت منعزلة كواحة في فيافي صحراء من الجهل ، ومما أوهى خيوطها هي الغزوات التي أنهالت على اوربا في القرنين التاليين .

سياسة شارلمان الخارجية

تتمركز سياسته الخارجية أولا في تلافي الخطر الاسلامي من جهات اسبانيا بالضغط والتدخل العسكري وبناء الاستحكامات على الحدود Marches والدس بين زعماء المسلمين هناك . ثانيا : الضغط على البيزنطيين للاعتراف بسياسته الايطالية وبلقبه الامبراطوري . ومن هاتين النقطتين الاساسيتين قد يمكن لنا أن نفهم علاقاته الدبلوماسية مع الاسرة العباسيه في بغداد .

هناك أشارات تاريخية تفيد أن العلاقات الدبلوماسية بين البلاطين الكارولنجي والعباسي بدأت منذ حكم بيبن الثالث واستمرت في عهدي شارلمان وابنه لويس بايوس[٢٩] . ولعل الثورة التي قادها العلاء بن مغيث ضد عبد الرحمن الداخل والتي دعا فيها لابي جعفر المنصور الخليفة العباسي قد شجعت بيبن على فتح المفاوضات مع العباسيين بالرغم مما أصاب تلك الثورة من فشل ذريع . اذ أرسل بيبن سنة ٧٦٢ وفدا الى بغداد رجع بعد ثلاث سنوات الى فرنسا ومعه رسل من الخليفة[٣٠] . نزل الوفد في مرسيليا وتوجه لمقابلة بيبن الذي كان انذاك في مدينة متز . وأمضى رسل الخليفة فصل الشتاء في قصر سلس Sels على ضفاف نهر اللوار ثم رجعوا الى الشرق عن طريق مرسيليا ومعهم هدايا الى الخليفة[٣١] .

لقد سار شارلمان على خطة أبيه تجاه الامويين في الاندلس والعباسيين في بغداد . ولم يأل جهداً في التدخل بين زعماء المسلمين في اسبانيا والتقرب الى زعماء المسيحيين فيها . اذ كان شارلمان يفضل

---

(29) شكيب أرسلان ، تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط (القاهرة ، ١٣٥٢) ١٣٣

(30) A. Atiya, Crusade, Commerce and Culture (London, 1962) 35.

(31) أرسلان ، المصدر السابق ، ١١٨ .

بين خصومات الاسبان المسيحيين ويتوسط لهم عند البابوية . وقد أنتهز فرصة تمرد سليمان والي برشلونه للتدخل في اسبانيا . اذ وفد هذا على شارلمان سنة ٧٧٧ طالبا مساعدته عسكريا ضد السلطان الاموية وكان شارلمان انذاك في ويستفاليا في الجبهة السكسونية . وبالرغم من انشغاله في تلك الجبهة فقد قبل دعوة سليمان وزحف بفرقتين على اسبانيا . سارت الفرقة الاولى باتجاه جيرونا Gerona بعد أجتيازها جبال البرانس الشرقية . وكانت الفرقة الاخرى تحت قيادته المباشرة تقدم بها عن طريق بامبلونا Pampeluna - عاصمة دولة نافار المسيحية. وسقطت المدينتان بيد الفرنجة . ثم توجه الجيشان الى ساراكوسا Saragossa حيث فرضا الحصار عليها بدون جدوى . وقرر الانسحاب سنة ٧٧٨ على أثر تهديد السكسون لبلاده ولفشل خطة سليمان في كسب الاعوان المسلمين الى شارلمان . وكان أنسحابه عن طريق احد اودية جبال البرانس Roncevalles والذي يسميه العرب باب الشزرى . وهناك هاجمت قبائل الباسك Basques مؤخرة الجيش التي كانت تحت رولان Roland أمير بريتاني في فرنسا ، فأبادوها بما فيها رولان بعد أن دافع دفاعا مجيدا توضحت فيه صفات الفروسية الحقة . وقد نسج الخيال الفرنسي حول هذه الحادثة هالة من الاوهام والخرافات في القرن الحادي عشر أبان الحروب الصليبية[٣٢] .

هذا وقد أرسل شارلمان سنة ٧٩٧ وفدا الى هارون الرشيد وأمر الوفد المرور بالقدس قبل ذهابه الى بغداد ليتفقد احوال المسيحيين وزوار ذلك البيت المقدس وان يتوسط لدى الخليفة في تسهيل مهمة زوار القدس . فاستقبلهم الخليفة ووعدهم خيرا[٣٣] . وبعث هارون الرشيد سنة ٨٠٦ الى شارلمان هدية من منسوجات حريرية وقطنية وفيلا ابيض بناء على طلبه وساعة من نحاس أصفر تتحرك بالماء وتدق اثنتي عشرة مرة بعدد ساعات النهار . ونزل الوفد (في قدمته من الشرق في

---

(32) The Song of Roland, tr. by Dorothy Sayer (Middlesex, 1959) 7-8.
(33) Atiya, op. cit., 36.

مدينة بيزا وحملت الهدايا بأبتهاج عظيم الى اكس لاشابيل مركـز الامبراطور شالمان . فقدموا له هدايا الخليفة وأخبروه بانه يضع مودته فوق مودة كافة الملوك)[٣٤] .

لقد توقفت العلاقات بين الكارولنجيين والعباسيين موقتا علـى أثر وفاة هارو نالرشيد سنة ٨٠٩ وللحروب بين الامين والمأمون . ولعل التسوية التي تمت حول اللقب الامبراطوري لشارلمان مع البيـزنطيـين سنة ٨١٢ من جملة العوامل التي ادت الى توقف العلاقات بين الدولتين في عهد شارلمان . الا أنها استؤنفت في عهدي لويس بايوس والمأمون .

ان العلاقات الكارولنجية ـ العباسية من المواضيع التي تعددت فيها الاراء وتشعبت من حيث صحتها ومداها . فهناك من أنكر وجود ايـة علاقة من هذا النوع وذلك لسكوت المصادر العربية المعاصرة عـن الموضوع . ومنهم من أخذ بصحتها معتمدين على ما جاء بـه المؤرخ الكارولنجي أينهارت من أخبار . ومع ذلك فأن سكوت المصادر الاسلامية المعاصرة عن هذه العلاقات لا يعني نفيها أطلاقا وليس من المعقول ان تختلق المصادر الكارولنجية هذه الاخبار اختلاقا فلا بد أذن من وجود صلات ودية بين البيتين الكارولنجي والعباسي . ومن المحتمل ان يكون الكارولنجيون قد هدفوا من وراء تلك العلاقات تاييد العباسيين المعنوي لتدخلاتهم في اسبانيا لكي يظهروا من يعتمدون عليهم من المسلميـن في الاندلس بانهم يقاومون الامويين لكونهم لا يعترفون بالخلافة العباسية . ولعل الكارولنجيين قد توخوا ايضا من هذه العلاقات خدمة المسيحيين بتأمين مصالحهم في الاراضي المقدسة والسهر على راحة حجاج القدس . ومن هنا نشأ الرأي القائل بأن شارلمان وضع اسس النفوذ الفرنسي في البلاد الشامية . ويستندون في ذلك على ما أنشأه من مؤسسات خيريـة هناك وأرسال رئيس أساقفة القدس مفاتيح كنيسة القيامة لشارلمان بوفد رسمي سنة ٨٠٠ [٣٥] . ومن الجائز ان يكون شارلمان قد هدف من هـذه

---

(34) ارسلان ، المصدر السابق ، ص ١٣٣ .
(35) Atiya, op. cit., 36 - 37.

العلاقات استمرار الضغط على البيزنطيين من جهات الشرق من قبـل العباسيين ومن قبله من جهات الغرب ليعترفوا به امبراطورا ولينصاعـوا الى نداء كنيسة روما في التوحيد العقائدي . ومن المحتمل ايضا ان يكون العباسيون قد هدفوا أيضا الى الضغط على كل من البيزنطيين والامويين في الاندلس عن طريق الكارولنجيين . ولهذا فمن الممكن ان يـرى الكارولنجيون والعباسيون في كل منهما حليفا طبيعيا ومصلحة مشتركة . هذا مع العلم بان البيزنطيين حاولوا عكس ذلك التـوازن الدولـي بمفاوضاتهم الودية مع الامويين في اسبانيا .

اخذت علاقات شارلمان مع الامبراطورية البيزنطية تتجه اتجاهـات سلبية نظراً لتوسعه نحو الجهات الشرقية من اوروبا واقتراب خطره من الامبراطورية البيزنطية وكذلك لتوسعه في ايطاليا على حساب المناطـق العائدة للبيزنطيين ولبسط حمايته على الولايات البابوية التي يعتبرهـا البيزنطيون تابعة لنفوذهم وكذلك للاختلافات المذهبية بين الكنيستين الشرقية والغربية . وقد توجت هذه العلاقات السلبيه بقبول شارلمان التاج الروماني .

حقا هناك بعض الاراء تشير الى ان شارلمان كان يرغب ان يكون أمبراطورا في الجهة الغربية فقط بينما أرادته البابوية أن يكون امبراطورا أوحدا لكافة المجتمع المسيحي حسب ما تذهب اليه نظرية السيفين[٣٦] . ومع ذلك حاول شارلمان ان يسوى مشكلة خلافه مع البيزنطيين بأساليـب سلمية . ومن جملة حلوله في هذا الشأن ربط العائلتين الحاكمتين فـي الغرب والشرق بأواصر المصاهرة . فهناك اقتراحان لم يكتب لهما النجاح . الاول : محاولة تزويج قسطنطين الخامس بن أيرين قبل استئثار أمـه بالعرش من احدى بنات شارلمان . والثاني اقتراح شارلمان الزواج مـن أيرين . الا أن هذه المحاولة من جملة اسباب اشعال الثورة ضد الامبراطورة أيرين سنة ٨٠٢ والتي اسفرت عن خلعها[٣٧] . وعليه بقيت مشكلة التـاج

(36) Ullmann, A History of Political Thought, (Middlesex, 1965) 68.
(37) Vasiliev, op. cit., 267 - 68.

الامبراطوري تكدر العلاقات بين الجانبين حتى تم الاتفاق عليها سنة ٨١٢. هذا ولم يكن اعتراف البيزنطيين بلقب شارلمان يتضمن تنازلهم عن سيادتهم النظرية على القسم الغربي وانما هو أشبه بالاعادة لوضع الامبراطورية السائد اثناء حكم أنوريوس واركاديوس[٣٨] . وكان ثمن اعتراف البيزنطيين بشارلمان تنازله عن فينسيا التي احتلها سنة ٨٠١ وأرجاعها الى الدولة البيزنطية[٣٩] .

انحطاط الامبراطورية الكارولنجية وسقوطها :

ناهيك عن سعة الامبراطورية ورداءة المواصلات وصعوبة الدفاع عنها وعدم ظهور شخصية قوية بعد شارلمان فهناك ثلاثة اسباب هامة لانفراط عقد الامبراطورية الكارولنجية هي (١) قاعدة تقسيم المملكة بين الورثاء (٢) الغزوات التي قامت بها الجموع الاسلامية والشمالية والمجرية على الامبراطورية بصورة خاصة وعلى اوروبا عامة (٣) أزدياد الاتجاهات اللامركزية للاقطاع .

١ ــ قاعدة التقسيم :

كانت قاعدة التقسيم متبعة منذ فجر السلالة الميروفنجية ، ولم تشذ الاسرة الكارولنجية عن ذلك ولم تستفد من دروس الماضي في هذا المضمار . فالصدف وحدها أنقذت شارلمان من خوض غمار الحرب ضد أخيه كارولومان اذ توفي بعد ثلاث سنوات من الحكم بعد أن وصلت العلاقات بين الاخوين حد الانفجار[٤٠] . كما أنه لم يبق من اولاد شارلمان في قيد الحياة سوى لويس بايوس الذي توجه امبراطورا مشاركا قبيل وفاته سنة ٨١٣ بدون مشاركة البابا بذلك التتويج[٤١] . ويمكننا تقسيم المرحلة التي حكم فيها لويس بايوس (الورع) ٨١٤ ــ ٨٤٠ الى فترتين : تمتد الاولى من سنة ٨١٤ حتى سنة ٨١٧ ولم يحدث فيها ما يكدر

(38) Ibid., 68.
(39) Pirenne, op. cit., 178.
(40) Deanesly, op. cit., 326.
(41) Bryce, op. cit., 61.

الصفو العائلي . وتمتد الثانية من التاريخ الاخير حتى سنة ٨٣٧ حيث تعرضت فيها الامبراطورية للحروب الاهلية نتيجة لانشقاق الاسرة الحاكمة. والسبب في ذلك محاولات لويس بايوس الرامية لتقسيم الامبراطورية بين اولاده . ومن أهم محاولاته في هذا الشأن هما في تاريخي ٨١٧ و ٨٣٧ . أذ قسم في التاريخ الاول الامبراطورية بالتساوي بين اولاده الثلاثة وهم لوثر Lothair وببين ولويس ، وجعل اللقب الامبراطوري الى ابنه الاكبر لوثر . ومن هنا بدأت المشكلة . أذ أهمل الاب تقديم الضمانات الكافية للمحافظة على حصة برنارد Bernard أبن أخيه في ايطاليا .

فثارت ثائرته ونشبت الحرب واسفرت عن دحر جيوش برنارد وأصبح طريد القانون واراد العم ان يقتص من أبن أخيه عن طريق المراوغة والخداع . فأصدر له ولعائلته امانا وجيء بهم ضيوفا عليه . وما هي الا أيام معدودات حتى شرع الامبراطور في اعتقال ضيفه وتعذيبه وتسميل عينيه ففاضت روحه . وحدث أن توفيت زوجة لويس بايوس في السنة التالية وقد تطير كثيرا من وفاتها واعتبرها لعنة السماء على فعاله . لذا بدأ ضمير الامبراطور بالاستيقاظ فتجسمت له المأساة وأصبح نهب الهواجس فاراد التكفير عن ذنبه فعقد مجلسا عاما ضم الامراء ورجال الدين في مدينة Attigny سنة ٨٢٢ قام معترفا بخطاياه والاثام التي أرتكبها . ان الرضاء النفسي الذي حصل عليه الورع من الاعتراف ولد له مشاكل عدة مع امرائه ، والاستهتار بهيبته[42] .

حدثت المشكلة الرئيسية الناجمة عن قاعدة التقسيم في حكم لويس الورع سنة ٨٣٧ . اذ استقر رأيه على اعادة تقسيم الامبراطورية نظرا لولادة وريث جديد له اسمه شارل من زوجة اخرى يقال لها جوديث Judith . لذا بدأت العلاقات بالتردي بين الأب وولديه لوثر ولويس الذي لقب بالجرماني ، فنشبت عدة حروب بين الجانبين . ثم توصل الاب الى اتفاق نهائي مع ولده الاكبر لوثر سنة ٨٣٨ . ومما سهل الاتفاق وفاة ببين وأنشغال لويس الجرماني في محنة عائلية افقدته اتباعه في حينها فلم يقام له وزن عند الاتفاق .

(42) Strayer and Munro, op. cit., 98.

ولم ينته الامر عند ذلكالحد . أذ نشبت الحرب بين الاخوة الثلاثة عند موت لويس الورع سنة ٨٤٠ واستمرت حتى سنة ٨٤٣ حيث عقدت بينهم معاهدة Verdun قسمت فيها الامبراطورية الى ثلاثة أقسام هي :

١ ــ أستلم لوثر الاول ٨٤٠ ــ ٨٥٥ حوض الراين وايطاليا واللقب الامبراطوري ، وأشير الى هذه الدولة بالمملكة الوسطى .

٢ ــ حكم لويس الجرماني ٨٤٠ ــ ٨٧٦ الاقسام الكائنة الى الجهات الشرقية من المملكة الوسطى ، والتي عرفت باسم جرمانيا .

٣ ــ حصل شارل الذي لقب بالاصلع الاقسام الواقعة الى الجهات الغربية من المملكة الوسطى .

ان لمعاهدة فردان Verdun أهمية خاصة في تاريخ أوربا . اذ أنها ميزت لاول مرة بين الاقسام الشرقية والغربية للامبراطورية الكارولنجية، فكانت الاولى نواة لالمانيا والثانية لفرنسا[43] . وتعتبر تلك المعاهدة بداية الصراع التاريخي بين المانيا وفرنسا حول المنطقة الوسطى ذلك الصراع الذي استمر متقطعا حتى نهاية الحرب العالمية الثانية . كما أنها أرت بداية الفوارق القومية بين المانيا وفرنسا منذ تلك المرحلة المبكرة . وهذا ما يلحظ من قسم ستراسبورك Strasburg Oath سنة ٨٤٢ والذي تعهد فيه كل من شارل وأخيه لويس قبيل تسوية فردان ان لا ينفرد أي منهما في صلح مع أخيهما لوثر . وقد اخذ لويس القسم امام جنده باللغة الالمانية بينما فعل شارل ذلك باللغة الفرنسية[44] .

هذا وقد قسمت المملكة الوسطى على أثر وفاة الامبراطور لوثر الاول سنة ٨٥٥ بين اولاده الثلاثة . فاصبحت الاجزاء الايطالية واللقب الامبراطوري من حصة لويس . واستلم لوثر الثاني المنطقة الشمالية من المملكة الوسطى والتي سميت باسمه لوثرنجيا Lotharingia وحولت التسمية فيما بعد الى لورين Lorraine . أما منطقة برغندي فاصبحت

(43) Bryce, op. cit. 77.
(44) Robinson, op. cit., 118 - 119.

من حصة الابن الثالث شارل . كما قد تقاسم فيما بعد لويس الجرماني وشارل الاصلع مملكتي لورين وبرغندي في معاهدة مرسون Merson سنة ٨٧٠ . واشارت تلك المعاهدة بوضوح الى الحدود بين ثلاث من الدول الاوربية الحديثة هي فرنسا والمانيا وايطاليا . هذا ولم يتمكن لا مبراطور لويس الثاني من الحيلولة دون ذلك التقسيم نظرا لاشتباكه في معارك مع المسلمين في ايطاليا وكذلك مع البيزنطيين حول مدينة باري Bari . وقد تمكن شارل الاصلع من الاستئثار باللقب الامبراطوري سنة ٨٧٥ عند وفاة الامبراطور لويس الثاني .

لقد توفي لويس الجرماني سنة ٨٧٦ وكذلك شارل الاصلع سنة ٨٨١ ، ونظرا لصغر ابن لاخير فقد بايع امراء فرنسا شارل الملقب بالسمين Charles the Fat وهو حفيد لويس الجرماني سنة ٨٨١ . ومع أن الاجزاء الثلاثة قو توحدت نظريا في عهده ألا أن النبلاء خلعوه سنة ٨٨٧ لعجزه عن الدفاع ضد الهجمات النورمندية . وبذلك اعتبر المؤرخ برايس Bryce خلع ذلك لامبراطور ووفاته في السنة التالية النهاية الفعلية للامبراطورية الكارولنجية[45] .

وبالرغم من ان الالمان اختاروا ملكا لهم حفيدا غير شرعي للويس الجرماني والمسمى أرنولف ٨٨٧ ـ ٨٩٩ والذي توج امبراطورا سنة ٨٩٦ الا أنه لم يتمكن من تثبيت اقدامه في ايطاليا والمانيا . وقد انتخب الامراء بعد وفاته ابنه الصغير لويس الثالث ٨٩٩ ـ ٩١١ وبوفاته انقرضت الاسرة الكارولنجية واخذت كل من فرنسا من جهة والمانيا وايطاليا من جهة أخرى تشقان طريقين مستقلين .

ان الحروب الاهلية التي نجمت عن قاعدة التقسيم وذيولها كانت سببا هاما في تفكك الامبراطورية وانهيارها . كما ادت الى اشتداد هجمات الاقوام النورمندية (الشمالية Northmen) والاسلامية والمجرية والتي نشير لها اصطلاحا (بالغزو الثاني على اوربا تمييزا له عن الغزوات الاولى التي انهالت على الامبراطورية الرومانية) . كما أن الغزو الثاني

(45) Bryce, op. cit., 78.

والحروب الاهلية من الاسباب التي ادت الى استفحال قوى أمراء الاقطاع وابتعادهم عن السلطة المركزية .

٢ ــ الغزو الثاني

يعتبر ذلك من العوامل الرئيسية التي أودت بالامبراطورية الكارولنجية وله تاثيرات لا تقل خطورة في التاريخ الاوروبي عما أحدثه الغزو الأول لامبراطورية الرومان . اذ تعرضت فيه أوروبا بصورة عامة لهذا الغزو من الشمال والجنوب والشرق ولاقت الامبراطوريتان الكارولنجية والبيزنطية وسائر الاقطار الاخرى الامرين . وأودى الغزو أيضا بالنهضة الفكرية الكارولنجية وانزل أوروبا الغربية الى ادنى مراتب الانحطاط لمدة تزيد على القرنين . واهم هذه الجموع الغازية هي :

أ ــ الأقوام الاسلامية :

لم تكن اسبانيا المسلمة في القرن التاسع لتمثل خطراً مباشرا على الاقسام الاوروبية الغربية والجنوبية لاسباب عدة . ولعل أهمها تفرق كلمتهم واشتداد ساعد الدويلات المسيحية في جبال البرانس التي عجز المسلمون عن دحرها وكذلك لحاميات الحدود العسكرية وتحصيناتها التي اشادها شارلمان على حدوده المشتركة مع اسبانيا . هذا مع العلم ان الغارات الاسلامية من تلك الجهة لم تنعدم بالمرة في تلك الفترة على الاقسام الجنوبية من فرنسا[٤٦] . غير أن الخطر المباشر المحدق بالاقسام الجنوبية الاوروبية ونقصد بذلك ايطاليا وجزرها فقد جاء من المناطق الاسلامية في شمال افريقيا[٤٧] . اذ قام الاغالبة بعدة حملات بحرية على صقلية وايطاليا منذ سنة ٨٢٧ . وثبتوا اقدامهم في نهاية القرن التاسع في كل من صقلية وسردينيا وكورسيكا . وتوغل المسلمون في شبه الجزيرة الايطالية واصبحت لهم معسكرات عديدة بين روما ونابلي شنوا منها

(46) M. Bloch, Feudal Society, tr. by L. Manyon (London, 1962) 5.
(47) Ibid., 4.

الغارات سنة ٨٤٣ على روما والمدن المجاورة واضطر البابوات الى دفع الاتاوات لقادة المسلمين هناك تجنبا لخطرهم[48] . وأمتد النفوذ الاسلامي الى الاقسام الشمالية من ايطاليا مؤسسين لهم معسكرات أيضا في جبال الالب توالت منها غاراتهم على الاراضي الالمانية هذا ولم تتمكن كل من الامبراطوريتين الكارولنجية والبيزنطية من زحزحة المسلمين من تلك الجهات[49] . وقد بقي النفوذ الاسلامي في الجزر الايطالية خاصة حتى ظهور النورمنديين في القرن الحادي عشر .

ب ـ الشماليـون Northmen

ينتمي الشماليون او النورمنديون الى التيوتون الاوائل الذين سادوا شبه الجزيرة الاسكندنافية . وكانت هذه في بدايتها مأهولة من أجناس مغولية أقرب الى الاسكيمو الذين تغلب عليهم الكلتيون ثم انتزعتها القبائل التيوتونية من هؤلاء[50] . شرع الاسكندنافيون بآخر موجة جرمانية كبرى قبيل نهاية القرن الثامن . واطلق عليهم الاوروبيون تسمية الفارانجيين Varangians وكذلك أصحاب الخلجان Vikings لتمركزهم في الخلجان أو مصبات الانهار التي تنطلق منها غاراتهم على الاجزاء البرية . أمتدت غزواتهم الى مناطق شاسعة فشملت الامبراطورية الكارولنجية واسبانيا والجزر البريطانية وكافة انحاء اوروبا الوسطى ، واستولوا على ايسلاند وكرينلاند ، ويقال أنهم وصلوا الى ما تسمى الان نيوفوندلاند وسواحل امريكا الشمالية[51] . أما الاسباب التي دفعت بهؤلاء للهجرة واحتراف هذا النوع من الغزوات البحرية والبرية فلم تكن واضحة لدى المؤرخين . ومع ذلك فهناك بعض النظريات نسبت الغزو الى أزدياد مضطرد في سكان قبائل السويد والدانيين والنرويج او للاضطهاد الذي لاقاه صغار الرؤساء من ملوكهم الذين حاولوا فرض

(48) P. Hitti, History of the Arabs (London, 1960) 604-606.
(49) O. Previté, The Shorter Cambridge Medieval History, Vol. I (Cambridge, 1953) 371.
(50) Cambridge Medieval History, Vol. II (N.Y., 1929) 481.
(51) Strayer and Munro, op. cit., 105.

سياسة مركزية . ويرى قسم من المؤرخين أن الضربات القاصمة التي وجهها شارلمان الى السكسون حطمت حاجزا منيعا بين الشماليين والامبراطورية الكارولنجية فكانت سببا لتحركات أهل الشمال .

وجه الفايكنك أول غاراتهم على انكلترا سنة ٧٨٧ ثم أغاروا على الامبراطورية الكارولنجية وشارلمان في قيد الحياة . ثم توغلوا سنة ٨١٤ في جهات نهر اللوار وأحرقوا Noirmoutier . واشتدت الغارات على الاراضي الكارولنجية سنة ٨٤١ حيث قصدوا مناطق السين ونهبوا Rouen ثم Nantes بعد سنتين من ذلك التاريخ . وكانت غاراتهم في فصل الصيف من كل سنة الا أنهم منذ اواسط القرن التاسع بدأوا يتمركزون في مصبات الانهر والخلجان حيث يكمنون فيها اوقات الشتاء . وبذلك بدأت مرحلة جديدة في تاريخ غزواتهم بتأسيس تلك القواعد البحرية[52] .

لقد عاث هؤلاء طيلة النصف الثاني من القرن التاسع في الاراضي الفرنسية . اذ هاجموا سنة ٨٥٧ عدة مدن منها تور وبوردو وبلوا وأورليان وبواتيه من قاعدتهم البحرية في مصب نهر اللوار . ثم تمركزوا أيضا في مصب الرون واتخذوا مدينة Angers سنة٨٧٣ منطلقا لهم لعدة سنوات . وشرعوا ثانية في مهاجمة القسم الشرقي من فرنسا عن طريق نهر السين سنة ٨٨٥ . وطلب الشماليون عند وصولهم ابواب باريس السماح لهم بمواصلة السير في ذلك النهر مقابل عدم مهاجمتهم باريس . وفرضوا الحصار على تلك المدينة لمدة سنتين حينما رفضت السلطات طلبهم . وأخيرا استجاب شارل السمين لذلك الطلب لرغبته في تدمير برغندي[53] . هذا ولم يتمكن الكارولنجيون من مقاومة الفايكنك لانشغالهم في الحروب الاهلية . ولم يتورع المتنافسون من الاستعانة بالغزاة ضد بعضهم البعض . وأخيرا اضطر شارل البسيط ملك الفرنجة الغربيين على منح زعيم الفايكنك المسمى رولو Rollo اراضي حول مصب

(52) Durant, op. cit., 474.
(53) Deanesly, op. cit., 460-62.

نهر السين سنة ٩١١ توسع منها الى الجهات المجاورة وأصبحت منطقته تعرف بنورمندي[٥٤] .

ومن أشهر القبائل الشمالية التي لعبت أدواراً خطيرة في تاريخ أوروبا في هذه الفترة هي قبائل طريق الشمال Norwegians حيث هاجمت ايرلاند ثم القبائل الدانيه Danes التي اخذت اسمها عن زعيمها دان ميكيلاتي Dan Mikillati هاجمت فرنسا وانكلترا ثم القبائل السويديه Swedes . وأغارت هذه على المناطق السلافية واستقر قسم منها في روسيا . ويعتقد بأن لفظة روسيا كانت تطلق على احدى القبائل السويدية التي قصدت تلك الجهات[٥٥] .

حـ ـ القبائل المجرية

وهي من القبائل الاسيوية شكلت خطراً على أوروبا منذ النصف الاول من القرن التاسع . وقيل عنهم بأنهم من أشد الاقوام ضراوة . غزا هؤلاء هنغاريا سنة ٨٩٥ ثم بافاريا سنة ٨٩٠ ونهبوا سكسونيا سنة ٩٣٧ . ولم تنقطع مخاطرهم الا بعد الانتصار الذي حققه ملك المانيا أوتو الاول Otto في معركة لخفيلت Lechfeld سنة ٩٥٥ [٥٦] .

٣ ـ الاتجاهات اللامركزية للاقطاع

أن الفترة التاريخية المضطربة أي فترة الغزو الثاني على أوروبا اسفرت عن احدى الحقائق الهامة . الا وهي ان الظروف الاقتصادية التي سادت الأقسام الغربية من أوروبا جعلت بقاء الامبراطورية الكارولنجية أمراً عسيرا . اذ برهنت الحوادث على أن أزدياد الاتجاهات اللامركزية الاقطاعية واستقلال الامراء اقتصاديا وسياسيا من جملة الاسباب الاساسية في انهيار السلطة المركزية للامبراطورية الكارولنجية . اذ أضعفت هذه الاتجاهات الاقطاعية امكانية الامبراطورية المالية وشلت

---

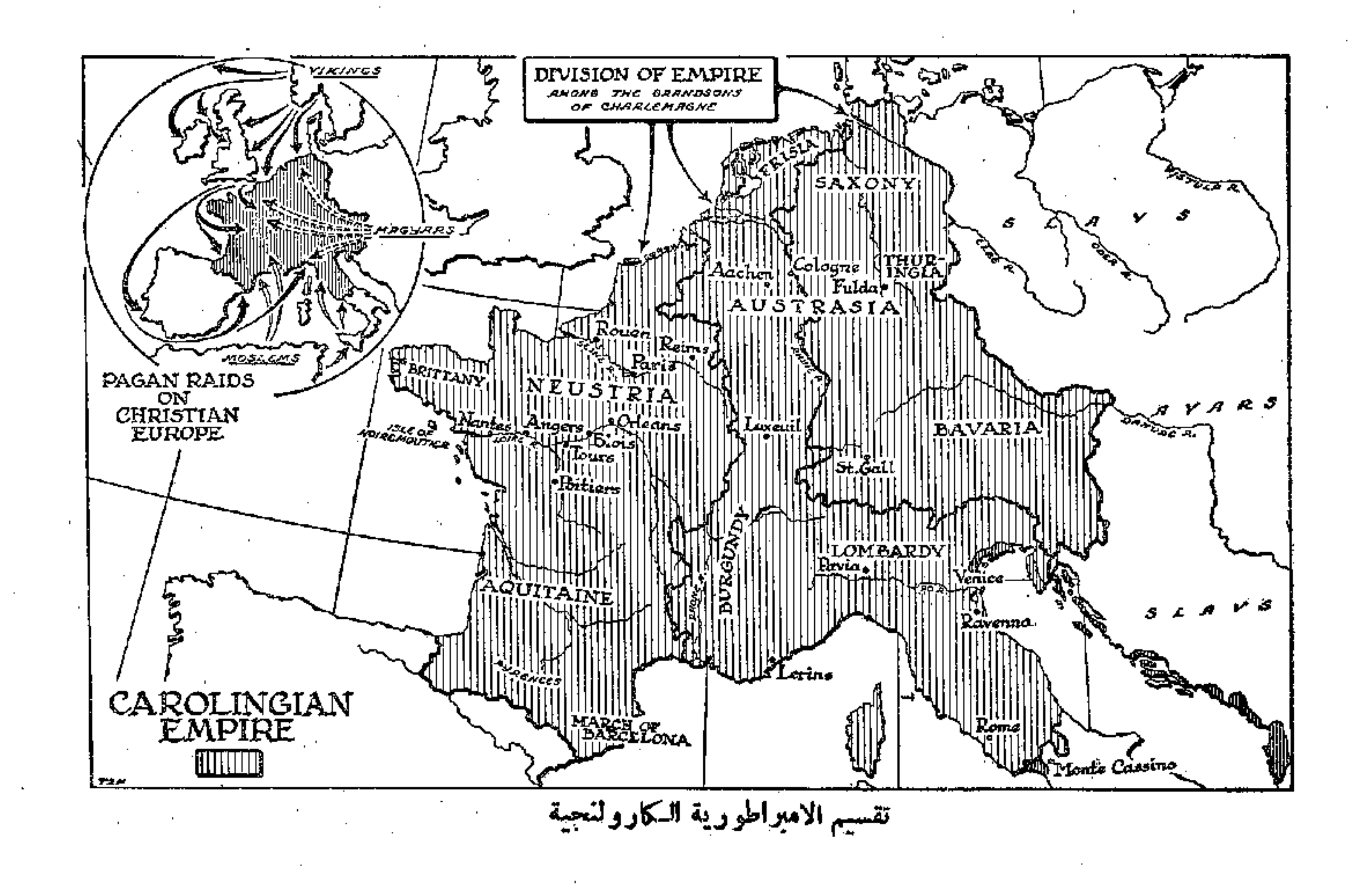
(54) Ibid., 571 - 72.
(55) Durant, op. cit., 502.
(56) Ortan Previte, op., cit., 368-69.

أجهزة الدفاع وجردت السلطة من هيمنتها على السكان . أذ أصبح ولاء الافراد في تلك الفترة ولاء شخصيا للرئيس الاقطاعي المباشر وليس لرئيس الدولة . أن اشتددا اللامركزية الاقطاعية من الحوافز الهامة في تقسيم الامبراطورية سنة ٨٤٣ في معاهدة فردان . كما أن المعاهدة الاخيرة ساعدت بدورها على استفحال القوى الاقطاعية وادت فيما بعد الى تجزئة المملكة الوسطى واستقلال الامراء في كل من المملكتين الشرقية والغربية[٥٧] .

وفي ذلك الخضم المضطرب بتصارع القوى بدت المؤسسات الاقطاعية في أوروبا وكأنها حمى وملاذاً للناس . حقا انها المؤسسات العملية الوحيدة التي صمدت امام العواصف التي تناوحت الامبراطورية الكارولنجية خاصة والجهات الاوربية عامة . فقدمت حلولا عملية بسيطة لحاجات الافراد الاساسية .

---

(57) C. Stephenson, Medieval Feudalism. (N.Y., 1956) 6.



تقسيم الامبراطورية الـكارولنجية

الفصل السادس

الاقطاع Feudalism

الاقطاع من المواضيع التي تعددت الأراء فيه وتشعبت ، فاصبح من العسير حقا ايجاد مدلول موفق لكلمة الاقطاع ذاتها . فلم تكن التسمية لتشيع حتى اواخر القرن الثامن عشر . اي بعد أن لفتت الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ انتباه المؤرخين لبعض الصفات البارزة لنظام العهد البـائـد في فرنسا Old Regime . فاصبحت منذ ذلك الوقت المفردات اللغـوية للاقطاع أعتيادية في لغة التاريخ الاوروبي . ومن الملاحظ في هذا الشـأن

ان التعبيرات والتسميات الاقطاعية محط جدل ونقاش بيـــن المؤرخـين المحدثين . فتبدو مثلا بعض المؤسسات لفئة من المؤرخين بانها مؤسسات اقطاعية بينما لم تكن هي كذلك بالنسبة الى فئة اخرى . واشار الى هذا المعنى كل من المؤرخين بالوك وميتلاند Pallock and Maitland :

أن الاقطاع من جملة المصطلحات التي غولي في معانيهـا تاريخيا . أذ أعتبر قسم من المؤرخين كافة المؤسسات غير الدينية وما قام به الناس من فعاليات في شتى ضروب الحياة بأنها مؤسسات وفعاليات اقطاعية منذ القرن السابع حتى القرن الخامس عشر . فتكلموا عن حكومات أقطاعية ونبلاء اقطاعيين ومجتمع اقطاعي ومقاطعات اقطاعية . وهكذا تبدو لنا مدنية القرن السابع البدائية مثلا وكأنها لا تفرق في شيء عن مدنية القرن الثالث عشر في أوروبا فكلاهما مدنيتان أقطاعيتان ... [2] .

ومهما يكن من أمر فان موضوعنا سوف يقتصر على دراسـة المؤسسات الاقطاعية الرئيسية والتي هي حصيلة تـطورات للعلاقـات الاقتصادية والاجتماعية للمجتمعات الاوروبية الغربية .

بدأ التعامل الاولي الاقطاعي في اواخر عهد الامبراطورية الرومانيـة في جهاتها الغربية خاصة واخذ يكتسب خطوطه الاساسية في العصرين الميروفنجي[3] والكارولنجي[4] الى أن بلغ عنفوانه وتبلوره بين القرنين العاشر والثاني عشر . ومن هنا نشأ التعريف القائل (بان الاقطاع تجربة عمليـة فرضتها الحوادث كبديل عن الحكومة المركزية أبتغاء الحصول على قسط من الامن .) . ويجب أن تتذكر بانه ليس من الضروري أن يكـــون الاقطاع نتيجة لانحلال السلطة المركزية . لان ما حدث للامبراطوريـــة الكارولنجية لا يكون قاعدة قياسية . وليس من الضروري ايضا ان يكون الاقطاع معول هدم لكيان الدولة . فوليم الفاتح مثلا سواء أكان قـد

(1) C. Stepenson, Medieval Feudalism (N.Y., 1956). Ch. 1.
(2) Quoted in Strayer and Munro, The Middle Ages 395 - 1500 (N.Y., 1942) 109.
(3) L. Ganshof, Feudalism, tr. M. Stenton (London, 1964) 3.
(4) Ibid., 15.

أدخل الاقطاع الى انكلترا او حد من تعاظمه فقد نجح في جعل الاقطاع في خدمة السلطة المركزية . هذا ويعتقد البعض أن الاقطاع في معناه الاقتصادي عبارة عن مرحلة تمر بها الشعوب أثناء مسيرتها نحو التطور من انتاج عبودي الى ما هو أرقى .

ان الفترة الكائنة بين نهاية القرن العاشر وبداية القرن الثالث عشر تعتبر عادة الفترة التي سادت فيها المؤسسات الاقطاعية أقسام اوروبا الغربية وخاصة الاقسام الشماليه والشرقية لفرنسا والاقسام الشماليه لالمانيا وفي بريطانيا . وهي الفترة التي اخذ فيها الاقطاع كامل بلورته . اما القرون التالية لذلك التاريخ فتعتبر مراحل تحول وانتقال في المؤسسات الاقطاعية على أثر التقدم التجاري والزراعي والصناعي في تلك الارجاء . وهنا لا بد من التمييز بين الاقطاع من جهة وبين ما كان سائدا من ظواهر اجتماعية واقتصادية متقدمة كانت ام متأخرة او في طريقها الى الزوال لم تكن ضرورية لقيام الاقطاع . فالنظام الطبقي الذي يعتمد بوجوده على النبلاء الوراثيين كان مألوفا قبل العصور الاقطاعية وفي أثنائها وما بعدها ايضا . لهذا لم يكن الاقطاع اذن وليد النظام الطبقي الاجتماعي الموروث[5] . فالطبقات الاجتماعية العليا القديمة قد شارفت على الزوال منذ أشتداد الغزوات الجرمانية وتقطيعهم أوصال الامبراطورية في الغرب . وتكونت لدينا طبقات جديدة ذات أختصاصات ووظائف تستحدث استحداثا تبعا لتقلبات الاوضاع . هذا مع العلم ان سداة الاقطاع ولحمته هي الطبقية بشكليها العامودي والافقي . ونقصد بالعاموديه او الهرمية المسؤولية المتدرجة بين الملوك وامراء الاقطاع وكافة الارستقراطية الاقطاعية . اما الطبقيه الافقيه فنقصد بها مراكز الافراد الاجتماعية .

وهنا يجدر بنا أن نتسائل هل أن الممتلكات الزراعية الكبيرة سببت ظهور الاقطاع ؟ هناك فئة من المؤرخين لا تعتقد بذلك فالاطيان الشاسعة كانت مألوفة قبل الاقطاع وما بعده حتى في قسم من الدول المتقدمة في

---

(5) M. Bloch, Feudal Society, tr. A. Manyon (London, 1962) 284.

عصرنا هذا ، بالرغم من أن الارض وما تغله زراعيا تمثل العمود الفقري للحياة الاقتصادية طيلة تلك العصور . وعلى هذا الرأي فأن المتلكات الزراعية الكبيرة لا تؤدي بالضرورة الى الاقطاع فهي بذلك كالمعامل الحديثة لا تؤدي حتما الى الحكم الديموقراطي[٦] . ولهذا يقال عن الاقطاع احيانا بانه (اسلوب من اساليب الحكم تمارس فيه السلطة نتيجة لاتفاق بين تابع ومتبوع او سيد ومسود) .

ومهما تعدد البحوث في الاقطاع واختلفت فيه وجهات النظر فلا بد وأنها تتفق على مكوناته الاساسية الا وهي :

١ ـ التبعية Vassalage

تستند هذه على علاقة شخصية بين سيد ومسود . يتعهد فيها الاخير الدفاع عسكريا عن الاول مقابل حمايته من غوائل الدهر . فالتبعية في بدايتها اذن ترمز الى الناحية العسكرية . اما جذورها التاريخية وكيف أنها تطورت الى مؤسسة عسكرية كبرى متألفة من فرق المشاة في أول الامر ثم تحولها الى فرق الفرسان فهي من الامور المختلف فيها ايضا . فهناك من يعتقد بانها من أصل جرماني مارسها الغزاة في ديارهم وأثناء استيطانهم في الامبراطورية الرومانية ويشار لها بالرفقة الباسلة Comitatium وتتألف هـذه من الاحرار الذين يكونـون حاشية الرئيس او معيته العسكرية نذروا أنفسهم للموت دفاعا عن زعيمهم[٧] . وينسب بعض المؤرخين جذور التبعية تاريخيا الى مؤسسة رومانية يشار لها بالحماية Patrocinium . وهي ان يضع الفرد الحر نفسه وما يملكه تحت تصرف زعيم من الزعماء لقاء منافع متبادلة دفاعية ومعيشية . ويشار الى عملية أنضواء الفرد تحت لواء الزعيم بالالجاء Commendation [٨] .

لقد شهد العصر الميروفنجي تكاثر الاتباع نتيجة لفوضى الحروب الاهلية ومآسيها ولم يشذ عن ذلك الكارولنجيون . أذ أصدر شارل

---

(6) Strayer and Munro, op. cit., 109-110.
(7) Ganshof, op., cit., 4.
(8) Ibid., 5 - 8.

الاصلع سنة ٨٤٧ بالاتفاق مع أخويه مرسوما يحتم فيه على كافة الاحرار في الامبراطورية الانضواء تحت لواء شريف يختارونه بأنفسهم[9] . وهكذا أزداد عدد الاتباع Vassals ازديادا هائلا وأصبح ينقسم السكان الى طبقتين الاولى الطبقة الارستقراطية الاقطاعية المتألفة من النبلاء واتباعهم واتباع الاتباع Subvassals والثانية طبقة الاقنان Serfs والعبيد Slaves.

تعتمد مؤسسة التبعية في الاقطاع المتكامل على واجبين أساسيين هما الولاء Homage والاخلاص Fealty . فلاجل أن يكون (ب) تابعا Vassal عليه المثول بين يدي سيده (ا) مؤديا له واجبي الولاء والاخلاص . وتجري مراسيم التدشين حسب الطريقة التالية . يظهر (ب) حاسر الرأس مجردا من سيفه راكعا بثني ركبته امام (ا) ثم يضع يديه بين يدي سيده معترفا بصوت مسموع . أنه أصبح من الان فصاعدا تابعا قاطعا على نفسه كافة العهود التي تربط التابع بسيده . وأن يعادي من عاداه ويوالي من ولاه من الاحياء كانوا أو الاموات . وبعد أن يتفوه (أ) بكلمات ترحيبية يعلن موافقته على ما قدمه (ب) من طاعة على رؤوس الاشهاد فيأخذ بيده منهضا أياه وطابعا على جبينه قبلة كرمز للولاء المتبادل كما هي العادة أنذاك . ثم يقوم (ب) بتأدية القسم على الكتاب المقدس او على اية مخلفات او شارات دينية . مؤكدا في القسم أخلاصه على ما قطعه على نفسه من تعهدات . ويجب ان نتذكر بأن الالفاظ المستعملة في القسم لم تكن في سياق واحد فهي تختلف في المكان الواحد ومنه الى اخر ومن زمن الى زمن . كما يتوضح ذلك في القسوم التي رددتها المصادر عن فترة عنفوان الاقطاع . ومما يلاحظ أيضا أن السيد لم يقطع على نفسه الاخلاص لتابعه . غير أن مجرد موافقته على ما قدمه التابع من مظاهر الطاعة يعتبر عهدا مقطوعا عليه يتحتم فيه على السيد الوفاء بحقوق التابع التي تضمنتها اعراف مدونه او غير مدونة . ويحق للتابع حسبما جاء بمراسيم شارلمان هجر سيده فيما اذ

(9) Strayer and Munro, op., cit., 113.

حاول الاخير أنزاله الى مرتبة العبودية او اراد بأهله سوء او حاول قتلـه وكذلك في حالة فشل السيد في تقديم الحماية التي في استطاعته لتابعه[10] .

هذا ويشير المؤرخ كانشوف Ganshof بأن قسم الاخلاص أضيف الى عملية الالجاء Commendation بعيد منتصف القرن الثامن . ومن أقدم الوثائق في هذا الشأن التي تشير الى تبعية امير بافاريا تاسيلـو Tassila سنة ٧٥٧ الى الملك ببين الثالث . اذ جاء في السجلات الملكية الفـرنجية ما نصـه :

جاء تاسيلو دوق بافاريا الى ببين والجأ نفسه اليه بأختياره فاصبح تابعا . وحلف ايمانا ... على أخلاصه .. ووعد الولاء الى الملك ببين والى ولديه من بعده هما السيدان شارل وكارلومان[11] .

ويذكر الاستاذ السابق بأن شارلمان حاول توحيد القسوم بيـن اتباعه . اذ أمر بتعميم صيغة القسم التالي سنة ٨٠٢ على امراءه :

أقسم بأن اكون مخلصا الى السيد الامبراطور شارل بـن الملك ببين والملكة برثا Berta . اخلاصا حقيقيا .. من أجـل الحفاظ على مملكته وصيانة حقوقه وأني أتمسك من الان فصاعدا بهذا القسم واسعى للمحافظة عليه كما فهمته ... بعون اللـه خالق السماوات والارض وبعون تلك الشارات المقدسة[12] .

أحيطت مؤسسة التبعية بهالة من التقديس في العصر الكارولنجي. ومن الامثلة الموضحة لذلك هي رسالة الاميرة داودة Dhaouda زوجة برنارد أمير سبتمانيا Septimania الموجهة الى أبنها الاكبر وليم سنـة ٨٤٣ تحثه فيها على تكريس نفسه لخدمة الملك شارل تنفيذا لاوامـــر والده . ومن أهم ما جاء فيهـا :

ولدي وليم : أن الله تعالى حسبما يبدو لي قد أختارك وانت في مقتبل العمر أن يجعل من شارل سيدا لك . وكذا كانت رغبة

(10) Stephenson, op., cit., 18.
(11) Quoted in, Ganshof, op., cit., 29.
(12) Ibid., 30.

والدك . تذكر سجل اسرتك الناصع من جهتي امك وابيك واخلص للواجب . لا تكن عليه باخلاصك ضنينا او متظاهرا . فليجر على لسانك ما في قلبك خيرا ... أن الرغبة تحدوني يا بني ان اطالبك بالاخلاص في كافة المهمات المنوطة بك بكل ما تملك من حول وقدرة جسمية وروحية .. عسى الله ان يجنبك حماقة الكفر والجحود ونكران الجميل وان يسدد خطاك ويرعاك ويطهر قلبك لكيلا يجردك من الاخلاص لسيدك في اي أمر من الامور .. انني لم اشك يا بني في أمرك .. ولدي وليم : يا من تجري دمائي في عروقك . أظهر نفسك لسيدك بالشكل الذي اوصيت به عليك . كن شهما صادقا نافعا جاهزا لخدمة سيدك . وأظهر الحكمة التي حباك الله بها في كل شيء يخص السلطة ومصلحة الملك داخل البلاد وخارجها[١٣] .

الضيعة Fiefdom

تستند هذه على الارض الزراعية المقطعة Feud وعلى كافة حقوق الاستثمار الاقتصادي سواء أكانت الارض المقطعة متألفة من ضيعة واحدة او عدة ضياع . ويتم الاستثمار بتعهدات عرفية أو تعاقدية بين سيد وتابعه . ويعتقد بأن أصول هذه المؤسسة ترجع الى ذلك النوع من الاستثمار الاقتصادي الزراعي الذي كان شائعا عند الرومان ، المستند على التملك الارضي الموقت Precaria والذي أصبح في أوائل العصر الوسيط اساسا للتملك الاقطاعي الموقت الذي يشار بأرض الاحسان او المنعمة Beneficium .[١٤]

هذا وأن الارض المقطعة بموجب ذلك النوع الاخير من التملك أما أن تكون من ملوك وهبوها لاتباعهم أو أنها كانت في الاصل لمزارع

(13) Ibid., 33.
(14) Robinson, An Introduction to the History of Western Europe, vol. I (Boston, 1934) 127 .

صغير تنازل عن ملكيتها خوفا من عاديات الدهر ، لمؤسسة دينية او لنبيل قوي مقابل حمايته والسماح له بالانتفاع من استثمار سطحها Usefract مدى الحياة . مؤديا الى الجهة الحامية ما تنص عليه شروط الاتفاق . ويجوز للجهة المتنازل اليها أن تتصرف بالارض عند موت المستثمر فتحرم الورثة الا أن العادة قد جرت بأبقاء الأرض في اسرة المستثمر بحسب شروط الاتفاق الاول على الاغلب[15] .

كما أن الامراء باختلاف مراتبهم قد يقطعون Infeud قسما من أراضيهم الخاصة الى اتباعهم المحاربين . وكان يحق في الابتداء للتابع المقطع أن يتصرف باقطاعه مدى حياته فقط غير أنه جرى مؤخرا أن تبقى الاقطاعية وراثية في الاسرة . ويجوز للتابع ايضا ان يقطع اجزاء من ارضه الى اتباع خاصين به Subvassals ويشار الى هذه الحالة بالتجزئة الاقطاعية Subinfeudation [16] اي الاقطاع الفرعي . أن قطعة الارض المتنازل عنها من تابع الى سيده او من سيد الى تابعه والتي أصبحت فيما بعد وراثية في عائلة المستثمر لقاء تعهدات معينة أخذت تسمى بالاملاك الاقطاعية Fiefholdings .

السلطة القضائية

لا يمكن أن يكون الاقطاع متكاملا الا أذا أتحدت التبعية بالمؤسسة الضيعية واقترنت بحق ممارسة السلطة .

أن الوحدة الاقطاعية التي يسود فيها السيد الاقطاعي تسمى بالدومين Dominium او لوردشب Lordship . ويمكن لنا أن نسميها مجازا ــ السلطنة الاقطاعية . يفهم من الدومين او السلطنة الاقطاعية التملك والحكم غير المطلقين . فلا يحق للسيد أو السلطان الاقطاعي ان يصادر ما في حوزة اتباعه حسب هواه أو أن يجور عليهم في الحكم . ان حقوقه في الحكم والتملك حددتها الاعراف والعقود الاقطاعية . هذا مع العلم ان أتباع اللورد Vassals على اختلاف مراتب

(15) Strayer and Munro, op., cit., 114.
(16) Robinson, op., cit., 128.

مسؤولياتهم ينتمون الى الطبقة الارستقراطية الممتازة التي ينتمي اليها اللورد نفسه[17] .

جاءت السلطة التي ادعاها الاقطاعيون من مصدرين رئيسيين اولاهما أن أمراء الاقطاع في بدايتهم عبارة عن موظفين أو تباع مباشرين للملك أو الامبراطور . استحصلوا أعفاءات وامتيازات وصلاحيات حكومية واسعة في مناطقهم الادارية . وقد استأثر هؤلاء بالسلطة الحكومية لانفسهم عند انفراط السلطة المركزية كما حدث ذلك في الامبراطورية الكارولنجية بشكل ملحوظ . وثانيهما عن طريق القوة والاغتصاب . كما حدث ذلك أثناء الغزو الثاني على اوربا .

ان المحاكم في الاقطاع على درجة كبيرة من الارتباك . فلم تكن هناك قوانين مدونة وانما اعتمدت الاحكام على العرف والسوابق وما أحتوت عليه العقود الاقطاعية . كما لم تكن كافة الوحدات الاقطاعية الكبرى خالصة لرئيس واحد . فهناك المحاكم الدينية والملكية ومحاكم الرئيس الاقطاعي . وقد تكون في الدومين الواحد محاكم اخرى تابعة لرئيس اقطاعي اخر جاء ذلك الحق نتيجة لوراثة اقطاعية او لتحديه سيده بعدم الاعتراف بالتبعية له .

توجد عدة اجراءات قضائية أقطاعية في تسوية الخلاف بين المتخاصمين . منها تحكيم السيف عن طريق المبارزة Duel واقتصرت هذه في البداية على الامراء والاحرار . وهناك التحكيم المحني Ordeal والذي اشرنا اليه انفا[18] . ولعل أشد الاجراءات التي تصدرها محكمة السيد الاقطاعي هي في قضايا الخيانة العظمى . ويقصد بذلك أي عمل يقوم به التابع من شأنه ان يتنافى ومقام السيد الاقطاعي . وقصد بها على وجه الدقة عدم وفاء التابع بتعهداته . وعلى سبيل المثال : لو غيب التابع نفسه عن جيش سيده أو تجاهل دعوته العامة لعقد مؤتمر ففي تلك الحالات تعلنه المحكمة خائنا

---

(17) Strayer and Munro, op., cit., 110.

(18) راجع ص ٨٠ من هذا الكتاب

وتأمر بمصادره املاكه . غير أن التنفيذ طبعا يعتمد على توازن القوى بين التابع وسيده . فالاتباع الاقوياء كثيرا ما يزدرون بتلك القرارات وليس لهم جواب الا السيـــف .

التعهدات الاقطاعية

أشرنا الى أن الرابطة بين السيد وتابعه مرتكزة على منافع متبادلة قد تكون مدرجة في عقد مبروم بينهما[19] . يتعهد فيه الاول ان يحافظ عن حياة وحقوق الثاني مقابل تعهد التابع بتقديم المساعدات Aids والمشورات Counsels لسيده . وتتضمن النقطة الاولى المساعدات العسكرية والاعانات المالية . فعلى التابع الالتحاق بجيش سيده لمدة معينة سنويا وجرت العادة أن تكون لاربعين يوما . وان يقوم خلال الالتحاق بتزويد نفسه بأسلحة الفروسية الضرورية وأن يتدبــر نفقاته الخاصة . كما وقد يكلف التابع أحيانا القيام ببعض الخدمات مــع عائلته في قصر النبيل . اما الاعانات المالية فلم تكن على وتيرة واحدة في كافة الاقطاعات . غير أن المثل القياسي ما كان شائعا في نورمندي . أذ يستوفي السيد الاقطاعي هناك الاعانات المالية من أتباعه حينمــا يصبح أبنه الاكبر فارسا وعند زواج بنته الكبرى ثم عندما يتطلب الامر افتداءه من الاسر . وعلى التابع أيضا تقديم واجب الضيافة للسيد وحراسه أن دعت الحاجة[20] .

أما المشورات فيقصد بها تقديم النصح والارشاد الى الرئيس الاقطاعي ومعاونته في ادارة الاقطاعية . فقد يحدث أن يستشار الاتباع لأبداء أرائهم في أمر من الامور الحربية او السلميه او في قضايا جباية الاموال او في الامور القضائية . وتتم هذه الاستشارة عن طريق توجيه دعوة خاصة للاتباع لحضور مؤتمر يعقد في مقر الرئيس الاقطاعي .

---

(19) Stephenson, op., cit., 25.

(20) Ganshaf, op., cit., 87 - 92.

مع العلم بأنه لا يجوز للرئيس الاقطاعي فرض ضرائب أو اعانات مالية على اتباعه لم تشر اليها السوابق والعقود . ولكنه يمكنه عن طريق الدعوة العامة للاتباع في قصره أقتراح زيادة العوائد ولا تكون هذه الزيادة سارية المفعول الا عند موافقة الاتباع . هذا ويجوز للاتباع عرفا زيادة الضرائب على أقنانهم بدون استشارتهم[21] .

كيف تتم الوراثة الاقطاعية ؟ !

تنتقل الاقطاعية عند وفاة الاب حسب قاعدة وراثة الابن الاكبر Primogeniture وذلك للمحافظة على الوحدة الانتاجية للاقطاع ولتحديد المسئولية المترتبة على التبعية[22] . حيث يدفع الابن الاكبر عند أستلامه الاقطاع مبلغا من المال لصاحب الاقطاع المباشر . ويشار الى ذلك المبلغ بالخلاص او الحلوان Relief . اما اذا لم يكن للراحل وريث من الذكور أو الاناث فتعود الارض للسيد الاقطاعي . وتسمى تلك الارض في هذه الحالة بالايالة Eschat . وحينما تكون للراحل بنت فزوجها هو الوارث . بعد أن يقدم مبلغ الخلاص وواجبي التبعية الا وهما الولاء والاخلاص . هذا مع العلم بأنه لا يجوز للتابع أن يزوج أحد افراد أسرته أن كانت أنثى وارثة بصورة خاصة الا بعد موافقة السيد الاقطاعى لاعتبارات تتعلق بالمسؤوليات المترتبة بشروط الوراثة الاقطاعية . وفي حالة أن الابن الاكبر لم يبلغ أشده بعد ، فيقوم السيد الاقطاعي أنذاك بالاشراف على شؤون الضيعة مستوفيا مبالغ معينة لقاء ذلك يشار لها بحقوق الوصاية Wardship[23] . هذا مع العلم بأن هناك عددا صغيرا من الممتلكات الزراعية هي املاك شخصية Allodial قد لا تنطبق عليها الوراثة الاقطاعية السالفة . وقد تكون تلك الاملاك الاخيرة في الاصل

(21) Strayer and Munro, op., cit., 117.
(22) Bloch, op., cit., 203.
(23) Strayer and Munro, op., cit., 118.

للملوك أو أمراء وهبوها لاتباعهم بدون قيد أو شرط كهدايا عن خدمات أسدوها لأسيادهم[24] .

وقد تلاحظ في أواخر العصر الاقطاعي ظاهرة تسترعي الانتبــاه في وراثة الاقطاعية الا وهي ظاهرة الوقف الذري Parage . قصد منها مراعاة مصالح بقية الورثاء بالسماح لهم جميعا حق أقتســام العوائد الاقطاعية على أن يتحمل اكبرهم سنا وارشدهم عقلا مسؤلية وحدة الاقطاعية بعد أن يؤدي واجبــي الــولاء والاخلاص للسيــد الاقطاعي[25] .

وحدة الانتاج الاساسية في الاقطاع

ان وحدة الانتاج الكبرى في الدومين Dominium هي الضيعة Manor او القرية Village . والمنتجون هم الاقنان Serfs لا الاتباع Vassals . والقن عبارة عن عامل ضيعي زراعي أو غير زراعي. والقنانة Sarfdom في لغة التاريخ الاقتصادي مرحلة تطــورية وسطى بين العمل العبودى والعمل الحر . ينتقل القن مع الارض حيــث تناقلتها أيدي المالكين . وبذلك فهو عامل قراري مرتبـــط بالارض والمهنة . ومصادر الاقنان أما عبيد ارتفعوا أو صغار أحرار أزرى بهم الدهر . لهم بعض الحقوق ميزتهم عن العبيد . كأن تخصص للقــن قطعة أرض يتعهدها لنفسه ويتصرف بغلاتها حسب شروط ماليــة مختلفة من مكان لاخر وكانت تدفع نوعا في مناسبات معينة . وعليه ان يخصص ثلاثة أيام اسبوعيا على الاقل للاشتغال مجانا في مزرعــة سيده . وقد يعهد للقن بادارة طاحونة القرية او معصرتها . انه لمــن الصعب حقا تقدير جسامة مسؤليات الاقنان المالية للاسياد ونكتفي بالقول أنها كانت ثلثي أنتاجه في المانيا[26] . وعلى العموم أن مؤسســة القنانة هي الماكنة الانتاجية الكبرى في العصور الاقطاعية .

أن الضيعة الاقطاعية وحدة أنتاجية تعيش على ما تنتجه مــن ضروريات من أجل القوت Production for subsistence وليس للمتاجرة .

24) Ganshof, op., cit., 171-72.
(25) Ibid., 206-7.
(26) Cambridge Medieval History, vol. II, 722.

والتعامل السائد عن طريق المقايضة Barter . تدفع التعهـدات المالية عادة نوعا Kind payment لا نقدا Cash payment حتى نهاية القـرن الثاني عشر تقريبا . وتمثل الضيعة وحدة احتكارية للاقطاعي بمزارعهـا ومنشأتها الصناعية اليدوية البسيطة . فالمخبز والمعصرة وكافة المرافـق الاخرى من هذا القبيل لصاحب الأقطاع[٢٧] .

ان طريقة الزراعة هي الحراثة المشتركة ونظام مناوبة الارض . أي يزرع في كل سنة نصف الارض ويترك الاخر بورا ، لكي يزداد خصوبة . وتطور ذلك النظام الى نظام الحقل الثلاثي Three Field System ويقصد منه انذاك الاستفادة من ثلثي الارض عن طريق مناوبة المحاصيل وترك الثلث الاخر مهجورا لاستعادة خصوبته[٢٨] .

الفروسية

يعتقد البعض ان عهد الفروسية الغربية هي قرنه . بدأت بـداية متواضعة في عهد شارل مارتل الذي أدرك من موقعة بلاط الشهداء مع المسلمين سنة ٧٣٢ أهمية فرق الفرسان في القتال فعمل على تعميمها[٢٩] . ووصلت قمة مجدها ما بين القرنين العاشر والثالث عشر . أن الفروسية مؤسسة عسكرية ارستقراطية اقطاعية. أرتبطت ارتباطا وثيقا بالارض المقطعة وما يترتب عليها من واجبات وأمست رمزا دينيا وجهازا طبقيا ومظهرا أجتماعيـا .

لا بد لنا من أجل الالمام بطبيعة هذه المؤسسة أن نستعرض سريعا الاعداد المسلكي للفروسية في مراحله الثلاث . تتميز مرحلـة الاعـداد الاولى بظواهر تربوية وأجتماعية . فغالبا ما يرسل الصبي وهو في عمـر السابعة او الثامنة بعيدا عن أهله ليفتح عينيه في قصر اكبر سيد اقطاعي أو متنفذ في المقاطعة . ليكتسب خبرة الحياة الارستقراطية وكيفية التصرف اجتماعيا في داخل الابهاء وخارجها وليسلك سلوكا يليق بالاسيـاد

---

(27) Strayer and Munro, op., cit., III.

(28) Ibid., 121.

(29) Munro and Sontag, The Middle Ages, 395-1500 (N.Y., 1940) 85.

وليعود نفسه على مختلف الاعمال التي تتطلبها المهنة بدون غضاضة[30] . فيتنقل من مراسل بين السيدات وغرمائهن الى مساعد للفرسان في تطهيم خيولهم واعدادها . ويتلقى المهم من دروسه اثناء أختلاطه مع رفاقه . وتسمى المرحلة التدريبية الاولى بمرحلة الوصيف Valet أو مرحلة تدريب السيد الصغير Damoiseau . وتعني الوصيف لغويا في فرنسا التابع الصغير Vassalus او صاحب الاقطاع الصغير السن . ويقابل هذه الكلمة باللغة الانكليزية Page [31] .

وتبتدىء المرحلة الثانية عند بلوغ الصبي الرابعة عشر من عمره بأن ينعم عليه بلقب حامل الترس Squire . وتحتم عليه هذه المرحلة ملازمة احد الفرسان في الحل والترحال والسهر على خدمته . اذ يجب عليه الاعتناء بأسلحة الفارس الاحتياطية أثناء القتال وشد دروعه أثناء الخلع والارتداء وان يساعده في الترجل وان يتولى أمر أسراه . وهكذا يتسنى لحامل الترس ان يتعلم ما يتمكن عليه في هذه المرحلة من صناعة الحرب .

اما المرحلة الثالثة فيجهز فيها حامل الترس بسيف ورمح عندما يكون قادرا على استخدام أسلحة الرجال . ويتدرب الشبان في هذه المرحلة فيما بينهم ضد الشواخص والدمى ويكافأ المتفوق بلقب الفارس Knight . هذا ويحتفل عادة عندما يسلم الفارس كامل اسلحة الفروسية وعددها . وتسمى هذه الاحتفالات باحتفالات تقليد السلاح . وتكون رائعة عند حدوثها أيام السلم ويكتفى بمراسيم قصيرة ان حدثت في سوح القتال . والاحتفال بتقليد السلاح عادة جرمانية قديمة يقومون بها لاولادهم حينما يكونون في عمر الرجال . ومع ذلك فان أول احتفال بتدشين السلاح ثبتته السجلات الفرنجية كان في عهد شارلمان حينما قلد ابنه السلاح سنة ٧٩١ [32] . وقد أخذت ظاهرة مراسيم منح لقب الفروسية

---

(30) Stephenson, op., cit., 45.
(31) Ibid., 47.
(32) Ibid., 48.

وتدشين فروسية الفارس تتعقد حينما أطبقت الكنيسة على هذه المؤسسة اثناء الحروب الصليبية . فكانت تبارك لهم أسلحتهم وتلقي عليهم دروسا دينية أثناء الاحتفالات في واجبات المقاتل المسيحي[٣٣] . وعلى الفارس أن يهيأ نفسه لشرف الانتماء الى الفروسية بالاغتسال والصوم والصلاة وحضور مراسيم الكنيسة أيام الاحاد .

تستند الفروسية من ناحية نظرية على ثلاثة أسس هي : الحرب والدين والشهامة . وهناك ثلاث صفات لكل اساس . يتصف الاول بالشجاعة والاخلاص والكرم . ويتصف الثاني بالولاء والطاعة والعفة . اما الاساس الاخير فصفاته الحب والتواضع والاحسان[٣٤] .

لقد أسبغت اداب العصر هالات من التقديس على منشأ الفروسية وبطولات فرسانها خاصة اثناء الحروب الصليبية . وقد شجعت الكنيسة النظرية القائلة ان الفروسية تحكم العالم وأنها من مظاهر القانون الطبيعي الازلي وان جبرائيل في السماء الرئيس الفخري للفرسان . وهنا يعلق المؤرخ هويزنكا Huizinga (ان هذه النظرية من وحي الفوضى الاقطاعية من الجهل بمراحل التطور التاريخي ومن ضيق أفق النظريات السياسية السائدة أنذاك والقائمة على اساس الحروب)[٣٥] . هذا وقد سرت تلك العدوى لبعض مشاهير مؤرخي العصر الوسيط . فالمؤرخ الفرنسي الشهير فرواسار Froissart يعتبر التاريخ وصفا لمراتب الاقطاعيين وحياة الامراء وبطولاتهم (لان النبلاء وأسيادهم خبراء في طلب المعالي عن طريق الحروب وما التاريخ الا سجل لطلب العلى والمجد)[٣٦] .

وهناك جمهرة لا يستهان بها من شعراء العصر لم تتحرج من أفتعال الحوادث وتحميل الحقائق اكثر مما تتحمله أصلا[٣٧] . فملحمة رولان الانشادية مثلا Song of Roland التي أطلت على الادب الفرنسي في

---

(33) H. Williamson, From Feudalism to Despotism (London, 1925) 36.
(34) Stephenson, op., cit., 48-49.
(35) J. Huizinga, The Waning of the Middle Ages (Middlesex, 1955) 89.
(36) Ibid., 68-9.
(37) E. Prestage, Chivalry (London, 1928) 11 - 14.

اواخر القرن الحادي عشر جعلت من حوادث موقعه رونسيفو Roncevaux في اليوم الخامس عشر من شهر اب سنة ٧٧٨ حدثا تاريخيا خرافيا . اذ صورت رولان شخصية تناجي السماء وتحدث الملائكة . وان شارلمان حينما أسرع للانتقام من الاعداء سمرت له الشمس في كبد السماء لاطالة النهار كي يتمكن من أبادة الاعداء قبل حلول الظلام[٣٨] ..

وللفرسان أيضا أعراف وتقاليد غريبة أستندت على ظاهرة الغطرسة الاقطاعية وعنجهيتها . فكثيرا ما كانوا يتبارون في قوة الارادة والمقدرة على تحقيق الاهداف بطرق واساليب شاذة . فهناك من آلى على نفسه ان لا ينام في اي فراش في ليالي السبت ولا يأكل فيها اللحوم طيلة حياته تقربا الى الله . ومنهم من أقسم على الامتناع عن شرب الخمور يوما واحدا في الاسبوع وان لا يجلس حول طاولة للاكل ولا يتردى قميصا من صوف حزنا على محبوبته[٣٩] . اما الفارس Jennet de Robertviette فقد حلف يمينا (اذا لم يتمكن من ترضية محبوبته قبل شروعه في الحملة الصليبية ضد الاندلس فانه سوف يتزوج من أول امرأة مسلمة تمتلك عشرين الف قطعة ذهب)[٤٠] وأزرى من ذلك قسم الامير جان بوربون Jeane de Bourbon وستة عشر فارسا من فرسانه ، وموجز العهد الذى قطعوه على أنفسهم بأنهم (يحتذون بأحذية جديد في أرجلهم اليسرى ولا يخلعونها حتى يعثروا على ستة عشر عدواً يقاتلونهم حتى الموت)[٤١] . ويورد المؤرخ الفرنسي فرواسار خبرا بانه (رأى فارسا انكليزيا غطى احدى عينيه بقطعة صوف سميكة وذلك لعهد قطعه على نفسه بعدم خلعها الا اذا اقام بعمل بطولي في سوح الوغى بارض الاعداء في فرنسا)[٤٢] .

وبالرغم مما يقال عن الفروسية في ادوارها المتأخرة فانها قدمت

---

(38) Song of Roland, tr. D. Sayers (Middlesex 1957) 7 - 29.
(39) H. Waddell, The Wondering Scholars (Middlesex, 1954) 219.
(40) Huizinga, op., cit., 93.
(41) Ibid., 93.
(42) Quoted in Ibid., 91.

خدمات كبرى للمجتمع الاوروبي وخاصة في فترة الغزو الثاني على اوروبا وعملت على نشر المسيحية في الاطراف الجنوبية الغربية الاوروبية وكذلك في الجهات الشمالية الشرقية . ومهما قيل عن ادابها وفضائلها فانها بلا شك كونت رصيدا ثقافيا غنيا لم يزل الكتاب الحديثون يركنون اليه بين الفينة والفينة .

الكنيسة الغربية والاقطاع

ادى انحطاط الامبراطورية الكارولنجية الى زيادة سطوة الكنيسة وامتيازاتها . وأمست المؤسسة الوحيدة الداعية للوحدة والنظام والسلام في حوادث القرن التاسع الصاخبة . وحافظت على مثل الامبراطورية والاتجاهات الاثرة لامراء الاقطاع . وانتزعت القيادة السياسية من الاباطرة الكارولنجيين في الادوار المتأخرة ، وأصبح رجال الدين دعاة كل حركة تهدف لانقاذ الامبراطورية ولوضع حد للحروب الاقطاعية[43] .

أخذت الكنيسة في منتصف القرن التاسع تدعي بالسلطة على الحكام الزمنيين . اذ تمسك رهبان بلاد الفرنجة بنظرية تفوق السلطة الروحية على الزمنية فالاساقفة هم الذين يباركون الحكام في مناصبهم ولا يجوز العكس مطلقا . ثم اكدوا حقهم في معاقبة السلطات الزمنية ان أنتهكت حرمات الدين . وقد اعترف فعلا شارل الاصلع بحق اساقفته في عدم الاخذ بأي قانون حكومي يرون فيه مساسا بحقوق الكنيسة .

وشعر الكثيرون من رجال الدين في الغرب بضرورة تقوية السلطة البابوية . اذ أن انفراط عقد الامبراطورية الكارولنجية السياسي جعل الاساقفة موزعين بين امراء اقطاع متعددين بحيث تعذر عليهم الاجتماع سوية لاتخاذ قرارات موحدة في المؤتمرات الدينية . كما أدركوا أن المجهودات الفردية لاي سقف لا تجدي نفعا ازاء طغيان الامراء . هذا بالاضافة الى عدم ارتياح الاساقفة من سياسة رؤساء الاساقفة الكيفية لذا فضل الاساقفة الانصياع لقرارات مركزية تصدرها البابوية اليهم

---

(43) Ibid., 126.

مباشرة[44] .

ان محاولة رجال الدين الحـد من تعـاظم السلطات الزمنية وفرض السيطرة البابوية على رؤساء الاساقفة أدت بقسم من قادة الكنيسة الى ابتداع المراسيم الايزيدورية Pseudo Isidorian Decretals . اذ دبجت تلك المجموعة في اواسط القرن التاسع من قبل رهبان الفرنجة . ومع أنها تحتوي على مراسيم بابوية ووثائق هامة الا انها احتوت أيضا على روايات من بنات الفكر . نوهت هذه المجموعة عن حريات الكنيسة المطلقة وتفوق البابوية على أية سلطة سياسية[45] . وقد أعتبرت هذه المجموعة منزهة عن الباطل طيلة العصور الوسطى .

يرى قسم من المؤرخين ان البابوية في القرن التاسع لم تكن بحاجة ماسة للاعتماد على تلك المجموعة المزورة وخاصة ان بعض بابوات تلك الفترة كانوا في مراكز قوية . ومن أهم هؤلاء البابا نيقولا الاول ٨٥٨ ـ ٨٦٧ حيث توضح لنا حوادث عهده الكثير من الاتجاهات التي نوهنـا عنها . كان هذا من اسرة ارستقراطية وعلى جانب كبير من المقدرة . سعي جاهدا لفرض السطوة البابوية على الحكام السياسيين والسيطرة على السلك الكهنوتي . وهناك ثلاث حالات تمثل لنا سياسة البابا نيقولا في هذا الشأن . الاولى صراعه مع الامبراطورية البيزنطية اذ اكد فيـه تفوق السلطة الروحية على الزمنية وزعامة كنيسة روما العالمية وحقهـا في محاكمة الكنائس الاخرى[46] . وذلك على أثر اقالة اكناتيوس رئيس أساقفة القسطنطينية سنة ٨٥٧ من قبل الامبراطور مخائيل الذى اسنـد ذلـك المنصب الى فوثيوس . اذ طلب انصار الرئيسين السابق واللاحق تحكيم البابوية وارسلت البابوية فعلا وفدا للقسطنطينية لتحري الامر . غير ان الوفد البابوي حكم الى جانب فوثيوس فرد البابا الحكم وعزل وفده واصدر قراره سنة ٨٦٣ بوجوب أعتزال فوثيوس[47] . وتتمثـل

(44) Ibid., 127.
(45) Ullmann, A History of Political Thought in the Middle Ages (Middlesex, 1965) 85.
(46) Ibid., 78.
(47) T. Ware, The Orthodox Church (Middlesex, 1964) 61.

الحالة الثانية في محاولة البابا نيقولا الاول القيام بدور في تصرفات الملوك والامراء في الغرب . ومن الامثلة البارزة في هذا الشأن مشكلة نوثر ملك اللورين . اذ طلق هذا زوجته Teutberga مفضلا احدى خليلاته كزوجة . لذا أعتبر نيقولا الزواج مخالفا للتعاليم الدينية وامر بحرمان رجال الدين الذين أشرفوا على طلاق زوجته السابقة . وأضطر لوثر في النهاية الى الانصياع لاوامر نيقولا والرجوع لزوجته الاولى . ومهما تكن تطورات هذه المشكلة فيما بعد ، فقد اكد البابا بعمله هذا خضوع الحكام السياسيين من ناحية دينية الى الكنيسة كسائر الافراد المسيحيين[٤٨] .

وتتمثل الحالة الثالثة في نزاعه مع رئيس اساقفه ريمس المسمى هنكمار Hincmar أقوى الشخصيات الدينية انذاك في فرنسا . عمد هذا الى أقالة احد الاساقفة عن منصبه ثم سجنه في احد الاديرة . فرفع السجين دعواه للبابوية . وادعى رئيس الاساقفة بانه صاحب السلطة المطلقة في ضمن حدود منطقته الدينية لذا أستعان البابا عليه بشارل الاصلع[٤٩] .

تمثل بابوية نيقولا الاول الحد الاعلى الذي وصلته كنيسة روما قوة في القرن التاسع . واخذت بالتدهور بعد وفاته نتيجة للمصائب التي توالت على أوروبا من حروب أهلية وغارات خارجية . حيث صرت تلك الاحداث من رؤساء الاساقفة اسيادا اقطاعيين ومن البابوية غنيمة لامراء البابوية ونزلت تلك المؤسسة في هاوية سحيقة في القرن العاشر . واضطر امراء الاقطاع في ايطاليا من الاعتداء على الممتلكات البابوية . واضطر البابوات من أجل الدفاع عن أنفسهم الى عقد محالفات مع الفئات المتطاحنة . وادت تلك السياسة الى تورط البابوية في فوضى السياسة الايطالية وقد طمح حماة البابوية بأن يكونوا أسيادها . ولعل أبرز الامثلة الموضحة لذلك الوضع هي قضية فورموسوس Formosus

---

(48) M. Deanesly, History of Early Medieval Europe, 476-911 (London, 1960) 452.

(49) Strayer and Munro, op. cit., 128-29.

الذي تولى البابوية ٨٩١ ــ ٨٩٦ . اذ وجه هذا الدعوة الى الملك الجرماني أرنولف Arnulf لحمايته وتوجه امبراطورا في روما سنة ٨٩٤ . الا ان الاخير لم يتمكن من اعادة الامن الى الولايات البابوية . وقد حاول خصوم البابوية الانتقام من فورموسوس عند أنسحاب الامبراطور لبلاده . وبالرغم من وفاة ذلك البابا فان خصومه نبشوا قبره وأخرجوا جثمانه والبسوه الحلة البابوية واجلسوه على كرسيها ثم بدأوا بمحاكمته . وصدر الحكم باداتته فمزقوا ملابسه وقطعوا أصابع يده اليمنى الثلاثة التي يبارك بها المسيحيين وسحلوا الجثمان في الطرقات والقوه في النهر[50] .

لقد شغل الكرسي البابوي بعد فورموسوس ثمانية بابوات بظرف ثمان سنوات . وتمكن أحد الامراء المحليين الا وهو ثيو فيلاكت Theaphylact من التسلط على الشؤون البابوية ملقبا نفسه بالشيخ الروماني ثم سيطرت اسرته على تلك المؤسسة لنصف قرن أمست فيه روما مسرحا للمهازل . اذ كانت كل من زوجة ثيو فيلاكت المساة ثيودورا وأبنتها ماروزيا Marozia تتدخلان في تعيين البابوات . اذ تمكنت ثيودورا في البداية من اسناد البابوية الى أحد مقربيها الذي أصبح يعرف بجون العاشر . وقام هذا بالدفاع عن ايطاليا ضد الغارات الاسلامية ، غير أن اختلافه مع ماروزيا ادى به الى السجن والوفاة . ثم تمكنت ماروزيا من اسناد البابوية الى ولد من اولادها الا وهو جون الحادي عشر سنة ٩٣١[51] .

هذا ولم ينته نفوذ ماروزيا الا عن طريق احد ابنائها البريك Alberic اذ شعر هذا بان تصرفات والدته اصبحت تشكل خطرا عليه . لذا تزعم الثورة ضد امه وأمر بايداعها السجن ووضع أخيه جون الحادي عشر تحت الرقابة المشددة واصبح من أقوى الشخصيات الحاكمة في روما ٩٣٢ ــ ٩٥٤ . وأوصى قبيل وفاته أن يتولى ابنه اوكتافيان

---

(50) Cambridge Medieval History, Vol. III, 67.
(51) H. Milman, A History of Latin Christianity, Vol. III (N.Y., 1860) III.

Octavian منصبي الحكم والبابوية من بعده وكان ابنه انذاك في عمر السادسة عشرة . وتقلد هذا منصب البابوية فعلا سنة ٩٥٥ باسم البابا جون الثاني عشر الذي قيل عنه بانه من اكثر الناس شرا[٥٢] .

أما النفوذ البابوي خارج ايطاليا في القرن العاشر فكان يتناسب طرديا مع ضعفها في روما . لذا اعتمد رجال الدين على انفسهم بالدفاع عن حقوقهم في مناطقهم الادارية ضد الامراء المحليين . فالاقطاع الذي أفترس الامبراطورية كاد أن يلتهم الكنيسة أيضا . اذ كانت الكنيسة تمتلك مساحات شاسعة من الاراضي . ورأى المشرفون على ادارة هذه الاراضي انه لا يمكنهم المحافظة عليها الا عن طريق القوة . لذا اصبح رجال الكنيسة اشبه بالاقطاعيين لهم أراضيهم وجندهم الاقطاعي . اولئك الجند الذين يقدمون خدماتهم العسكرية لقاء التملك الضيعي . وبذلك فقد أصبحت الاراضي الكنسية تحت تصرف الاتباع Vassals هذا مع العلم بأنه لا يجوز شرعا للكنيسة القيام بالمهام العسكرية مباشرة لهذا لجأ المتذمتون منهم الى تكليف احد السادة الاقطاعيين المجاورين الاقوياء بقيادة الفرسان في الاراضي الكنسية . وأصبح يشار الى هؤلاء الاسياد المكلفين بقيادة جند الاقطاع الكنسي بالحماة Advocats وأخذ الحماة بمرور الزمن يعتبرون الاراضي الكنسية وما عليها من أتباع وكأنها تابعة لهم . ثم أصبحوا يتحكمون في الانتخابات للمراكز الدينية . أذ أن رجال الدين منذ العهد الكارولنجي أصبحوا محط أهتمام السلطات الدنيوية في الاعتماد عليهم في الاعمال الادارية . لهذا حرص الامراء على ملء الشواغر في المناصب الادارية الكنسية من قبل أناس يرتاحون اليهم . وهكذا عومل الاساقفة في مناطق متعددة وكأنهم أقطاعيون . فكان عليهم تقديم الولاء للسيد الاقطاعي الذي يستلمون منه المركز الاداري[٥٣] .

---

(52) J. McKabe, Crisis in the History of the Papacy (N.Y., 1916) 131. See also, Milman, op., cit., 171.

(53) Stephenson, op., cit., 36.

ومع ذلك فلم تنس الكنيسة مثلها العليا ولم يكن كافة امـراء الاقطاع متنكرين للقيم الدينية . فغالبا ما يختار الامراء أفضل الاساقفة للمراكز الدينية كما أن قسما منهم قدم مساعدات قيمة للاديرة ذات الرسالة الصادقة . وعلى العموم فأن الرهبان أقل تعرضا للمغريات من السلك الكهنوتي لانهم أقل املاكا ونفوذا سياسيا . وقامت الاديـرة في أحلك فترات القرن العاشر ظلاما بمحاولات من شأنها تنقية الكنيسة من الشوائب والعمل على أعلاء شأن البابوية ووضع حد للتدخـلات العلمانية . وحاولوا ايضا وضع حد للحروب الاقطاعية التي جلبـت الكوارث للفقراء . غير ان هذه المحاولات لم تثمر بالشكل المطلـوب الا في القرن الحادي عشر . حيث اصدر رئيس اساقفة **Beauvais** سنـة ١٠٢٣ الهدنة الربانية Truce of God وفحواها ان لم يكن بالاستطاعـة استئصال الحروب المحلية الاقطاعية فعلى المسيحيين الامتناع عنهـا على الاقل أيام الجمعة والسبت والاحد وأيام الاعياد والصيام[٥٤] .

(54) Ganshof, op., cit., 214-20.

الفصل السابع

الامبراطورية الرومانيه المقدسة The Holy Roman Empire

٩٦٢ – ١٢٧٣

لعل القارىء يتذكر الاشارة التهكمية للكاتب الفرنسي Voltaire ١٦٩٤ — ١٧٧٨ الى الامبراطورية الرومـانية المقدسة (انهـا لم تكن أمبراطورية ولا رومانية ولا مقدسة)[1] ومع ذلك فهي حقيقة واقعة . اذ يميل بعض المؤرخين الى الاخذ بالرأي القائل ان الامبراطورية هذه تكونت سنة ٩٦٢ . اي في الوقت الذي توج فيه الملك الجرماني أوثو Otto الكبير امبراطورا في روما . فشملت أمبراطوريته المانيا وقسما من الاجزاء الايطالية[2] . ويجب الانتباه الى أن العنصر السائد في الامبراطـوريـة

(1) Quoted in : Bryce, The Holy Roman Empire (London, 1950) 212.
(2) Z. Brooke, A History of Europe, 911-1198 (London, 1962).

هو العنصر الالماني وما كلمة (رومانية) الا للدلالة على وراثة التاج الامبراطوري الروماني ، اما صفة التقديس فمستندة على نظرية السيفين هذا مع العلم بأن كلمة مقدسة لم تستعمل بصورة رسمية الا في عهد الامبراطور فردريك الاول (بربروسا) حيث لقب بها سنة ١١٧٥[3] . ويرى المؤرخ Bryce ان هذه الامبراطورية مجرد امتداد للامبراطورية الكارولنجية التي قصد بها أحياء الامبراطورية الرومانية في الغرب لاعتبارات دينية وسياسية ، وما تاريخ سنة ٩٦٢ الا أشارة لانتقال التاج الامبراطوري بصورة نهائية من القسم الغربي الى القسم الشرقي من الامبراطورية الكارولنجية[4] ، ذلك القسم الذي أخذ يعرف بالمانيا منذ معاهدة فردون سنة ٨٤٣ .

المانيا ٨٤٣ — ٩٣٦

أن نواة الامبراطورية الرومانية المقدسة هي المناطق المكونة لمملكة الفرنجة الشرقية (المانيا) . وتألفت هذه من سكسونيا الكائنة في الاقسام الشمالية الشرقية ، وبفاريا أقوى الامارات الالمانية الجنوبية ثم سوابيا Swabia الواقعة في جهات الراين العليا وفرانكونيا في الجهات الوسطى من حوض الراين واخيرا اللورين Lorraine التي أصبحت جزءاً من المانيا منذ سنة ٩٢٥ .

أخذت الاجزاء الالمانية تزداد قوة منذ معاهدة فردون لاسباب عدة يمكن ايجازها بما يلي :

١ — أنها اقل مناطق الامبراطورية الكارولنجية تأثرا بالمدنية وأقلها ثراءاً أيضا . وقد ساعدت هذه الظاهرة على أنقاذ المانيا من كثير من الويلات التي تعرضت لها الاقطار الاخرى من جراء الغزو الثاني على اوروبا . هذا بالاضافة الى أن شيوع الترف في القسم الغربي صحبه عزوف عن الحياة العسكرية . لذا فان أقل المناطق تأثراً بالمدنية انذاك اكثرها صمودا في الحروب وأقدرها على مجالدة الطبيعة .

---

(3) J. Bryce, op., cit., 196.

(4) Ibid., 79.

٢ ـ لم يكن السلاح حقا مقتصرا على الطبقة الارستقراطية كما هو الحال في معظم الاجزاء الاوربية . ولهذا كانت المانيا غنية بمحاربيهـا ومحتفظة بقواها المعنوية . وتلك من الاسباب الهامة التي جعلت لهم التفوق العسكري على اعدائهم من مجريين وسلافيين وشماليين[٥] .

٣ ـ لم تكن فيها القيود الاقطاعية ثقيلة الوطأة كما هي في فرنسا مثلا . هذا بالاضافة الى أن رؤساء الاقطاع في المانيا لم يتمكنوا مـن احتكار السلطتين السياسية والعسكرية الا في وقت متأخر نسبيـا[٦] .

٤ ـ لم يفرط ملوك الالمان كثيرا في سلطاتهم المركزية اذ احتفظوا بانهم منها مما ساعدهم في ادارة البلاد وجمع الشمل .

٥ ـ لم يتعرض الالمان في تلك الفترة لاهوال الحروب الاهليـة حول العرش كما تعرضت اليها فرنسا . اذ دار النزاع في القطر الاخيـر حول العرش لمدة قرن تقريبا بين سلالتي الكارولنجيين وادو كـونـت باريس الذي توج ملكا سنة ٨٨٧ أثر اقالة شارل السمين[٧] .

٦ ـ عمل ملوك القسم الشرقي منذ سنة ٨٤٣ على ازادة ممتلكاتهم والدفاع عنها . فالملك لويس الجرماني ٨٤٣ ـ ٨٧٥ والذي يعتبر اول ملك على المانيا تمكن من توسيع رقعة المانيا على حساب المملكة الوسطى نتيجة لمعاهدة مرسن سنة ٨٧٠ التي عقدها مع أخيه شارل الاصـلع . وأصبحت المانيا في عهده ممتدة من الراين الى الالبه .

سارت المانيا بطريق مستقل عن القسم الغربي بشكل ملحـوظ منذ أقالة شارل السمين واعتلاء أرنولف الحفيد غير الشرعي للويس الجرماني ٨٨٧ ـ ٨٩٩[٨] . وتمكن ارنولف من صد الغزاة السلافيين في الجهات الشرقية وانتصر على الدانيين سنة ٨٩١ . لقد عززت تلك الانتصارات مركزه فشرع يطالب بحقوق الاسرة الكارولنجية في ايطاليا . وتمكـن فعلا من الاستيلاء على مناطق حوض البو وشق طريقه الى روما سنة ٨٩٦

---

(5) Strayer and Munro, The Middle Ages (N.Y., 1942) 143.
(6) Brooke, op., cit., 6.
(7) Strayer and Munro, op., cit., 143-44.
(8) W. Durant, The Age of Faith, 395-1300 (N.Y., 1950) 510-11.

حيث توجه البابا فرموسوس امبراطورا[9] ، غير أنه لم يجن ثمار أنتصاراته
ايطاليا اذ اضطر الى الانسحاب لانتشار الاوبئة في جيشه .

تعرضت المانيا لمدة قصيرة لموجة من الاضطرابات على أثر وفاة ارنولف ولان وريثه لويس كان في عمر الخامسة ٨٩٩ ـ ٩١١ ولعدم مقدرة الحاشية الملكية من النهوض بامر الدفاع عن البلاد ، لهذا حاول الامراء الاستئثار بالسلطة في تلك الفترة وتولي مسؤولية الدفاع عن اماراتهم . وتعتبر فترة حكم لويس الطفل بداية انتشار الاقطاع في المانيا [10] . كما يمثل لويس اخر سليل كارولنجي في المانيا . اذ انتخب الامراء عند وفاته كونراد الاول امير فرانكونيا ملكا ٩١١ ـ ٩١٨ . الذي عمل على تهدئة الامور التي مهدت للتوسعات الالمانية في عهدي هنري فاولد (الصياد) وأوتو الكبير .

هنري فاولد ٨١٩ ـ ٩٣٦

أستهل حكمه باخضاع كل من فرانكونيا وبافاريا اللتين عارضتا في أنتخابه وقد ضم الى ممتلكاته اللورين سنة ٩٢٥ ، ووسع الحدود على حساب المناطق السلافية فأضاف الى المانيا مساحة تعادل ثلاث أخماس مساحتها الاصلية . لهذا يشار له بانه واضع الحجر الاساسي للسياسة الالمانية المعروفة بالزحف نحو الشرق Drang Nach Osten [11] .
هذا ولم يحاول هنري الاعتماد كثيرا على رجال الدين في شؤون الدولة الادارية كما فعل اسلافه لعدم رغبته في ازدياد نفوذهم .

اوتو الكبير ٩١٨ ـ ٩٣٦

توج هذا ملكا على اثر وفاة والده هنري فاولد . وسار في سياسته الداخلية على نقيض والده . اذ فضل الاعتماد على رجال الدين وادت تلك السياسة الى تأثيرات انعكست في سياسته الخارجية تجاه البابوية وأيطاليا بصورة عامة . أستهدف من سياسته الخارجية أربع

(9) Bryce, op., cit., 78.
(10) Durant, op., cit., 611.
(11) Strayer and Munro, op., cit., 145.

نقاط اساسية هي : (١) القضاء على غارات المجريين وقد تمكن منهم في الانتصار الذي حققه عليهم في موقعة لخفلد Lechfeld سنة ٩٥٥ قرب اوكسبرك[12] (٢) بناء المعاقل العسكرية على الحدود الشرقية ومواصلة الزحف نحو الشرق (٣) السعي لابقاء فرنسا ضعيفة ومنقسمة على نفسها (٤) التوسع في ايطاليا والحصول على التاج الامبراطوري .

ان اعتماده على رجال الدين حتم عليه تقوية علاقاته مع البابوية وادت تلك السياسة الى الاستيلاء على معظم الاجزاء الايطالية . ومما ساعده على ذلك استغاثة الاميرة ادليد الكارولنجية ووارثة العرش اللمباردي ضد اعدائها سنة ٩٥١ . وقد وافت الفرصة اوتو للتوسع في ايطاليا بشكل جدي عند استغاثة البابا جون الثاني عشر به ٩٥٥ — ٩٦٣ لمساعدته عسكريا ضد الامير الايطالي بيرنجر . لذا توجه ذلك البابا امبراطورا في روما سنة ٩٦٢ مكافأة له واعترافا بقوته وسيرا على النهج التقليدي في عدم اعتراف البابوية بأباطرة البيزنطيين . وقد اعتبرت حادثة التتويج هذه عند قسم من المؤرخين كما أشرنا بداية الامبراطورية الرومانية المقدسة .

لم يكتف أوتو باللقب الامبراطوري بل أخذ يتدخل في الشؤون البابوية بشكل لم يسبق له مثيل . وأصبح هذا التدخل سابقة سياسية — دينية سار عليها اباطرة الجرمان وكانت لها تاثيرات سلبيه في العلاقات بين الطرفين . اذ بدأت العلاقات بالتوتر بين اوتو الكبير والبابا جون الثاني عشر بعد التتويج مباشرة . حيث رأى البابا وانصاره أنهم لم يجدوا في الامبراطور حليفا بل سيدا[13] . لهذا أعلن البابا تحديه لطموح الامبراطور وتفاوض مع عدوه السابق بيرنجر للتحالف في مقاومة الامبراطور وكذلك بعث رسله للمجريين لتحريضهم على غزو المانيا . وكان أوتو على علم بالمؤامرات التي يحيكها ضده ذلك البابا .

---

(12) H. Pirenne, A History of Europe, from the Invasions to XVI Century (N.Y., 1955) 138.

(13) Bryce, op., cit., 131.

لقد كان جون الثاني عشر بن ماروزيا العنيدة التي سبق ذكرها . نشأ نشأة دنيوية فكان أشبه بسلاطين الدنيا بعيداء عن القضايا الروحانية، وهو في عمر العشرين انذاك . وقد اشار اليه الامبراطور متهكما ذات مرة (انه لم يزل ولدا وعساه أن يقتدي بسلوك الناس الصالحين) . هرع الامبراطور الى روما حينما اعلن جون عصيانه . ومع ذلك فلم تكن للاخير الجرأة في الدفاع عن روما ففر منها ملتجأ في امارة كامبانا . لهذا عقد أوتو مؤتمرا دينيا برئاسته للتحقيق في سلوك البابا . وقد وجه رؤساء الدين في ذلك المؤتمر تهما شتى ضد البابا جون . فاشار الكردينال بطرس ان راه يحتفل بسر التناول ولكنه لم يقم بتطبيقه حسب الاصول . وقال الكردينال جون بأنه رأى البابا يبارك شماسا في الاسطبل ونسب اليها أثاما ارتكبها في القصر البابوي . ثم أتهم بأنه يشرب نخب الشيطان وحينما يقامر بالنرد يستعين بالهة الحب والحرب . وانه يقيم المراسيم الدينية في غير اوقاتها . ثم قالوا عنه بأنه مغرم بالصيد وحمل السيف[14] .

وبالرغم من تلك التهم الموجه للبابا فأن الامبراطور تريث في الحكم عليه . غير أن المجلس الروحاني اشار الى الامبراطور بأنه اذا لم يعقل تلك التهم فانهم يقولون للامبراطور كما قيل للمسيح (اغرب عنا لاننا لا نفهمك .) لهذا حرر الامبراطور رسالة الى البابا يرجوه فيها الحضور امام محكمة دينية في روما للدفاع عن نفسه ضد تلك التهم. اما جواب البابا فكان موجزا .اذ جاء فيه (من خادم الله الاسقف جون الى كافة الاساقفة . سمعنا بانكم تحاولون تعيين بابا اخرا . أقسم بالله أن فعلتم ذلك فستكونون تحت طائلة عقاب الحرمان ...) . وأرسل الامبراطور رسالة اخرى الى ذلك البابا يرجوه فيها (تقويم خلقه ولسانه)[15] . الا أن الرسالة لم تصل للبابا نظرا لانشغاله بالصيد .

(14) Ibid., 132.
(15) Ibid., 132-33.

لهذا طالب المجلس الروحاني بأقالته فانصاع لهم الامبراطور واسندت البابوية الى ليو الثامن . وهكذا بدأ اوتو اولى تدخلات أباطرة الجرمان في المسائل الروحانية العليا . وأخذ من المجلس الروحاني الأعلى قسما بالولاء ومن البابوية أيضا وتعهدوا له بعدم انتخاب اي بابا في المستقبل ما لم ينل موافقة الامبراطور .

لم تنته مشاكله مع البابوية عند ذلك الحد . اذ أهاجت تصرفات الجند الالماني مشاعر السكان في روما ،فانتفضوا على السلطة الامبراطورية وانتهز البابا جون غياب الامبراطور عن روما موقتا فحاول تزعم ثورتها الا أنه ذهب ضحية طعنة نجلاء وجهها اليه أحد الاشخاص الذي ادعى بانه قتل جون غسلا للعار الذي الحقه بزوجه سنة ٩٦٣ . ومع ذلك فقد استمر أهالي روما بالعصيان وانتخبوا لهم بابا . وعليه فقد عيل صبر الامبراطور وعامل الثوار بشدة متناهية سنة ٩٦٦ اذ أمر باعدام ثلاثة عشر قائدا واغلق المجلس البلدي وعهد بحكم المدينة الى البابا الذي جعله نائبا عنه[16] .

لقد أثارت حادثة تتويج أوتو امبراطورا السلطات البيزنطية في عهد الامبراطور رومانوس الثاني . فحاول أوتو حصول اعتراف البيزنطيين به مستعينا على ذلك باقتراحه زواج وريثه من بنت ذلك الامبراطور المسماة ثيوفانو . الا ان رومانوس رفض ذلك الأمر . لهذا لجأ أوتو الى توسيط البابا في ذلك الموضوع على اثر وفاة رومانوس واعتلاء نقفور فوكاس العرش البيزنطي وكان وصيا على اخت رومانوس لانه قد تزوج والدتها . وقد رد نقفور فوكاس على وساطة البابوية بعبارات قاسية منها (من أنت يا هذا ؟ انك لم تكن من الرومان .. وما حقيقتك الا لمباردي تافه .. آننا لا نفهم ماذا تهدف اليه هذه الصلافة ..) وقد دافع البابا عن كرامته بمدح الجرمان بقوله (ان كلمة روماني من اكثر الاسماء حقارة أنها تعيد الى الاذهان كل ضرب من ضروب الموبقات والحماقة والجشع والجبن . ولكن ماذا يتوقع الانسان من سلالة

---

(16) Ibid., 135.

تحدرت من ذلك العاق رميلوس الذي فتك بافراد أسرته .. والذي هرعت اليه حثالة الامم .)[17] . ومع ذلك فقد تم زواج أوتو الثاني من الاميرة ثيوفانو بعد موافقةالامبراطور جون شميسكس الذي تولى العرش البيزنطي اثر قتله نقفور فوكاس .

الصراع بين السلطتين الدينية والزمنية

أن الصراع الذي نشب بين الاباطرة الجرمان والبابوات في العصر الوسيط كان في بدايته نتيجة للمحاولات التي قامت بها الكنيسة الغربية لاصلاح مؤسساتها من الداخل وأبعاد التدخلات السياسية عن شؤونها ولتنظيم علاقاتها مع السلطات الزمنية حسبما جاءت به نظرية السيفين . وهنا لا بد من الاشارة الى أن نظرية السيفين لم يكتب لها التطبيق في الواقع . وقد حاولت الكنيسة تطبيقها في اواخر القرن الحادي عشر فعادت على السلطتين الامبراطورية والبابوية بعواقب وخيمة .

يجد المتأمل في تاريخ الكنيسة الرومانية بانها كانت معرضة لتاثيرات السلطة منذ اعتراف قسطنطين بالمسيحية . كما أن الظروف السياسية التي اتاحت لكنيسة روما التخلص من التدخل الروماني المباشر فأن ظروفا سياسية اخرى أوقعتها تحت تاثيرات ثيودوريك واباطرة الشرق . هذا وقد اعتمدت الكنيسة الغربية أعتمادا كليا على دولة الفرنجة في عهد الاسرتين الميروفنجية والكارولنجية واعتبرت حكام الفرنجة حماة لها . ولم يكن هناك مجال لتطبيق النظرية السالفة حينما توج شارلمان أمبراطورا . لان الاخير كان في واقع الامر حاكما ثيوقراطيا وان الكفة الراجحة بجانب السلطة الزمنية[18] . كما أصبح تمييز مناطق النفوذ الدينية عن السياسية في غاية الارتباك والغموض منذ أواخر القرن التاسع على أثر اشتداد الغزو الثاني على اوروبا وانتشار الاقطاع الذي سرى الى المؤسسات الدينية فأصبحت الكنيسة وكأنها مؤسسة اقطاعية وبلغت البابوية ادنى مراتبها من التدهور في تلك الفترة .

---

(17) Quoted in Ibid., 137-38.

(18) Ullmann, A History of Political Thaught in the Middle Ages (Middlesex, 1965) 72.

تعتبر حركة الاصلاح التي بدأت في الكنيسة بصورة فعلية قبيل الحروب الصليبية بأنها من مظاهر النهضة الاوربية التي لاحت بشائرها في الافق الاوروبي منذ بداية القرن الحادي عشر وازدهرت في القرن الثاني عشر ، وذلك على أثر الاستقرار النسبي الذي ساد اقسام اوروبا الغربية من بعد أحن كوارث الغزوات السابقة الذكر . ولعبت المؤسسة الديرية المسماة بدير كلوني التي تأسست منذ سنة ٩١٠ في برغندي دورا فعالا في مكافحة الفوضى في داخل الكنيسة والسعي لايقاف تجاوزات السلطات الزمنية على حقوق الكنيسة[19] . وتسنى للكنيسة ان تطالب السلطات السياسية باتباع ما جاءت به نظرية السيفين بعد أن تم لها اصلاح نفسها من الداخل ، ذلك الاصلاح الذي قاد الى اول مراحل الصراع المسلح بين القوتين العالميتين البابوية والامبراطورية الرومانية المقدسة .

تناولت الاصلاحات الكنسية ثلاثة أمور هامة هي :

١ ـ اصلاح المؤسسة البابوية

بالرغم من ان هذه المؤسسة هي نقطة الارتكاز للعالم المسيحي الكاثوليكي فقد أمست في اوضاع يرثى لها منذ القرن العاشر حتى نهاية النصف الاول من القرن الحادي عشر . وتكمن المشكلة الاساسية في عدم وجود قاعدة ثابتة لانتخاب البابوات . اذ جاء على البابوية حين من الدهر تمكنت فيها العوائل المتنفعة في روما وما جاورها تمكنا حقا في تلك المؤسسة ومثلت مهازل عدة على الكرسي البابوي وادت تلك المظاهرة كما اشرنا الى تدخلات الامبراطور أوتو الاول . وقد سار الامبراطور أوتو الثالث على تلك الخطة . اذ عين ثلاثة من الجرمان للمنصب البابوي على التعاقب ، وكان من بينهم استاذه جريرت أوف اوريلدك الذي عرف بسلفستر الثاني سنة ١٠٠٠ [20] . كما حدث

---

(19) S. Painter, History of the Middle Ages, 289-1500. (London, 1963)128-33.

(20) Bryce, op., cit., 143.

وترأس المنصب البابوي صبي لا يتجاوز الثانية عشر سمي بندكت التاسع (١٠٣٣ ــ ١٠٤٥) وهو ابن دوق تاسكولم . عينه والده في ذلك المنصب البابوي عنوة وبالاحتيال لكي يتم له الاشراف على روما وملحقاتها ولم تمنع قدسية المركز ذلك الصبي عند بلوغه الرشد من أرتكاب الكبائر. واسفرت تصرفاته عن ثورة في روما سنة ١٠٤٥ وانتخاب سلفستر الثالث . ولم يكتف بندكت بذلك الحد فقد باع ادعائه بالبابوية الى احد المدعين الذي سمي نفسه كريكوري السادس غير انه عاد مرة اخرى للمطالبة بالادعاء[٢١] . وهكذا أصبح ثلاثة بابوات في آن واحد في عهد الامبراطور هنري الثالث ١٠٣٩ ــ ١٠٥٦ . واضطر الاخير الى تنحيتهم جميعا في مؤتمر سوتري سنة ١٠٤٦ وان يفسح المجال لتعيين كليمنت الثاني[٢٢] .

بدأت المحاولات لاصلاح المؤسسة البابوية تأخذ اولى خطواتها العملية في عهد البابا ليو التاسع ١٠٤٩ ــ ١٠٥٤ . اذ رفض هذا أن يكون معينا من قبل الامبراطور واصر على أتباع مبدأ الانتخاب . اذ أحال الامر الى رجال الدين في روما لكي ينظروا في أهليته للمنصب عن طريق الانتخاب[٢٣] . أما البابا نيقولا الثاني ١٠٥٩ ــ ١٠٦١ فاصلح طريقة الانتخاب . وذلك بجعله أياه من الحقوق المقتصرة على مجلس الكرادلة الذين هم أنذاك رؤساء المؤسسات الكنسية في منطقة روما وما جاورها . ويعتبر ذلك الاجراء من الخطوات الاساسية في أبعاد تدخل العناصر الزمنية في المؤسسة البابوية . ويقول المؤرخ بيرين يمكن اعتبار تلك الخطوة الاصلاحية بداية للصراع بين الامبراطورية والبابوية[٢٤] .

٢ ــ اصلاح المسلك الكهنوتي

تركزت الاصلاحات في هذا المجال في امرين هامين . الاول مناشدة

---

(21) Brooke, op., cit., 90.
(22) Pirenne, op., cit., 179.
(23) Ibid., 180.
(24) Ibid., 182.

رجـال الدين مراعاة العزوبـة Celibacy . والثاني منع الاجـــراءات السيمونيه Simony . أما بالنسبة للعزوبة فهي عادة ديرية الاصـل سار عليها الرهبان والراهبات ثم عممتها الكنيسة الغربية على كـافـة المشتغلين في السلك الكهنوتي ابتداء من درجة الشماس الثانـوي Subdeacon [٢٥] . والغاية من ذلك الانقطاع التام عن الدنيا والانصراف للشؤون الروحية وكذلك للمحافظة على الاوقاف الكنيسية للحيلولـة دون جعلها وراثية . والملاحظ ان قسما من رجال الدين في الغرب لـم يتقيدوا بهذه القاعدة لعدم ورود أشارات صريحة دينية حول الموضوع. ولهذا أصبحت الاوقاف الدينية وكأنها وراثية في عوائل رجال الديـن . وقد أستفحلت هذه الظاهرة بشكل يسترعي الأنتباه منذ اواخر القـرن التاسع . لذا شرعت البابوية بمعالجتها بشكل جدي في عهد البابا نيقولا الثاني . أذ اصدر مجلس اللاتيران سنة ١٠٥٩ قرارا يمنـع حضـــور الاحتفالات الدينية التي يشرف عليها اساقفة متزوجون[٢٦] .

أما موضوع السيمونيسة فقد قصد به منع المتاجرة بالمراكز الدينية اذ جرت العادة بين رؤساء الوحدات الادارية الدينية أن ينعم عليهم بالتملك الضيعي حسب الاجراءات الاقطاعية بصرف النظر عن الواجبات الدينية. وكان التنافس شديدا بين رجال الدين عند حدوث الشاغر في الادارات الديرية أو الاسقفيات وغيرها . هذا مع العلم ان قسما لا يستهـان به من الاملاك الدينية أصبحت في واقع الامر تحت تصرف الاقطـاعيين باختلاف مراتبهم . وبدا رجال الدين وكأنهم أتباع لرؤساء الاقطاع . أن عملية التصرف بالمراكز الدينية ومرافقها لاغراض دنيوية أشير لهـــا بالسيمونية . وجاءت التسمية من احدى روايات الانجيل . وموجزها أن سيمون Simon الساحر حاول أغراء القديس بطرس بمبلغ مال لقـاء أن يبارك له عمله . فاجابه القديس حسبما جاء في الاصحاح الثامن بمـا

---

(25) Robinson, An Introduction to the History of Western Europe, vil. I (Boston, 1934) 188.

(26) Ibid., 193.

معناه (أنك هالك مع فضتك لانك تحاول الحصول على بركة اللـه بالدراهم) . لهذا أعتبرت الكنيسة كل من يحاول التصرف بالقضـايـا الدينية لاغراض اخرى مهما كانت منزلته في السلطتين الدينية والزمنية فانه يقوم بالاعمال السيمونية . او بمعنى اخر المتاجرة بالواجبات والمراكز الدينية[27] . ولهذا أصدر البابا ليو التاسع سنة ١٠٤٩ مرسوما يـؤكـد فيه تحريم الاجراءات السيمونية .

٣ – منع العلمانيين من استثمار المراكز الدينية

أن الاتجاهات الاقطاعية اللامركزية من العوامل الهامة في أضعاف الادارة المركزية للكنيسة . اذ سرت عدوى الاقطاع للكنيسة وأصبـح الاقطاعيون هم المهيمنون في الواقع على قسم كبير من الأملاك الدينية وعلى رجال الدين الذين يتملكون ضياعـــا . فكان على القســس والاساقفة ورؤساء الاساقفة وحتى رؤساء الاديرة تقديم الولاء والاخلاص للرئيس الاقطاعي عند أول تعيينهم ثم يقوم الرئيس الاقطاعي بمنحهم حق الاستثمار الضيعي . ويشار لهذه الحقوق الضيعية الممنوحة مـــن السلطات الزمنية الاقطاعية الى الموظف الديني بالاستثمار او المنـح العلماني Lay investiture . وعليه أمتزجت الجوانب الدينية للمؤسسات الكنسية بجوانب الاقطاع الدنيوية . واصبح رجال الدين في الـواقع يدينون بالولاء والتبعية للاقطاعيين . أذ أن هؤلاء حينما يمنحون حـق الاستثمار الضيعي لاحد من رجال الدين يقدمون له الجامعة Ring والعصا Staff . [28] . وهذان رمزان دينيان ، يشير الاول للحضيـرة المسيحية والثاني الى حق ممارسة السلطة في قيادة الرعية ضمن الحضيرة المسيحية . هذا وقد عمد ملوك الجرمان واباطرتهم بصـورة خـاصـة الى الاكثار من منح المؤسسات الضيعية الى رجال الدين من أجل الجمع بين السيطرتين السياسية والدينية وللاستفادة من مؤهولاتهم الثقافية في الشؤون الادارية[29] .

---

(27) Quoted in Ibid., 189.

(28) P. Orton, The Shorter Medieval History. Vol. I (Cambridge, 1935) 471.

(29) Brooke, op., cit., 171-72.

أن عملية تجريد السلطات الزمنية من استثمارها للمراكز الدينية كانت حسب رأينا السبب الاول في الصراع المسلح بين الامبراطورية الرومانية المقدسة والبابوية . بدأ ذلك في عهد كل من البابا كريكوري السابع ١٠٧٣ ــ ١٠٨٥ والامبراطور هنري الرابع ١٠٥٦ ــ ١١٠٦ .

لقد مر الصراع في الفترة التي نحن في صددها من تاريخ الامبراطورية الرومانية المقدسة بمرحلتين اساسيتين . تمتد الاولى من سنة ١٠٧٣ حتى سنة ١١٢٢ والثانية من سنة ١١٥٢ حتى سنة ١٢٦٨ . ويشار لمرحلة الصراع الاولى بالصراع حول الاستثمار العلماني للمراكز الدينية . وتميزت المرحلة الثانية بالصراع بين البابوية والامبراطورية حول مناطق النفوذ لكل منهما في ايطاليا .

المرحلة الاولى

ادت السياسة التي أتبعها البابا كريكوري السابع في ذلك الشأن الى أول اصطدام مسلح بين أنصار البابوية في المانيا من جهة وأنصار الامبراطورية من جهة أخرى . ونظرا لاهمية هذا البابا فنرى أن نقف على شيء من حياته واهدافه . كان اسمه قبل توليه البابوية هيلدبراند Hildebrand (الشعلة الطاهرة) . ولد من عائلة فقيرة في توسكاني سنة ١٠٢٣ . تلقى دروسه الاولى في دير القديسة ماري في روما ثم انخرط في المسلك الرهبني البندكتي . عينه البابا ليو التاسع كردينالا وممثلا بابويا في فرنسا وشغل مهمات عليا في عهدي البابوين فكتور الثاني ١٠٥٥ ــ ١٠٥٧ وستيفن التاسع ١٠٥٧ ــ ١٠٥٨ . ويعتبر هيلدبراند اليد الخفية المحركة لسياسة البابوية الاصلاحية . وقد وافته الفرصة لتحقيق اهدافه الاصلاحية عند أنتخابه للبابوية سنة ١٠٧٣ . حاول تحقيق اربعة اهداف رئيسية في حياته . هي اكمال الاصلاحات التي شرع بها ليو التاسع بشأن رجال الدين ووضع حد لاستغلال العلمانيين للمراكز الدينية بتطبيق نظرية السيفين ثم توحيد اوروبا دينيا تحت زعامة كنيسة روما وأخيرا محاولته لتكوين جيش مسيحي لاستعادة الاراضي

المقدسة[30] .

أن ما يهمنا من اهداف كريكوري السابع هو سعيه لمنع الاستثمار العلماني للمراكز الدينية . اذ أصدر في شباط سنة ١٠٧٥ قرارا ناشـد فيه الامراء والملوك والامبراطور الامتناع عن تعيين رجال الدين في المراكز الكنسية[31] . واحدث القرار رد فعل شديد في الاوساط الالمانية . لان أباطرة الالمان اعتمدوا كثيرا على رجال الدين في القضايا الادارية هـذا بالاضافة الى أن نصف الممتلكات الامبراطورية تقريبا بيد رجال الدين الذين يدينون بتبعيتهم الاقطاعية للامبراطور[32] . أن تحرير هؤلاء بأملاكهم من السيطرة الامبراطورية معناه دمار مؤسسة الحكم الامبراطوري . هذا وقد أكد البابا قراره السابق في ديسمبر سنة ١٠٧٥ برسالة وجهها الى الامبراطور هنري الرابع يهدده بعقوبة التحريم ان لم يسارع لتنفيذ الامر . لذا عقد هنري الرابع مؤتمرا في ورمز Worms في الرابع والعشرين من كانون الثاني سنة ١٠٧٦ ضم اربعا وعشرين أسقفا ومن بينهـم الكردينال هيو الذي أتهم البابا بالقساوة والشعوذة وتوصله الى البابوية عن طريق الرشوة والتهديد . ثم اشار الى أن على البابا حصول موافقـة الامبراطور على اشغاله الكرسي البابوي . وعليه أقترح الامبراطور أقالة البابا وصادق المؤتمرون على ذلك . كذلك وافق مجلس اساقفة اللمبارد المنعقد في بياسنزا Piacenza على القرار أيضا . وحرر الامبراطور رسالة الى كريكوري جاء فيها (من هنري الملك الشرعي الذي أختاره اللـه الى هليدبراند الراهب المزيف ...)[33] . وسلمت الرسالة الى البابا فـي ٢١ شباط سنة ١٠٧٦ بحضور مؤتمر ديني ضم أساقفة الغال وقسمـا من ايطاليا . وقد بلغ الحماس أشده بين اعضاء المؤتمر البابوي حينمـا قرأت الرسالة فهم البعض للفتك بحاملها . وعليه أصدر البابا قرار التحريم الثلاثي ضد هنري المتضمن اللعنة والخلع وتحلل أتباعه من الولاء له .

---

(30) Durant, op., cit., 545-46.
(31) Brooke, op., cit., 171.
(32) Bryce, op. cit., 156.
(33) R. Stephen, Hildebrand and his Times (London, 1914) 116.
(34) Brooke, op., cit., 185.

أما هنري فقد تمكن من أقناع أسقف مدينة يوترخت بأن يصب اللعنة على كريكوري من منبر الكتدرائية . وقد هزت هذه العملية نفوس المسيحيين بحيث تجاهل قسم كبير من رجال الدين دعوة هنري لعقد مؤتمرات لمعالجة الموضوع[٣٥] .

أخذ موقف الامبراطور يزداد حراجة عندما جدد السكسون ثورتهم ضده . ورأى الامراء الفرصة سانحة للتحرر من السيطرة المركزية ، لهذا عقد الأمراء المعارضون مؤتمرا في السادس من اكتوبر سنة ١٠٧٦ في مدينة تريبور أعترفوا فيه بقرار التحريم البابوي ضد الامبراطورية ثم قرروا فيما اذا لم يستحصل الامبراطور على عفو البابا في ٢٢ شباط سنة ١٠٧٧ فأنهم في حل من بيعته ، ثم قرروا عقد مؤتمر اخر في مدينة اوكسبرك عند أنتهاء مدة أنذارهم الى هنري[٣٤] .

التجأ هنري الى مدينة شباير بعد أن هجره النبلاء . وارسل من هناك الى البابا يخبره استعداده بالقدوم الى روما طلبا للعفو غير أن الاخير أعتذر بسفره الى اوكسبرك . وقد حل البابا أثناء طريقه الى المانيا ضيفا على ماتيلدا أميرة توسكاني في مدينة مانتوا . وهناك علم البابا بأن هنري دخل الحدود الايطالية لهذا أحتمى البابا خوفا من مغبة الامر في قلعة كانوسا . وقد ظهر هنري امام تلك القلعة في أبرد فصل شتاء عرفته أيطاليا في اليوم الخامس والعشرين من كانون الثاني سنة ١٠٧٧ . وافاد كريكوري في تقريره الى الامراء الالمان عن الحادث بقوله:

> لقد جاء بشخصه الى كانوسا ومعه حاشية صغيرة . وأرمى نفسه بباب القلعة حافي القدمين يرتدي بدلة صوف رثة ، راجيا بخشوع العفو والغفران . واستمر على ذلك النحو لثلاثة أيام فأخذت الشفقة مأخذها ممن حولنا . وتشفعوا له بالدعاء والدموع ... وأخيرا رفعنا عنه التحريم واستقبلناه الى حضن الكنيسة الام الرؤوم[٣٦] .

---

(35) Durant, op., cit., 549.

(36) O. Thacher and E. McNeal, Source Book of Medieval History (N.Y., 1905), 159.

لقد اصدر البابا قرار الغاء التحريم بعد تردد . وسبب ذلك أنه أرتبط بجبهة الامراء المعارضة للامبراطور ولهذا فقد أحس من ناحية أدبية ضرورة استشارة اولئك الامراء قبل الصلح مع الامبراطور . كما اعتقد البابا بأن هنري لو عاود التمرد فسوف لا يكون لقرارات البابوية ضد في المستقبل الصدى المطلوب . واعتقد البابا من جهة اخرى أن امتناعه عن اصدار العفو عن أنسان تائب من شأنه أثارة التساؤل عند المسيحيين. وعلى كل فقد رجع البابا من كانوسا الى روما عند اصداره العفو عن هنري .

بالرغم من أن البابوية سجلت نصرا روحيا على السلطة الزمنية في كانوسا فهي من ناحية اخرى عبارة عن نصر دبلوماسي للامبراطور[٣٧] . أذ ساعد العفو على ضعضعة العلاقات بين الامراء والبابوية . واثبتت الظروف بأن هنري لم يكن جادا في صلحه وليست لديه نية العدول عن الاستثمار العلماني للمراكز الدينية . وبالرغم من صلح الامبراطور والبابا فأن الامراء أستمروا في تحديهم للاول وأختاروا لهم رودولف أمير صوابيا سنة ١٠٧٧ ملكا . فاضطر هنري الى خوض غمار الحرب ضدهم لمدة سنتين وقد أيد البابا جانب رودولف ثم أصدر قرار التحريم ثانية ضد هنري سنة ١٠٨٠ ووعد بغفران الذنوب لكافة المحاربين ضد الامبراطور[٣٨] .

كان الوقت مؤاتيا للامبراطور في تلك الجولة لا سيما أن المدن الالمانية التجارية ساهمت أقتصاديا وعسكريا في دعم الامبراطور . كما رأى الامبراطور ان الظرف بجانبه لتحدي كريكوري السابع خاصة بعد أن أنحاز الى جبهته عدد لا يستهان به من رجال الدين في المانيا الذين ايدوا الامبراطور في خلعه البابا كريكوري وانتخاب كليمنت رئيس اساقفة رافينا بابا في مارس سنة ١٠٨٠ .

لقد تم الانتصار عسكريا لهنري الرابع على خصمه رودولف في معركة قرب ترسالا Saalh في اكتوبر سنة ١٠٨٠ والتي فقد فيها

(37) Strayer and Munro, op., cit., 206.
(38) Cambridge Medieval History, vol. V, 74.

رودولف حياته . لذا قرر هنري مواصلة الزحف على روما . وقد استغاث البابا بالامير النورمندي روبرت كيسكارت Robert Quiscard الذي كان منشغلا انذاك في قتال البيزنطيين في جهات دورازو . وتمكن هنري من احتلال أكثرية روما بعد حصار دام لسنتين . واضطر البابا الى الاحتماء بقلعة القديس أنجيلو . لذا عقد هنري مؤتمرا دينيا اقال فيه كريكوري واصدر ضده عقوبة التحريم وتأكيد بابوية كليمنت الثالث في مارس سنة ١٠٨٤ [٣٩] .

أدت نجدة روبرت كيسكارت للبابا كريكوري الى نتائج خطيرة . فبالاضافة الى انها جاءت متأخرة . اذ استغلت الفرقة النورمندية انسحاب هنري الى المانيا فاقتحمت المدينة وعاثت فيها نهبا لم تر روما له مثيلا في تاريخها . وقد رافق كريكوري النورمنديين الى مونت كاسينو ومنها الى سالرنو سنة ١٠٨٥ حيث توفي هناك[٤٠] .

لقد أستمرت مشاكل هنري الرابع في كل من ايطاليا والمانيا منذ سنة ١٠٨٥ حتى سنة ١١٠٦ . اذ انتهزت المدن اللمباردية تمشكله في المانيا وتحدي النورمنديين له في الجهات الايطالية فأعلنت تحررها من حكم الامبراطور وأنزلت بجيوشه هزيمة كبرى سنة ١٠٩٣ . كما وجدت المعارضة في المانيا قائدا لها بشخص أبن هنري الرابع . وتمكن الابن من الانتصار عسكريا على والده واجباره على التنازل عن العرش وقد توفي هنري الرابع بعد ذلك الحادث سنة ١١٠٦ [٤١] .

ورث الامبراطور هنري الخامس ١١٠٦ — ١١٢٥ النزاع مع البابوية حول المراكز الدينية . اذ حاول في بداية الامر ايجاد تسوية لها عن طريق القوة أيضا . حيث أجبر البابا بسكال الثاني ١٠٩٩ — ١١١٩ على أن تنازل الكنيسة عن ممتلكاتها في المانيا مقابل امتناع السلطات الزمنية عن تعيين رجال الدين في المراكز الدينية سنة ١١١١ [٤٢] . الا أن التسوية أثارت سخطا شديدا في الاوساط الكنسية مما أدت بالبابا

(39) Brooke, op., cit., 193.
(40) Ibid., 194.
(41) Robinson, op., cit., 200.
(42) Brooke, op., cit., 252.

الى الغائها حال ابتعاد الامبراطور عن روما سنة ١١١٢ مصدرا بحقه عقوبة التحريم . وهكذا تجددت الحرب الاهلية بين أنصار البابوية والامبراطور حتى سنة ١١٢٢ . اذ توصل الطرفان الى أتفاقية ورمز التي صادق عليها كل من هنري الخامس والبابا كاليكتوس ١١١٩ ــ ١١٢٤ . واهم مـا جاء فيهـا :

١ ــ عدم التدخل في أنتخابات رجال الدين للمراكـز الدينيـة . ويجوز للسلطات الزمنية ارسال من ينوب عنها للاشراف على سيـــر الانتخابات فقط .

٢ ــ تقوم الكنيسة بمنح شعاري الجامعة والعصا لشاغلي المراكـز الدينية .

٣ ــ تقوم السلطات الزمنية بمنح المعين الجديد بشعار الاستثمـار الضيعي الاقطاعي المتألف عادة من الصولجان وحزمة عشب . وعلى المعين الجديد في هذه الحالة الوفاء بتعهدات التبعية الاقطاعية المتعارف عليهـا بالنسبة لرجال الديـن .

٤ ــ يحق التدخل للامبراطور في الانتخابات الدينية في حـالـة حدوث مشاكل من جرائها في الاراضي الالمانية فقط . اما بالنسبة للمشاكل الانتخابية في كل من ايطاليا وبرغندي فيترك امر حسمها للبابوية[٤٣] .

ان اتفاقية ورمز عبارة عن محاولة لايجاد حل وسط بين البابويـة والامبراطورية حول الاستثمار العلماني للمراكز الدينية ، كما أنها نصر للبابوية . اذ لم تعد لاباطرة الجرمان تلك الامتيازات التي كانت لهم على السلك الكهنوتي في السابق كما كان الوضع في عهد هنري الثالث ١٠٣٩ ــ ١٠٥٦ . والى ذلك يشير المؤرخ برايس بأن الاباطرة الجرمان خسروا نصف الحقوق التي كانت لهم في ممارستهم لاستثمار المراكز الدينية[٤٤] . وأدت الاتفاقية ايضا الى تزايد نفوذ كل من رجال الدين والاقطاعيين .

لم تقض معاهدة ورمز على النزاع بين الامبراطورية والبابـويـة بل حولته الى مجالات اخر كما تبين في مرحلة الصراع الثانية بيـــن

(43) Strayer and Munro, op., cit., 208.
(44) Bryce, op., cit., 161.

السلطتين الزمنية والدينية ١١٥٢ ــ ١٢٦٨ . اذ تمركز النــزاع بيــن القوتين العالميتين في هذه المرحلة حول مناطق النفوذ لكل منهمــا فــي الجهات اللمباردية والصقليتين .

تكوين الكولف والغبلين

يجدر بنا قبل الشروع في بحث الادعائات الامبراطورية والبابوية في لمبارديا والصقليتين ان نلقي لمحة سريعة عن طبيعة الحروب الاهليــة في المانيا والتباسها في المشكلة الدينية منذ وفاة هنري الخامس سنة ١١٢٥ حيث نشبت الحروب الاهلية على أثر أنتخاب أمير سكسونيا لوثر الثاني امبراطورا ١١٢٥ ــ ١١٣٨ وأستمرت طيلة حكم الامبراطور كونــراد الثالث ١١٣٨ ــ ١١٥٢ الذي يمثل أول أمبراطور من العائلة الالمانيــة المسماة هوهنشتاوفن Hohenstaufen أذ أنقسم الامراء الالمان الــى فريقين ، عرف الاول بفريق الكولف Guelf نسبة الى ألى أميــر بافاريا ولف Welf . أيد هذا الفريق الامبراطور لوثر ضد المدعيــن بالعرش من أقارب الامبراطور هنري الخامس . أما الفريق الثاني فتزعمته عائلة هوهنشتاوفن المتحكمة في دوقية صوابيا وعرف فيما بعد بحــزب الغبلين Ghibellines نسبة الى احدى المقاطعات العائدة لعــائلــة هوهنشتاوفن والمسماة ويبلنجن Waiblingen . وقد ساهمت البابوية بشكل فعال في تلك المعمعة . اذ أيدت حزب الكولف نكاية بــورثــة هنري الخامس . وهكذا أصبحت الجماعات المؤيــدة للبابويــة تعرف بالكولف تميزا لها عن المناوئين الذين أخذوا يعرفون بالغبلين[٤٥] . وقــد بقيت هاتان التسميتان طيلة العصور الوسطى والحديثة أيضا بالنسبــة لاعداء البابوية وانصارها في الجهات الاوروبية .

المرحلة الثانية ١١٥٢ ــ ١٢٦٨

ان أعتلاء فردريك الاول (بربروسا) عرش الامبراطورية ١١٥٢ ــ ١١٩٠ مثل في البداية حلا وسطا بين الفريقين المتنازعين حول العرش .

---

(45) Strayer and Munro, op., cit., 209.

أذ يمت هذا من جهة الاب الى عائلة هوهنشتاوفن ومن الام لعائلة الدوق كولف[46] . بدأت مشكلته مع البابوية حينما اراد أستعادة النفوذ الالماني في الجهات الشمالية والوسطى في ايطاليا . وادت هذه السياسة الى حروب متقطعة حتى سنة ١١٧٦ . أذ توجه فردريك بفرقة عسكرية الى الاقسام الايطالية الشمالية سنة ١١٥٤ كتب له فيها النصر على مدن اللمبارد المتمردة . الا أن تلك الاعمال استفزت البابوية التي أدعت بوراثة المناطق اللمباردية . وظهرت علامات التوتر بين كل من البابا أدريان الرابع ١١٥٤ – ١١٥٩ والامبراطور منذ اللقاء الاول . وذلك حول الاجراءات الشكلية المتبعة في اصول المجاملات عند لقاء الاباطرة والبابوات . اذ رفض فردريك اول الامر أن يترجل عن حصانه ليقود جواد البابا حينما خرج لاستقباله[47] . ثم أعترض الامبراطور على الخطاب الترحيبي الذي القاه البابا . اذ جاء في الخطاب اشارة أغضبت الامبراطور .الا وهي (أن الاراضي الايطالية التي يمتلكها الامبراطور تمثل أرض أحسان Beneficium موهوبة من الكنيسة الى الامبراطور) ثم تطور الموقف بين الجانبين الى الحد الذي صرح فيه الامبراطور (بأنه أستمد عرشه وملكه من الله مباشرة لا من البابا) . كما رفض فردريك طلب البابا المتضمن تنازله عن قسم من الممتلكات اللمباردية كدوقية توسكاني . ورفض كذلك أن يترك له حرية التصرف في املاك كنيسة روما وملحقاتها . مدعيا (أيجوز لامبراطور الرومان الحكم بدون روما ؟)[48] هذا وتدهورت العلاقات بين الامبراطور والبابا الاسكندر الثالث ١١٥٩ – ١١٨١ بشكل أخطر . أذ كان هذا الساعد الايمن للبابا الراحل ، واصر على تنفيذ مطاليب سلفه . وسنحت الفرصة للاسكندر حينما بدأت المدن اللمباردية تتكتل ضد الحكم الالماني بزعامة مدينة ميلان سنة ١١٦٧ وقد أنضمت البابوية الى ذلك الحلف الذي عرف بحلف عصبة المدن اللمباردية . واخذت الجهة المناوئة

---

(46) Ibid., 211.
(47) Robinson, op., cit., 205.
(48) Bryce, op., cit., 167.

للامبراطور في ايطاليا تعرف بحزب الكولف منذ ذلك التاريخ[49] . واحرزت القوى اللمباردية ـ البابوية نصرا حاسما في موقعة ليناتو Legnano سنة ١١٧٦ . فأذعن الامبراطور لمشيئة البابا ومدن اللمبارد وتم تحرير الاجزاء اللمباردية وكذلك البابوية حينما عقدت بين الامبراطور وأعدائه معاهدة كونستانس سنة ١١٨٣ .

وما كادت البابوية الانتهاء من الصراع مع فردريك الاول حول وراثة الممتلكات اللمباردية حتى جابهتها مشكلة أخرى تمثلت في وراثة مملكة الصقليتين (صقلية ونابلي) . أذ أن فردريك الاول تمكن في سنة ١١٨٦ من تزويج أبنه هنري السادس ١١٩٠ ـــ ١١٩٧ من وريثة العرش الصقلي بنت الملك روجر الثاني[50] . وقد حمل ذلك المشروع بذور الصراع الاخير بين البابوية وعائلة هوهنشتاوفن والذي دارت فيه رحى المعارك في الاراضي الايطالية والالمانية بين الكولف والغبلين .

المرحلة الثالثة

تجدد النزاع الدموي بين البابوية والامبراطورية في عهد فردريك الثاني ١١٩٧ ـــ ١٢٥٠ حول الصقليتين بصورة خاصة متخذا شتى المظاهر والمبررات[51] . ورث فردريك الثاني الصقليتين عن أمه وتوج ملكا في عمر الرابعة . وكانت والدته قد عهدت بالوصاية عليه الى البابا انوسنت الثالث قبيل وفاتها مقابل تجديد تبعية صقلية للبابوية . وقد رحب البابا بذلك العرض ورأى الفرصة سانحة للسعي من أجل الفصل بين العرشين الالماني والصقلي . ولعل هذه النقطة من اهم الاسباب التي ادت بالبابا أن يقلب ظهر المجن للامبراطور أوتو الرابع في المانيا وان يساعد فردريك الثاني في الحصول على عرش الامبراطورية بعد أن تعهد له بالفصل بين العرشين الالماني والصقلي[52] .

لقد أثبتت الحوادث فيما بعد أن مساعدة انوسنت الثالث لفردريك

(49) Robinson, op., cit., 207.
(50) Bryce, op., cit., 201.
(51) Ibid., 205.
(52) Durant, op., cit., 714-15.

لم تقابل بالجميل . أذ لم يكن الاخير منذ البداية مهتما بالقضايا الدينية كما انه لم ينفذ ما وعد به البابا من فصل العرشين وعمل على العكس من ذلك . أذ كرس سياسته لتقوية حكمه في صقلية باجراءات ثقافية واقتصادية كانت مثار النقد في الاوساط البابوية . كما ساور المدن اللمباردية القلق من خطط فردريك التوسعية لذا جددت تلك المدن سنة ١٢٢٦ تحالفها ضد الامبراطور . لهذا فقد أنتهز البابا كريكوري التاسع ١٢٢٧ — ١٢٤١ تماهل فردريك في قيادة حملة صليبية للاراضي المقدسة فاصدر ضده التحريم سنة ١٢٢٧ . ومع ذلك فلم يهتم الامبراطور للعقوبة وقاد حملة صليبية حسب طريقته الخاصة وهو في حالة التحريم سنة ١٢٢٨ . هذا وقد أمر البابا تجهيز حملة صليبية ضد فردريك عند رجوعه من الاراضي المقدسة . غير أن الامبراطور كسب الجولة الاولى وأضطر البابا الى الغاء التحريم سنة ١٢٣٠ [٥٣] .

أن صلحه مع البابوية كان قصير الامد . اذ تجددت الحرب على أثر الحملات التي شنها فردريك ضد العصبة اللمباردية حليفة البابوية . وقد انتصرت القوى اللمباردية والبابوية على فردريك في موقعة بارما سنة ١٢٤٩ .

لقد أصبحت المشكلة جدية حول العرش الصقلي والنفوذ الالماني في أيطاليا بصورة عامة بين البابوية وعائلة هوهنشتاوفن أثر وفاة فردريك الثاني . اذ اوصى لابنه كونراد الرابع ١٢٥٠ — ١٢٥٤ بالماتيا والعرش الامبراطوري . وعين ابنه غير الشرعي مانفريد Manfred على العرش الصقلي[٥٤] . وتمكن من الهيمنة على الحكم والانتصار على قوات البابا انوسنت الرابع سنة ١٢٥٤ . واستمرت العلاقات العدائية بين مانفريد والبابوية في عهود كل من الاسكندر الرابع ١٢٥٤ — ١٢٦١ وأوربان الرابع ١٢٦١ — ١٢٦٥ وكليمنت الرابع ١٢٦٥ — ١٢٦٩ .

---

(53) Ibid., 717.
(54))Bryce, op., cit., 208.

أنتهز البابا ادريان الرابع وفاة الامبراطور وفاة كونراد الذي ترك وريثا صغيرا اسمه كونرادين في عهدة عمه مانفريد . فأستعان ذلك البابا بلويس التاسع ملك فرنسا ضد عائلة هوهنشتاوفن مقابل اعطاءه الصقليتين . ومع ان لويس التاسع رفض العرض الا أنه سمح لاخيه شارل الانجوي الاتفاق مع البابا حول المشروع سنة ١٢٦٣ . وتقدم الانجوي بثلاثين الف مقاتل تمكن بها من أحراز النصر على مانفريد الذي فقد حياته اثناء المعركة سنة ١٢٦٦ قرب بنفنتو[٥٥] . غير أن الحكم الفرنسي ادى الى نشوب ثورة في صقلية أتاحت الفرصة الى كونرادين ان يقتحم ايطاليا من الشمال سنة ١٢٦٨ . وقد تمكن من أحتلال روما وتقدم نحو بولي الا أن الجيوش الفرنسية الحقت به الهزيمة في موقعة Tagliacoza ووقع اسيرا ثم نفذ فيه الاعدام بموافقة البابا كليمنت الرابع[٥٦] وهكذا أنطفأت جذوة أسرة هوهنشتاوفن وتخلصت البابوية من عدو عنيد ونجحت في أقصاء النفوذ الالماني من أيطاليا .

نتائج ادبية للصراع

ادى ذلك النزاع بين السلطتين الزمنية والدينية الى ظهور عدة أبحاث فلسفية داعية أما لدعم وجهة نظر البابوات او الاباطرة او محاولة التوفيق بينهما . ومن أهم المدافعين عن البابوية هم :

١ ــ جون أوف سالسبوري

أذ فسر نظرية السيفين بقوله أنهما يعودان في الاصل للكنيسة وان الكنيسة صاحبة الحق في منح السلطات الزمنية للحكام . واعتمد أيضا على القانون الروماني لاثبات رأيه مستشهدا بالقاعدة الرومانية (أن الذي يملك حق أعطاء السلطة يملك ايضا استعادتها)[٥٧] .

٢ ــ أنوريوس اوف اوكسبرك

وكتب هذا مدافعا عن البابوية سنة ١١٢٣ باستناده على ثلاثة أسس هي أولا أعتماده على الكتاب المقدس اذ اشار الى حكم النبي موسى وقال عنه بانه حكم ديني وسار على منواله من جاء بعده . وكذلك

(55) S. Runciman, The Sicilian Vespers (Middlesex, 1960) 108-111.
(56) Ibid., 126-7.
(57) Sabine, A History of Political Theory (N.Y., 1964) 237.

الامر بالنسبة للمسيح . وان كافة الاباطرة يتوجون من قبل البابا . ثانيا هبة قسطنطين Donation of Constantine . وبالرغم من أنها وثيقة مزورة كما أشرنا سابقا فقد قبلت في حينها على أنها أصلية . وقد جاء فيها الى أن قسطنطين تنازل عن كافة الغرب للبابوية . ثم اعتمد أخيرا على هبة ببين سنة ٧٥٧ لاثبات حق البابوية في سيادتها على روما وملحقاتها والمتلكات اللمباردية[58] .

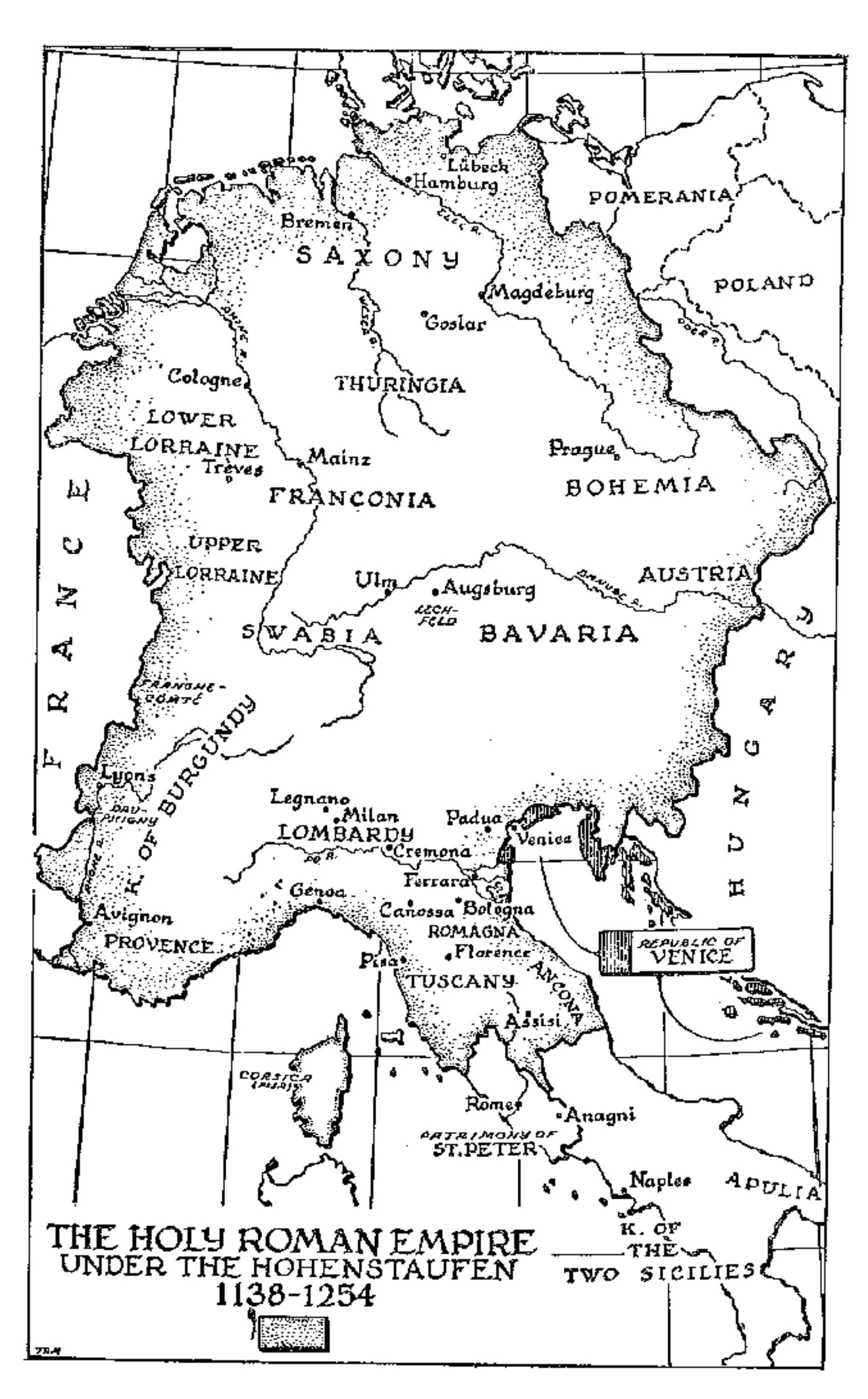
وعمد انصار البابوية لاثبات حقهم بطرق فلسفية حسب منطق أرسطو للتدليل على أن السلطة الروحية أعلى شأنا من السلطة السياسية فاستعانوا بالقانون الطبيعي حسبما فهمه ارسطو . أذ أشار (أن القانون الطبيعي يحتم خضوع الكائنات الدنيا الى العليا ...) وبما أن البابوية مؤسسة روحية وان الروح اعلى مقاما من المادة لهذا فالبابا اسمى مقاما من الامبراطور وعلى الاخير السير بأوامر الاول .

أما الابحاث المؤيدة لوجهة النظر الامبراطورية فدارت أولا حول الالتزام بنظرية السيفين حسب الاوضاع الموروثة الراهنة . وانالامبراطور يستمد سلطته من الله ولا يمكن أقالته الا أذا خالف العقيدة . وأعتمد الجانب الامبراطوري على ما كتبه الراهب الفرنسي هينكمار في القرن التاسع ، اذ أشار بأن صاحب السلطة لا يسأل الا من قبل الله . ثم اعتمد الجانب الامبراطوري ايضا على السوابق التاريخية وفسروا العلاقات بين البابوات والاباطرة بأن البابوات يخضعون في الامور الدنيوية للحكام السياسيين . كما أستعان أنصار الامبراطور بالقوانين الرومانية لاثبات حق الحكام في السيادة والتملك والوراثة[59] .

هذا وقد ظهرت فئة وسطى بين المعسكرين الامبراطوري والبابوي كان شعارها ما لله لله وما للقيصر للقيصر .

---

(58) Ibid., 236.
(59) Ibid., 237-42.



الامبراطورية الرومانية المقدسة



الفصل الثامن

١ – بريطانيا – ٢ – فرنسا

١ – بريطانيا

لقد غزت الجيوش الرومانية لاول مرة الجزر البريطانية سنة ٥٥ ق . م . بقيادة يوليوس قيصر الذي كان مكلفا بفتح بلاد الغال . والسبب المباشر في ذلك أن الاقوام الكلتية في بريطانيا كانت تمديد المساعدة لابناء جلدتها في بلاد الغال[1] . غير أن يوليوس قيصر لم يتمكن من مواصلة القتال في بريطانيا للمقاومة الشديدة فاضطر سنة ٥٤ ق.م. على الانسحاب مكتفيا بما أشترطه على رؤساء القبائل من أتاوة سنوية .

عاود الرومان الكرة على بريطانيا بعد قرن من الحادث السابق

---

(1) I. Richmond, Roman Britain (Middlesex, 1955) 9-10.

سنة ٤٣ م في عهد الامبراطور كلوديوس[٢] . واستمرت عملية أخضاع القبائل الكلتية حتى عهد الامبراطور هادريان الذي قاد بنفسه حملة على بريطانيا سنة ١٤٣ م . ومع ذلك فقد بقيت أجزاء كبيرة لم تتمكن منها القوات الرومانية وخاصة في الاقسام الشمالية في هضاب سكوتلاند وعلى كل فقد أصبحت بريطانيا جزءا من الامبراطورية الرومانية حتى سنة ٤٠٧ م حيث سحبت الحامية الرومانية من هناك للاحتياج اليها في الدفاع عن مقر الامبراطورية الاسبق أثناء تفاقم خطر قبائل الغوط الغربية[٣] .

أجرى الرومان اصلاحات كثيرة في بريطانيا ومن أوائل المصلحين هو أكريكولا الحاكم الروماني ٧٨ ــ ٨٥ م . اذ شجع هذا على بناء الجسور وشق طرق المواصلات وأقامة الابنية العامة وحبب الى السكان أقتباس مظاهر المدنية الرومانية واستعمال اللغة اللاتينية . شيد الرومان عدة مدن في بريطانيا لغايات عسكرية في أول الامر ومن أهمها كولجستر وكلوسستر ويورك ولندن وسنت البان . وعملوا على ربط المدن بشبكة من المواصلات أصبحت طرقا تجارية هامة لبريطانيا حتى يومنا هذا[٤] .ومع ذلك فلم تتغلغل الحضارة الرومانية عميقا في تلك البلاد . اذ بقيت اللغة اللاتينية مقتصرة على بعض الحواضر . وان ما في انكلترا من تأثيرات لاتينية جاء متأخرا نتيجة للاعمال التبشيرية الواسعة النطاق التي قامت بها كنيسة روما ونتيجة للفتح النورمندي في القرن الحادي عشر .

لقد تعرضت بريطانيا كغيرها من أجزاء الامبراطورية الرومانية لغارات القبائل الجرمانية على أثر أنسحاب الحامية الرومانية سنة ٤٠٧ م . وتنتمي الجموع الغازية الى ثلاث مجاميع قبلية هي الجوت Jutes والسكسون والانكلز Angles . يعتبر تاريخ بريطانيا منذ ذلك التاريخ حتى نهاية القرن السادس تاريخيا مظلما ولا يعرف عما جرى هناك بدقة . وان ما

(2) Ibid., 17.
(3) Bede, A History of the English People, tr. Sherley-Price (Middlesex, 1964) 50.
(4) Richmond, op., cit., 66.

لدى المؤرخين من معلومات في هذا الشأن مستقاة مما كتبه المـؤرخ الانكليزي بيد الذي عاش في القرن الثامن في كتابيه التاريخ الاكليروسي وتاريخ الانكلو سكسون[5] .

الحكم السباعي

شكل الغزاة في بريطانيا عدة ممالك متطاحنة أسفرت في بداية القرن السابع عن سبع دول كبيرة هي كنت Kent في الجنـوب الشرقـي وسكانها من الجوت ثم أسكس Essex وسوسكس Sussex وويسكس Wessex. حيث قطنها السكسون ونورث أمبريا Northumbria ومرسيـا Mercia وأنكليا Anglia والسكان في تلك الدول الثلاث مـن الانكلز . ولا يتميز تاريخ تلك الممالك السبع بشيء مهم سوى المنازعات والحروب المستمرة حتى الربع الاول من القرن التاسع . اذ تمكنت دولة ويسكس من بسط نفوذها على معظم الممالك المجاورة . أن أنضواء الممالك السبع تحت لواء ويسكس هو نقطة الانطلاق في التاريخ البريطاني . وهناك ثلاثة عوامل هامة ساعدت ملوك ويسكس على ذلك الامر هـي (١) توحيد السكان دينيا على أثر أنتشار المسيحية (٢) قوة ويسكـس العسكرية (٣) صمود دولة ويسكس امام هجمات القبائل الدانية Danes التي كانت تهاجم الجزر البريطانية منذ القرن الثامـن .

١ ـ انتشار المسيحية

لقد دخلت المسيحية الى بريطانيا في العهد الرومـــاني[6] ، الا أن الغزوات الجرمانية قد عفت على أثارها نظرا لان الغزاة كانوا وثنيين . تعتبر دولة كنت اولى الممالك البريطانية التي اعتنقت المسيحية في عهد الملك أثلبرت Ethelbert ٥٦٠ ـ ٦١٦ . وكان هذا متزوجا من أحدى أميرات العائلة الميروفنجية المسيحية ولقد تعرف على كثير من الاخبـار

---

(5) Bede, op., cit., 15-25.

(6) S. Neill, A History of Christian Missions (Middlesex, 1966) 35.

المسيحية عن طريق زوجته . غير أن أعتناقه لذلك الدين يرجع بالدرجة الاولى للمبشر اوكسطين الذي أم سواحل كنت سنة ٥٩٧ موفدا من قبل البابا كريكوري الكبير[٧] .

تولى نشر المسيحية من بعد الملك السابق أدوين Edwin ٦١٦ — ٦٣٢ ملك نورث أمبريا الذي آلت اليه زعامة الممالك السبع على أثر وفاة ملك كنت . أما أسباب أعتناقه المسيحية فمنها ما يعود الى زواجه من أخت الملك اثلبرت والمسماة تاتا Tata التي أشترطت في زواجها ان يسمح لها بمارسة دينها وتمكنت سنة ٦٢٧ بمساعدة مرشدها الديني من تنصير زوجها[٨] .

لقد توقف أنتشار المسيحية قليلا في بريطانيا على أثر أنتصار ملك مرسيا الوثني بندا Penda ٦٣٢ — ٦٥٤ على أدوين في أحدى المواقع الفاصلة سنة ٦٣٢ والتي اسفرت عن مقتل الاخير[٩] . ولم تدم هذه الانتكاسة طويلا حيث أستعادت نورث أمبريا مكانتها وباشرت في نشر الدعوة المسيحية في عهدي الملكين اسوالد Oswald ٦٣٣ — ٦٤١ وأسوي Oswy ٦٥٤ — ٦٧٠ . وقدم الاخير خدمة كبرى لكنيسة روما عندما أمر بتوحيد كافة الكنائس في البلاد تحت زعامة كنيسة روما وذلك على أثر مؤتمر وتبي Whitby سنة ٦٦٤ . وهكذا وضع ذلك المؤتمر حدا للتنافس بين الكنيستين الكلتية والرومانية في أنكلترا . وعملت هذه الوحدة الدينية على التمهيد لوحدة ذلك القطر سياسيا فيما بعد تحت زعامة دولة ويسكس .

٢ — قوة ويسكس العسكرية

كانت الزعامة السياسية في أنكلترا في القرن الثامن محط نزاع بين مملكتي ميرسيا وويسكس . اذ تمكنت الاولى سنة ٧٣٣ من الانتصار وأصبحت سيدة البلاد عدا مملكة نورث أمبريا . ومن أهم ملوك مرسيا

(7) Bede, op., cit., 68-70.
(8) Ibid., 112-26.
(9) Ibid., 135.

هو أوفا الثاني Offa ٧٥٧ ــ ٧٩٦ الذي لقبه البابا بملك الانكليز .
غير أن سيادة مرسيا لم تدم طويلا حيث أضحت فريسة لحروب أهلية على أثر وفاة أوفا . وقد تمكنت دولة ويسكس من تولي الزعامة في عهد ملكها اكبرت Egbert ٨٠٢ ــ ٨٣٩ والذي أعترفت كافة الممالك السبع بزعامته . وقد سار ولده أثلولف ٨٣٩ ــ ٨٥٩ على سياسته .

٣ ــ صمود ويسكس امام الهجمات الدامية

تعرضت الجزر البريطانية في هذه الفترة مجددا لغزو بربري اخر أشد وأقوى من الغزو الاول . والجموع الغازية من أصل جرماني شمالي دعيت بالقبائل الدانيه Danes . كانت قواعد هجومهم من شبه جزيرة سكندنافية والدانيمارك . بدأت هجماتهم منذ نهاية القرن الثامن واشتدت في النصف الثاني من القرن التاسع . وأصبحت لهم السيطرة التامة على ايرلاند ومعظم المناطق البريطانية عدا دولة ويسكس التي صمدت أمام الغزاة . ومن أشهر ملوكها الذي أبلى بلاء حسنا في الدفاع هو الفرد ٨٧١ ــ ٨٩٩ . أذ عقد هذا في بداية الامر معاهدة مع هذه القبائل ٨٧٢ خلدت على أثرها للهدوء لمدة أربع سنوات ثم استأنفوا الهجوم على ويسكس سنة ٨٧٦ ثم تمكن الفرد ثانية من أيقافهم بمعاهدة سنة ٨٧٨ [١٠] ونجح في حصرهم في المنطقة الكائنة في الجهات الشمالية الشرقية من أنكلترا او التي أخذت تعرف بالمعسكر الدانيماركي Danelow . [١١] .
ولعل من أهم نتائج ذلك الغزو هو التفاف السكان في أنكلترا تحت لواء مملكة ويسكس اذ أصبح ملوكها اسياد البلاد .

تجدد الغزوات الدنيماركية

تجددت الغزوات الدانية في اواخر حكم ملك ويسكس أدكار Edgar ٩٥٩ ــ ٩٧٥ وبلغت ذروتها في فترة التطاحن على العرش التي استمرت ثلاث سنوات حيث اسفرت عن أعتلاء أثبرت Ethebert العرش

---

(10) G. Trevelyan, A Shortened History of England (Middlesex, 1960) 78.
(11) W. Durant, the Age of Faith, 325-1300 (N.Y. 1950) 484.

سنة ٩٧٨ . وقد أضطر هذا الى دفع الاتاوات للدانيين سنة ٩٩١ . وعرفت الضريبة التي شرعت من أجل تلك الغاية بضريبة Danegeld [١٢] .

حاول الملك أثبرت محاربة النفوذ الدانيماركي بطرق دبلوماسية وبالمؤامرات الانتقامية . فقد تزوج من أخت أمير نورمندي المسماة أمـا Emma املا في تقوية مركزه . ثم عمد الى تحريض شعبه على قتل كافة الدانيين الساكنين بين ظهرانيهم فكانت منها مذبحة سنت برايس سنة ١٠٠٢ التي استفزت ملك الدانيمارك سوين فوركبيرد Sweyn Farkbeard الذي قرر ضم انكلترا الى ممتلكاته[١٣] . لذا أرسل حملة عسكرية بقيادة أبنه كانوت Canute سنة ١٠١٦ تمكن بها من ضم ذلك القطر الى امبراطوريته التي كانت تشتمل على النرويج ايضا وبقيت أنكلترا جزءا من هذه الامبراطورية حتى سنة ١٠٣٥ .

تمكنت أما Emma من جعل أبنها الاكبر أدورد المعترف ملكا على أنكلترا بمساعدة أخيها دوق نورمندي على أثر وفاة كانوت وتمزق امبراطوريته . ويعتبر أعتلاء ادورد المعترف العرش سنة ١٠٤٢ مرحلة تمهيدية لامتلاك أنكلترا من قبل وليم الفاتح . اذ كان ادورد متشبعا بالعادات النورمندية والثقافة الفرنسية . لذا جعل حراسه من النورمنديين واستبدل العادات السابقة بالعادات النورمندية في بلاطه . وتكون حزب معارض لسياسته هذه بقيادة اللورد كودوين Godwin . وعند وفاة الاخير تولى ابنه هارولد قيادة المعارضه . وقد أخذ ينظر اليه الانكليز وكأنه الوارث الشرعي لعرش بلادهم . وقد أنتخب ملكا فعلا عند وفاة ادورد المعترف سنة ١٠٦٦ [١٤] .

الفتح النورمندي لانكلترا سنة ١٠٦٦

لقد كان الدوق وليم دوق نورمندي يرقب التطورات في أنكلترا بأهتمام كبير . وذلك لصلة القربى بينه وبين الملك المتوفى ولطموحه

---

(12) Trevelyan, op., cit., 88.

(13) C. Orton, The Shorter Cambridge Medieval History, Vol. I (Cambridge 1953) 395.

(14) Ibid., 399.

في العرش الانكليزي . ومن جملة الوسائل التي تذرع بها من أجل غرضه على حسب روايتين ضعيفتين . الاولى أن وليم قد ازار أنكلترا سنة ١٠٥١ واستحصل وعدا من الملك ادورد بأنه ولي عهده . أما الثانية هي أن هارولد قد أقسم سنة ١٠٦٥ ان يكون تابعا الى وليم وان لا يعمل عملا مهما بدون أستشارته . أما الظرف الذي تم فيه القسم فيروي كالاتي : بينما كان هارولد متجولا في القنال الانكليزي على ظهر يخته أذ بهذا اليخت يصطدم بالصخور ويجنح الى الشاطيء النورمندي فالقى اتباع وليم عليه القبض وقادوه الى أميرهم . ولم يفك الدوق وليم اسره الا بعد أن أقسم له بان يكون تابعه الاقطاعي . وكان القسم على مرأى من النبلاء وبعض رجال الدين . لهذا فقبول هارولد العرش الانكليزي بدون علم ورضاء وليم يعتبر من الامور التي لا تقرها العادات الاقطاعية بالاضافة الى أنه يكون حنثا بالقسم المذكور مما ادى الى غضب الكنيسة ومؤازرتها لوليم بشكل فعال[١٥] .

عبر وليم بجيوشه الى انكلترا سنة ١٠٦٦ وتغلب على جيوش هارولد في معركة هاستنك Hastings والتي اسفرت ايضا عن مقتل هارولد . ويعزا أنتصار وليم على الجيوش الانكليزية لأستخدامه فرق الفرسان التي لم تكن معروفة لدى الانكليز أنذاك[١٦] .

ولعل أهم الاعمال التي قام بها وليم في انكلترا على بعض الاراء أدخاله الاقطاع لتلك الربوع متوخيا منه دعما لمركزه وليكون عونا للسلطات المركزية لا وبالا عليها . وتتلخص الاجراءات التي أتخذها لاحكام السيطرة على الاقطاعيين :

١ ــ مصادرة اراضي الاعداء وتوزيعها على الثقاة من اتباعه .

٢ ــ حتم على النبلاء عدم حصر املاكهم في منطقة واحدة ، بل سمح بما شاؤا من التملك على شرط أن تكون الاراضي متباعدة . وذلك منعا لازدياد نفوذهم ولسهولة ضربهم في حالات العصيان والتمرد .

---

(15) A. Freeman, History of the Norman Conquest of England, Vol. II (London, 1820) 244.

(16) D. Stenton, English Society in the Early MiddleAges, 1066-1307. (Middlesex, 1955) 14.

٣ ـ أحتفظ لنفسه بالسلطات القضائية والادارية . ولم يسمح للاقطاعيين بالاستحواذ على دوائر الادارة المحلية واعتمد في اشغال المناصب الحكومية على موظفين من غير الاقطاعيين .

٤ ـ اشترط على النبلاء والاتباع تأدية يمين الولاء والاخلاص اليه بخلاف ما كان يحدث في أجزاء القارة (عدا نورمندي) حيث أن التابع لا ياخذ قسم الولاء الا الى شريفه . وغاية وليم من ذلك ان يكون نفسه المرجع الاعلى لكافة المراتب الاقطاعية وليمنع الاتباع من القتال في صفوف الامراء أن حدثت اي منهم نفسه بالثورة ضد الملك .

٥ ـ اعتمد وليم على جيشه بالدرجة الاولى وعلى موظفيه الاداريين في تجييش الجيوش . وأمر كافة الامراء والاتباع بعدم اشادة المعاقل العسكرية بدون موافقته[17] .

بالاضافة الى اعتماد وليم على جهازه الاقطاعي ، فانه أبقى على اكثرية أجهزة الحكم التي وجدها هناك وعمل على تكييفها لمقتضيات سياسته . اذ كان للملوك الانكلز والسكسون مجلسا استشاريا يضم النبلاء ورجال الدين يعرف بمجلس الحكماء Witan ولم يغير فيه وليم سوى الاسم حيث أصبح يعرف بالمجلس الكبير تمييزا له عن مجلس الملك الخاص Curia regis الذي ضم الوزراء[18] . وكان المجلس الاخير معروفا لدى الانكلز والسكسون الا أن وليم ضم اليه وزير القضاء وذلك من المناصب التي استحدثها الفاتح ، وجعل مهمة هذا المجلس ادارية بحته بخلاف ما كانت عليه قبل الفتح .

لقد أبقى وليم على التقسيمات الادارية الموروثة ولم يحدث سوى تغييرات بسيطة . فالوحدة الادارية الكبرى هي ولاية الحدود Shire او County والتي تقسم بدورها الى وحدات أصغر تعرف بوحدة المائة Hundred وهذه تقسم ايضا الى اجزاء صغرى تعرف

(17) Strayer and Munro, The Middle Ages, 395-1500, (N.Y., 1942) 184.
(18) Ibid., 185-6.

بالفلات . أمر وليم بالغاء قسم كبير من الدوقيات الكبرى التي يشار لها Earldom وأدمجهـا بولايات الحدود . وأبقـى أيضا على المـدن Boroughs وتنظيماتها النقابية وأمر بتعميم نظام التفتيش الاداري[19] .

ولعل أهم ميزات حكم وليم في القضايا الادارية والتي تميزه عـن سواه من حكام اوربا هو الاحصاء العا مالذي أمر به سنة ١٠٨٦ . توخى منه الاستقصاء الدقيق لموارد السكان ونفوسهم وظروفهم الاجتماعيـة واسماء المالكين للاراضي قبل الفتح وبعده ومقدار قيـمة الارض[20] . وصنفت تلك المعلومات في سجل عام Domesday Book وغايته منـه تسهيل مهمة الجباية وضبطها وتسهيل مهمة تجبيش الجيوش[21] .

ساهم وليم بشكل فعال في اصلاح الكنيسة . ومشروع الاصلاح هذا كان جزء من البرنامج الاصلاحي العام لكنيسة روما الذي شرع به قادة دير كلوني ومن اشهرهم هيلد براند . اعتمد وليم في سياسته الدينية في انكلترا على لانفرانك رئيس اساقفة كنتربري الذي منـع الاجراءات السيمونية وتشدد في تطبيق قاعدة العزوبة بين رجال الدين . وتمكن من الحصول على أمتيازات قضائية للكنيسة . غير أن وليم احتفظ بالسيطرة لنفسه على رجال الدين . فمثلا لم يأتمر بامر البابا في الامتناع عن التدخل في امر تعيين رجال الدين في أنكلترا . وحذر رجال الدين هناك مـن الاعتراف بالبابا ما لم يعترف به وليم مقدما كما منع دخول الرسـل البابويين الى البلاد بدون علمه . وأمر بعدم أصدار عقوبة الحرمان فـي حق اي من رعاياه ما لم تؤخذ موافقته سلفا . ومع ذلك فقد كـانـت علاقته جيدة مع البابا كريكوري السابع نظرا للخدمات المتبادلة بينهما[22] .

وليم الثاني ١٠٨٧ — ١١٠٠

أوصى وليم الفاتح أن تقسم المملكة بين ولديه وليم وروبرت .

---

(19) Trevelyan op.,, cit., 96.

(20) Robinson, An Introduction to the History of Western Europe (Boston, 1946) 150.

(21) Stenton, op., cit. ,63.

(22) Ibid., 209-10.

فأصبح أبنه الاكبر روبرت دوقا لنورمندي والاخر توج ملكـا علـى أنكلترا . غير أن نبلاء الانكليز كانـوا يفضلون الاخ الاكبـر لمـا عرف عنه من ضعف قد يمكن النبلاء من السير وراء أهوائهم بخلاف وليم الثاني المعروف بشده بأسه وحزمه في الحكم . لهذا ثار ضده اكثرية النبلاء سنة ١٠٨٨ . واستعمل وليم الثاني منتهى الشدة والقساوة مـع الثائرين لقب على أثرها بوليم الاحمر او وليم الدماء .

أما علاقته بالكنيسة فكانت حسنة حتى وفاة رئيـس الاساقفـة لانفرانك . وبدأ النزاع بين الملك والجهات الدينية حال وفاة لانفـرانك وقد كان فاتحة لنزاع طويل بين الدولة وكنيسة روما . اذ ترك وليـم الثاني منصب رئاسة الاساقفة شاغرا مدة من الزمن كي يستحـوذ على الواردات الدينية . غير أن المرض الذي الم به جعله ان يستغفر ربه ويطلب عفوه باسناده ذلك المنصب الى انسلم Anselm سنة ١٠٩٣ الذي كان مشتهرا بالتقوى والانصراف لعلم اللاهوت[٢٣] . ومع ذلك فقد تنازع مع الملك حول املاك الكنيسة والاستثمار العلماني لمراكـز رجال الدين والحاحه على المزيد من الاموال التي تقدمها الكنيسة اليـه أثناء حربه مع ويلز ولامداد أخيه أثناء حملة الاخير الصليبية سنة ١٠٩٦ .

لقد أصبح النزاع سافرا بين الملك والكنيسة على أثر سفر انسلم الى روما للحصول على حلته الرسمية من البابا . أن روما كانت مسرحا هذا الوقت لاثنين من البابوات المتنافسين هما بسكال الثاني والبرت لهذا تردد رئيس الاساقفة برهة من الزمن في الاعتراف بأي منهما غيـر انه كان عليه ان يقرر سريعا ان اراد الحلة الرسمية وهي رمز الاعتراف البابوي الرسمي بتقلده منصب رئاسة الاساقفة . لذا انتهز وليم هذه الفرصة فاكد حقه في ان رجال الدين في انكلترا لا يجوز لهم الاعتـراف بالبابا الا بعد اعتراف الملك به[٢٤] . لقد استمرت المنازعات بين الملـك ورئيس الاساقفة وادت بأنسلم الى ترك المنصب احتجاجا على سياسـة

(23) Trevelyan, op., cit., 116.
(24) Cambridge Medieval History, vol. V (N.Y., 1924) 526.

وليم ولم تنته المشكلة الا بأغتيال الاخير في احدى الغابات أثناء الصيد سنة ١١٠٠ .

هنري الاول ١١٠٠ – ١١٣٥

وهو الاخ الاصغر لوليم الثاني تقلد العرش أثناء غياب أخيه الاكبر روبرت دوق نورمندي حيث كان في حملته الصليبية في الاراضي المقدسة. لهذا لم يكن حق هنري في العرش مرتكزا على اسس ثابته خاصة ان وليم الثاني لم يعهد به اليه وان أخاه الاكبر اكثر حقا به منه . هذا بالاضافة الى عدم اخذه اراء زعماء شعبه في تقلد العرش . لهذا السبب اصدر هنري الاول عهدا ملكيا Charter وعد فيه الشعب ازالة ما لحقهم من حيف أثناء حكم أخيه . أن تلك الوعود التي جاءت بذلك المرسوم الملكي تعتبر من اوائل السوابق في كفاح الانكليز من أجل حرياتهم الطبيعية . لقد ادى ذلك المرسوم الى التفاف القسم الاكبر من النبلاء حول الملك . غير أن الفئة المناوئة كانت في مركز قوي ايضا وقد حاولت عبثا سنة ١١٠١ من أقناع أخيه روبرت عند رجوعه من الحملة الصليبية ان يقوم بغزو أنكلترا . ولقد انتهز هنري ثورة ضد أخيه في نورمندي فتمكن من الحاق ذلك القطر بأنكلترا بعد أنتصاره على أخيه وتأسيره سنة ١١٠٦ في موقعة تنشربريا Tincherbria [٢٥] .

اما علاقة هنري الاول بالكنيسة فتتمثل في المشكلة التي نشبت بينه وبين أنسلم حينما رفض الاخير تأدية الولاء للاول . وموجز الحادث ان هنري أرسل في طلب أنسلم عند اعتلائه العرش وعينه مجددا لرئاسة كنتربري وامر أن تعاد الممتلكات الكنسية التي صادرها اخوه لقاء أن يقسم يمين الولاء فامتنع انسلم عن ذلك . ويمين الولاء هذا الذي كان الامراء والملوك والاباطرة يجدون في طلبه من رجال الدين قبل البدء بمزاولة أعمالهم هو جوهر مشكلة الاستثمار العلماني لمراكز رجال الدين .

---

(25) Orton, op., cit., 594.

لقد تظاهر هنري الاول بالعدول عن طلبه اليمين كسبا للوقت وريثما تهدأ الاضطرابات التي نشبت عند اعتلاءه العرش واملا في موافقة البابا بسكال الثاني على الطلب الذي قدمه اليه من أجل ان يستثني انكلترا من المرسوم الكريكوري في مسألة الاستثمار العلماني للمراكز الدينية . الا ان البابوية رفضت بصورة قاطعة النظر بذلك الامر لهذا عمد هنري بعد استتباب الامن في بلاده الى أثارة المشكلة ثانية . فطلب الى رئيس الاساقفة اعتزال المنصب ان لم يؤد يمين الولاء والاخلاص . وكاد أنسلم ان يصدر التحريم في حق هنري لولا وساطة أخت الاخير أديلا وبعد مفاوضات قصيرة اشترك فيها ممثلون عن البابوية توصل الجانبان لتسوية وقتية باتفاقية بك Bec سنة ١١٠٦ . وكانت هذه نصرا في ظاهرها لرجال الدين . أذ أشارت الى أن الكنيسة وحدها صاحبة الحق في أختيار رجال الدين للمراكز الدينية وللملك حق حضور الانتخاب أو ارسال من ينوب عنه . ان هذا الشرط المتضمن حضور الملك في في الانتخابات او من يمثله من شانه ان يفسح المجال للتاثيرات الملكية في سير الانتخاب . وقد تركت الاتفاقية الحرية التامة للملك في وهب الاراضي لرجال الدين وان يطلب منهم التعهدات الاقطاعية المترتبة على ذلك وفي ضمن الحدود الدينية المتعارف عليها . غير أنهم لا يجوز لهم ممارسة أعمالهم رسميا الا بعد أستلام شارات مراكزهم الدينية (الجامعة والعصا) من رئيس الكنيسة الاعلى . اما في صدد عقوبة الحرمان فلا يجوز للكنيسة اصدارها بدون الحصول على موافقة الملك ، كما لا يجوز لاي اسقف مغادرة البلاد ما لم يأذن له الملك بذلك[٢٦]

وبصورة عامة كانت فترة حكمه فترة أمن وسلام فيما اذا استثنينا الاضطرابات التي تمخضت عنها ظروف اعتلائه العرش والحرب التي شنها على نورمندي والتي أسفرت عن ضمها الى انكلترا . أن السلام هذا ساعد على نشر العدالة والهيمنة على الجهاز الاداري وتطويره . ووصف المؤرخون المعاصرون ذلك الملك بأنه (اسد العدالة) وانه انسان طيب

---

(26) F. Deltz, A Political and Social History of England (N.Y., 1937) 80.

ومهاب ولم يجرؤ الناس في عهده الجور على بعضهم البعض .

أصبحت الحكومة في عهده اكثر مركزية واشد سلطة وتخصصا في الاعمال الادارية ، اذ وضع نظاما ماليا دقيقا وأمر بتعيين هيئة مشرفة على الاموال تتألف من صاحب الخزينة Treasurer والوزير الاقدم ووزير العدل ونفر اخر من اعضاء المجلس الملكي . وجعل اجتماعات هذه الهيئة مرتين في السنة في فصلي الخريف والربيع لتدقيق حسابات الجباة ولاستلام حصة الملك منها[٢٧] .

أما العدالة التي حققها ذلك الملك لشعبه فبواسطة المحاكم المتجولة. اذ كانت الدعاوى العامة تعرض سابقا على الملك الذي يعرضها بدوره على المجلس الملكي الذي يتبع الملك في حله وترحاله . كان من الصعب على سكان الاطراف النائية الوصول الى العاصمة أو اقتفاء اثر الملك في تنقلاته لرفع شكواهم اليه . لذا أمر هنري بايفاد عدد من أعضاء المجلس الملكي في مواقيت معينة من السنة الى مختلف الارجاء الادارية[٢٨] . لحسم القضايا المتنازع حولها والتي هي خارج أختصاص المحاكم المحلية .

ولعل أهم مشاكله قبيل وفاته مشكلة وراثة العرش ، وذلك لعدم وجود وريث ذكر بعد موت أبنه الشرعي الاوحد . لذا قرر اسناد العرش لابنته ماتيلدا وقد رتب أمر زواجها من قوبلاي جوفري أمير أنجو في فرنسا . وكان هذا يلقب بلانتاجنية Plantagenet لتعوده وضع غصن نبات معين ذي زهور صفراء على خوذته[٢٩] . كانت ماتيلدا عند وفاة والدها خارج البلاد وأن زوجها لم يجهد نفسه في المطالبة بالعرش لها .

ستيفن ١١٣٥ — ١١٥٤

لم يحبذ أمراء الانكليز انذاك الخضوع لعرش أمرأة ولم يكن

---

(27) S. Painter, A History of the Middle Ages 284-1500 (London, 1963) 185.
(28) Ibid., 184.
(29) Orton, op. cit., 596.

لهم سابقة في ذلك الشأن . لهذا تقاعسوا عن نصرة ماتيلدا حينما عبر ستيفن أمير بلوا بجيوشه الى انكلترا مطالبا بالعرش . وستيفن هو أبن أديلا المذكورة سابقا بنت وليم الفاتح واخت هنري الاول وقد نال تأييد النبلاء الذي لم يمض على قسمهم الى هنري الاول بالمحافظة على عرش بنته غير زمن يسير . وقد حنثوا بيمينهم لقاء وعود وهبات سنية اغدقها عليهم ستيفن[٣٠] .

لقد أقضت المشاكل مضاجعه بالرغم من فوزه بالتاج الانكليزي وتعزى المشاكل الى تصرفاته الخاصة وطباعه الشخصية . اذ كان مخاتلا وكثير التردد . وقد استغل النبلاء تردده فوسعوا نفوذهم بالتجاوز على بعضهم البعض وحتى على حقوق الملك نفسه . وسرعان ما نشبت الفوضى في كافة البلاد . ومما زاد الموقف تعقيدا أن قسما من النبلاء ثاروا ضده سنة ١١٣٨ مطالبين باسناد العرش الى ماتيلدا . ودامت الحرب الاهلية هذه حتى سنة ١١٥٣ حيث أنتهت باتفاقية بين ستيفن وهنري بن ماتيلدا . ونصت الاتفاقية المعقودة في ولنكفورد على أن يكون هنري وارث العرش الانكليزي بعد ستيفن[٣١] .

هنري الثاني ١١٥٤ — ١١٨٩

أن شهرة هنري الثاني كانت نتيجة لما أنجزه من أعمال اثناء حكمه في بريطانيا التي لم تكن في الواقع الا جزءا صغيرا من ممتلكاته . اذ ورث عن أمه دوقيتي نورمندي ومين بالاضافة الى انكلترا كما ورث عنها الادعاء بدوقية بريتاني Brittany ثم ورث عن أبيه دوقيتي أنجو وتورين . واضاف الى تلك الاملاك دوقية اكويتين سنة ١١٥٢ بزواجه من وريثتها الينور[٣٢] . وتمتد تلك الدوقية من نهر اللوار الى جبال البرانس ومن المحيط الاطلسي الى نهر الرون . وهكذا فقد سيطر هنري على نصف فرنسا تقريبا قبيل توليه العرش الانكليزي . كما

---

(30) Ibid., 597.
(31) Ibid., 598.
(32) Strayer and Munro, op. cit., 275.

أصبحت كل من ويلز وسكوتدلاند تحت حمايته وأمتدت سيطرته الى عدة أجزاء من آيرلاند .

وبالرغم من تعدد ممتلكاته وشساعة مساحتها التي لم تتيسر لغيره من ملوك اوربا أنذاك ما عدا أمبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة ، فانه لم يلقب نفسه بالامبراطور . ولهذا يعتبر المؤرخون ان تسمية هذه المجموعةمن الممتلكاتبالامبراطورية من الامور الخاطئة .ولعلمن أهم اسباب ذلك ان مركز هنري في فرنسا لا يتعدى كونه تابع الى الملك الفرنسي هـذا بالاضافة الى ان نظريـة كنيسة روما في وحدة العـالم المسيحي (نظرية السيفين) وأنضوائه تحت امبراطورية واحدة هـي الامبراطورية الرومانية المقدسة قد تكون من الاسباب التي حالت دون اعلان هنري لنفسه أمبراطور .

لقد واجهت هنري الثاني مصاعب عائلية ادت الى حروب أهليـة . اذ كان له أربعة أولاد هم هنري ورشارد وجوفري وجون وقد توج أبنه الاكبر سنة ١١٧٠ ملكا لكي يشرف على تدريبه في الحكم واوصى اليه بنورمندي وأنجو ومين . وعهد بدوقيه بريتاني الى جوفري علـى أن يتسلمها من اخيه الاكبر . وجعل دوقيه اكويتين مـن حصة رشارد على ان يتسلمها من ملك فرنسا. اما جون فلم يصبه منذلك الارث شيء ولقب من أجل ذلك (فقير الارض جون) . وغاية هنري من هذا التقسيم ان يخصص حصص أولاده مقدما ولم يدر بخلده ان يمنحهم سلطة التصرف الفعلي وهو في قيد الحياة . ومن هنا نشأت المشكلة بين الاب وابنائه . اذ أصر هؤلاء على الحكم الفعلي خاصة أن علاقة الوالد بأمهم الينور لم تكن على ما يرام وأنتهت بطلاقها . وكان لا لينور اليد الطولى في أثارة الابناء على والدهم . وتعرف الثورات التي قـام بها هؤلاء ضد ابيهم بثـورة الاشبال التي اشترك فيها معظم النبلاء الانكليز .

مرت ثورة الاشبال بمرحلتين اساسيتين . استطالت الاولى مـن ١١٧٣ ــ ١١٨١ حيث تمكن فيها هنري الثاني بمساعدة المدن الانكليزية بصورة خاصة من الانتصار على اولاده . ودامت الثانية من ١١٨٦ ــ ١١٨٩ . والمحرض الاكبر فيها بين الاخوان وابيهم هو فليب اغسطس

ملك فرنسا . اذ استعدى في بادىء الامر جوفري ضد أخيه الاكبر هنري ولم ينته النزاع الا بموت الاول . ثم قام بتحريض هنري وأخيه رشارد لمواصلة الكفاح ضد أبيهم . واحرز الابناء أنتصارا على والدهم سنة ١١٨٩ في احدى المواقع العسكرية في دوقية أنجو[٣٣] .

قام هنري الثاني بأصلاحات قضائية قصد بها تقوية السلطة المركزية. فقد يعزى اليه ادخال نظام المرافعات عن طريق المحلفين Trial By ومع ان ذلك النظام يختلف عن نظام المحلفين الحديث الا ان تشريعات هنري في ذلك الصدد مثلت الخطوة الاساسية في نمو الاجراءات القضائية في أنكلترا . وتقوم هيئة المحلفين بمعالجة أمور عدة . فيتم حسم النزاع حول الاراضي بتحكيم اثني عشر خبيرا يقسمون أمام حاكم العدل بأحقية اي من المدعين[٣٤] . أما النظر في الامور الجنائية فتجرى حسب الانظمة التي شرعها هنري في مجلس كلارندم Assize of Clarendom سنة ١١٦٦ . أذ يقوم أثنا عشر محلفا في كل وحدة من وحدات المائة الادارية . وهؤلاء أشخاص لهم أطلاع على الجريمة المرتكبة في منطقتهم وغالبا ما يكونون شهود عيان . وكانوا يلجأون أيضا الى التحكيم المحني لاثبات الحق حسب طريقة العصور الوسطى . وقد دام ذلك الاجراء المحني حتى سنة ١٢١٥ حيث منعته البابوية في عهد انوسنت الثالث .

أدت أصلاحات هنري الثاني القضائية الى الاصطدام بالامتيازات القضائية الدينية[٣٥] . اذ اعتقد هنري بأن تلك الامتيازات أصبحت ملاذا للمجرمين العلمانيين . وتوضح المشكلة التي نشبت بينه وبين رئيس اساقفة كنتربري توماس بيكث Thomas Becket جوانب الاصطدام بين السلطتين الزمنية والروحية . ان توماس بيكت من أصل نورمندي وعلى ثقافة عالية . أكتسب خبرا في مجالي الدنيا والدين في انكلترا وأصبح من المقربين الى هنري الثاني الذي اسند اليه رئاسة أسقفية

---

(33) Deitz, op. cit., 85-90.
(34) Trevelyan, op. cit., 138.
(35) Strayer and Munro, op., cit., 279.

كنتربري . وكم كانت خيبة الملك شديدة حينما لم يجد في توماس ما توقعه من مساعده في تقليص أمتيازات رجال الدين في ذلك الميدان القضائي اذ أشار توماس ذات مرة (انه لا يمكنه كسب مرضاة الله والملك في آن واحد فلا بد من التقرب الى أحدهما على حساب الاخر .)[36]

ان السبب المباشر في الاصطدام هو رفض توماس المصادقة على قوانين كلارندم القضائية لاعتبارها تعديا صارخا على حقوق الكنيسة وقد اضطر توماس الى مغادرة انكلترا الى روما . ونتيجة لوساطة البابوية توصل الطرفان الى هدنة لم تحسم جذور الخلاف . وقد أصدر توماس قرار التحريم في حق اولئك الذين ساندوا الملك في خلافه مع الكنيسة . لذا استشاط هنري الثاني غضبا وكان أنذاك في فرنسا . اذ قال في احدى المناسبات امام أتباعه (لماذا لم يكن له أتباع مخلصون الاخلاص المطلوب ليكفوني شر ذلك القس المزيف) . لذا أعتقد أربعة من الفرسان الذين سمعوا ذلك القول بأن ملكهم يود التخلص من توماس بقتله . وقد قصد هؤلاء كنيسة كنتربري سنة ١١٧٠ وأودوا بحياة توماس[37] .

لقد أفزعت تلك الحادثة المؤلمة العالم المسيحي وخاصة في أنكلترا . واضطر هنري الثاني أن يعلن براءته ويستغفر البابا ووعد بمعاقبة المجرمين ثم امر بالغاء قوانين كلارندم ارضاء للكنيسة وتهدئة للرأي العام ثم قصد زائرا قبر توماس بطريقة دراماتيكية . [38]

الاجزاء البريطانية الاخرى

ويقصد بذلك كل من ويلز وسكوتلاند وايرلاند . أما بالنسبة لويلز فكانت علاقاتها عدائية مع الانكلو سكسون طيلة الفترة التي سبقت الفتح النورمندي . ثم بدأ ملوك النورمنديين يستحوذون تدريجيا على المناطق الويلزية وقد لعب نبلاء الانكليز ادوارا خطيرة في ذلك المجال[39] . وبالرغم من أن هنري الاول أستولى على مناطق متعددة في

---

(36) Ibid., 230.
(37 - 38) Durant, op. cit., 672.
(39) Trevelyan, op. cit., 167.

الاقسام الجنوبية من ويلز الا أن قسما كبيرا من نبلاء تلك الجهات احتفظوا بدرجة ما من الاستقلال . كما تمكن هنري الثاني من اكراه نبلاء ويلز في المناطق الشمالية على الاعتراف بسيادته .

أما البلاد الاسكوتولاندية فكانت تتألف في البداية من أربعة أقسام هي (١) بكت Picts الكائنة شمال نهر فورث (٢) سكوجيا وتتمركز حول مصب نهر لورن (٣) ستراث كلايدStrath Clyde كائنة الى الجنوب وتشمل مصب نهر كلايد (٤) الاراضي التابعة الى مملكة نورث أمبريا وتشمل المناطق الكائنة في جنوب نهر فورث وشرقي مملكة ستراث كلايد[٤٠] .

ان اندماج بكت بمملكة سكوجيا ساعد على التوسع على حساب اراضي نورثمبريا ١٠١٨ كما تمكنت سكوجيا من الاستيلاء على مملكة ستراث كلايد وبذلك تم توحيد البلاد على ايدي ملوك الاسكوج ومن أوائل ملوك المملكة الاسكوتلندية المتحدة الملك ماكبث ١٠٤٠ ــ ١٠٥٧ الذي استأثر بالعرش بعد قتله دنكان في ظروف مبهمة[٤١] . ثم مالكولم الثالث ١٠٥٨ ــ ١٠٩٣ . وكان هذا متأثرا بالعادات الانكليزية وتزوج من احدى أميرات ويسكس ، وبذلك بدأ التأثير الانكليزي في سكوتلاند وقد أضطر مالكولم الى الاعتراف بتبعيته سنة ١٠٧٢ [٤٢] الى وليم الفاتح . ثم حاول مالكولم في عهد وليم الاحمر الاستيلاء على بعض المناطق الانكليزية غير ان هذه المجازفة ادت الى خسارته منطقة كمبرلاند سنة ١٠٩٢ . وقد حاول هنري الاول أعادة العلاقات السلمية مع سكوتلاند بتزويجه اخته من ملك ذلك القطر وسمح لهم بضم بعض الاراضي الانكليزية الا أن هنري الثاني اجبرهم على اعادتها الى انكلترا سنة ١١٧٣ وذلك لاشتراكهم في ثورة الاشبال[٤٣] .

اما العلاقات الانكليزية الايرلندية فلها تاريخ مختلف عما تقدم . اذ

---

(40) J., Mackie, History of Scotland (Middlesez, 1964) 27-32.
(41) Ibid., 45.
(42) Ibid., 49.
(43) Ibid., 50.

كانت ايرلاند مأهولة منذ العصور الاولى بأقوام كلتيه ومن حضـــارة تقترب الى حد ما من حضارة انكلترا قبل الفتح النورمندي . وهنـــاك اتصالات ثقافية وتجارية بين الايرلنديين والرومان مع أن الدولة الرومانية لم تحاول تثبيت اقدامها في ايرلاند .

ومن مظاهر التأثيرات الرومانية فيها انتشار البعوث التبشيرية التي مهدت الطريق سنة ٤٣٢ للقديس باترك[٤٤] . وعلى العموم كانت ايرلند مزدهرة بالحضارة والعمران في وقت كانت فيه أوربا تعاني من هجمـــات البرابرة الاوائل . ولهذا سميت بجزيرة القديسين والعلماء . ثم أصبحت قاعدة لارسال المبشرين الى مختلف الارجاء الاوربية . الا أن الغزوات الدانية المتوالية يملها من العوامل الهامة في انتكاس االحضارة هنـــاك في القرنين التاسع والعاشـــر .

ومما يلاحظ في التاريخ الايرلندي أن تقدم البلد الحضاري لـــم يصحبه تقدم سياسي . اذ كانت مقسمة الى عدة منـــاطق قبلية متنافسة مما سهلت فهم الاعداء . أن أول من فكر في فتح ايرلاند من ملوك الانكليز هو هنري الثاني بعد أن أستحصل موافقة البابا وتبريكاته على ذلـــك المشروع . الا أن الاوضاع الداخلية في بلاده منعته من ذلك . ونهض بهذا المشروع جماعة من أتباعه فيما بعد سنة ١١٩٦ ، ومن أشهرهم دوق بمبروك وقد تم للانكليز سنة ١١٧١ فتح المنطقة الكائنة بين دبلـــن ويورك .

نحو الدستور الانـكليزي ١١٨٩ – ١٣٠٧

لم يحدث تطور يذكر في المؤسسات الادارية في عهد رشارد الاول ١١٨٩ — ١١٩٩ لانصرافه الكلي للفروسية ومغامراتها ، ولم يزر انكلترا طيلة حكمه غير مرتين ولم يمكث في اي منهما سوى بضعة أشهر لغايـــة جمع الاموال لتموين جيوشه المقاتلة خارج البلاد . ومن أهم حـــروبه هي الحروب الصليبية التي خاضها في الاراضي المقدسة ١١٨٩ — ١١٩٢

---

(44) Neill, op. cit., 56.

وحروبه ضد ملك فرنسا فليب أغسطس . وادت تلك الظروف الى تذمر النبلاء ورجال الدين لكثرة ضرائبه .

لقد ورث الملك جون ١١٩٩ ــ ١٢١٦ مشاكل سلفه الاقتصادية والعسكرية . اذ أستهل حكمه في حروب متواصلة ضد فليب أغسطس . ومن اسباب العلاقات العدائية بين فيليب اغسطس وجون هو اسقاط الاول حق الثاني في ملكية الاراضي الواقعة الى الجهات الشمالية من نهر اللوار . اذ أنتهز فليب رفض الملك جون لدعوته بالمثول أمام المحكمة الملكية في باريس للدفاع عن حادثة زواجه من أيزابيلا أميرة انكولم بطريقة مخالفة للقواعد الدينية والاقطاعية . [٤٥]

حتمت المشاريع العسكرية في فرنسا على الملك جون الالحاح في جمع الاموال . ومن أهم الضرائب التي استفزت شعبه ضريبة السبع التي فرضها على الواردات الشخصية . وقد رفض النبلاء طلب الملك المالي وكذلك طلبه المتعلق بالقتال خارج الحدود في مشاريع لا تعود عليهم بغير الخسران . واشتد ساعد النبلاء عندما ساندهم رجال الدين .

ان السبب المباشر الذي اثار رجال الدين ضد الملك هو تدخل الاخير في النزاع الديني حول انتخاب رئيس اساقفة كنتربري واجبار الاطراف المتخاصمة على أختيار المرشح الذي يريده . لذا أصر البابا انوسنت الثالث بان امر البت في نزاع من ذلك النوع يعود للبابا ثم أصدر الاخير أمرا بعزل رئيس الاساقفة الذي عينه الملك مسندا المنصب الى ستيفن لانكتون . الا أن جون أستمر في تحديه للبابوية ولم يأبه لتحريم بلاده اولا وتحريمه ثانيا حتى سنة ١٢١٣ . اذ أتفق البابا مع فليب اغسطس على أن يغزو الاخير أنكلترا . لذا أضطر جون للاذعان لمشيئة البابا طالبا منه الصفح والغفران واعلن نفسه بانه مجرد تابع للبابا وانه على أستعداد لتأدية ما على التابع من خدمات لسيده[٤٦] .

---

(45) Durant, op. cit., 674.

(46) Strayer and Munro op. cit., 284 - 85.

وما أنتهت المشكلة حتى عاد جون ثانية لحرب فليب أغسطس بالرغم من معارضة النبلاء . وعلى كل فقد أنتهت الحرب بخسارته لمعظم أملاكه في فرنسا ورجع خائبا لانكلترا سنة ١٢١٤ . لذا أنتهز النبلاء هذا المركز الحرج الذي وجد جون نفسه فيه وتقدموا اليه بأن يمنحهم عهدا يحافظ فيه على حرياتهم وأيدهم في ذلك رجال الدين وحتى تجار مدينة لندن الذين أستفزتهم كثرة ضرائب الملك . واضطر الاخير للاستجابة لذلك الطلب في الوثيقة الدستورية الكبرى المسماة بالعهد الاعظم Magna Carta سنة ١٢١٥ .

ولم يكن العهد الاعظم هذا سوى وثيقة دستورية ارستقراطية اقطاعية هدف لحماية حقوقهم بصورة خاصة من تعديات الملك . وتألفت الوثيقة من ثلاث وستين مادة أهمها :

١ ــ لا يمكن للملك جباية ضرائب جديدة لم تذكر في العقود الاقطاعية ما لم يستحصل سلفا موافقة المجلس الكبير .

٢ ــ حماية حريات الكنيسة وحقوقها .

٣ ــ مراعاة دستور البلاد Common Law في الحماية لحريات الافراد الاحرار (فلا يجوز القاء القبض على أي فرد حر ولا يجوز أيداعه السجن الا بعد أدانته نتيجة لمحاكمته من قبل النبلاء حسب قوانين البلاد) .

٤ ــ أحترام حريات سكان مدينة لندن وسائر المدن والموانئ الانكليزية .

٥ ــ يجب على الملك العمل بموجب ذلك العهد وللنبلاء الحق في اكراهه على ذلك ان دعت الضرورة ولو بالحرب[٤٧] .

ان العهد الاعظم من الحوادث الهامة في التاريخ الانكليزي . اذ أصبح مجالا خطيرا للبحث والاستنتاج الى حد الغلو . ومن اسباب هذا الغلو ما يعود الى القرن السابع عشر حينما عمد الفقهاء لايجاد ما يبرر

(47) F. Ogg, Source Book of Medieval History (N.Y., 1907) 304-310.

وجهة نظرهم من العهد الاعظم في مقارعة ملوك ال ستيوارث المستبدين حجة بحجة . وبالرغم من أهمية تلك الوثيقة فلم تشر الى ضرورة اجراء المحاكمات بطريقة نظام المحلفين ولم تشر الى الطبعة العامة . ولعل أهم مبدأ حققه العهد الاعظم ضرورة أطاعة ملوك الانكليز لقوانين بلادهم .

ومما هو جدير بالذكر أن العهد الاعظم اشار الى تشكيل لجنة متألفة من خمسة وعشرين عضوا للاشراف على تنفيذ الشروط[48] . وبالرغم من ان الملك تمشى بموجب العهد لشهرين تقريبا فان النبلاء لم يراعوا تطبيقه بتجاوزهم على حقوق الملك التي حفظها له ذلك العهد . هذا بالاضافة الى أن لجنة الاشراف المشار اليها كانت عديمة الذوق في معاملة الملك . لذا أضطر الاخير أن يعلن للملأ الغاء العهد الاعظم لعدم تقيد النبلاء به . وأيده في ذلك البابا أنوسنت الثالث . وأدى ذلك الى حروب أهلية أستعان بها الثوار بفليب أغسطس واستمرت حتى وفاة الملك جون سنة ١٢١٦ .

أن الغاية الاساسية من حرب النبلاء تلك هي محاولتهم السيطرة على المؤسسة الملكية بعد أن تم لهم تحديدها في العهد الاعظم . وظهر ذلك جليا في مواقفهم في عهد الوصاية على هنري الثالث وما بعدها ١٢١٦ — ١٢٧٢ . لقد كان هذا في التاسعة من عمره عند وفاة أبيه فعهد بالوصاية عليه الى وليم مارشال الذي اكد أحترام العهد الاعظم واصدر عفوا عن النبلاء المتمردين ثم عقد هدنة مع الجيوش الفرنسية سنة ١٢١٧ أنسحبت على أثرها ودامت وصايته حتى سنة ١٢١٩ ، ثم تولاها كل من الممثل البابوي باندولف حتى سنة ١٢٢١ وهربرت قاضي القضاة حتى سنة ١٢٢٧ . وأن أهم ما يميز وصاية باندولف وهوبرت تجدد طموح النبلاء للاستئثار بحقوق الملك .

---

(48) Trevelyan, op., cit., 109.

لقد أستمر النبلاء في مواقفهم المتحدية للسلطة الملكية عندما تقلد هنري الثالث بنفسه مقاليد الحكم سنة ١٢٢٧ ، ومما ساعدهم في ذلك أرتكاب الملك لسلسلة من الاخطاء . اذ ملأ مناصب الدولة بالاجانب واكثريتهم من سافوي وبواتيه . هذا بالاضافة لعدم احرازه النجاح في سياسته الخارجية وعزا النبلاء ذلك الى سوء مشورة الحكام الاجانب اذ أشترك هنري الثالث في حروب البابا في المانيا ضد عائلة هوهنشتاوفن التي كانت تسيطر على كل من نابولي وصقلية ، وذلك لقاء ما وعد البابا به هنري الثالث بأن يجعل اخاه رشارد امبراطورا للامبراطورية الرومانية المقدسة وان يتوج ابن هنري الثالث أدموند ملكا على صقلية[٤٩]. ولم يكتب لهذين المشروعين النجاح ولم يجن هنري منهما سوى تذمر الشعب الانكليزي لكثرة الضرائب المجباة لغايات عسكرية .

قاد المعارضة لسياسة الملك الكونت سيمون دمونتفورد الفرنسي الاصل والوارث لكونتية ليستر وكان زوجا لاخت هنري الثالث .

طالبت المعارضة في أول الامر أقصاء الاجانب والسماح لهم بالاشراف على تعيين الوزراء . وهكذا فقد أصبح واضحا بأن النبلاء استهدفوا السيطرة على صلاحيات الملك . ومع ذلك فلم يكن الامر بهذه السهولة لأن المتنفذين من سكان مدينة لندن والجماعات الاقطاعية الصغيرة طالبوا النبلاء بالاشتراك معهم فيما ينوون القيام به ، لذا اضطر النبلاء لدعوة لجنة تمثل الهيئات الاجتماعية الانكليزية عقد جلساتها في أكسفورد واصدرت مقررات أكسفورد Provisions of Oxford سنة ١٢٥٨ . وأهم ما جاء فيها : (١) عقد البرلمان ثلاث مرات سنويا (٢) وان يتألف من مجلسين يضم الاول اثني عشر عضوا والثاني خمسة عشر عضوا للاشراف على سياسة الملك (٤) أن يكون اعضاء المجلسين في اتصال مستمر[٥٠] .

---

(49) Painter, op. cit., 270.
(50) Strayer and Munro, op. cit., 364.

لم يكن لذلك النوع من الحكم النجاح وذلك لعدم أتفاق كلمة النبلاء ولعدم رغبتهم بالتعاون مع الطبقات الاخرى في الحكم . واسفر الوضع عن حرب أهلية بين الملك ومناصريه من جهة وبين النبلاء من جهة ثانية . وقد طلب الملك الانكليزي من لويس التاسع ملك فرنسا ان يكون حكما بينه وبين النبلاء سنة ١٢٦٣ .

وقد اصدر لويس التاسع قراره التحكيمي المسمى مايس أوف أميان سنة ١٢٦٤ في صالح الملك بالغاء مقررات اكسفورد . غير ان النبلاء رفضوا التحكيم وجددوا الحرب التي كتب لهم النصر فيها على الجيوش الملكية سنة ١٢٦٤ في موقعة لويس Lewes . وعلى اثر ذلك وجهه سيمون سنة ١٢٦٥ الدعوة لعقد برلمان يمثل كافة طبقات الشعب للنظر في أمر البلاد . وطلب من مناطق الارياف أن ترسل كل منها فارسين وان ترسل كل مدينة نائبين عنها . ويشار الى ذلك البرلمان الذي عقد سنة ١٢٦٥ بالبرلمان الكبير والساخط . ولم تستمر هذه التجربة طويلا حيث تجددت الحرب وأنتهت بأنتصار الملك ومقتل سيمون في السنة المذكورة في موقعة أفرشام ثم الغيت مقررات اكسفورد ولم تعد هناك مقاومة تذكر[51] .

ولعل أهي حدث دستوري في التاريخ الانكليزي في العصر الوسيط هو البرلمان النموذجي Model Parliament الذي أمر الملك ادورد الاول ١٢٧٢ — ١٣٠٧ بعقده في سنة ١٢٩٥ [53] . وكان ذلك البرلمان على غرار برلمان سيمون والفرق بينهما ان الاول عقد بأمر من الملك لكي تشاركه الامة في تلافي خطر الثورة في اسكوتلاند . ومما هو جدير بالذكر ان أجتماعات الفرسان كانت منفصلة عن اجتماعات ممثلي المدن وبقيت على هذه الشاكله حتى سنة ١٣٤٣ ، اذ نتج عن اندماجهما مجلس العموم .

---

(51) Ibid., 365 - 66.
(53) Robinson, op. cit., 166.

كما تنج عن أندماج اجتماعات النبلاء ورجال الدين مجلس اللوردات .

يعتبر عصر أدورد الاول فترة خطيرة في التـاريخ الـدستوري لانكلترا . ففيه أخذت القوانين والمحاكم والبرلمان أشكالا متميزة حافظت على مظاهرها العامة حتى العصور الحديثة . واطلق عـلى ادورد لقب جستنيان أنكلترا لما قام به من تشريعات ساهمت بشكل فعال فـي التطور الدستوري لتلك البلاد[54] . ومن أهم تشريعاته في هذا الشأن هي قانون ويستمنستر الاول سنة ١٢٧٥ عالج فيه الادارات المحليـة والمعاملات الاقتصادية الخارجية ثم قانون كلوسستر سنة ١٢٧٨ الغي فيه كافة المحاكم الاقطاعية التي لم تؤسس بارادات ملكية . ثم أصـدر سنة ١٢٥٨ قانون ويستمنستر الثاني حاول فيه تلافي النواقص فـي قانون ويستمنستر الاول في القضايا الادارية وتنظيم المحاكم مؤكدا فيه ضرورة أنتقال الاملاك الاقطاعية الى الابن الاكبر وفي حالة عدم وجود وارث تسلم الاملاك الى الملك .

---

(54) Strayer and Munro, op. cit., 413.

٢ – فرنسا

اسرة كابيسة ٩٨٧ – ١٣٢٨

يمكن اعتبار فرنسا كالمانيا وليدة معاهدة فردون سنة ٨٤٣ .واصطلى القطر بنار الحروب الاهلية طيلة القرن العاشر حول التسابق من اجل العرش . والاسرتان المتنافسان هما الاسرة الكارولنجية وأسرة أدو كونت باريس والتي اصبحت تعرف بالعائلة الروبرتيه . هذا وقد انتهى حكم الاسرة الكارولنجية في فرنسا على أثر وفاة اخر وريث كارولنجي مباشر سنة ٩٨٧ الا وهو شارل الخامس . لذا عقد النبلاء مؤتمرا في سنلس أسفر عن أنتخاب هيو كابيه ٩٨٧ ــ ٩٩٦ . ولم يتميز حكمه بشيء هام سوى أستخذائه لامراء الاقطاع واضطر على توزيع ما لديه من ممتلكات خاصة للاخرين أملا في كسب الاعوان . ثم تلاه روبرت الثاني ٩٩٦ ــ ١٠٣١ وهنري الاول ١٠٣١ ــ ١٠٦٠ ولم يحدث في عهديهما حوادث تستحق الذكر[1] . أما فليب الاول ١٠٦٠ ــ ١١٠٨ فقد حاول توحيد أملاك التاج الممتدة من باريس الى اورلين[2] . وتمكن قبيل وفاته من أسترداد قلعة موتتليري على مقربة من باريس[3] . وتعتبر فترة حكمه (فاتحة عهد جديد في تاريخ الملكية الفرنسية)[4] كما سيتوضح ذلك فيما بعد .

---

(1) Strayer and Munro, op., cit., 166 - 67.
(2) Painter, op., cit., 159.
(3) Strayer and Munro, op., cit., 168.
(4) C. Orton, op., cit., 467.

كانت فرنسا فعليا في القرن الحادي عشر تحت حكم الاقطاعيين وليس للملك فيها سلطة عملية . ولم يكن امراء الاقطاع هناك على شاكلة واحدة في القوى والادارة . فلم يكن باستطاعة امراء اكويتين فرض السيطرة على مناطقهم الوعرة لذا فتمرد الاتباع فيها من الاشياء المألوفة. اما دوق برغندي فكان أشبه في وضعه بامير اكويتين ، فأكثرية أتباعه لا هم لهم سوى السلب وقطع الطرق في جبال الالب . وكانت دوقيه بريتاني الى حد ما في عزلة عن فرنسا في التراث والمعالم الطبيعية . اذ أن سكانها من أصل كلتي لهم عاداتهم ولغتهم واعتزازهم بماضيهم بالرغم من فقرهم المدقع . غير أن امارة أنجو كانت تتمتع بشيء من الاستقرار والادارة الحازمة . اما امارتا شايين وبلوا فكانتا في فوضى مزمنة . ومن أغنى مناطق الجنوب امارة طولوز خاصة في القرن الحادي عشر وما تلاه نظرا لاستئناف التجارة في البحر المتوسط . ومع ذلك فلها ثقافتها الخاصة التي هي أقرب الى اسبانيا وايطاليا منها الى فرنسا ومن أهم الامارات التي احتفظت بحكومات أقطاعية قوية هي نورمندي وفلاندرز[5] .

ان الاجزاء الشمالية الفرنسية في القرن الحادي عشر أهدأ بصورة عامة من الاقسام الجنوبية . ومن أهم ما يلاحظ في تلك الفترة في كافة الارجاء تقريبا زيادة النفوس الناشئة عن قلة الوفيات . وكذلك هجرة الفرنسيين الى أنحاء اوربية اخرى سواء عن طريق الهجرة السلمية او المسلحة . وأخذ رجال الاقطاع هناك يحرضون فلاحيهم على الهجرة طلبا لاراضي جديدة . وشاهد القرن اعدادا كبيرة من الفرسان ورؤسائهم تهاجر شرقا الى المانيا او الجنوب الشرقي الى ايطاليا او الجنوب الى اسبانيا او غربا الى البرتغال . فالسلالات الحاكمة في البرتغال في الادوار الاولى تنتمي الى أصل برغندي . ويعتقد بعض المؤرخين أن

---

(5) Ibid., 468 - 69.

هجوم وليم الفاتح على انكلترا من مظاهر ذلك التوسع الفرنسي وكذلك الهجرة النورمندية الى الاقسام الايطالية الجنوبية .

لم تكن المؤسسة الملكية الفرنسية ذات شأن حتى النصف الثاني من القرن الثاني عشر . ومع ذلك فلم تدخر وسعا في انتهاز الفرص للضرب على أيدي الاقطاعيين وتوسيع صلاحياتها على قدر الامكان . وهنـاك عوامل متعددة ساعدت الملوك الفرنسيين في هذا المسعى منها :

١ ــ بالرغم مما وصلت اليه تلك المؤسسة من ضعف فلم تـزل ترمز انذاك الـى ماض فرنسي مجيد . فهي ميزات كلوفس وشارلمان . وان ملوك فرنسا لهم السيادة العليا بصورة نظرية على الاقل على فرنسا مـن الفلاندرز شمالا حتى البرانس جنـوبا ومن الاطلسي غربا حتى الراين شرقـا .

٢ ــ تقع املاك التاج في منطقة ستراتيجية خطيرة . فهي في وسط فرنسا التي تشرف على أهم طرق المواصلات . هذا بالاضافة الى شهرة باريس وعظمتها عند الفرنسيين .

٣ ــ أصبحت الملكية ملاذا للطبقة المتوسطة الناشئة في المدن ضد تعسف الاقطاعيين .

٤ ــ التحالف الوثيق بين التاج والمذبح Crown and Altar او بمعنى اخر بين ملوك فرنسا والبابوات او بين الكنيسة والدولة . وأدت تلـك العلاقات الايجابية الى تساهل البابوات مع رؤساء الدين في فرنسا والموافقة على منحهم امتيازات ادارية في القضايا الكنسية . وكان من مصلحة ملوك ذلك القطر فيما بعد الاحتفاظ بهذه الامتيازات والعمل على زيادتها . وأخذ رجال الدين في فرنسا ينظرون الى الملك وكأنه حاميهم الاعلى .

وتتيجة لهذه العلاقات بين رجال الدين والبابوات وبين رجال الدين وملوك فرنسا نشأ الاتجاه القومي في الكنيسة الفرنسية الكاثوليكية والمسمى بالاتجاه الغالي Gallicamsm . ويجب ان لا يفهم من هذه التسميـة ان هناك خلافات بين روما والكنيسة الغاليّة اذ بقيت الثانيـة مخلصة في قضايا العقائد الدينية الى كنيسة روما ولم يحاول ملوك فرنسا طيلة

تاريخهم الانفلات من الفلك البابوي بالرغم مما كان بينهم من مشاكل[6] .

وهناك عوامل أخرى ساعدت على شد أزر المؤسسة الملكية في فرنسا تلاحظ في سياق فترات حكم ملوك ذلك القطر .

فليب الاول ١٠٦٠ — ١١٠٨

حدثت في عهده حادثتان هامتان . الاولى غزو وليم أمير نورمندي لانكلترا سنة ١٠٦٦ وبذلك تخلص فليب من أقوى الاتباع لانشغاله بمشاكل ذلك القطر . كما أدى ذلك الفتح في المدى البعيد الى أستيلاء ملوك فرنسا على الممتلكات النورمندية في فرنسا . والثانية هي الحملة الصليبية الاولى التي جرفت عددا لا يستهان به من امراء الاقطاع الفرنسيين الى الاراضي المقدسة .

لويس السادس ١١٠٨ — ١١٣٧

قضى حياته مدافعا عن الأملاك الكنسية في اراضي التاج والحد من نشاط أتباعه المتمردين في تلك المناطق . وقد أصبح أخيرا صاحب السلطة الفعلية في املاك التاج . وقيل عنه بانه موفق في الاعمال البوليسية الاكثر من اعماله السياسية . ومع ذلك فلم يتمكن من فرض سيطرته على الأجزاء الفرنسية خارج الاراضي الملكية ولم يحاول استغلال الصراع بين هنري الأول ملك انكلترا وروبرت امير نورمندي لمصلحة بلاده . غير أنه حاول عبثا فيما بعد مؤازرة المدعي بدوقية نورمندي وجرت عليه هذه السياسة الحرب مع انكلترا . كما أن محاولته ضم فلاندرز الى املاكه عادت عليه بخسران ما له من نفوذ هناك . كذلك ساءت علاقته مع أمبراطور الأمبراطورية الرومانية المقدسة هنري الخامس حينما ساعد البابوية في كفاحها ضد الأمبراطور وهدد الأخير بغزو فرنسا سنة ١١٢٤ .

أظهر لويس السادس حزما اداريا في أملاك التاج . واشار سوجيه Suger واضع كتاب تاريخ حياة لويس السادس بان الملك

---

(6) A. Guerard, A Short History of France (N.Y., 1946) 80.

عمل دراسة وافية لأحوال السكان على اختلاف طبقاتهم توخيا للعدالة في الحكم . وأيدته الكنيسة تأييدا فعالا ووضعت تحت تصرفه ما لديها من خبراء في الادارة والحكم . ومن أهم الشخصيات الدينية سوجيه المذكور آنفا . ولقد تمكن لويس من اقناع الينور وارثة امارة اكويتين من الزواج من ولي عهده . وتعتبر تلك الدوقية من الأجزاء الفرنسية الهامة اذ تبلغ مساحتها حوالي ربع مساحة المملكة[7] .

لويس السابع ١١٣٧ — ١١٨٠

لم يكن هذا موفقا في حكمه لأرتكابه عدة أخطاء أعاقت تقدم المملكة . وذلك لاشتراكه في الحملة الصليبية الثانية التي لم تجن فرنسا منها سوى الهزيمة والخسائر الفادحة . وكذلك خسرانه لامارة اكويتين على أثر طلاقه الينور التي تزوجت من خصمه هنري الثاني ملك أنكلترا.

أعتمد في سياسته الداخلية على سوجيه ايضا . ونظرا لمواهب هذا السياسي واهميته في تاريخ فرنسا يجدر بنا ان نلم بشيء من حياته . ينتمي سوجيه الى عائلة فقيرة تثقف ثقافة دينية وأصبح رئيسا لدير القديس *SAINT . DENIS*. أما اتصاله بالاسرة المالكة فكان عن طريق المدرسة حيث نشأت صلات ودية بينه وبين لويس السادس أثناء الدراسة في الدير المذكور . وأظهر سوجيه براعة ادارية فائقة عندما اصبح وزيرا لكل من لويس السادس ولويس السابع وعبر عن أخلاصه في الحكم بشتى المظاهر . اذ قيل عنه بانه يسدد نفقات الدولة من حسابه الخاص . ومما يذكر عنه معارضته لأشتراك ملك فرنسا في الحملة الصليبية الثانية . ونظرا لاصرار الملك على قيادتها فقد اضطر سوجيه على الموافقة وتسديد القسم الأكبر من نفقاتها . ثم عارض في قضية طلاق الملك لزوجته الينور معتبرا ذلك خسارة لا تعوض لفرنسا ولم يتم الطلاق فعلا الا بعد وفاة ذلك الوزير[8] .

---

(7) Strayer and Munro, op. cit., 289-90.
(8) Ibid., 291.

وبالرغم من الانتكاسة التي مني بهـا لويس السابع في حملتـه الصليبية الثانية وخسارته لدوقية اكويتين الا أن المؤسسة الملكية لـم يتطرق اليها الوهن . ويعزى ذلك الى حد ما لما بذله سوجيه من جهود والى حوادث عرضية قام بها لويس السابع . منها أن الأخير ادى خدمة الـى البابا الاسكندر الثالث في وقت محنتـه مـع فردريك بربروسيا أمبراطور الأمبراطورية الرومانية المقدسة . وبذلك فقد عمل على تقوية الروابط التقليدية بين الكنيسة والعرش وأصبح رجال الدين خير عون له في فرنسا في تثبيت ملكه .

وهناك بعض الأتجاهات العامة في المجتمع الفرنسي التي ساعدت على تقوية المؤسسة الملكية في عهد لويس السابع . اذ أخذ الاقطاعيون الصغار في التوافد على الهيئات الملكية متنازلين عن قسم من ممتلكاتهم وسلطاتهم الفعلية الى الحكومة المركزية لقـاء حمايتهم من جور النبلاء الأقوياء . كما أصبحت المحاكم الملكيـة تجتذب المتخاصمين لنزاهتهـا وسطوتها واخذت تحل تدريجيا محل المحاكم الأقطاعية . وهنـاك ايضا التقارب بين المؤسسة الملكية وسكان المدن في الاوقات التي تلتقي فيها مصلحة الطرفين ضد امراء الاقطاع[٩] .

فليب الثاني ١١٨٠ — ١٢٢٣

بذل فليب الثاني الملقب بأغسطس جهده لجعل الادارة الحكومية الملكية تحقق العدالة للسكان وتبعدهم عـن الادارات الاقطاعية . توج هذا ملكا ووالده في قيد الحياة ونهض باعباء الحكم وله من العمر أربع عشرة سنة . ومن اوائل اعماله التي ساعدت علـى اشتداد ساعد الملكية زواجه من وريثة امارة أرتوا وكذلك احياء الامارات الاقطاعية العائـدة للعائلة المالكة في مناطق أخرى من أجل توسيع رقعة المناطق التي كانت تحت حكمه المباشر . لهذا شهر حربا على أمير فلاندرز بحجة أستعـادة حقـوق زوجته في تلك الأمارة وضم فعلا اجزاء مهمة منها الى امـلاك التاج . ثم أستغل النزاع بين اولاد هنري ملك أنكلترا وأبيهم لأضعاف

(9) Ibid., 292-93.

الملك الانكليزي وللاستيلاء على بعض الاجزاء من ممتلكاته في فرنسا .
ومن أهم المعارك التي خاضها الأنكليز في هذا الشأن معركة بوفين Bauvines سنة ١٢١٤ حيث انتصر فيها على جيوش الملك جون[١٠]

اعتمد في سياسته الادارية على طبقة من الموظفين تدعى بايي Baillis يعينهم الملك مباشرة وقام بدفع رواتب شهرية لهم . وحلت تلك الطريقة محل النظام القديم الذي أعتمد على الموظفين الوراثيين المشار لهم Prevost . وعلى هذا الأساس يعتبر فليب أغسطس من اوائل ملوك فرنسا الذين ساهموا في خلق جهاز الخدمة المدنية[١١] . وأهتم أيضا في الجباية . اذ أصدر اوامره بضرورة أستحصال اموال الدولة نقدا بدلا من أستيفائها بشكل خدمات او مدفوعات نوعية . وشجع المدن الناشئة بمنحها امتيازات ادارية متنوعة[١٢] .

أما سياسته العسكرية فتعتبر أنقلابا أو ثورة على الاساليب الحربية القديمة ، حيث أمر بتشكيل الجيوش المركزية من الجند الأجير لتحل محل الجيوش الأقطاعية .

ومن مشاريعه العسكرية أشتراكه في الحملة الصليبية الثالثة التي اعدت على أثر سقوط القدس على يد صلاح الدين . وكذلك اشتراكه في الحملة الصليبية التي دعا اليها البابا انوسنت الثالث ضد الالبجنسيين في جنوب فرنسا .

لويس الثامن ١٢٢٣ — ١٢٢٦

يمتاز حكمه بأمرين هامين : الأول أحتفاظه بالجهاز الحكومي الذي خلفه والده والعمل على تقويته . ومن الاساليب التي ابتكرها هو نظام التطهير الحكومي Purge وذلك بالاستغناء عن الموظفين المرتشين والمتهاونين للمحافظة على سمعة الادارة الملكية وكفائتها . والثاني مساهمته في الحرب الصليبية ضد فرقة الالبجنسيين Albigensians

(10) C. Orton, A History of Europe, 1198-1378, (London, 1960) 106-10.
(11) Strayer and Munro, op. cit., 296.
(12) Orton, op. cit., 111.

وحصل بذلك على منـــاطق غنية في الاقسام الجنوبيـــة . وشبه المؤرخ هنري بيرين سياسة لويس الثامن التوسعية باسم الدين بسياسة كلوفس الاعتدائية ضد مملكة القوط الغربيين في جنوب فرنسا[١٣] . وقـــد مات لويس الثامن مجاهدا في سبيل الكنيسة في حملته تلك .

لويس التاسع ١٢٢٦ — ١٢٧٠

كـــان في عمر الثالثة عشر عنـــد وفاة والده فتولت أمـــه بلانش Blanche الوصاية عليه سنة ١٢٢٦ ــ ١٢٣٥ فأحكمت تربيته مـــن ناحية دينيـــة[١٤] . ولقب بالقديس لتدينـــه وبلائه في سبيـــل الكنيسة . وكثيرا مـــا يرى وهو يغسل اقدام المرضى والفقراء تقربا الـــى الله[١٥] . وقد تجرأت عليه احدى النساء ذات مرة محتجة عـــلى تصرفاته الدينية تلك بقولها له أنه من الأولى ان يكون غيرك ملكا على فرنسا لأنك ملك الفرنسسكان والدومنيكان لا ملك الفرنسيين . انه لمن العجيب حقا ان لم يخلعك الفرنسيون لحد الان . فأجابها بكل هدوء (قلت حقا . فلم أكن لأستحق هذا العرش . ولو لطف بي الرحمن فيجعل غيري يحكم فرنسا بشكل افضل)[١٦] . وبالرغم من تدينه فهو لـــم يفرط في حقوق المؤسسة الملكية في سبيل البابا . ومع ذلك فقد يـــلام مـــن قبل البعض لأدخاله محاكم التفتيش الى فرنسا .

لقد ازدادت المؤسسة الملكية مناعة في عهده وخاصة عند أنتصاره على تحالف اقطاعي عسكري . حيث تألب عليه كل مـــن أمراء فلاندرز وبريتاني وبرغندي وكاسكوني ولانكودك سنـــة ١٢٤٢ وتمكن مـــن تشتيتهم في سينتز Siantes . وتعتبر تلـــك الحادثـــة أخر محـــاولات الاقطاعيين المستهدفة السيطرة على المؤسسة الملكية في فرنسا[١٧] .

---

(13) H. Pirenne, A History of Europe from the Invasion to XVI Century (N.Y., 1955) 334.
(14) J. Joinville, Chronicle of the Crusade of St. Louis (Everyman lib.) 158.
(15) Ibid., 310.
(16) C. Munro and C. Dillery, Medieval Civilization (N.Y., 1926) 493.
(17) Orton, op. cit., 113.

ومن أهم التطورات القضائية في عهده تكوين برلمان باريس . وهذا عبارة عن مجلس قضائي وليس له شبه بالبرلمان الأنكليزي ، وأنما هو مجرد محكمة عليا تنظر في كافة الدعاوى المرفوعة اليه من المناطق الادارية الملكية[18] . ولقد تكون في كل منطقة ادارية فيما بعد محكمة قضائية ملكية يشار لها بالبرلمان ايضا ، الا أن محكمة باريس العليا بقيت ولها القول النهائي في الامور القضائية . وبقي برلمان باريس فعالا في تاريخ فرنسا حتى الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ .

قاد لويس التاسع حملتين صليبيتين الأولى سنة ١٢٤٩ تمكن بها من احتلال دمياط وتقدم بالزحف نحو القاهرة الا أن الجيوش المصرية ردته على اعقابه وتمكنت من تأسيره ولم يطلق سراحه الا بعد قبوله الشروط المصرية المتضمنة الانسحاب من دمياط ودفع الفدية . ومع ذلك فقد واصل سبيله الى الاراضي المقدسة حيث مكث في عكا حتى سنة ١٢٥٣ . وقد ناشد المغول مرتين لاستعدائهم على الديار الاسلامية الاولى كانت في سنة ١٢٤٩ والثانية سنة ١٢٥٣ ولم تأت المحاولتان بنتائج ايجابية مباشرة . ثم قاد حملة صليبية ثانية انحرفت عن هدفها وهاجمت تونس سنة ١٢٧٠ لتأثيرات أخيه ملك الصقليتين شارل الأيخوى ، وقد توفي لويس أثناء حصاره لتونس .

فليب الثالث ١٢٧٠ — ١٢٨٥

كان أقوى ملك في اوربا انذاك . ويرجع الفضل في ذلك الى الخطة الحكيمة التي أتبعها والده . غير انه كان الى حد ما تحت تأثيرات عمه شارل الأيخوى . وقد ازدادت مساحة املاك التاج في عهده بالوراثة والمصاهرة . اذ ورث بواتيه وطولوز وزوج ابنه من وريثة مملكة نافار ودوقية شامبين[19] .

اشترك في الجهة العسكرية البابوية ضد الاراكون حول العرش

(18) Ibid., 114.
(19) C. Orton, The Shorter Cambridge Medieval History, Vol. II (Cambridge, 1955) 782.

الصقلي . غير ان الجيوش الأسبانية الاراكونية تمكنت من دحر جيوش فليب الثالث الذي توفي اثناء الانسحاب[٢٠] .

فليب الرابع ١٢٨٥ — ١٣١٤

يعتبر هذا مــن ملوك فرنسا الأتنهازيين المؤمنين بأن الغايــة تبرر الواسطة . ويشير البعض الى انــه كان مضطرا لاتبــاع ذلك الاسلوب تعزيزا لمركزه وان الاعمــال التــي قــام بها أستهدفت خدمة المصالح الفرنسية . لقب فليب الرابـع بالجميل لحسن محياه . هدف مــن وراء سياسته الى فرض السلطة المركزية علــى كافــة الفئات والمؤسسات في بــلاده . واراد ان يجعــل الاقتصاد الفرنسي معتمدا عــلى التجــارة والصناعة بالاضافة الى الزراعة وأن يصل بفرنسا الى حدودها الطبيعية . أعتمد في ادارته على فقهاء القانون امثــال بيير فلوت ونوكاريت وكان كل منهما لا يتحرج من اتباع اي اسلوب سياسي في خدمــة الملك مهما كان متعارضا مع الفضيلة والعرف[٢١] . وتمكــن فليب بمساعدة هذيــن السياسيين من فرض المحاكم الملكية على الأقطاعيين وأخضاعهم والأتنصار على البابوية وجعل البابوات أشبه بالاسرى في فرنسا في الفترة المسماة بالأسر البابلي ١٣٠٥ ـــ ١٣٧٧ والتي سنعالجها في موضوع لاحق .

يفسر البعض سياسته الأعتدائية تجــاه البابوية وفرسان المعبــد واليهــود باحتياجه الدائم الى الأمــوال في مشاريعه التوسعية . اذ أمر الأقطاعيين بإيفاد ما عليهم من تعهدات نقدا للتاج . وكثيرا مــا لجأ الى التلاعب بالعملة من اجل تلافي نفقاته . كما امر بطرد اليهود سنة ١٣٠٦ مرضاة للرأي العام الكاثوليكي ظاهريا وللاستيلاء على ثرواتهم باطنيا . ثم صادر امــلاك فرسان المعبد سنة ١٣٠٧ وأمر بطرد رجــال المصارف المالية من الايطاليين سنة ١٣١١ .

ولعل مــن أهم اعماله الادارية دعوته لطبقات الشعب الثلاث من

---

(20) Painter, op. cit., 401.
(21) Orton, op. cit., 783.

رجال الدين والنبلاء وممثلي المدن سنة ١٣٠٢ ودعي ذلك المجلس بمجلس الطبقـات Estates General . وهكذا أصبحت الطبقة المتوسطة معترفا بها لاول مرة في حياتنا من ناحية سياسية . والغاية الاساسية من عقده ذلك المجلس كسب تأييد الشعب في نضال فليب الرابع ضد البابا بونيفس الثامن وكذلك لفرض الضرائب[٢٢] .

وبالرغم مما يذكر عن فليب الرابـع من سياسة أنتهازية فهو من مكوني فرنسا الحديثة . اذ أصبحت الحكومة الفرنسية في اراضي التاج من القوة والمنعة بمكان كبير ولم يعد بمقـدور الأقطاعيين تحدي الملك بتلك السهولة . وأخذ ينظر الى الملكية في عهده بأنها مصدر القانـون والعدالة . ان هذه النظرة الفقهية ما هي الا تقليد روماني واحياء لمفاهيم القوانين الرومانية التي تعتبر رئيس الدولة رمز العدالة ومصدر السلطة . ولعل مـن أبرز فقهاء القانون في عهده هو بيير ديوا Pierre Dubois ١٢٢٥ ـ ١٣١٢ الذي كان من بين اعضاء مجلس الطبقات . وجاء هذا باراء ثورية بالنسبة لعلاقة الدولة بالكنيسة اذ قال بتفوق الأولى ، واشار أيضا الى مساواة المرأة مع الرجل والى ضرورة سيادة فرنسا على القارة الاوروبية وله آراء فريدة في كيفية استعادة الاراضي المقدسة[٢٣] .

---

(22) Robinson, op. cit., 162.

(23) F. Hearnshaw, Medieval Contributions to Modern Civilization (N.Y., 1922) 76.



انكلترا في عهد الانكليز والسكسون



فرنسا الاقطاعية

الفصل التاسع

النشاط الاقتصادي والفكري في القرنين الثاني عشر والثالث عشر

ان السلم والنظام والأمن من الشروط الأساسية لانماء طاقات الثروة الأقتصادية والفكرية في أية بقعة من العالم . وبدت الأقطار الاوروبية تتمتع نسبيا منذ نهاية القرن العاشر بقسط من السلم ساعدها على استئناف النشاط بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخها السابق في العصر الوسيط . ولعل الأقطاع أنذاك من العوامل التي ساعدت على تنظيم الحياة الأوربية . فبالرغم مما يحمله الأقطاع من جراثيم الفوضى والأضطراب فانه أحرز نجاحا كبيرا في كسر حدة (الغزو الثاني) على

اوروبا وتنظيم الحياة على نطاق محلي . وهناك ايضا المجهودات الكنسية المتجسمة بالهدنة الربانية التي هدفت لمكافحة الفوضى في داخل المجتمع الأوربي وتوجيه فعالياته العسكرية ضد اعداء ذلك المجتمع . وقد نجحت تلك المحاولة السلبية الى حد ما في التقليل من الحروب المحلية الاقطاعية فكانت عاملا في الازدهار الاقتصادي والفكري[1] .

التقدم الاقتصادي :

يلحظ التقدم الاقتصادي في تلك الفترة بازدياد الانتاج في المجالات الزراعية اولا . اذ طرأت زيادة في السكان على المجتمع الاوروبي ناتجة عن قلة الوفيات وليس عن ازدياد في سنة الولادات لعدم تعرض ذلك المجتمع انذاك لموجات الأوبئة الوافدة المهلكة كالطاعون مثلا . وادى ازدياد السكان الى استغلال الاراضي الزراعية الى اقصى ما تسمح به لهم أمكانياتهم الفنية والى احياء الأراضي بتجفيف البحيرات والمستنقعات وقطع الغابات . اذ بدأ السكان في الاراضي المنخفضة في استصلاح الاراضي على حساب تجفيف مناطق خليج زويدرزي تدريجيا منذ تلك الفترة . ومن الأمثلة الموضحة لطلب السكان للأراضي الزراعية الزحف الجرماني نحو الشرق على حساب القبائل السلافية والفتح النورمندي لأنكلترا واستيلاء النورمنديين على الأقسام الجنوبية من ايطاليا . وعملت وسائل تحسين الحراثة والزراعة على زيادة الأنتاج . اذ أخذ الناس تدريجيا يفضلون الخيول في جر المحاريث المسننة الكبيرة بدل الثيران وتعلموا من المسلمين طرقا من شأنها تخفيف ثقل المحاريث على اعناق الحيوانات باستعمال نوع جديد من النير . كما عمد الفلاحون الى ترك العادة القديمة بهجر نصف اراضيهم بورا لاستعادة خصوبتها مستبدلين بها طريقة اجدى هي ان يقسم الفلاح حقله الى ثلاثة اقسام يستغل ثلثها بمناوبة المحاصيل مرتين في السنة ثم يترك الثلث الأخير بورا . وبذلك استفاد من ثلثي الارض طوال السنة وحافظ على قوة الارض الانتاجية . ويشار الى تلك الطريقة بنظام الحقل الثلاثي[2] .

---

(1) M. Bloch, Feudal Society, tr. Manyon (London, 1962) 412-20.
(2) Strayer and Munro, The Middle Ages, 395-1500 (N.Y., 1942) 189-91.

ان الزيادة في الانتاج قد ادت الى التفتيش عن اسواق لتصريف الفائض وبذلك نشطت المدن التي ساهمت مساهمة فعالة في احياء المشاريع التجارية والصناعية وتطويرها . فالمدن الايطالية مثلا استأنفت فعالياتها الأقتصادية من الشرق منذ نهاية القرن العاشر . ويعود الفضل في ذلك على الاغلب الى ضعف هيمنة المسلمين البحرية وخاصة عند ظهور النورمنديين في البحر المتوسط . ثم اتاحت الحروب الصليبية فرصا ثمينة للمدن الايطالية . هذا وأن الغزو المغولي لجهات روسيا والشرق الأوسط أحدث تغييرات هامة في التوازن الأقتصادي بين الشرق والغرب مما فسح المجال امام المدن الالمانية بصورة خاصة للتوسع في الجهات الشرقية الأوربية . وبالرغم من ضراوة هؤلاء المغول فانهم عملوا على حماية طرق التجارة وتسهيل التبادل الأقتصادي بين الغرب والشرق ونالت جنوا مركزا مرموقا عند المغول . بينما أعتمدت فينسيا على المماليك في مصر في علاقاتها التجارية مع الشرق عن طريق البحر الأحمر . كان أهتمام التجار الأيطاليين بالتجارة الشرقية منصبا على البضائع الكمالية ذات الأثمان الغالية والخفيفة الحمل كالتوابل والاحجار الكريمة . وتجد تلك البضائع اسواقها في اوربا الوسطى عن طريق المدن الايطالية . وادت طرق التجارة التي تتفرع من ايطاليا الى الجهات الاوروبية الى ازدهار المدن الاوروبية وقيام مدن اخرى جديدة .

عملت التجارة بدورها على ازدهار المشاريع الصناعية . اذ حتم توسع الاسواق التجارية زيادة الانتاج . وطرأ تحسن في تلك الفترة على الآلات الصناعية باستعمال الاوروبيين قوة المياه لادارة المحركات . اذ أشار الاحصاء العام في انكلترا Doomesday Books الذي أمر به وليم الفاتح سنة ١٠٨٦ الى وجود خمسمائة محرك مائي في تلك البلاد ، واصبحت المحركات المائية ذات تأثيرات محسوسة في زيادة الانتاج[3] . كما انتشرت آنذاك الطواحين التي تحركها قوة الهواء . وان اول ذكر

---

(3) W. Thompson Economic and Social History of Europe in the Later Middle Ages (N.Y., 1931) 504.

لذلك النوع من الطواحين كـان في انكلترا سنة ١١٠٥ ومن المحتمل ان اقتبسها الانكليز عن العرب في حروبهم الصليبية[٤] .

ويلحظ النشاط الاقتصادي ايضا في الاقبال على استثمار منـاجم المعـادن الثمينة بالدرجـة الأولى . فالتجارة المتزايـدة جعلت الذهب الخالص ضروريا للتبادل النقدي . وقد عثر سنة ١١٧٥ على كميات مـن خامات الذهب والفضة في جهات أرز جبرج Erz Gebrige وفرايبورك في المانيا التي اصبحت مصدرا هاما لتموين اوروبا بالمعدنيين الثمينين . ونشطت صناعة التعدين في جهات اوروبية اخرى . اذ اصبحت كـل من نيوكاسل ودرهام في انكلترا من المراكز الهامـة لصنع الحديد في القرن الثالث عشر . وقـد أستخدم الأقطاعيون الأختان في صناعة التعدين في مقاطعاتهم وكذلك فعل رجال الدين في الاراضي الكنسية . اما فردريك الكبير فقد أصر بان تكـون المناجم ملكا للدولة[٥] . كما وضعت انكلترا مناطق المعادن الثمينة تحت سيطرة الملك[٦] .

لقد قطعت صناعة المنسوجات اشواطا في مضمار التقدم في كل من فلاندرز وايطاليا. اذ شغلت المعامل في هذين القطرين الاف الايدي العاملة. وملك تجار الاصواف Arte della Lana في مدينة فلورنس العديد من مصانع النسيج الكبيرة[٧] . وأمست المدن في كـل من فلاندرز وايطاليا تضـع علاماتها التجارية على المنسوجات لتمييزها عن غيرها وخوفا من التقليد[٨] . وازدهرت ايضا صناعـة الحرير التي كـان قد أدخلها العرب الى اسبانيا وصقلية[٩] . واهتم روجر الثاني اهتماما كبيرا في تنمية الصناعة الحريرية في صقلية باستيراده خبراء من اليونان سنة ١١٤٧ واسكنهم في قصره .

كما أزدهرت في هـذه الفترة الصناعات الزراعية . حيث أقتصرت المناطق الزراعية في جهات بوردو على انتـاج الغلة التي يستفاد منها في

(4) Ph. Hitti, History of the Arabs (London, 1937) 667.
(5) T. Richard, Man and Metals, vol. II (N.Y., 1931) 595.
(6) Ibid., 615.
(7) Cambridge Medieval History, vol. VI, 500.
(8) Thompson, op. cit., 5.
(9) Hitti, op. cit., 613.

صناعة المشروبات[10] . واعتنت مناطق انكلترا الشرقية بالمراعي الحيوانية وخاصة الأغنام للاستفادة مـن صوفها مـن اجل تصديره الـى اسواق فلاندرز[11] .

المؤسسات الاقتصادية :

تقسم المؤسسات الاقتصاديـة في العصر الوسيط الـى قسمـين رئيسيين : ١ ــ مؤسسات التمويـل : تتألف مـن تجار المدينة الذيـن لا يزاولون الانتاج مباشرة . ويشار الى هـذه المؤسسات الماليـة ايضا بالنقابات او الأصناف التجارية Merchant Guilds . وقـد جعلت هذه المدن وحدات احتكارية بفرض التعريفات الكمركية العاليـة عـلى المستوردات من مدن أخرى وعملت على تحديد الأسعـار ومراقبة كافة الفعاليات الاقتصادية في داخل حدودها[12] . وكـان لكل نقابـة تجارية مركز عام يضم العديد من الموظفين ولها محاكمها الخاصة . وتكون النقابة التجاريـة وحدة تضامنيـة تساعد أعضائها في الملمـات كالمرض والغرق والحريق والسرقة[13] .

ومما تجدر الاشارة اليه أن الكنيسة هي الممول الرئيسي للنقابات التجارية . اذ كانت المؤسسة الوحيـدة التي تملك ميزانية هائلة منظمـة ولديها السيولة النقدية . هذا بالاضافة الـى أن الكثيرين من الموسرين يودعون اموالهم في الكنائس او الأديرة . وكانت القروض الكنسية تقدم في البداية الـى المزارعين الذيـن يحاولون تحسين مزارعهم[14] . ويذكر المؤرخ هنري بيرين (ان الكنيسة كانت تقرض الاقطاعيين في سنة ١٠٧٠ مقابل حصة في املاكهم)[15] . واصبح قسم من المؤسسات الديرية مراكز

---

(10) Strayer and Munro, op. cit., 195.

(11) D. Stenton, English Society in the Early Middle Ages, 1066-1307 (Middlesex, 1955) 127.

(12) G. Renard, Guilds of the Middle Ages (London, 1918) 24.

(13) C. Day, A History of Commerce (London, 1926) 47.

(14) G. Coulton, Five Centuries of Religion, vol. III (Cambridge, 1923) 282.

(15) H. Pirenne, Economic and Social History of Medieval Europe (London, 1947) 120.

صيرفيـــة كبرى في العصر الوسيط (فان دير القديس أندري في فرنسا شغل خبراء مـــن اليهـــود لادارة حساباته)[16] . كما قدم فرسان المعبد القروض الى الملوك والأمراء وأمست اعمالهم المالية مـــن اكبر الفعاليات الصيرفية في العالم المسيحي في القرن الثالث عشر .

لعبت البيوتات الماليـــة الايطاليـــة دورا كبـــيرا في توظيف رؤوس الأمـــوال . فقدموا القروض لعـــدة ملوك في انكلترا كما أستعان بهـــا البابوات والملوك في الجباية والاشراف على دور اصدار العملة وعمليات الاستثمار الاقتصادي . وضمت المدن الايطالية اللمباردية اكبر المؤسسات المالية في العالم[17] . وقد فـــاقت نشاطاتهم الاقتصادية النشاط اليهودي . ولم تكن لتتورع عن التحريض على اضطهاد اليهود تخلصا من منافستهم في ذلك الميدان . وقدر عدد البيوتات المالية في فلورنس في فترة ١٢٦٠ ــ ١٣٤٧ بثمانـــين بيتا وكانت تمول المشاريـــع الصليبية مما اكسب اعمالها المالية غطاء دينيا .

ان المدن الايطالية هي السباقة في مضمـــار المؤسسات الصيرفية ، ومنها انتشرت الى الارجاء الاوروبية الاخرى. فقد وضعت أسس التعامل المالي الاوروبي الحديث . كما انها مارست التأمين insurance في بداية القرن الثالث عشر . وكانت المصارف الفلورنسية أول من مارست اصدار المستندات او القروض الحكومية سنة ١١٥٧ بنسبة من الارباح[18] .

المؤسسات الحرفية Craft Guilds

وتتألف هذه مـــن اساتذة الحرفة (اسطوات) Masters الذيـــن يستمدون رأس المال عادة مـــن نقابات التجـــار . وبدأ أصحاب الحرف يشكلون نقابات لهم في اواخر القرن الثاني عشر ، اذ تشير اوائل الاخبار الى أن هناك نقابات للنساجين في كل مـــن لندن ولنكلن واكسفورد سنة ١٠٩٩ . وقـــد أنتشرت التنظيمات الحرفيـــة في القرن الثالث عشر بشكل

(16) G. Coulton, Medieval Panorama (N.Y., 1944) 343.
(17) Pirenne, op. cit., 135.
(18) Thompson, op. cit., 449.

يلفت النظر . فبلغت في فينسيا ثمان وخمسين وفي جنوا ثلاثا وثلاثين وفلورنس احدى وعشرين وكولون ستا وعشرين وفي باريس مائة . ونظرا لكثرة النقابات في المدينة الاخير فقد شرع وزير التجارة الفرنسي بوالو Boileau قانونا خاصا لها ملزمة بالسير بموجبه سنة ١٢٥٤[١٩] .

وكانت ظاهرة الاحتكار مسيطرة أيضا على أذهان أصحاب النقابات الحرفية لحماية مصانعهم من المنافسة . فلا يمكن للصانع المبتدىء Apprentice الارتقاء الى الأستاذية الا بعد أجتيازه مرحلة البائع المتجول Journeyman . واشترطت الثراء والقدم لمن يرشح نفسه لرئاسة النقابة في انتخاباتها السنوية . واشرفت على تحديد الأجور وساعات العمل وعدد المصانع في كل منطقة[٢٠] . ثم جعلت فتح المصانع حقا وراثيا ووضعت العراقيل أمام من يرغب الانخراط في صفوفها[٢١] .

موقف الكنيسة من الفائدة والربح والربا :

وقفت الكنيسة لفترة طويلة في العصر الوسيط عائقا أمام انتشار تلك الفعاليات . وارتكزت نظريتها في هذا المجال على مصدرين هامين . الأول رأي أرسطو في الفوائد اذ أشار اليها بانها لا تأتلف والقانون الطبيعي ، اذ لا ينبغي تكاثر الدراهم عن طريق الدراهم . والمصدر الآخر اشارات العهد الجديد والمواقف التي أتخذها اباء الكنيسة الآوائل حيال تعاطي الاعمال من اجل الارباح الوفيرة . هذا مع العلم أن القانون الروماني أعترف بشرعية الربا وجعل بروتس Brutus نسبة عالية للارباح . وقد اشار القديس أمبروس على الفرد أن يتصرف كما يشاء بماله ، ولكن ماذا يملك الأنسان ؟

ماذا جاء به الفرد من ثروة عند الولادة ؟ ان ما تكسبه يداك من ثروة زائدة عن حاجتك سوف يؤخذ منك قسرا ...

---

(19) W. Barnes, Economic History of the Western World (N.Y., 1942) 184.
(20) D. Addison, Arts and Crafts in the Middle Ages (Boston, 1908) 2.
(21) A. Babel, Woman Under Socialism (N.Y., 1923) 59.

أيجوز لك الكثير بينما الآخرون في عوز وفاقة ؟... لم تطبق
ايديكم على غير خبز الفقير وكساء العريان[22] ...

هـــذا وقد منع المجلس الديني العالمي المسيحي الاول المنعقـــد في نيقيا سنة ٣٢٥ رجال الدين من اقراض الاموال من اجل الارباح . وعمل شارلمان على تطبيق القاعدة سنة ٧٨٩ عـــلى غير رجـــال الدين . الا أن انتعاش دراسة القانون الروماني في القرن الحادي عشر ادت الـــى ظهور اراء دافعت عن اخذ الفوائد . ومع ذلك فقـــد جدد المنع لأخذ الربا في مجلس اللاتيران الثالث سنة ١١٧٩ وأعتبر من يتعـــاطاه خارجا عن الدين المسيحي[23] . اما البابا انوسنت الثالث فقـــد تسامح في استحصال الربح الشريف العادل[24] .

حتمت التطورات الاقتصادية منذ القرن الحادي عشر تعاطي الاعمال من اجل الاربـــاح ، وانغمس في ذلك الافـــراد والمؤسسات . وبررت المؤسسات المالية اخذ الأرباح بنطـــاق واسع عـــلى اعتبار ان القانـــون للافـــراد لا المؤسسات[25] . وقـــد برر القديس توماس اكويناس اخـــذ الربح في حالـــة ان الفرد يساهم فعليا في الخسارة ايضا . وقـــد فسرت الخسارة عند البعض بأنها التأخر في دفع المستحق مـــن المبالغ في تاريخ محدد[26] . واصبحت الكنيسة بمرور الوقت اقل تشددا في الموضـــوع واقدمت الدول الاوربية على الغاء كافة القوانين المانعة لتعاطي الفوائد والأرباح في اواخر العصر الوسيط .

حكومات المدن : Communes

كونت المدن بمرور الزمن وحدات سياسية لهـــا اداراتها المنفصلة عن الادارة الأقطاعية اذ لم تعد الاخيرة تتلائم مع مقتضيات حياة المدن . فالمحاكم الاقطاعية مثلا ترتكز على عـــادات وقوانين مستمدة في الأعم

---

(22) Quoted in J. Ashley, Introduction to English Economic History and Theory, vol. I (N.Y., 1894) 126.
(23) Ibid., 149.
(24) Ibid., 411.
(25) Cambridge Medieval History, vol. VI, 491.
(26) Ashley, op. cit., 196.

الأغلب من المحيط الزراعي بينما تحتاج المدن الى نوع معين من القوانين مستمدة من ضروات حياتهم التجارية والصناعية . وتحتاج المدن ايضا الى انواع جديدة من التنظيمات والمؤسسات الادارية لم يكن للأرياف الاقطاعية معرفة بها قبلا ، كالحراسة الليلية والمجالس البلدية وايجاد الحلول لمشاكل السكن والنظافة وتنسيق الطرق وغيرها . ولم يتمكن قسم كبير من المدن من الاستقلال الذاتي الا بعد كفاح شديد عن طريقي القوة والسلم[27] . اذ قاتلت مدينة تور اثنتي عشرة معركة حتى فازت باستقلالها . واخذ النبلاء الذين بحاجة للاموال لاستخدامها في الاغراض الصليبية يبيعون صكوك الحريات للمدن الكائنة في ضمن أقطاعياتهم . وفازت قسم من المدن بحرياتها في انكلترا بتلك الطريقة في عهد الملك رشارد الأول . كما أخذ عدد كبير من امراء الأقطاع في فلاندرز يمنحون مدنهم صكوك الحرية لانهم رأوا في تلك المدن مصادر لانهاض ثرواتهم بشكل غير مباشر . وقد خاضت المدن التي نشأت على الاراضي الكنسية صراعا مريرا ضد السلطات الدينية وخاصة في فرنسا . اذ اصدرت الكنيسة التحريم ضد كل من لامانس سنة ١٠٩٦ وكامبريا سنة ١٠٧٦ وريمس سنة ١١٣٩ . ومن أشهر ثورات المدن الكنسية ثورة مدينة لاون سنة ١١١٥ انما ذهب ضحيتها أسقف المدينة . ودونت أخبار هذه الثورة كالآتي :

ارتفعت ضجة في المدينة في اليوم الخامس من عيد الفصح .

تعالت فيها الاصوات مطالبة الكومونه ... الكومونة واقتحموا مقر الاسقف يحملون السيوف والفؤوس وبالرغم من تصريحه بانه سوف يستقيل تاركا لهم المدينة فقد هوى احد الثائرين على رأسه بالفأس ...[28] .

اما في مدينة فيزالاي فقتل الثوار سنة ١١٠٦ رئيس الدير هناك وشكلوا لهم كومونة . وقاتل أسقف مدينة تورني ست سنوات ضد

(27) H. Pirenne, A History of Europe, from the Invasions to the VI Century (N.Y., 1955) 220.

(28) Guibert of Nogent, Antobiography (London, 1925) 7-9.

كومونة المدينة ١١٩٠ ـ ١١٩٦ بدون جدوى . ومع أن اكثرية المدن في الأقسام الشمالية من فرنسا اكتسبت حريات حكوماتها المحليــة في فترة ١٠٨٠ ـ ١٢٠٠ الا أن مدن الأقسام الأخرى في ذلك القطر لــم تكتسب ذلك الحق الا في الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ .

لقد أصبحت المدن التجارية قوة لا يستهان بها منــذ القرن الثاني عشر ولعبت ادوارا هامة في تقرير مصير الاقطــار الاوروبية مــن ناحية سياسية . فالتفاهم والاتحاد بــين ملوك فرنسا وأغلبية المدن في أراضي التاج ساعد في الضرب على أيدي الاقطاعيين وتقوية الاتجاهات المركزية. كما تشاهد ظاهرة الاتحاد هــذه في انكلترا ايضا . أما مدن الأراضي المنخفضة فكانت منقسمة بــين أمراء متعددين مما عرقل وحدة ذلــك القطر . ومع أن اكثرية المدن الايطالية التجارية فرضت سيطرتها عــلى النبلاء وحتمت عليهم الاقامة في المدن فان تنافسها المزمن فكك روابط البلاد الايطالية وجعلها فريسة سهلة المأخذ . وبصورة عامــة فقد توقف مستقبل الحكومات الاوروبية قاطبة على نــوع العلاقا. الموجودة بينها وبين المدن[٢٩] .

وبالاضافة الــى تأثــيرات المدن السياسية فقــد أحدثت تغييرات أساسية في النواحي الاقتصادية والاجتماعية فاتساع فعالياتها الاقتصادية من العوامــل الهامة التــي أدت الــى تقويض سياسة الاكتفاء الذاتي الاقطاعية وساعدت علــى نشوء طبقة جديــدة هي الطبقــة الوسطى البورجوازية . واشتقت الكلمة الاخيرة من Baurge او Burgh او Burg وهي تفيد معنى البرج او الحصن[٣٠] . لان الأبراج المكان الأمين لمقر الادارة وتعاطي الأعمــال التجارية . ثــم أخذت الفعاليات التجارية تمتد بمرور الأيام خارج الأسوار الاصلية للمدن .

وساعدت المدن عــلى تحرير الأقنان مــن سلطة النبلاء المباشرة . فالهاربون من الأقنان الى المدن يصبحون احرارا فيما اذا لم يطالب بهم

(29) Strayer and Munro, op. cit., 198-99.
(30) Pirenne, op. cit., 219.

بعد سنة ويوم حسب اتفاقات نظمتها عقـود حريات المدن[31] . كما أن حياة المدن أجتذبت النبلاء واصحـاب الاراضي الواسعة فابعدتهم عن الأشراف المباشر على أراضيهم . وقد فضلوا استبدال التعهدات النوعية للاقنان بتعهدات نقدية مما اعـان الاقنان عـلى شراء حرياتهم وانفتاح فرص العمل الحر في المدن أمامهم .

التقدم الفكري :

لقد حدث نشاط ملحوظ في المجـالات الفكرية للمجتمع الاوروبي منذ القرن الثاني عشر أنعكس في الأنتاج الفلسفي والعلمي والأدبـي . واعتبر ذلك النشاط من مظاهر نهضة اوروبية في ذلك القرن مـن بعد الصحوة مما صحب الغزو الثاني على أوربا من ويلات وما أعقبته مـن تفاعلات اجتماعية بين العناصر الوافدة والمجتمعات التـي حلت فيها . وتنسب ظاهرة ذلك النشاط الى تأثيرات داخليـة وخارجيـة . فالرفاه الاقتصادي النسبي وازدياد الاتجاهات العلمانية وما نتج عـن الصراع بين السلطتين الدينية والزمنية من مساجلات كانت من الحوافز الداخلية لذلك التنبه الفكري . كما ان للتأثيرات البيزنطية والاسلامية عن طرق الاندلس وصقليـة والاراضي المقدسة ادوارا لا يستهـان بها في ذلك الشأن . ويعتقد قسم من المؤرخين ان النهضة الاوروبية للقرن الثاني عشر عبارة عن همزة وصل مع النهضة الكارولنجية قبلا ومنطلقا الى النهضة الأخرى التي ميزت نهاية العصر الوسيط فيما بعد[32] .

ومهما تلونت الاتجاهات الفكرية الفلسفية بألوان علمانية فقد كان القصد منها خدمة الدين لا الثورة عليـه . واعتمدت الدراسات عـلى التراث الهلنستي المترجم عن العربية والذي لم يقصد به احيـاء مجدي اليونان والرومان وانما هدف لخدمة العقيدة المسيحية بشكل عام . وقد ارتكزت فلسفـة القرن الثاني عشر عـلى الافلاطونية التـي توارثتها

(31) H. Fisher, A History of Europe, from the Earliest Times to 1713 (London, 1957) 253.

(32) G. Leff, Medieval Thaught, St. Augustin to Ockham (Middlesez, 1962) 77-86.

المسيحية حيث الرصيد الاديولوجي لعلم اللاهوت في الغرب . غير ان المنطق الارسطاليسي بدأ يتحدى الأفلاطونية منذ ذلك القرن أيضا مكونا اتجاهات فلسفية جديرة بالاعتبار .

ويمكن للمرء الواقف على طبيعة المساجلات الفلسفية اللاهوتية في ذلك العصر ان يلحظ اتجاهات جديدة في مجالات الفكر هدفت الى التحرر من قيود التقليد لما ورث عن الثقاة الأقدمين . اذ مال قسم من فلاسفة العصر لمناقشة الأشياء مناقشة منطقية قبل الايمان بها ومثلت هذه الظاهرة صراعا بين العقل والايمان . ولعل من أبرز الأمثلة الموضحة لمساجلات فلاسفة اللاهوت في القرن الثاني عشر حول ذلك الموضوع هو ما دار بين القديس برنارد ١٠٩١ — ١١٥٣ وبيير أبيلارد ١٠٧٩ — ١١٤٢ . اذ اعتقد الأول باعتماد الايمان على الاحساس وليس على التحليل العقلي[٣٣] ، بينما اعتقد الثاني بأن الله خلق الانسان ووهبه شيئا من خواصه المقدسة كالعقل مثلا ولهذا فأخضاع القضايا الدينية للمناقشة العقلية من أجل الايمان بها من الامور التي تتمشى مع التعاليم الدينية . وعلى كل فقد هدفت مساجلات أبيلارد لدعم المسيحية ويجب الا يفهم العكس من ذلك بالرغم من تطرفه في بعض النقاط[٣٤] .

ومن فلاسفة الفترة جون اوف سالسبوري ١١١٧ — ١١٨٠ فبالاضافة الى فلسفته الدينية فقد تناول موضوعات سياسية بآراء طريفة . اذ شبه الدولة بكائن عضوي رأسه المفكر هو الملك اما الموظفون فبمثابة العيون والآذان ويمثل الجنود أيدي ذلك المجتمع بينما أعتبر الفلاحين وما شاكلهم اقدام المجتمع . ثم أشار الى أن الملوك يمثلون السلطة الالهية ان كانوا أبرارا . وان حدث العكس فلا يمثلون غير الشيطان . فان أساء السلطان التصرف بالسلطة الالهية فالناس في حل من طاعته وعليهم مقاومته[٣٥] . ولعل آراء سالسبوري الثورية من حوافز اتجاهات جون لوك الديمقراطية وتبريره الثورة ضد الطغاة في القرن السابع عشر .

(33) Ibid., 134.
(34) Ibid., 114.
(35) Ibid., 126.

ونبغ في القرن الثاني عشر الفيلسوف الانكليزي الاخر أديلارد اوف باث . تلقى ثقافته الاولى في فرنسا وترجم عن العربية مبادىء اقليدس حوالي سنة ١١١٦ . ثم أكمل دراسته في عدد من الاقطار الاسلامية والف كتاب المسائل الطبيعية سنة ١١٣٠ . اعتمد اعتمادا كليا على العقل وندد بالمحافظة العلمية او الاعتماد فقط على الثقاة بدون مناقشة ارائهم . وقال لا شيء أصح من العقل ولا شيء اكثر تضليلا من الاعتماد على الحواس . وكان شديد الفخر بتلمذه على أيدي الاساتذة العرب[٣٦].

وهناك عدد لا بأس به من المؤرخين في القرن الثاني عشر . فقد ارخ وليم اوف مالمسبورك ١٠٩٠ ـ ١١٤٣ تواريخ رجال الدين والملوك في بريطانيا . وكتب المؤرخ الالماني أوتو اوف فرايزنك ١١١٤ ـ ١١٥٨ تاريخ العالم منذ الخليقة في كتابه المسمى بالمدينتين . ويعتبر ذلك المؤرخ من الثقاة الذين تناولوا حياة الامبراطور فردريك بربروسا . ومن بين المؤرخين وليم الصوري ١١٣٠ ـ ١١٩٠ مستشار بلدوين ملك بيت المقدس. أرخ الحوادث الصليبية تحت عنوان (ما وراء البحار) حاول فيه تفسير التاريخ تفسيرا طبيعيا . وله رأي فريد في الحروب الصليبية . اذ اعتبر بدايتها هي معركة هرقل مع الفرس من اجل اعادة الصليب المقدس الذي حمله الفرس الى المدائن سنة ٦١٨ اذ أعيد ذلك الصليب الى القدس سنة ٦٢٩ على أثر الانتصارات التي حققها هرقل ضد الفرس . وقد أجاد وليم الصوري اللاتينية واليونانية والعربية . ومن أشهر المؤرخين الذين كتبوا التاريخ باللغة الشعبية هو جيوفري فيلهاردون Geoffray de Villehardwin ١١٥٠ ـ ١٢١٨ . وكان هذا فارسا ومن اسرة ارستقراطية الف كتاب فتح القسطنطينية في الحملة الصليبية الرابعة . ويعتبر ذلك الكتاب من المصادر الهامة لان المؤرخ قد ساهم فعلا في حوادث الاستيلاء على العاصمة البيزنطية سنة ١٢٠٤ ولعب دورا رئيسيا فيها[٣٧] .

---

(36) L. Thorndike, History of Magic and Experimental Science (N.Y., 1929) 28.

(37) Joinville and Villehardouin, Chronicles of the Crusades, tr. Shaw (Middlesex, 1967) 23-24.

اخذ الانتاج الفكري بالازدياد في شتى المجالات في القرن الثالث عشر . اذ اشتهر في العلوم الرياضية ليوناردو فيبوناشي المولود في مدينة بيزا سنة ١١٨٠ . تلقى علومه في الجزائر علي يد المسلمين حينما كان بصحبة والده المتاجر في تلك الجهات . واستزاد العلم في مصر وسورية واليونان وصقلية . وطبع كتابه الرياضي سنة ١٢٠٢ فكان أول عرض للارقام العربية في اوروبا من قبل مؤلف مسيحي ذكر فيه الصفر والكسور العشرية . ويعتبر كتابه فاتحة لولادة علم الرياضيات في اوروبا اللاتينية . كما أدخل هذا علم الجبر لأول مرة لتلك الجهات سنة ١٢٢٠ في كتابه المعنون بالجبر التطبيقي[٣٨] .

ونال الطب اهتماما في القرن الثالث عشر . فقد كان قسم من الرهبان يمارسون تلك المهنة بطرق بسيطة ممتزجة بالتعاويذ الدينية. ومن أشهر الراهبات اللواتي زاولن المهنة هي هيلدكارد التي الفت كتابا سنة ١١٥٠ في المواضيع الطبيعية . غير ان الكنيسة اخذت تعارض في اشتغال الرهبان والراهبات في التطبيب منذ سنة ١١٣٩ حرصا على تكريس جهودهم للقضايا الروحية . وبذلك أصبحت المهنة بيد العلمانيين في القرن الثالث عشر . وكان اكثر الاطباء في أوربا في ذلك القرن من اليهود الذين استعانوا بكتب العرب الطبية المترجمة عن اليونانية. وقد اصبحت سالرنو من أهم المراكز لدراسة الطب طيلة النصف الاول من القرن الثالث عشر حيث حلت محلها منذ سنة ١٢٦٨ مدينة نابولي[٣٩] . ثم عملت الحكومات الأوربية انذاك على تنظيم الاطباء جريا وراء الاساليب المتبعة في الآقطار الأسلامية . اذ امر روجر الثاني ملك صقلية ان تقتصر ممارسة الطب على الآطباء المجازين من قبل الدولة . اما فردريك الثاني فحتم على الأطباء حصول شهادة الطب من جامعة سالرنو سنة ١٢٤٤ . فعلى طالب الطب في تلك الجامعة درس موضوعات العلوم الطبية والفلسفية لثلاث سنوات ومن ثم ينصرف كليا الى دراسة الطب لخمس سنوات وعليه أن يجتاز امتحانين وان يمارس التطبيب عمليا تحت أشراف خبير لمدة سنة .

(38) W. Durant, the Age of Faith, 325-1300 (N.Y., 1950) 1018.
(39) F. Garrison, History of Medicine (Phila., 1929) 148.

وبدأ الاوروبيون يزاولون تشريح الجثث بالرغم من الموانع الدينية . اذ أمر الامبراطور فردريك الثاني سنة ١٢٣٨ ان تشرح جثة واحدة كل خمس سنوات في سالرنو[٤٠] .

ومن علماء القرن الثالث عشر هما البرتوس ماكنوس ١١٩٣ ــ ١٢٨٠ وروجر بيكون ١٢١٤ ــ ١٢٩٢ . تميز الأول بحب استطلاع قوي عن الظواهر الكونية وأكسبته مؤلفاته الغزيرة في هذا الشأن لقب العظيم . اعتمد على أرسطو مستعينا بالتآليف اليونانية والعربية والعبرية . وقام بدراسة شخصية اجراها على المعادن والنبات والحيوان في بلاده جرمانيا . ثم لاحظ عوامل القصرية والتآكل والمد والجزر . أعتمد هذا على الدراسة العقلية ورفض الأخذ بالرأي القائل بان لا تفسير للظواهر الطبيعية بغير الدين . الا انه من الغريب حقا ان يؤمن من ناحية اخرى بالسحر والأشباح . اذ قال أن الأحلام تسبق وقوع الحوادث وان النجوم تتحكم بالعالم وان الشهب تنبيء عن وقوع الحروب . وان الطبيعة والارادة تدفعان الانسان الى العمل حيث تتحكم النجوم في الطبيعة اما الارادة فهي حرة التصرف[٤١] .

يعتبر روجر بيكون من أعظم علماء العصر الوسيط ولد في سومرسيت ودرس في اكسفورد ثم غادرها الى باريس . تخصص في الطب وكتب في معالجة الشيخوخة . ثم زار ايطاليا وتعرف على البحوث العربية المترجمة ثم رجع الى اكسفورد سنة ١٢١٥ حيث أشتغل في التدريس وانخرط في سلك الفرنسسكان .

أهتم روجر في سائر العلوم الطبيعية والفلسفة معتمدا في بحوثه على ما قدمه اساتذة اكسفورد الأوائل واعترف بفضل الدراسات الاسلامية على المسيحية . ودعا للتواضع العلمي . واشار على انه من المستحيل على الانسان الجزم بصحة الاشياء . وان أكثر العلماء حكمة من يستقي معلوماته من كافة الجهات . وعلى العلماء عدم الترفع عن

---

(40) E. Kantorowicz, Frederick the Second (London, 1931) 356.
(41) Thorndike, op., cit., 526.

الفقراء . فقد يكون الفقراء لديهم مـــن الحكمة مـــا غابت عن أحكم الحكماء . ان هناك أربعة أسباب حسب رأيه تؤدي الى الأحكام الخاطئة. هي النسج علـــى منوال الثقاة الهزيلين وتحكم العـــادات الموروثة ثـــم التظاهر بالعلم . وأقترح على رجـــال الدين تعلم اللغات وخاصة العربية والعبرية واليونانية لتأدية رسالتهم كاملة[٤٢] .

قادته دراسة العلوم الطبيعية الى التكهن عن التقدم الذي سيطرأ على مستقبل البشرية . اذ أشار الى أن العلـــوم التجريبية تعمل عـــلى تحسين الآلات وايجاد مكائن للطيران وعربات تسير بسرعة فائقة بدون الخيول وملاحة سريعة بلا ملاحين[٤٣] . وقال لا بد وأن يتوصل العلم الى مخترعات مدمرة تكـــون بحوزة الدولة لاستخدامها ضد الأعداء بدون ان يجابه الجند بعضهم بعضا مباشرة في سوح القتال . ثم أشار الى أن كافة المواد لها قوة الاشعاع الذي يتغلغل في الأجسام ويتفاعل فيها[٤٤] . وقد جلبت عليه ابحاثه نقمة رجال الدين حيث اودع السجن سنة ١٢٧٧ .

ولكن على علم بأن مؤرخي وعلماء تلك الفترة لم يتمكنوا مـــن تحرير عقولهم من الاوهـــام الموروثة بالرغم مـــن جديد الاتجاهات في بحوثهم . ان من يقرأ كتاب تاريخ العـــالم للمؤرخ اوتو اوف فرايزنك مثلا يندهل لخلط الحقائق بالخزعبلات بالرغم من اعتماده على مؤرخين يعتد بهـــم . وكذا الأمر بالنسبة للمؤرخ ريكورد مؤرخ حيـــاة الملك الفرنسي فليب أغسطس . فهناك الكثير من الأخبار المفتعلة في كتابه عن اصل الفرنسيين وانساب ملوكهم . اذ أشار مثلا الى :

> ان مدينة باريس المسماة سابقا Lutetia اي مدينـــة الأوحال الموبوءة . وقد أنف الناس هنـــاك مـــن هذه التسمية فاستبدلوها بباريس . وان باريس هو ابن الاسكندر بن بريام ملك طروادة ...[٤٥] .

(42) G. Little, ed. Roger Bacon Essays (Oxford, 1914) 117.
(43) Ibid., 178.
(44) H. Bridges, Life and Works of Roger Bacon, (London, 1914) 93.
(45) Robinson, An Introduction to the History of Western Europe vol. I (Boston, 1946) 292.

ونظرا للشكوك التي حامت حــول أصل الفرنجة ولرغبة السلطات في ارجاع نسبها الى طروادة قمنا بتحري الأخبار في هذا الشأن ووضع شجرة نسب لملوك الفرنجة . لقد هرب عدد غفير من سكان طروادة بعد تدميرها وانقسموا فيما بعــد الى شعبين . أختار أحدهما ملكا فرانسيوس بن هكتور الحفيــد الأكبر لبريام الذي سمي شعب الفرنجة باسمه . امــا الشعب الثاني فاختار ملكا تراوابوس الابن الثاني لبريام وسمي شعبه بالأتراك . وبهــذه الطريقــة جاء الشعبان الفرنسي والتركــي للوجود .

كما لا تخلوا كتابات علماء ذلك العصر مــن كثير من الأمور غير المنطقية . فالبرتوس ماكنوس مثلا يعتقد بأن الزمرد يشفي الأورام واذا نقــع الماس بدم الوعل فيكــون اكثر جودة وخاصــة اذا سقي الوعل النبيذ[46] .

الفلسفة المدرسية : Schalasticism

بلغت الفلسفــة المدرسية أوجها في القرن الثالث عشر . وكلمــة مدرسية عبارة عــن تسمية متأخرة أطلقت في عصر النهضة عــلى الطرق التدريسية والحوار الفلسفي طيلــة العصر الوسيط . وقصدت التسمية النيل من تلك الدراسات باعتبارها مدرسية ساذجة . ومن أبرز خصائص الفلسفة المدرسية في القرن الثالث عشر النزاع حــول أرسطو ومحاولة استخدام منطقه للمزاوجة بين العقل والايمان . وأن ما تلقاه الغرب من هذه الفلسفة الارسطوطاليسية عن طريق المصادر العربية وخاصة شروح ابن رشد التي استنكرتها الكنيسة . ومــع ذلك فقد هــام قسم مــن الفلاسفة بشروح ابن رشد معتبريها أصدق صورة لأرسطو . لذا كــان الجدل محتدما في القرن الثالث عشر بين الأفلاطونيين الذيــن ينسجون على منوال القديس أوغسطين وبين اتبــاع أرسطو . ومن أهم اقطاب الطائفــة الاولى هــو القديس بونافنتورا St. Bonaventure

(46) Ibid., 290.

١٢٢١ ــ ١٢٧٤ . وكــان هذا مــن فرقة الفرنسسكان رأى في أرسطو عالما لا حكيما وان الحكيم هو أفلاطون . ووجه النقد لأرسطو لقولــه بازلية العالم وعدم الايمان بيوم الحساب واعتباره المحسوسات وكأنها موجودات مطلقة منذ الأزل[٤٧] .

ومن اكبر زعماء الفلسفة المدرسية في القرن الثالث عشر هو توماس اكوينــاس Thomas Aquinas ١٢٢٥ ــ ١٢٧٤ الذي حــاول بنجاح التوفيــق بــين آراء أرسطو والتعاليم المسيحية . وتوماس مــن فرقة الدومنيكان قــام بالقاء المحاضرات في باريس لأربــع سنوات ولم تلق طريقته قبولاً بــين كل مــن الرشديين والأوغسطينيين[٤٨] . ومن أشهر المعارضين لفلسفة أرسطو هو روجر بيكون . اذ أشار (بالرغم مــن أن أرسطو غرس شجرة المعرفة غير أنها لــم تنمو النمو الكافي ولــم تأت ثمارها لحد الان ... ولو فسح لي المجال لأحرقت كافة كتبه لان دراستها مضيعة للوقت وسبيل الى الضلال[٤٩]) .

وبالرغم من المعارضة لفلسفة ارسطو فان الكنيسة اعترفت بفلسفة توماس رسميا سنة ١٣١٨ . واعتبرت مذهبه معجزة من المعجزات لاعلاء شأن الدين واسبغت عليه لقب القديس[٥٠] .

تطور معماري :

لقد شهد القرنــان الثاني عشر والثالث عشر تطورات في هندسة البناء . اذ لم تزل الكتدرائيات المنتشرة في الارجاء الاوروبية شاهدا على مقدار ما بلغه ذلك الفن في العصر الوسيط من درجة مرموقة . وناهيك عن القول بأن بناء تلك المؤسسات استغرق بعضها مئات السنين جمعت تكاليفها من المؤمنين قرشا أثر قرش .

كانت الهندسة الرومانسكية شائعة في بنــاء الكنائس حتى القرن الثانــي عشر . فهي عــلى غرار الباسيليكا الرومانية او محلات عقــد

---

(47) Leff, op. cit., 197-204.
(48) F. Copleston, Aquinas (Middlesex, 1965) 9-10.
(49) Robinson, op. cit., 303.
(50) راجع للاستزادة : يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الاوروبية في العصر الوسيط ، ــ دار المعارف بمصر ، ١٩٦٥ ــ ١٥٢ ــ ١٨٥

اجتماعات المحاكم الرومانية . وتميزت الكنائس الرومانسكية بسقوف الطابوق والجدران السميكة . تتوسطها صالة رئيسية Nave يحفها ممران ضيقان من الجانبين يفصل بينهما اسطوانات ضخمة لدعم السقف . وتوصل رؤوس الاسطوانات بعضها مع البعض الاخر بأقواس حجرية . لذا فالأقواس هذه احدى خصائص ذلك الفن والتي تميزه عن الهندسة الغوطية . وتمتاز الكنائس الرومانسكية بالنوافذ الصغيرة . والسبب في ذلك الاحتفاظ بتماسك الجدران وعدم احداث فجوات كبيرة فيها التي تؤثر في تضعضع البناء . ولهذا فان أبهاء العمارات الرومانسكية قليلة النور[51] .

لقد توصل الفرنسيون في القرن الثاني عشر الى ابتكارات جديدة في البناء . اذ تمكنوا من تشييد أبنية ضخمة مرتفعة وصالات ونوافذ واسعة . وقد دعي ذلك الفن المعماري بالغوطي . والتسمية هذه اطلقها مهندسو ايطالية في القرن السادس عشر على هندسة العصر الوسيط باعتبارها بربرية غوطية[52] . ويمتاز الفن الغوطي باستغنائه عن الجدران الضخمة بالدعامات واستعمال الأقواس المدببة والزجاج المعتم في النوافذ لكسر حدة الضوء . ويمتاز ايضا بكثرة الذخارف في الجدران الداخلية وارتفاع البناء . والغاية الدينية من ذلك الفن الضخم القاء الهيبة والروعة في نفس الداخل اليها . ولعلها لتذكر الانسان بعظمة الخالق ومقدار ضآلة الانسان مهما أوتي من مقدرة .

الاداب :

اخذت اوروبا تتطلع الى افاق جديدة في الشعر والمجالات الادبية الأخرى . اذ تزايد الاهتمام في القرن الثاني عشر بالقصائد الغنائية التي نالت حظوة شعبية كبرى في القرن الثالث عشر المسمى بالقرن الرومانسي. ولا عجب في ذلك لأن ازدياد الثروات وتنامي الطبقة المتوسطة واعلاء شأن المدن وتأسيس الجامعات وارتفاع منزلة المرأة عوامل ادت الى

(51) Robinson, op., cit. 295.
(52) Ibid., 296.

ازدهار الحركة الأدبية . حقا لقد قيل ان الانسان عرف الرومانسية منذ القدم وما القرن الثالث عشر الا اكثر رومانسية بقليـل عما سبقه مـن الأزمان . فمن النادر أن يقتنع الفرد بمجرد المأكل والملبس اذ لا بد لـه من اجواء عاطفية خيالية تضفي على الحيـاة بهجة وحبورا . كما هـام شعراء القرنـين الثاني عشر والثالث عشر بأخبـار الحروب جاعلين منها فنا ودينا . ويعزى ذلك لما جلبه العائدون من الحروب الصليبية من اخبار وغرائب وكذلك للتأثيرات العربية الاسلامية من جهات الأندلس وصقلية وللتأثيرات البيزنطية في المجتمع الغربي .

لقـد شغف طلبـة العلـم المتجولـون Wandering Scholars بقصائد الخمر والنساء والغناء . وكـان من بين المتجولين رهبان لفظتهم الأديرة او تلامذة فقراء يقصدون أوطانهـم او مدارسهم في الذهـاب والاياب سيرا على الأقدام . وكثيرا ما توقف هؤلاء في الحانات مرتلـين الأناشيد الشعرية باللغة اللاتينية[٥٣] . وكـانت منهم زرافات عديـدة في فرنسا والمانيا أطلقت على نفسها لقب الكوليارديين . لادعائهم بان لهـم مؤسسة تدعى بنقابة المتجولين اسمها القديس الخرافي رابيلسيان الذي عرف ايضا باسم Golior . ومنعت السلطات الدينية الكنسية سنة ١٢٣١ هؤلاء مـن التمـادي في الأسفاف[٥٤] . واشارت قرارات المجلس الديني المنعقد في سالزبورك سنة ١٢٩١ الى الكوليارديين (يظهر هؤلاء عراة في المحلات العامة ويتخذون من الأفران ليلا مأوى لهـم وهم في تسكع دائم في المواخير يكسبون العيش عن طريق الموبقات)[٥٥] .

بلغت الملاحم الشعرية مقاما كبيرا في القرنـين الثاني عشر والثالث عشر والتي بدأت باللغات الشعبية . ظهرت لأول مرة في فرنسا في اواخر القرن الحادي عشر وفي المانيا في القرن الثاني عشر اما في انكلترا وايطاليا فكانت في القرن الثالث عشر . ومـن أشهر الملاحم هي أنشودة رولاند Chanson de Roland التـي دبجت عـلى الاغلب في وقت الحملـة

---

(53) H. Waddell, The Wandering Scholars (Middlesex, 1954) 122-204.
(54) Ibid., 205.
(55) Ibid., 284-5.

الصليبية الأولى لبعث الحماس في نفوس الفرنسيين . وروت القصيدة مأثر شارلمان واستشهاد رولا أمير بريتاني استشهادا ايطوليا في ممر ترانسفال اثناء انسحاب شارلمان في اسبانيا عبر جبال البرانس . وقد نسج الخيال حول الحادثة من عندياته فأخرجها من الواقع الى الخرافة[٥٦] .

وهناك ملحمة السيد الاسبانية Poema del Cid ظهرت حوالي سنة ١١٦٠ . وهذه عبارة عن تمجيد للبطل روي دياز Ruy Diaz المتوفي عام ١٠٩٩ ولبطولات فرسان المسيحية في اسبانيا . وتخبرنا القصيدة باسلوب أسطوري كيف أن روي هجر زوجته واطفاله وأودعهم احد الأديرة ، ثم أقسم ان لا يعود اليهم الا بعد انتصاره في خمس معارك ضد المسلمين وكان ينهب أموال اليهود والمسلمين ويوزعها على الفقراء[٥٧] .

وأشتهرت جزيرة أيسلاند في هذا النوع من القصائد . فملحمة العالم القدير التي وضعها سنوري رئيس دولة أيسلاند ١١٧٨ — ١٢٤١ تسرد تاريخ النورمنديين بشكل أسطوري مسف . اذ أشار في قصيدة أدا Edda الى أن هناك جماعتين من الالهة توصلتا الى صلح بعد حروب طويلة . اما كيفية الصلح ومضاعفاته فهي كالآتي :

القت هاتان الجماعتان سائلا من افواهها في جرة ومنه تكون كفاسير الذي علم الناس الحكمة . الذي قتلته مخلوقات شريرة ثم مزجت دمه بالشراب الذي أصبح يمنح موهبة الغناء والشعر لكل من يتذوقه . وكان ذلك الشراب محتكرا من قبل تلك المخلوقات . غير أن الاله أودين توصل الى مخزنه السري فشربه كله وطار الى السماء . وقد ترشح منه على الارض اثناء الطيران فامتزج بالمياه فكان كل من ينهل منها يوهب الشعر والغناء[٥٨] .

(56) D. Sayers, the Song of Roland (Middlesex, 1959) 7-9.
(57) W. Atkinson, A History of Spain and Portugal (Middlesex, 1960) 71-72.
(58) Durant, op. cit., 1029-31.

وهنـاك القصيـدة الالمانيـة المسماة Song of Nibelung وهي تروي الأعمال الجسام للملوك البرغنديين الذيـن يسمون بالنيبلونك . ويدور محور القصيدة بصورة عامة حول بربرية الاقطاع وجرائمه[٥٩] .

التروبادور Troubadour

ظهرت هذه القصائد الغنائيـة في جنوب فرنسا في القرن الحادي عشر ونحت منحى معاكسا لاتجاهات العصر الادبية . فلم تكن اغانـي التروبادور لتهتم بالاشياء الدينية ولا للحماس الصليبي الذي تميزت به الضروب الأدبية الأخرى . وكان التروبادور متأثرا بالقصائد العربيـة ويعتقد بان التسمية ذاتها عربية اذ تفيد طروب الدور[٦٠] . واتجه الذوق في تلك الأشعار الى الغزل والخمرة . وقد أتنشرت قصائد التروبادور في كل مـن انكلترا والمانيا وأصبـح يشار الى المنشدين في القطر الأخير Minnesinger وعرف المنشدون في ايطاليا بالستيلنونو[٦١] .

ومن مشاهير الأمراء الذين ثبتوا هذا الفن هو أمير اكويتين وليم التاسع . وكان هذا في عمر الحادية عشر حينما وجد نفسه السيد المطلق على الأجزاء الجنوبية الغربية من فرنسا سنة ١٠٨٧ . وأشترك في الحملة الصليبية الأولى . ومع ذلك فقد كـان قليل الاحترام للكنيسة وعـاش عيشة ماجنة . ولم يكترث لقـرار التحريم الذي أصدره ضده أسقف مدينة بواتيه . اذ التقى وليم ذات مرة بذلك الأسقف فقـال له (أرفع عقوبة الحرمان والا هدرت دمك . فمد الأسقف عنقه اليـه قائلا هيا أقطعها . فقال وليم لا أحبك بما فيه الكفاية حتى اكون سببا في دخولك الجنة)[٦٢] . وقد ورثت الينور بنت وليم الشغف بالتروبادور . فجمعت حولها زمرا من المنشدين ومن بينهم برناردو فنتادور الذي انشد فيهـا قصائد غزلية كثيرة أثارت حفيظة غرمائها .

---

(59) Ibid., 1032.
(60) T. Arnold and A. Guillaume, The Legacy of Islam (Oxford, 1931) 17.
(61) G. Crump and Jacob, E., The Legacy of the Middle Ages, (Oxford, 1962) 190.
(62) Cambridge Medieval History, vol. III, 128.

ومن اشهر ملوك اوروبا الذين هاموا بالتروبادور هم رشارد الاول ملك انكلترا والامبراطور فردريك الثاني وبيدرو الثالث ملك الاراكون . وقد نظم هؤلاء ذلك الشعر ولحنت قصائدهم . وقد اتخذ ملحنو أغاني التروبادور والمغنون لها الازياء الازستقراطية واجادوا الفروسية وكثيرا ما تبارز بعضهم ضد البعض الآخر في سبيل الفوز بقلوب السيدات .

وللتروبادور أناشيد متعددة منها أنشودة الرعاة وهي عبـارة عن محاورة بين مغن وراع . ثم اغنيـة الفجر Aubade وكذلك أغنيـة المساء Dernade . الا أن أغنيـة الفجر وهي لشاعر مجهـول نالت شعبية كبرى وقد جاءت فيها الأبيات التالية :[63]

حسك قد برقع الاعطاف منها في الجنينة
ثم قالت دونك الليلة مني يا حبيبـي
أنها ليلة حبي
فاذا الليل سريع في خطاه
واذا الحارس يصرخ ... الصباح ... الصباح
ذاهم الفجر حمانا وانقضى الحلم الجميل
اوهل للفجر في السير الحثيث يا زماني
ليلة الحب ... الهي فلتعد
وارع لي المحبوب فالقرب النعيم
وابعد الحارس عني وكذا الفجر اللعين
ما أحيلى شفتيك يا حبيبي
دعهما ثانية يقتربان
أنظري المرج وعي نجوى الطيور
فغناها غيرة من حبنا
اوهل للفجر في السير الحثيث يا الهي

---

(63) M. Daren, An Anthology of World Poetry (N.Y., 1928) 660.

الاداب التهكمية :

تشير الآداب التهكمية التي نالت أقبالا كبيرا في القرن الثالث عشر الى مدى الاتجاهات العلمانية خاصة في الأوساط البورجوازية . ومن أشهر القصائد في هذا الشأن قصة الوردة Roman de la Rose . وحظيت هذه بمنزلة شعبية فاقت ما نالته الكوميديا الالهية لدانتي . بدأت باستهلال عاطفي ثم تطورت الى نقد لاذع تهكمي لم يعرف له التاريخ مثيلا . ان واضع الملحمة هذه شاب أورلياني يدعى وليم اوف لوريس المولود سنة ١٢٢٥[٦٤] . اذ كتب (٤٢٦٦) بيتا شعريا صور نفسه في رؤيا متجولا بحديقة الحب حيث الورود والطيور والعشاق جميعا في غناء ورقص باشراف اله الحب . ورأى الشاعر في تلك الحديقة وردة لا نظير لها تحرسها الف شوكة . وهكذا أصبحت الوردة رمز المحب الذي ما أنفك يجاهد ضد الأشواك للوصول الى محبوبته . وقد مات وليم اوف لوريس دون أن يتم قصته الشعرية .

لقد أنبرى الشاعر الفرنسي مونك Jean de Meung لاكمال قصيدة الوردة فاوصلها الى اثنين وعشرين الف بيت متجها بها اتجاها مغايرا للرومانسية التي بدأها وليم . وجان مونك هذا من مواليد مدينة مونك على نهر اللوار سنة ١٢٦٥[٦٥] . درس الفلسفة والآداب في باريس وأصبح من مشاهير زمانه . وجه طاقاته لنقد رجال الدين واحتقار المرأة والحب . وخاض في مواضيع الكون منذ الخليقة الى يوم الحساب . ويقال بأن فليب الرابع حفزه على ذلك ليسخر من البابا بونيفس الثامن[٦٦] . حلم الشاعر بالعصر الذهبي حيث لا يعرف الناس الاستئثار بالملك وكانوا أطهارا من الأنانية والجشع والأطماع . حيث لا أقطاع ولا دولة ، والكل سواسية في الانتفاع من خيرات الأرض . هاجم الرهبان متهمهم بالقول بما لا يفعلون . ثم تناول الحب قائلا ان حب

---

(64) S. Braun, Dictionary of French Literature, vol. I (N.Y., 1964) 403.
(65) Ibid., 403.
(66) Durant, op. cit., 1050-52.

المرأة الطاهرة من نعم الله غير أنه لا يعرف لذلك الحب طعما . وفي ختام ملحمته الشعرية قام اله الحب علـى رأس أتباعـه بنسف معقل الخطر والعار والخوف الذي يحيط بالوردة سامحا للمحب المجاهد في اقتطاف منية أحلامه[٦٧] .

ولعل من أشهر الآداب البورجوازية التهكمية هي القصص التـي جاءت عن لسان الحيوانات والمسماة Fabliaux . بدأ ذلك الاتجاه رينارد حوالي سنة ١١٥٠ ثـم تناولته مخيلة الشعراء الروائيين تحت عناوين مختلفـة وأضافات وافيـة متضمنة تهكما عـلى العادات الاقطاعية والاجراءات الكنسية والحكام السياسيين . ومن اشهر هـذه الاقاصيص قصـة الثعلب رينار الذي يخـادع السيد (الأسد) ملك الوحوش . وقد أحب السيد مدام هاروج (اللبوة) فاغراها بأن تكون محظية له . ثم قدم الثعلب الى الاسد والى كافـة رعيته طلسما سحريا يحدث الأزواج عن اسرار زوجاتهـم . وهنا حدث العجب . اذ أنهـال الأزواج بالضرب على زوجاتهم المدنسات حيث هرعن الى رينار الثعلب احتماءا به . وقد كون الثعلب منهن حريما .

وعندما كان الثعلب العجـوز رينار في نزعـه الأخير قـام برنار (الحمار) الرئيس الروحي للوحوش باجراء مراسيم الاحتضار . فأخذ الثعلب يعترف عند حوافر الرئيس بخطاياه ويعلن ندمه . الا أنه اشترط شرطا هاما الا وهو فيما لو كتبت له الحياة فانه في حل مـن ندمه . غير أنه خيل الى الجميع بأن رينار فارق الحياة . لهذا تظاهرت كافة الوحوش بالحزن عليه نفاقا . وقـد القى السيد الرئيس الروحي كلمـة الوداع الاخيرة على جثمانه موجها اليه بعض اللوم بقوله ان ما يؤاخذ عليه رينار ايمانه بان كل شيء تتمكن من وضع اليد عليه يكون ملكا لك . وحينما شرع برنار يرش الماء المقدس على الجثمان حدثت المعجزة فعادت الروح الى الثعلب العجوز الذي قفز من قبره ماسكا بعنق ذلك الديك الذي كان يقوم باجراء هز المبخرة متواريا به كفريسة في الغابة[٦٨] .

---

(67) Ibid., 1053.
(68) Ibid., 1054.

هذا وقد اصبحت قصص الفابليو منهلا غزيرا لادباء عظام في عصر لويس الرابع عشر فيما بعد . انه أدب بورجوازي سخر طاقاته عن قصد أو دون قصد للطعن بتراث العصر الوسيط السائر نحو الانحسار[69] . وهو اشارة ضمنية الى تحسس الطبقة المتوسطة بكيانها وتأكدها من سير عجلة التقدم .

اللغات الشعبية Vernaculars

أخذت اللغات الشعبية منـــذ القرن الثاني عشر تكـــون اداة هامة للتعبير الفكري كتابـــة بجانب اللغة اللاتينية الرسمية . تعـــود اللغـــات الأوربية الحديثة في أصولها الـــى مجموعتين رئيسيتين . الأولى اللغات الجرمانية القديمة التي تكلم بها الجرمان الذين لم يكونوا قديما في ضمن حدود الامبراطورية الرومانية أو في أطرافها النائية . وقد أشتقت مـــن مختلف اللغات الجرمانية الاولى كـــل مـــن اللغات الالمانية والانكليزية والهولندية والسويدية والنرويجية والدنيماركية والايسلاندية الحديثة . اما المجموعة اللغوية الثانية فقد نمت في ضمن الحدود التي كانت سابقا تكون الامبراطورية الرومانية . وتشتمل هـــذه المجموعة على كل مـــن اللغات الفرنسية والايطالية والبرتغالية الحديثة . وأشتقت هـــذه اللغات جميعا من اللاتينية الدارجة التي كان يتعامل بها الجند وسائر الناس .

أخذت اللهجات اللاتينية الدارجة تجتذب النـــاس اليها اكثر مـــن اللغة الفصحى وذلك لبساطتها النحوية وسهولة تعلمها . فلا يتكلم الناس عادة اثناء التعامل اليومي بلغة الكتب في وقت ضربت فيه الأمية أطنابها عـــلى المجتمع الاوربي واغرقت الأقوام الجرمانيـــة الشعب الروماني . ونورد مثلا واحدا على مدى التحريف الذي طرأ على اللاتينية الفصحى . اذ كانت تسمية الحصان في اللاتينية الدارجـــة Caballus بينما هي في الفصحى Equius وقد أشتقت من التسمية الاولى Caballo في الاسبانية و Cavallo في الايطاليـــة و Cheval في الفرنسية .

---

(69) Braun, op. cit., 176.

وهكذا اصبحت الهوة عميقــة بمرور الزمن بــين اللهجات اللاتينيــة الدارجة من جهة وبين كل منها واللغة اللاتينية الفصحى مــن جهة ثانية . ولم يعد بامكان كافة الناس فهم الثانية وخاصة المراسيم الدينية . لهذا مثلا أمر شارلمان بالقــاء المواعظ الدينيــة باللغة اللاتينية الدارجة لكي يفهمها النــاس . كما ان قسم ستراسبورك بــين اولاد لويس بايوس سنة ٨٤٢ يمثل أول وثيقة خطية تشير الى تدرج اللغة اللاتينية العامية في فرنسا الى اللغة الفرنسية الحديثة[٨٠] .

ومن بين اللغات الجرمانية التــي عبر عنها لاول مرة كتابة اللغــة الغوطية . اذ ابتكر لهم المبشر يولفيلاس منــذ اواسط القرن الرابــع الميلادي كتابة مزيجة من الحروف اللاتينية واليونانية . وبصورة عامــة أن التراث الجرماني بقي متناقلا عن طريق الرواية الشفاهية حتى اواخر القرن الثاني عشر . اذ كتبت في ذلــك القرن اناشيد النايبلونك التــي ذكرت سابقا .

ان أقدم انواع الانكليزية ما كان يعرف بالانكلوسكسونية التي تختلف اختلافا كبيرا عن الانكليزية الحديثة . وبقيت الانكلوسكسونية سائدة في انكلترا حتى بعــد الفتح النورمندي . ومن اوائل المخطوطات الادبية في تلك اللغــة هي Beowulf التــي كتبت في اواخر القرن الثامن . واستمرت الحوليات التاريخيــة تكتب بتلك اللغــة حتى سنة ١١٥٤ . غير ان اللغــة الدارجة الانكلوسكسونية اخذت تختلف نطقا وكتابة عن فصحى تلك اللغــة في منتصف القرن الثالث عشر . وهــذا ما يلحظ من الوثائــق الخطية . اذ حل حرفا *TH* محل الحرف *P* وحلت اداة العطف *And* محل اشارة] . وأخذت اللغة الانكليزية الحديثة تأخذ شكلها الاساسي في القرن الرابع عشر وهذا ما يلحظ من ترجمة جون وايكلف للانجيل[٨١] في تلك اللغة .

(80) Robinson, op. cit., 279.
(81) Ibid., 280,84.

الجامعات :

لم تكن كلمة جامعة University في البداية حكرا لكلية العلم واساتذتهم اذ كانت تطلق على أية منظمة من المنظمات كالنقابات التجارية ونقابات اصحاب الحرف وحتى على فرق الحروب الصليبية[٨٢] . ان الاسم الاكثر شيوعا في الابتداء الاستوديوهات الدراسية Generale Studium . وصفة (العامة Generale) يقصد منها ان المؤسسة الدراسية تشتمل على طلاب من امم شتى . واصبحت كلمة الجامعة تدريجيا في القرن الثالث عشر مخصصة لدور العلم . هذا ولا يمكن تسمية المؤسسة بذلك الاسم الا بعد أن تتوافر فيها : (١) طلبة من قوميات مختلفة (٢) ان تكون فيها دراسة احدى فروع المعرفة على الأقل متقدمة (٣) ان تحتوي على نخبة طيبة من اساتذة الاختصاص.

والجامعات في بدايتها على نوعين من ناحية تنظيمية ، هما جامعات الطلاب وجامعات الاساتذة . ومثل النوع الاول جامعة بولونا في ايطاليا والثاني جامعة باريس . ففي الاولى قد سمحت سلطات تلك المدينة لردح من الزمن تشكيل اتحاد عام من الطلاب يشرف على الفعاليات في داخل الجامعة ويدافع عن حقوق هؤلاء في داخل المؤسسة وخارجها . وكان لا يسمح لغير الطلاب الاجانب الدراسة في بولونا ولا يسمح لسواهم في الانتماء لذلك الاتحاد . اما الطالب الذي هو من مدينة بولونا فيحق له سماع المحاضرات فقط ولا يحق له التسجيل كطالب نظامي[٨٣] .

اما جامعة باريس فكانت ادارتها العليا بيد الاساتذة . ومع ذلك فللطلاب هناك تنظيماتهم الخاصة ، اذ ضم اتحاد الطلاب في تلك الجامعة جنسيات من امم متعددة وان لطلاب كل امة Nation ناديها الخاص . وقد ضمت جامعة باريس في البداية اربع امم هي : (١) أمة الغال المجيدة (٢) أمة النورمان العتيدة (٣) أمة البكارد Picard الامينة (٤) أمة الانكليز المستقرة . وينقسم تنظيم الامة الطلابية الواحدة الى

---

(82) D. Munro and R. Sontag, The Middle Ages, 395-1500 (N.Y., 1940) 368.
(83) Ibid., 369.

عدة ولايات ولا يجوز للولاية الطلابية ان تضم طلابا من قوميات اخرى. ففي ولاية Bourges الطلابية في باريس مثلا طلاب من مصر وسورية واسبانيا وايطاليا . ولكل امة طلابية هناك مـن يمثلها في هيئة الادارة المالية العامة للطلاب . ولكل ممثل مفتاح لصندوق الجامعة المالي الطلابي ولا يفتح هذا الصندوق الا بحضور كافةالممثلين للامم الطلابية الاربع[٨٤] .

وللهيئات التدريسية Faculties نقاباتها الخاصة ايضا هذا مـع العلم بان ذلك التنظيم مختلف في تفاصيله مـن جامعة الى اخرى . وكما لاحظنا التقسيمات التنظيمية للطلاب في جامعة باريس بحسب القوميات او الامم ، فان الاساتذة ينقسمون في تنظيماتهم بحسب اختصاص كـل منهم . فهناك منظمة اساتذة الاداب الحرة Liberal Arts واللاهوت والطب ... الخ . هذا وان لمنظمة هيئة الفنون الحرة سطوة كبـيرة في جامعة باريس لاشرافها على دراسة الماجستير ايضا وما بعدها .

ان تنظيمات الطلاب والاساتذة في العصور الوسطى كانت صورة طبـق الاصل تقريبا للتنظيمـات البورجوازيـة الحرفيـة في المدينـة ولاحتكاراتها كذلك . فالتلميذ المبتدىء عليه الدراسة لمدة سنتين حتى يعهد اليـه ببعض الاعمال المساعـدة في التدريس ولا يكـون ذلك في الجامعات التي يشرف على ادارتها الاساتذة الا بعد حصوله على العضوية الصغرى Junior Membership في اتحاد الطلاب عند اخذه شهادة بكلوريوس[٨٥] . ويلاحظ ان مرحلة ما قبل هـذه الشهادة تقابل مرحلة التلمذة الصناعيـة في الاصناف او النقابات الخاصة بالعمـال الماهرين . ولا يمكن لحامل البكلوريوس ان يكون استاذا الا بعـد دراسة ثلاث او اربع سنوات يقوم اثناءها بالقـاء المحاضرات تحت اشراف استاذه . وتقابل تلك المرحلة نقابات العمال الماهرين مرحلة البائع المتجول ، اذ يصبح بعدها استاذا Master من حملة شهادة الماجستير ، اي انه يحق له مزاولة المهنة على مسؤوليته الخاصة ويصبح عضوا في نقابة الاساتذة[٨٦] .

---

(84) Strayer and Munro, op. cit., 261.
(85) Ibid., 263.

اما التدريس فكان عـادة باللغة اللاتينية لغة الكنيسة . هذا مـع العلم ان الساعات الاسبوعية وحضور المحاضرات لم تكن عـلى وتيرة واحدة في الجامعات . فهي مختلفة مـن جامعة لاخرى ومن عصر الـى عصر[87] . غير ان المتعارف عليه ان يحضر الطالب المبتدىء ثلاث محاضرات يوميا بمجموع ست ساعات . هذا ولم تكن هنـاك مواعيد عامة مقررة للامتحانات ولا كتب مطبوعة متيسرة حتى نهاية العصور الوسطى . ومن الطريف حقا ان يأخذ الطالب قسما امام رئيس الجامعة اذا انس في نفسه القابلية لاداء امتحـان التخرج ، مؤداه ان لا يشهر سكينا او خنجرا او يحاول قتل او طعن اساتذة اذا فشل في الامتحان[88] .

اما نظام الكليات الجامعية فقـد نشأ متأخرا نسبيا . اذ لم تكـن الجامعات بصورة عامة تمتلك ابنيـة لها وليست مكلفة بدفـع رواتب اساتذتها . فالدور كانت مؤجرة او هبة من المحسنين وتدفـع الرواتب بشكل هبات او اجور من الطلاب وان اكثر الاساتذة شهرة اكثرهم حظا بالهبات[89] . ونشأت الكليات كملاجىء خيرية لسكن الطلاب ومعيشتهم يتبرع بهـا المحسنون لان اكثرية الطلاب انذاك مـن الفقراء . فكليـة السوربون مثلا عبارة عن قسم داخلي يعيش فيه الطلبة ويدرسون على يد استاذ واحد . وقد تبرع بها روبرت سوربون سنة ١٢٥٧ . اما اول كلية في انكلترا فهي كلية مرتون تبرع بها سنة ١٢٦٤ والتز مرتون الى جامعة اكسفورد[90] .

ان تصرفات الطلاب في العصر الوسيط مختلفـة باختلافهم طبقيا وفرديا ومن جامعة لاخرى زمانا ومكانا . غير ان هنـاك بعض الاوصاف العامة التي تنطبق حتى على جامعات عصرنا هذا . فمن الطلاب من جاء للدراسة حقا ومنهم من جاء للهو والعبث . فتسمع مثلا عـن طلاب (لا

---

(86) F. Dietz, A Political and Social History of England (N.Y., 1937) 112.
(87) D. Stenton, English Society in the Early Middle Ages, 1066-1307 (Middlesex, 1955) 285-60.
(88) Munro and Sontag, op., cit. 370-71.
(89) Stenton, op. cit., 263-4.
(90) W. Lunt, History of England (N.Y., 1947) 161.

يحضرون قاعات الدرس الا مرة او مرتين في الاسبوع . ويفضلون حضور درس قانون الشريعة لانه يبتدىء الساعة التاسعة صباحا (وذلك ليبقوا في فراشهم حتى الضحى) . ولم تكن في الجامعات انظمة انضباطية باديء ذي بدء ، غير انها نصت عليها مؤخرا فمنعت فعاليات التسلية البريئة وغير البريئة على حد سواء . ومن مشاكل طلاب الجامعات في القرن الثاني عشر كما جاء في مراسلات احد الآباء لاصدقائه عن ولده الذي يدرس في جامعة اكسفورد (ان رسائل ابنه تبتدىء بالنغمة المعهودة ـ الحاجة الى النقود ، ومن النادر ان تخلو اية رسالة منها ...)[91] . وهناك في جامعة اكسفورد ايضا رسالة من تلميذ الى والده (اخبرك يا والدي باني أدرس بكل جد واجتهاد . والقضية الوحيدة دون نجاحي هي النقود . لقد صرفت منذ شهرين ما أرسلته من دراهم . ان الحياة في المدينة غالية ... لذا فاني استدر عطفك الابوي لزيادة مخصصاتي المالية كي اتمكن من اتمام دراستي ...)[92] . ومن مشاكل الطلاب في العصور الوسطى ما كانت ناتجة من اختلاف بيئاتهم وطبقاتهم الاجتماعية التي تحدروا منها . فالإصطدام كان مألوفا بين اولاد النبلاء وحراسهم والطلبة من ابناء الطبقة المتوسطة . هذا بالاضافة الى ان الاختلافات القطرية السياسية كانت تؤدي الى اختلافات في داخل المنظمات الطلابية .

وبالرغم من الاختلافات بين طلبة جامعات العصور الوسطى فكانوا يقفون صفا واحدا ازاء المخاطر العامة التي تهددهم من سلطات المدن والاقطاع والحكومات الاقطاعية . ومع ان مدن العصور الوسطى ترحب بالطلاب لانهم مصدر رزق لها غير انها من ناحية اخرى لا تطمئن لتصرفاتهم المتأتية من نزق او استهتار او تلكؤ في تسديد الديون . لذا فالمناوشات متعددة بين طلاب جامعة باريس مثلا في الحي اللاتيني وبين سكان المدينة . وتقف السلطات الحكومية عادة في اوقات المناوشات بين

---

(91) Ibid., 160-61.
(92) Deitz, op. cit., 113.

الطلبة والسكان بجانب المدن . ومن اشهر الامثلة على ذلك في انكلترا ما حدث بين طلاب جامعة اكسفورد وسكان المدينة ويشار لذلك الحادث Town and Gown . ملخصه ان طالبا اتهم بقتل احدى نساء المدينة اذ وجدت المرأة مقتولة فعلا في غرفته سنة ١٢٠٩ . وقد تمكن المتهم من الهروب . لذا قامت سلطات المدينة بتفتيش الحي الطلابي والقت القبض على بعض الطلبة الابرياء وحكمت عليهم محكمة المدينة بالاعدام بناء على اوامر ملكية . ولهذا اعلنت الجامعة بما فيها الاساتذة والطلاب الاضراب على الدوام . وهاجر من جراء ذلك حوالي الثلاثة الاف طالب واستاذ الى كمبرج وقد كانت هذه الهجرة على بعض الروايات اساسا لجامعة كمبرج[٩٣] .

وكما كانت كومونات المدن تحرص على التحرر من التدخلات الاقطاعية وحتى الحكومية ، فالجامعات ايضا طالبت المسؤولين بصيانة حرمها واستقلالها الذاتي . ومن أهم الاساليب المتخذة بهذا الشأن تعطيل الدراسة والهجرة . ويعني انتقال الجامعة الى مدينة اخرى خسارة اقتصادية وادبية للمدينة المهاجر منها . وقد تمكنت جامعات العصور الوسطى الاحتفاظ بدرجة من الاستقلال بذلك الاسلوب وعن طريق القوة . فقد اضطر فليب اغسطس ان يمنح جامعة باريس سنة ١٢٠٠ امتيازات كثيرة على اثر الاصطدام المسلح بين قواته وطلاب الجامعة . ونصت بعض هذه الامتيازات على الا يحاكم الطلاب الا امام محاكم دينية والا يلقى القبض على اي منهم الا في حالة الجريمة النكراء ، وان تصان محلات دراساتهم واقامتهم[٩٤] . وقد اضطر البابا كريكوري التاسع سنة ١٢٣١ ان يمنح جامعة باريس امتيازات ساعدت على استقلال تلك الجامعة . وبالرغم من التفاوت في درجات الاستقلال بين الجامعات فانها تؤكد جميعا على وجوب مقاضاة الطلاب امام محاكم مستقلة واحتفاظ الجامعة بحق تعطيل الدراسة واستئنافها وان يكون من حق حامل

---

(93) Stenton, op. cit. 258-60.
(94) Leff, op. cit., 176.

وما عليه (Sic et Non) وكانت طريقته ان الشك يهدي الانسان الى الحقيقة وبذلك فهو رائد فلسفة الشك قبل ديكارت بازمان . واحتوى كتابه هذا على مائة وخمسين سؤالا[١٠٠] .

لقد طرأ تغير محسوس على طرق التدريس والمناهج عندما تغلغلت فرقتا الدومنيكان والفرنسسكان في مؤسسات التعليم الجامعي . وظهر اساتذة قديرون من بين هاتين الفرقتين واثر اساتذة الطائفة الاولى كثيرا في جامعة باريس بينما هيمنت الطائفة الثانية على جامعة اكسفورد . ومن اشهر اساتذة الفرقة الاولى توماس الاكويناس ويعد دونوس سكوتوس Donus Scotus من أشهر اساتذة الفرقة الثانية . وعمدت الفرقتان الى تدريس بعض المواضيع الهامة في اللغات الشعبية واعتبرت هذه الظاهرة في حينها ثورة في التدريس لان اللغة الرسمية والدينية كانت اللاتينية . وغاية هؤلاء من التدريس في اللغات الشعبية نشر الدين بين الطبقات الدنيا التي لا تفهم اللغة اللاتينية ومن اجل استئصال دابر البدع الدينية . كما درسوا اللغات اليونانية والعبرية والعربية ايضا في جامعة باريس بعد أن صادقت البابوية على ذلك الاستحداث سنة ١٣١١[١٠١] .

والدراسة بصورة عامة نظرية في تلك الفترة ومع ذلك فلم تهمل الناحية العملية بالمرة . اذ قدم روجر بيكون مثلا حين تدريسه بجامعة باريس بعض البحوث العلمية التطبيقية . هذا بالاضافة الى ان التعليم كان يتبع الطريقة الاستنتاجية من المبادي العامة والظواهر الكبرى (الكليات) الى الجزئيات . وأول محاولة لعكس ذلك الاتجاه قامت بها فرقة الفرنسسكان اذ اتبعت طريقة التدريس الاستقرائية التي تؤكد على البدء بالجزئيات والتدرج منها الى الكليات[١٠٢] .

---

(100) Leff, op. cit., 107-14.
(101) Crump and Jacib, op. cit., 274-75.
(102) Ibid., 275-76.

اما النظرة التربوية لطبيعة الانسان فلا تتمشى مـــع ما توصل اليه المربون مؤخرا . فالنظرة الدينية لطبيعة الانسان تشاؤمية باعتبارها آثمة خاطئة . كما اعتقد اهل التربيـــة انذاك بنظرية الملكات العقليـــة وكأنها اجهزة في دماغ الانسان تشحذ عن طريق الآداب الحرة بعكس ما توصل اليه علم النفس الحديث بان عقل الانسان يشتغل كوحدة واحدة ولا أثر لذلك التقسيم في داخل الدماغ من ناحية فسلجية .

الماجستير او الدكتوراه ممارسة التعليم في اية جامعة او مؤسسة دون الزامه على اداء امتحان الكفاءة[95] .

لقد عكست الجامعات حاجة المجتمع البورجوازي الناشيء الى نوع من التعليم لا تطغى عليه القيم الاقطاعية والكنسية . ويمكن ملاحظة ذلك في الصراع بين المثالية والواقعية وبين المحافظة والتقليد من جهة والتطلع الى نزعتي النقد والتحرر من جهة اخرى[96] . وقد نشأ اتجاهان جديدان هما طلب العلم من اجل االعلم وطلب العلم من اجل الحياة بالاضافة الى الاتجاه المعروف سابقا الا وهو العلم في خدمة الدين . واخذت جمهرة من الاساتذة تتلمس انذاك الحلول العملية الواقعية لحيرة مجتمعاتها فقادها البحث والتأمل الى التشكك فيما ورثوه . فأثار عليهم ذلك العمل حفيظة السلطات الكنسية وادت حلولهم الى ثورات مسلحة استعرت في كل من انكلترا والمانيا وفرنسا وايطاليا في القرنين الثالث عشر والرابع عشر[97] .

التعليم :

اعتبر التعليم طيلة العصور الوسطى تقريبا في المدارس الديرية والاسقفية والكتدرائية وجامعات فيما وراء جبال الالب مهمة دينية ملقاة على عاتق الكنيسة من اجل اعداد الفرد روحيا للنهوض بالواجبات الدينية بالنسبة لنفسه ونحو العالم المسيحي[98] . اذ انصب التدريس بالدرجة الاولى على الكتب المقدسة المتألفة من العهدين القديم والجديد وما جاء به اباء الكنيسة الاوائل . هذا مع العلم بوجود مواد اخرى ثقافية غايتها مساعدة الفرد على تفهم الكتب الدينية وتعاليمها . وتسمى المواد الثقافية المساعدة بالآداب الحرة السبعة Seven Liberal Arts وهي محور التعليم على اختلاف مراحله في المدارس والجامعات ولا

(95) Lunt, op. cit. 158.

(96) J. Huizinga, The Waning of the Middle Ages (Middlesex, 1955) 216-21.

(97) P. Smith, The Age of Reformation (N.Y., 1951) 35-47.

(98) C. Cramp and E. Jacob, the Legacy of the Middle Ages (Oxford, 1926) 255.

يتسنى للطالب الاختصاص في اي فرع من فروع المعرفة ما لم يكن قد الم بنجاح في تلك المواد . وتقسم الاداب الحرة الى مجموعتين اولاهما يشار لها بالمجموعة الثلاثية Trivium وتحتوي على الخطابة والقواعد والمنطق ، وثانيتهما المجموعة الرباعية Quadrivium المتألفة من الحساب والجبر والفلك والموسيقى . وللقواعد اهمية خاصة اذ عرفها احد نحاة العصر الوسيط بانها (المعرفة التي تمكن المرء من تفهم الشعر وما يكتبه المؤرخون وهي الوسيلة الفضلى لتعلم فني الكتابة والخطابة) . وتمكن الخطابة الانسان من التعبير عن آرائه باسلوب ادبي ويستعان على تعلمها بما كتبه مشاهير الرومان وآباء الكنيسة من قطع نثرية . وللمنطق اهمية كبيرة ايضا يمكن الانسان من فهم الآراء الفلسفية المستندة عليها العقيدة . وعرف المنطق بانه فن الفنون وعلم العلوم والهادي الى اصل الاصول .

لم تكن الحدود واضحة المعالم بين المدارس والجامعات طيلة العصر الوسيط . ويلحظ ذلك من الاوامر الحكومية خاصة في فرنسا التي تحذر مرارا وتكرارا المدارس العامة من التعدي على صلاحيات الجامعات . هذا مع العلم بان الطالب لا يمكنه مواصلة دراسته العليا ما لم يتخرج من احدى المدارس العامة[٩٩] .

ان الاتجاهات الواقعية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ادت الى حركات تجددية محاولة اصلاح التعليم . ولعل من اوائل المحاولات التي هاجمت الطرق التقليدية التربوية هي التي قام بها بطرس ابيلارد Peter Abelard ١٠٧٩ — ١١٤٢ . وقد اصبح هذا علم زمانه حيث سيطرت اساليبه التربوية الواقعية على مناهج اكثرية الجامعات الاوربية فيما بعد . لقد ثار ابيلارد على الجمود والمحافظة والطرق التقليدية في التوصل الى الحقائق وضمن آرائه في كتابه الاستجوابي المعروف (بما له

---

(99) Ibid., 272.

الفصل العاشر

الكنيسة الغربية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر

الكنيسة الكاثوليكية :

لم يكن معنى كلمة الكنيسة Church مقتصرا على دور العبادة المسيحية فقط بل تفيد الكنيسة ايضا المجتمع المسيحي باسره بعلاقاته المادية والمعنوية . اذ يرتبط اعضاء ذلك المجتمع بالسيد المسيح رأس الكنيسة الاوحد عن طريق الايمان[1] . اما كلمة كاثوليكية Catholic فقصد بها الرسالة العالمية . ولم تكن التسمية الاخيرة مقتصرة على كنيسة

(1) الاب بولس اليسوعي، خلاصة الدين المسيحي (بيروت، ١٩٦٥) ٧٨

روما في بداية الامر الا انهـا اصبحت كذلك تمييز روما عـن الكنائس الشرقية وخاصـة كنيسة القسطنطينية الارثوذوكسية منـذ سنة ١٠٥٤ بشكل قاطع .

يرتكز الدين المسيحي بصورة عامة على ما جاء في العهدين القديم والجديد وعلى ما تناقلته الالسن مما لا يكتب وكون السنة او التقليد[2] . وتدور العقيدة حول الخطيئة الاولى Original Sin ، خطيئـة ادم حينما عصى ربه فعوقب بالسقوط الـى الارض . وتعرض لغضب الله فعوقب بالامراض والموت ثـم شمل الغضب ذريـة الانسان . وهكذا اصبحت خطيئة ادم متوارثة في نسله . هذا وان كافـة الانبياء والرسل الذين جاءوا قبل المسيح مهمتهم الاعداد لانقاذ البشرية Salvation من الخطيئة والتمهيد لظهور المسيح[3] .

تعتمد الكنيسة في عملية الانقاذ على رموز دينية يشار لها بالاسرار السبعـة Sacraments . وسميت بالاسرار لانهـا صلات الوصل الخفية التي توطد الرابطة الروحية بين المسيح واتباعه . ولكن على علم بان الاسرار السبعة اخذت بلورتها النهائية في العالم الغربي في منتصف القرن الثاني عشر اي حينما عالجها بطرس لمبارد Peter Lombard احد اساتـذة اللاهوت في باريس المتوفي عـام ١١٦٤ في كتابـه الاراء Sentences [4] . وعن طريـق ممارسة تلك الاسرار تحتضن الكنيسة الفرن المسيحي من المهد الى اللحد . وجعلت هذه الاسرار سبعا حسبما حددها المسيح نفسه ولان حياة الانسان الروحية كحياته الجسدية تتطلب هذا العدد . والمتطلبات الجسدية هي الولادة والنمو والغذاء والشفاء والعدالة والتناسل والمساعدة عند الموت . اما المتطلبات الروحية السبعة المتناظرة مع المتطلبات الجسدية والتي يشار لها بالاسرار السبعة[5] فهي :

---

(2) الاب بولس اليسوعي ، نفس المصدر ، ٧ .

(3) نفس المصدر ، ٨ — ١٠ .

(4) J. Robinson, An Introduction to the History of Western Europe, Vol. I (Boston, 1946) 233.

(5) الاب بولس ، المصدر السابق ، ٩٥ .

(١) التعميد Baptism وهو السر الذي قصد به ازالة الخطيئة الاولى ومنح الولادة الروحية الثانية . ويتم ذلك عن طريـــق الماء عادة بالرش او الغسل او التغطيس[٦] . وهناك نوع اخر من المعمودية الا وهو معمودية الدم اي ان يسفك المؤمن دمه في سبيل الدين[٧] . (٢) القربان المقدس ويشار له ايضا بسر التناول او نظرية الحلول Transubstantiation وهو عبارة عن تحول الخبز والنبيذ في جسم المتنـــاول لهما في المراسيم الدينية الى لحم المسيح ودمه[٨] . وان ذلك السر (يساعد عـــلى حضور المسيح بجسده ودمه ونفسه ولاهوته تحت اعراض الخبز والخمر)[٩] . ويحتفل بذلك السر لمغفرة ذنوب الاحياء والاموات وفي حالات القحط والوبـــاء[١٠] . (٣) التثبيت Confirmation وهو السر الذي يرسخ الايمان ويمنح الفرد المقدرة للدفاع عن دينه[١١] ، ويمارس عن طريق مسح الجسم بالزيت[١٢] . (٤) التوبة Penance وهي غفران الخطايا التي قد تكتب بعد التعميد[١٣] . وتمارس التوبة عن طريق الاعتراف امام الكاهن واظهار الندم وقد يرافقه التصدق الى الفقراء او زيـــارة قبور الاولياء او الصوم[١٤] . (٥) مسحة المرضى Extreme Unction وهذه عبـــارة عن دهن حواس المريض بالزيت من اجل الشفاء او مساعدته على قابلية تحمل الام النزاع [١٥] (٦) سر الكهنوت Holy Order وهذا عبارة عن السلطة الروحية التي يمارسها الكاهن أثناء قيامـــه بواجباته الدينية [١٦] (٧) سر الأمومة Matrimony ويتم ذلك باجراءات

---

(6) S. Bullough, Roman Catholicism (Middlesex, 1963) 78-91.
(7) الاب بولس ، المصدر السابق ، ٩٨ .
(8) Bullough, op. cit., 92-102.
(9) الاب بولس ، المصدر السابق ، ٩٩ .
(10) Robinson, op. cit., 236.
(11) Bullough, op. cit., 86-91.
(12) C. Hayes, A Political and Cultural History of Modern Europe, vol. I (N.Y., 1944) 142-43.
(13) الاب بولس ، المصدر السابق ، ١٠٣ .
(14) Bullough, op. cit., 103-110.
(15) Hayes, op. cit., 143.
(16) Bullough, op. cit., 111-120.

الزواج الدينية برباط الزواج المقدس[17] .

أتبعت الكنيسة في تقسيماتها الادارية الانظمة التي ورثتها عن الرومان . ففي الحواضر الكبرى يشار الى الزعيم الديني الاعلى بالبطريق Patriarch وتسمى منطقته الادارية البطرقية . وتقسم الاخيرة الى اجزاء اصغر تدعى بالولايات Province يتولاها رئيس الاساقفة Archbishop . وتقسم الولاية الى وحدات اصغر يشار لها بالالوية Diocese ويرأس كلا منها اسقف Bishop . ثم هناك اصغر الوحدات الدينية يرأسها القساوسة Priests وتدعى الواحدة منها بارش Parish [18] .

ويقسم المسلك الكهنوتي الى قسمين رئيسيين هما المسلك الكهنوتي العلماني Secular Clergy والمسلك الروحاني Spiritual Clergy .ويشتغل الفريق الاول في اعمال الكنيسة اليومية من ادارية وغيرها . وتقتصر مهمات الفريق الثاني في الاديرة والقيام بالواجبات التبشيرية والانقطاع عن الدنيا للتأمل والمغفرة للبشر[19] .

ويطيب لبعض المؤرخين تشبيه الكنيسة الكاثوليكية في العصر الوسيط بانها اشبه بحكومة ملكية من ناحية ادارية . حيث يقف البابا على قمتها وهو السيد المطلق في الشؤون الروحانية والمشرع الاعلى . وليس هناك من مجلس مهما سمت منزلته له حق ان يشرع قوانين ضد ارادته وان كل تشريع يعتمد على موافقته . ويمكن للبابا الغاء اي قانون مهما كان قديما لم يشر له في الانجيل او لم تنص عليه القوانين الطبيعية . كما انه المرجع القضائي الاعلى . ويساعد البابا في القضايا الادارية المجلس الاعلى المشار له Curia . ويتألف هذا من الكرادلة Cardinals والموظفين البابويين .

---

(17) Ibid., 121.
(18) Hayes, op. cit., 138.
(19) Ibid., 139.

ويتم الاشراف البابوي من روما علـى سائر الجهاز الاداري في العالم المسيحي الكاثوليكي بعـدة اساليب . فمثلا ان رئيس الاساقفة المنتخب حديثا لمنصبه لا يجوز له ممارسة اعماله الا بعـد اخذه يمـين الاخلاص والطاعة للبابا واستلام شعار منصبه منه والمسمى Pallium وهو عبارة عن ملحف Scarf يقـوم بنسجه عادة راهبات القديسة انس Agnes في روما . كما ان موافقـه البابوية ضرورية علـى انتخابات الاساقفـة ورؤساء الاديرة . ويمكـن للبابا عـدم الاعتراف بشرعية الانتخابات لتلك المراكز الدينية فيما لو تأكد من ذلك[٢٠] .

وللكنيسة مجموعة شرائع قانونية Canon Law استندت عـلى مقررات المجالس الدينيـة العالمية منـذ مؤتمر نيقيا سنة ٣٢٥ وما بعده وعلـى قرارات البابوات . ويمكـن للبابا اصدار عقوبـة التحريـم Excommunication يقاطع بموجبها الصادرة بحقه دينيا ودنيويا . وقد يفرض البابا عقوبات التحريم ضد مدن او اقطار بكاملها Interdict [٢١] .

بلغت الكنيسة الغربية درجة كبيرة من القوة في اواخر القرن الثاني عشر واوائل القرن الثالث عشر توضحت في سياسة البابا انوسنت الثالث وظهور فرقتـي الفرنسسكان والدومنيكان ونشاط الاديرة النسائيـة ومحاكم التفتيش .

انوسنت الثالث ١١٩٨ — ١٢١٦

ولد في أناني Anagni قرب روما سنة ١١٦١ وكـان اسمه قبـل توليه المنصب لوثاريو وهو مـن عائلة رومانيـة ارستقراطيـة . درس الفلسفة واللاهوت في باريس ثم الشريعة والقانون في بولونا واصبح في عمر الثلاثين كردينالا وانتخب للبابوية سنة ١١٩٨ . وكان قد الف كتابا في شؤون الدين قبـل توليه البابوية اسمـاه (احتقار الدنيا) . ويعد انوسنت من أعـاظم البابوات الذيـن تولوا ذلك المنصب منـذ عهد

(20) Robinson, op. cit., 227-28.
(21) Ibid., 237.

كريكوري السابع . بلغ نفوذ الكنيسة في عهده اعلى مراحله . اذ تمكن من فرض سطوته على عدة ملـوك في اوربا واصبحت ممالكهم تابعـة بالمعنى الاقطاعي للبابوية امثـال الملك جون في انكلترا وملكي البرتغال والاراكون . كما قدم ملوك كـل مـن هنغاريـا وبولنـدا وبوهيميا والدانيمارك خضوعهم له . هـذا ولم يكن ليعترف بايـة سلطة دنيوية مساوية لسلطته (اذ ترك المسيح لبطرس الكنيسة والسلطة عـلى كافة العالم)[٢٢] وأشير الى ذلك البابا بانه (وريث صلاحيات كل من القديس بطرس وقسطنطين الكبير)[٢٣] .

ورث أنوسنت الثالث الصراع بـين السلطتين الزمنية والدينيـة او الصراع بـين الكنيسة والدولـة . فسار علـى النهج الذي أختطه كريكوري السابع . حيث أعلن بان السلطة البابوية اسمى مـن السلطة السياسية . وقد أصر على انه حينما تتعارض السياسات الدنيوية مـع الاغراض الدينية فيجب ان تسود الثانية على الاولى . ولكن على علم بان ذلك البابا لـم يدع بالسيادة الدنيوية المطلقة الا في ضمن حـدود ولاياته البابوية[٢٤] . وقد اضطر انوسنت الثالث من خوض غمار الحرب لتحقيق آراءه ضد الامبراطور أوتو الرابع وحليفه جون ملك انكلترا ، حيث كان الانتصار بجانب البابوية وحليفها ملك فرنسا فليب أغسطس[٢٥] .

نهض ذلك البابا باعمال هامة اخرى تناولت اصلاح الادارة الدينية بجعل السلطة اكثر مركزية والقضاء ادق تنظيما . ثم اتخذ مقررات هامة تتعلق بوحدة العـالم المسيحي ومحاربة البدع الدينيـة بدون هوادة وخاصة فرقة الالبجنسيين في لانكودوك في جنوب فرنسا . وعمل ايضا على مواصلة السبب الصليبي بنشاط كبير فكانت من ثمار جهوده الحملة الصليبية الرابعة . تلك الحملة المنحرفة عـن الاهداف الدينيـة والتي سخرت بالدرجـة الاولى لخدمـة مأرب البنادقة حيث توجت فعالياتها

---

(22) H. Taylor, Mediavel Wind, vol. II (London, 1927) 303.
(23) Encyclopedia Britannica, II, 370.
(24) W. Carlyle, History of Medieval Political Theory in the West, vol. V ((Edinburgh, -928) 157.
(25) H. Pirenne, History of Europe (N.Y., 1955) 286.

بالاستيلاء على القسطنطينية وتأسيس الدولة اللاتينية ١٢٠٤ — ١٢٦١ . كما شجع ذلك البابا الفرق التبشيرية الديريـة لمكافحة البدع واعـلاء شأن الدين[٢٦] .

الفرنسكان والدومنيكان :

حقا لقد شهد القرن الحادي عشر حماسا دينيا نتيجة للاصلاحات الكنسية والدعوة للحروب الصليبيـة . فنشطت الحركة الديرية نشاطا ملحوظا . ومن الاديرة الهامة انذاك هي السسترسيانية Cistercian التي اسسها روبرت اوف مولسمس Robert of Molesmes سنة ١٠٩٨ واشتق الاسم من دير سيتو قرب مدينـة ديجون . وقـام اتبـاع تلك الحركة الديرية باستصلاح الاراضي وكان لرهبانه دور كبـير في حركة الاستيطان في الاقسام الشرقية من المانيا[٢٧] .

ومن أشهر الفـرق الديريـة قاطبـة في القرن الثالث عشر همـا الفرنسـكان والدومنيكان ويطلق عـلى أتباعهما عـادة لقب الاخوان Friars وذلك لاتصالهم الدائم بافراد المجتمع . والغاية الاساسية من تشكيل هاتين الفرقتين انتشال الكنيسة الكاثوليكية من مزلقها على اثر الصراع بين البابوية والامبراطورية ولظهـور البدع الدينية ومكافحـة الترف الذي سرى لبعض رجـال الديـن ولمناهضة التحلل مـن القيم التقليدية وخاصة الدينية منها في المدن الناشئة انذاك . اذ كـان العصر حسب تعبـير القديس برنراد اوف كليرفو في اواسط القرن الثاني عشر (ان الدنيا أقبلت على عصر المآثم والشرور) . لذا انبرى المؤمنون لمعالجة الوضع وكـان اكثرهم توفيقا في هـذا الشأن فرانسس اوف أسيسي ودومنيك .

ولد فرانسس في مدينة أسيسي سنة ١١٨٢ وكان اسمه عند الولادة جيوفاني ففيره والده الى فرانسسكو . تحدر مـن عائلة موسرة قطنت

(26) H. Fisher, A History of Europe, from the Earliest Times to 1713 (London, 1957) 259-60.

(27) Cambridge Medieval History, vol. V, 675.

اجمل بقاع ايطاليا انذاك . تعلم الفرنسية عـن امه والطليانية عن ابيـه واللاتينية عن طريق الكنيسة . اشتغل مـع ابيه في البداية تاجرا الا ان انبساط يده لم يجعله صالحا لطلب الارباح[28] . ثـم تطوع في الجيش البابوي سنة ١٢٠٤ وخيل اليه وهو طريح الوساد في مدينة سبوليتو انه كلف بتأدية رسالة سماوية . فترك الجيش وانقلبت حياتـه رأسا عـلى عقب . اذ عمد لحياة الزهد والتصوف فأهمل مظهره كليا حتى اصبـح محط الاستهزاء . اذ كان الناس يشيرون اليه عنـد ظهوره في المحلات العامة بالتهكم وكثيرا ما صاحوا بوجهه مخبول .. مخبول .. Pazzo حاول والده ردعه عن ذلك بمختلف الوسائل بـدون جدوى . وكون فرانسس حلقة حوله مـن احد عشر شخصا لقبـوا أنفسهم بالاخوان الصغار[29] .

لم يكن فرانسس ليؤمن بالعلوم الدنيوية . اذ انهـا تهدف حسب رأيه الى الثراء والسلطة وأشار الى الذين هاموا في طلب ذلك النوع من العلوم بانهم صفر اليدين يوم الحساب[30] . كما لم تكن له نظرة اكبـار للمؤرخين حيث غمزهم بقوله (قصرت باعهم عن طلب العلا والمجد بجلائل الاعمال فراحوا يستجدون الشهرة بتدوين اعمال العظماء) . ومما يلفت النظر في شخصية فرانسس ايضا غرابة اطواره . فقد ضللت فكره سحابة عميقة من الرمزية وساورته خواطر في منتهى الغرابـة . اذ اعتقد بانـه يتفاهم مع الاشجار والطيور والشمس والنار . حيث نسب اليه انه يبارك الطير ويتردد في اطفاء السراج لتصوره بان القنديل قد لا يرغب ذلك . والتمس من الامبراطور فردريك الثاني ان يشرع قانونا يمنع فيه صيد القبرة بصورة خاصة اذ كان يسمها بأخته[31] .

قصد فرانسس روما مع اتباعه سنة ١٢١٠ حيث استحصل اجـازة شفاهية من البابا انوسنت الثالث لمزاولة اعماله . فانطلق مع اتباعه منذ

---

(28) J. Jorgensen, St. Francis of Assisi (N.Y., 1940) 12.
(29) W. Durant, the Age of Faith (N.Y., 1950) 793.
(30) Ibid., 795.
(31) Ibid., 796.

ذلك التاريخ لممارسة الوعظ بالمدن . واتخذ مـن كنيسة القديسة ماري قرب أسيسي مركزا له . ودفعه حماسه الديني لكسب النصر للصليبيين عن طريق التبشير في الاراضي المقدسة . وحـاول ذلك فعلا سنة ١٢١٢ الا ان سفينته جنحت لشواطيء دلماشيا نتيجـة للاعاصير فاضطر الـى الرجوع لايطاليا . غير أنه أم الديـار المقدسة سنة ١٢٢٠ اثناء الحملـة الصليبية الخامسة على مصر[٣٢] .

بلغ عدد الفرنسسكان عند وفاة المؤسس سنة ١٢٢٦ خمسة الاف راهب . انتشروا في هنغاريا والمانيا وبريطانيا وفرنسا واسبانيا . واصبح عددهم سنة ١٢٨٠ ما يقارب المائتي الف موزعين بين ثمانية الاف دير[٣٣] . ومع ذلك فقـد انقسم الفرنسسكان على انفسهم حـال وفاة المؤسس مكونين جناحين كبيرين هما الفرنسسكان الماديون الذين أجازوا اخذ الهبات والفرنسسكان الروحانيون الذين تمسكوا بشعار الفقر . وقـاد تطرف الفرقة الروحانية الـى الاصطدام بالبابوية في عهد جون الثانـي عشر الذي اتهمهم سنة ١٣٢٢ بالمروق الديني .

أما القديس دومنيك Domingo فقد ولد في مدينة كالاروكا في قشتاله سنة ١١٧٠ وترعرع تحت كنف عمه الذي كـان قسيسا . ساهم دومنيك في الحملة الصليبية ضد الالبجنسيين عن طريق الوعظ والارشاد وامضى في ربوعهم عشر سنوات ١٢٠٥ ــ ١٢١٦ حيث نظم هناك فرقته التـي نالت رسميا اعتراف البابا انوريوس الثالث سنة ١٢١٦ . وجعل دومنيك مركزه في روما حيث تنطلق منها زرافات الرهبان الـى الاماكن الاخرى[٣٤] . وامست الفرقة ذات تأثيرات كبـرى عنـد وفاة المؤسس سنة ١٢٢١ . اذ قـامت بادوار هامـة في المجـالات الدينيـة في المدن والجامعات . وبرز مـن بين صفوفهم اثنان مـن عمالقـة الفلسفة هما البرتوس ماكنوس وتوماس اكويناس .

---

(32) S. Painter, A History of the Middle Ages, 284-1500 (London, 1963) 316-17.

(33) Durant, op. cit., 798.

(34) Ibid., 802.

لقـد انتشرت فعاليـات المبشرين الفرنسـكان والدومنيكان في اكثرية ارجاء العالم المعروف انذاك فأم قسم منهـم اواسط اسيا ولعبوا دورا خطيرا في الاتصالات بين البابوية والمغول من اجل استعداء هؤلاء على المسلمين لفرض انقاذ المملكة الصليبية في الاراضي المقدسـة[٣٥] .

نشاط الديرية النسائية:

لقد طرأ نشاط ملحوظ على الديرية النسائية ايضا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر . اذ تأسست اديرة نسائية لفرقـة السسترسيان سنة ١١٢٥ ضمت سبعمائة راهبة في نهاية القرن الثالث عشر[٣٦] . وعمل القديس فرانسس على احداث ثورة في الديرية النسائية حينما أجـاز للقديسة كلارا سنة ١٢١٢ تأسيس ديرها النسائي . هذا ولم يكن مـن صلاحية ذلك القديس اعطاء مثل هذه الاجازة لانها في اختصاصات البابوية . ومع ذلك فقد وافق البابا انوسنت على ذلك الاجراء قبيل وفاته سنة ١٢١٦ نظرا لما يتميز به فرانسس من تقوى وحماس دينـي . وضم دير كلارا راهبات متبتلات عاهدن الله على أفناء حياتهن في سبيل الدين ، وزاولن الغزل والنسج والتمريض وسائر اعمـال البر والاحسان . وقـد نشط ايضا كل من الدومنيكان والاوغسطينيين في فتح الاديرة النسائية .

وبالرغم من الاهداف السامية التي تضمنتها الرهبنة النسائية فلم تكد لتخلو من الشوائب وخاصة بين تلك النسوة المكرهات على دخول الدير[٣٧] . ويتوضح ذلك مـن الاوامر الصادرة الى المؤسسات الديرية النسائية من اجل التشديد في مراقبة العلاقات العاطفيـة . وهنالك أمثلة متعددة عـلى الانحراف عن الطريـق السوي . اذ أشار أسقف شارتر المسمى أيفو المتوفي عام ١١١٥ بان راهبات دير فارا في فرنسا زلت بهن الاقدام . ونوه عن ذلك ايضا بطرس ابيلارد في حديثه عن اديرة زمانه في فرنسا . وقال البابا انوسنت الثالث عن دير اكاثا بانه أفسد المنطقة[٣٨] .

---

(35) S. Neill, A History of Christian Missions (Middlesex, 1966) 118-29.
(36) X. Funk, Manual of Church History, Vol. I (London, 1910) 370.
(37) C. Montalembert, The Monks of the West, Vol. II (Boston, n.d.) 70.3
(38) C. Lea, Historical Sketch of Sacerdotal Celibacy (Boston, 1884) 264.

واشار ريكول أسقف مدينة روان سنة ١٢٤٩ في تقرير له عن المؤسسات الديرية النسائية بان هناك ديرا نسائيا احتوى على ثلاث وثلاثين راهبة منتظمة وثلاث راهبات منتسبات وكانت تحوم الشبهات حول ثمان منهن كما ان الرئيسة تعاقر الخمرة ليليا[٣٩] . وحاول البابا بونيفس الثامن سنة ١٣٠٠ بدون جدوى اصدار تعليمات مشددة في هـذا الشأن . فراهبات دير لنكلن Lincoln في انكلترا مثلا رمين بالمنشور البابوي على رأس الاسقف الذي جاء ليبلغهن به وأقسمن الاستمرار في غيهن[٤٠] .

محاكم التفتيش : Inquisition

شهدت الفترة قيام المحاكم الدينية المدعوة بمحاكم التفتيش لقطع دابر الفتن الدينية وارجاع الضالين الى سبيـل الصواب . وبدأت تلك المحاكم بداية دينية وانتهت باستغلالها لمآرب سياسية . ولم تكـن تلك المحاكم عديمة الاصول التاريخية . اذ جاءت اشارة في العهد القديم الى كيفية معاملة المارقين . اذ يجري التحقيق بدقة مع الحائر دينيا بعد اتهامه من قبل ثلاثة شهود . ويؤخذ المارق عند ثبوت التهمة الى خارج المدينة حيث يرجم بالحجارة حتى الموت . ونص العهد القديم ايضا :

> اذا ظهر بينكم نبي او صاحب اوهام ... ينادي باتباع الهة اخـرى ... فيجب اعدامـه ... وان حدث ان اخا لكـم او ولدا .. او صديقا عزيزا عليكم .. غرر به سرا .. فلا يجـوز ستر الامر بل يجب اعدامه[٤١] .

وجـاء في انجيل يوحنا ان المسيح اخذ بذلك الاجراء (ان من لا يركن الي سوف ينبذ ويقطع ثم تجمع اوصاله وترمى في النار)[٤٢] .

اما بالنسبة للاجراءات الدنيوية من ناحية تاريخية في هـذا الشأن فالقوانين اليونانية مثلا اعتبرت من لا يعبد الالهة الهلينية مارقا اقترف

---

(39) Taylor, op. cit., I, 492.
(40) E. Power, Medieval People (Middlesex, 1954) 93.
((41) Dent., XIII, 1 - 9.
(42) Gospel of St. John, XV, 6.

جريمة كبرى عقوبتها الاعـدام . وبهذا القانـون اعدم سقراط بتجرعه السم . اما في العصر الروماني الكلاسيكي فكانت الالهة حليفـة الدولة ايضا وان المروق الديني خيانة عظمى تستحق الموت . وعمدت الحكومة البيزنطية الى تطبيق القانـون الروماني المتعلق بالمارقـين ضد المانويين وسائر الهراطقة .

لم تكن الفرق المارقة ذات خطر يذكر في اوربا اللاتينية اثناء الفترة المبكرة من العصر الوسيط لهذا لم تتخذ اجراءات عنيفة ضدهم . واشار البابا ليو التاسع في القرن الحادي عشر الـى الاكتفاء بعقوبـة التحريم ضد الهراطقة[٤٣] . غير ان المروق الديني اصبح مشكلـة كبرى في القرن الثالث عشر في المناطق المزدهرة اقتصاديا ونتيجـة للتأثيرات الاسلامية . لهذا أقترح قسم من رجال الدين اقتران عقوبة التحريم بالنفي او السجن الذي تتولى امره السلطات الدنيوية . وقد تشدد البابا انوسنت الثالث في امر الهراطقة حيثقال (يعاقب القانون المدني الخونة بمصادرة املاكهم وبالموت أفلا يحق لنا اذن اصدار عقوبة التحريم ومصادرة املاك خونة الدين ؟ ان الاعتداء على حرمات الدين أعظم مـن جرائم الاعتداء على صاحب السلطان) . واعتقد ذلك البابا ان خطر الهراطقة أشد من خطر المسلمين واليهود . لان المسيحية في حرب سافرة ضد اليهودية والاسلام بينما يعمل الهراطقة في داخل المجتمع المسيحي لتفكيك روابطه في وقت كانت فيه المسيحية في حرب تنازع بقاء مع الاسلام[٤٤] .

ومن الملاحظ في هذا الصدد ان الجماهير المتدينة في ايطاليا بدأت في مطاردة الهراطقة قبـل ان تتخـذ الكنيسة رسميا خطواتها العقابية الصارمة[٤٥] . وحدث مثل ذلك ايضا في مدينـة سواسون في فرنسا . اذ اودعت السلطات هنـاك قسما مـن الهراطقة السجن سنة ١١١٤ فهجم الغوغاء على السجن وقادوا الهراطقة الى حيث تم اعدامهم حرقا[٤٦] .

---

(43) Maimonides, Guide to the Perplexed, tr. by Friendlander, vol. III (London, 1885) XII.

(44) Ibid., 63-68.

(45) G. Summer, Folkways (Boston, 1906) 238.

(46) E. Vacandard, The Inquisition (N.Y., 1908) 68.

لقد آزرت السلطات الدنيوية في العصر الوسيط نظريــة الكنيسة في مطاردة الهراطقة بــدون هوادة . وذلك لان تلك الحركات الهرطقية تحمل اتجاهات ضد السلطة في كثير مــن الاحيان[47] . لذا فان الطبقات الارستقراطية لم تستسغ الهراطقة ما عــدا ارستقراطية لانكودوك في فرنسا[48] . ومن المفارقات حقا ان يكــون الامبراطور فردريك الثانــي المتشكك بالاديان قد اصدر اعنف القوانين ضد الهراطقــة . اذ حتمت قوانينه تسليم الهراطقة الذين تشخصهم الكنيسة الى السلطات السياسية لتقوم باعدامهم حرقا . وان ندم المتهم علــى فعلته واظهر التوبة فتطبق بحقه عقوبة السجن مدى الحيــاة وتصادر املاكــه . كما شرع لويس التاسع قوانين مشابهة لقوانين فردريك ضد الهراطقة .

كان تحمس السلطات الدنيوية أعظم من حماس الكنيسة في مطاردة الهراطقة وقاموا في بعض الاحيان بتطبيق عقوبة الموت على مسؤولياتهم الخاصة . فقد أمر الملك الفرنسي روبرت الثاني سنة ١٠٢٢ باعدام ثلاثة عشر مارقا في اورليــان حرقا . واحرق الامبراطور الالماني هنري الثالث عدة اشخاص ايضا[49] . وقام فليب امير فلاندرز بالاتفــاق مــع رئيس اساقفة ريمس سنة ١١٨٣ بارسال عدد كبير من الفرسان والفلاحين ... الى المحرقة . ثم صادر ممتلكاتهم واقتسمها مع رئيس الاساقفة[50] .

لقد استفحل امر الهرطقة في عهد البابا كريكوري التاسع ١٢٢٧ — ١٢٤١ فانبرى لمكافحتها بشكل فعــال . ويعتبر ذلــك البابا المسؤول رسميا عن ايجاد محاكم التفتيش التي ملأت قلوب الناس رعبا في العصر الوسيط .

اعتمدت البابوية في محاكم التفتيش على الدومنيكان الذين شبهوا انفسهم بكلاب الله Domini Canes في اصطياد الهراطقة وللمحافظة على الرعية ضد الذئاب الضارية . ولكن على علم بان هذه المحاكم لا يهمها

---

(47) W., Thompson, Economic and Social History of the Middle Ages, 300-1300 (N.Y., 1928) 689.

(48) Lea, op. cit., 318.

(49) G., Coulton, Inquisition and Liberty (London(1938) 49.

(50) Catholic Encyclopedia, VII, 29a.

في بادىء الامر سوى مطاردة المسيحيين المارقين او المرتدين[51] . ووضح البابا نيقولا الثالث سنة ١٢٨٠ اهداف تلك المحاكم ومداها اذ قال :

انا نحرم الهراطقة الذين لعنهم الله على اختلاف مللهم ونحلهم ... وعندما تدين السلطات الدينية ايا منهم يسلم حالا الى السلطات الدنيوية لتطبق بحقه العقاب . ويكتفى بالسجن مدى الحياة لمن يعلن التوبة منهم . وتطبق عقوبة التحريم بحق كل من يأوي هرطقيا او يدافع عنه . ان من تحوم حولهم الشبهات ولم يتمكنوا من اثبات براءتهم يحرمون لمدة سنة فان عجزوا خلالها عن تقديم الادلة الكافية على براءتهم فيطبق بحقهم العقاب كهراطقة . ولا يحق للمحكوم استئناف الحكم . ويحرم كل شخص يقوم بدفن جثث الهراطقة حسب الطريقة المسيحية ، ولا يرفع التحريم الا اذا قام الدافن بنفسه في نبش القبر واخراج جثمان المدفون ورميه في العراء . اننا نمنع النقاش في امور العقيدة ومن يخالف ذلك من غير رجال الدين يعاقب بالتحريم . ان من يعلم بوجود هراطقة او يعرف شيئا عن اناس لا يؤدون الواجبات الدينية عليه اخبار السلطات الكنسية ومن لم يفعل ذلك فيعرض نفسه لعقوبة التحريم ...[52] .

اعتمدت محاكم التفتيش على التعذيب لاجبار المتهم على الاعتراف، وتذرعت ايضا بالقوانين الرومانية من اجل ذلك . اذ اجازت تلك القوانين الحصول على الاعتراف بالتعذيب . واجاز البابا انوسنت الرابع سنة ١٢٥٢ استعمال التعذيب[53] . ومع ذلك فقد اكدت البابوية استعمال التعذيب كآخر وسيلة ولمرة واحدة فقط . ويجب ان لا ينتج عن التعذيب عاهة او موت . غير ان المحققين فسروا المرة الواحدة انها مرة في كل عملية

---

(51) Vacandard, op. cit., 163.

(52) O. Thacher, and E. McNeal, Source Book for Medieval History (N.Y., 1905) 309.

(53) Catholic Encyclopedia, VIII, 32b.

تحقيق تجري مع المتهم . لهــذا يواصلون التعذيب احيانا اثنــاء فترات متقطعة من التحقيق . ويستعمل التعذيب ايضا في حق الشهــود الذين لا يدلون بافادات كاملة[54] .

المفروض في توزيــع الاموال المصادرة مــن الهراطقة ان تكــون مناصفة بين الدولة والكنيسة . غير ان تلك القاعدة لم يكتب لها التطبيق، اذ جرت الاصول في فرنسا ان تعود الاموال للدولة فقط . اما في ايطاليا فيعطى ثلث الاموال للواشي . وقــد ادى التدبير الاخير الى ملاحقــة الابرياء من قبل الفئات الانتهازية . وساق الجشع الى اتهام الاثرياء من الاموات طمعا في سلب ذريتهم ما ورثوه . اما في اسبانيا فقد امر جميس الاراكوني ان تكون اموال الهراطقة للدولة وحدها سنة ١٢٣٣ .

أسفرت محاكم التحقيق عن نتائــج ايجابية ايضا . اذ قضت على الالبجنسية فرنسا وحفظت ايطالية خالصة للكاثوليكية وأجلت لثلاثة قرون انفراط عقد الوحدة المسيحية الغربية . الا انها من ناحية اخرى ادت الى تقوية السلطة المركزية في كــل من فرنسا واسبانيا اذ حدت بالقطر الاول الى محاولة اتهام البابوية فيعهد بونيفس الثامن. اما بالنسبة للقطر الثاني فلم تكن فيه محاكم التفتيش ذات تأثيرات كبرى الا بعــد القرن الرابع عشر . حيث تميزت محاكم التفتيش الاسبانية بعــد ذلك التاريخ بالانحراف عن الاهداف الاصليــة . اذ وجهت ضد المسلمــين واليهود وخصــوم السلطات المركزية مــن اجل مآرب دنيوية وفي معزل عــن البابوية[55] .

الفرق المارقة :

يمكن القول بان جميــع الفرق المارقة في جهات اوروبا الغربية ــ متأثرة بتعاليم ساموساتا المتأثرة بدورها بالتعاليم المانوية والتي انتشرت منذ اوائل القرن الثالث في جهات سوريا واسيا الصغرى . وبالرغم من

---

(54) Ibid., 82d.
(55) W. Atkinson, A History of Spain and Portugal (Middlesez, 1960) 110.

الاضطهادات المتلاحقة فقـد ظهرت باشكال واسماء مختلفة في البقاع الاوروبية[56] . اذ عرفت في بلغاريا بفرقة البوكوميل Albogomile وفي ايطاليا بالباترينية نسبة الى فقراء مدينـة ميلان Patarie وفي جهات المانيا بالكاثاريه اي الاطهار Cathari . ودعيت بالاقسام الجنوبية في فرنسا بالالبجنسيين Albigensians نسبة الى مدينة البي Albi وقد انتشرت هذه الفرق المارقة في امهات المدن الاوروبية مـن اسبانيا حتى بوهيميا[57] .

ان من أشهر الفرق المارقة في الفترة التي نحن في صددها هي من الفرقتين الالبجنسية والولدنيسية Waldensians نسبة الـى مؤسسها بطرس والدو ويشار الى اتباعه احيانا بفقراء ليون . اما بالنسبة للفرقة الأولى فقد ظهرت في الاقسام الفرنسية الجنوبية منذ القرن الحادي عشر وازدادت اراؤهـم تحديا للمعتقـد في القرن الثاني عشر . لقـد انكر الالبجنسيون المعجزات والتعميـد وسر التناول وعبـادة القديسين[58] . وكونوا لهم مسلكا كهنوتيا اطلق على قساوسته لقب برفكتي Perfecti وشرعـوا نظاما صارما لاعضاء كنيستهم . فعلى الاعضاء هجر الآبـاء والزوجات والنسل ليكرسوا انفسهم الى الله والانجيل . فلا يحق لهم مقاربة المرأة ولا قتل اي حيوان ولا اكل اللحوم او البيض ولا منتجات الالبـان ولا شيء اخر سوى الاسمـاك والخضروات وسائر المنتجات النباتية . وهناك طبقة المرشحين Credentas لعضوية المسلك الكهنوتي. وقد سمح لهؤلاء باكل اللحوم والزواج الا ان عليهم التنصل التام من الكنيسة الكاثوليكية . وعليهم التمسك بقواعد البرفكتين عندما يرقون الى تلك الدرجة .

أتبعت الفرقة الالبجنسية المانوية في النظرة الكونيـة . اذ يمثـل

(56) A. Yasiliev, A History of the Byzantine Empire 324-1453, Vol. II (Madison, 1964) 382.
(57) Strayer and Munro, The Middle Ages, 395-1500 (N.Y., 1942) 305-6.
(58) Vacandard, op. cit., 91.

العالم الروحي الخير والروح والسماء . ويمثل العـالم المادي الشيطان والشر . واعتبروا كافة المظاهر المادية بما فيها الدينية من المآثم والشرور . ورفضت الفرقـة الاسرار السبعة والايقونات . ونـادوا بالغاء الملكيـة الفرديـة . ونصت تعاليمهم علـى المحبة المطلقة حتى بالنسبة للاعداء . وقالوا بان القوة تتناقض مع الدين وان قتل النفس جريمـة كبرى . ان الحق الى الله وحده في معاقبة المجرم وكرهوا الحروب الصليبية واعتبر كل من يدعو اليها سفاكا[59] . ثم انكروا وجود النار وانّ كل نفس قابلة للتوبة وصعود روحها الى السماء ان ماتت طاهـرة . وقد كرهوا نجاة المحتضر من الموت[60] .

اما فرقة بطرس والدو فلم تكن في بدايتها مارقـة الا انها تأثرت فيما بعد بآراء الالبجنسيين . وبطرس والدو هذا من اثرياء مدينة ليون الذي كلف احد المتعلمين بترجمة الانجيل الى اللغة الشعبية الدارجة في اقسام فرنسا الجنوبية . وعند تمعنه بذلك الانجيل المترجم اعتقـد بان على المسيحي الصادق ان يتجرد من الثراء قدوة بالقديسين . لذا اعطى قسما من ثروته الى زوجته ووزع الباقي على الفقراء وبدأ الوعظ الى الفقر وتجمعت حوله زمرة عرفت بفقراء ليون . وقـد ذهب الى روما سنة ١١٧٩ ليطلب اجازته دينيا مـن قبل البابا الاسكندر الثالث الذي اجازه فعلا على شرط ان يكـون وعظه تحت اشراف الكنيسة المحلية . الا ان الفرقة لم تتقيد بالشرط ورفضت سلطة الاساقفة الروحية . حيث اعتقدت بان مغفرة الذنوب يمكن ان يزاولها اي انسان تقي . ومع ان السلطات الكنسية منعت الفرقة مـن مزاولة نشاطها الديني سنة ١١٨١ فقد استمرت الاكثرية منهم فيالنشاط في المانيا وفرنسا واسبانيا واستفزت بشكل خاص البابا انوسنت الثالث الذي حـاول في بدايـة الامر طرقا سلمية معهم لارجاعهم الى السبيل السوي[61] .

---

(59) B. Beer, Social Struggle in the Middle Ages (London, 1924) 129-31.
(60) Vacandard, op. cit., 77.
(61) Painter, op. cit., 307-8.

الحروب الصليبية ضد الالبجنسيين :

اهتم البابا انوسنت الثالث منذ البداية بموضوع الفرق المارقة . اذ وجهت في سنة ١١٩٨ رسالة الـى رئيس اساقفة كاسكوني في فرنسا هذا نصها :

تناولت العواصف سفينة القديس بطرس في لجة اليـم ، ومما يحز في النفس ظهور مبشرين بمظـاهر الرهبان وحقيقـة الشيطان أغووا ارواح البسطاء . اذ قلبوا رأسا على عقب معاني الكتاب المقدس بأباطيلهم وخزعبلاتهم لتدمـير وحدة الكنيسة الكاثوليكية . ونظرا لاستشراء هذا الداء الدوي ... نهيب بكم وباتباعكم مقاومة ذلك بما استطعتم مـن قوة ... وبامكانكم الاستعانة بالامراء لقطـع دابر هؤلاء بحد السيف ان اقتضى الامر ذلك[٦٢] .

اتخذ البابا انوسنت الثالث خطوات اخـرى اكثر حزما لمعالجـة المشكل . اذ اسند مهمة مطاردة الهراطقة الى رئيس رهبان السسترسيان المسمى ارنولد سنة ١٢٠٤ . وكلفه بعمل تحقيق دقيـق في فرنسا وان يستعين في مهمته بالسلطات الحكومية . كما وعد انوسنت الثالث الملك الفرنسي فليب أغسطس بوهبه كافة الاراضي العائدة لاناس يتقاعسون عن الاشتراك في الحملة الصليبية ضد الالبجنسيين مقابل نهوضه بقيادة الحملة[٦٣] . هذا ولم يرتح الملك الفرنسي للمشروع البابوي لانه بحاجة الى فترة استجمام بعد حربه مع الانكليز حول نورمندي والتي انتهت بضمها الى املاكه . اما ريموند السادس امير طولوز فقد فضل استعمال الاقناع مع الهراطقة رافضا الاشتراك في الحملة . وقـد سائل ريموند كيف يمكننا الاعتداء على هؤلاء ؟ فقـد ترعرعنا معهم صغارا وان من بينهم اهلنا وذوينا واني اراهـم في عيش صالح[٦٤] . وحدث ان رسولا بابويا قتل من قبل أحد فرسان ريموند فاضطر البابا الى اصدار عقوبة

(62) Thacher, op., cit., 209.
(63) Lea, op., cit., 1, 139.
(64) Ibid., 141.

التحريم ضد ريموند واتباعه وحرم كافة الاراضي التابعة له واعلنها ملكا لاي مسيحي ينتزعهـا منـه واعلن الحرب الصليبية ضد الالبجنسيين وحماتهم . وقد سمح فليب أغسطس لنبلائه الانخراط في الحملة التـي توافد اليها المغامرون من المانيا وايطاليا ايضا .

لقد قاوم سكان منطقة لانكودوك ذلك الغزو الصليبي واشترك في المقاومة حتى الكاثوليك دفاعا عن املاكهم . وحاصر الصليبيون مدينـة بيزير Beziers واقتحموها وقتلوا ما يقارب العشرين الفا من سكانها بما فيهم النساء والاطفال الذين اعتصموا بكنيسة المدينة[٦٥] . وعندما قال المحاربون للممثل البابوي ارنولد ان هنـاك كاثوليك في كنيسة المدينة ماذا نعمل بهـم ؟ فاجاب : اقتلوهم جميعا وان الله يفرق بـين اتباعه فيما بعد[٦٦] .

ان من اهم قـادة الحملة ضد الالبجنسيين هو سيمون مونفورت Simon de Montfort . وكان هذا متدينا وعسكريا شارك في الحروب الصليبية في الاراضي المقدسة ثم كلف بقيـادة فرقة ضد الالبجنسيين سنة ١٢٠٩ احرز بها عدة انتصارات وكان يخير الاسرى بـين الموت او اعتناق الكاثوليكية . وتمكن سنة ١٢١٥ من الاستيلاء على مدينة طولوز فخلع اميرها ريموند مستوليا على معظم املاكه[٦٧] .

لقد فزع البابا انوسنت الثالث من الاعمال الاجرامية التي صحبت الحربفأخذته الرأفة بريموند فخصصله عائداتسنوية ثم أمر انيخصص قسم من املاكه الى ابنه ريموند السابع الذي كان صغيرا انذاك . وتمكن الاخير عند بلوغه الرشد من استعـادة طولوز بالقوة والانتصار عـلى سيمون سنة ١٢١٨ الذي فقد حياته في احد الاشتباكات حول المدينة . هذا وقد توقفت الحملة الصليبية ضد الالبجنسيين منـذ وفاة انوسنت الثالث سنة ١٢١٦ فعاد نشاطهم ثانية في طولوز وبقيـة الجهات في عهد ريموند السابع .

---

(65) Ibid., 153-4.
(66) F. Guizot, History of France, vol. I (London, 1872) 507.
(67) Painter, op., cit. 313.

وتجددت الحرب ثانية على اثر الاتفاق الذي تم بين لويس الثامن ملك فرنسا سنة ١٢٢٣ والبابا انوريوس الثالث . وقد اشترط الملك الفرنسي ان يضم كافة مناطق الالبجنسيين الى املاك التاج مقابل استعداده بقمع حركتهم . وكاد لويس ان يفلح في مشروعه لولا وفاته سنة ١٢٢٦ في مونبلييه . لذا سارع ريموند لطلب الصلح مع السلطات الفرنسية . اذ اقترح على بلانش Blanche ام الملك لويس التاسع والوصية عليه بان يزوج بنته جين من الامير الفونسو اخو لويس التاسع وان يرثه الزوجان بعد وفاته[68] . وقد تمت موافقة البابا كريكوري التاسع على ذلك المشروع ايضا الذي تضمنته معاهدة باريس سنة ١٢٢٩ . وبذلك انتهت الحرب الالبجنسية بعد ثلاثين عاما من قيامها . وقد آلت امارة طولوز الى التاج الفرنسي عند وفاة كل من جين وزوجها سنة ١٢٧١ .

---

(68) Pirenne, op. cit. 336.

الفصل الحادي عشر

- الدول الاوروبية الكبرى في القرنين الرابع عشر والخامس عشر -

١ - فرنسا ١٣٢٨ - ١٤٨٣

لعل اهم الاحداث في التاريخ الفرنسي في تلك الفترة اعتلاء عائلة كابيه العرش الفرنسي سنة ١٣٢٨ ونشوب حرب المائة عام . ويعتقد البعض ان الحرب في واقعها كانت سجالا بين فرنسا وانكلترا منذ وفاة وليم الفاتح . ولهذا فهم يقسمون تلك الحرب الى مرحلتين الاولى يشار لها بحرب المائة عام الاولى والتي تنتهي حسب رأيهم في سنة ١٣٣٦ والثانية هي التي امتدت من سنة ١٣٣٧ حتى سنة ١٤٥٣ . ومهما يكن

من امر فان حرب المائة عام المعروفة لدى المؤرخين بصورة عامة هي التي بدأت في سنة ١٣٣٧ وسميت بتلك التسمية لمجرد الاصطلاح لانها دامت في الواقع اكثر من قرن .

ولهذه الحرب اسباب غير مباشرة واخرى مباشرة . ولعل من اهم الاسباب غير المباشرة الخلاف المزمن بين ملوك الانكليز والفرنسيين حول الاملاك الانكليزية في داخل فرنسا وكذلك تآمر ملوك فرنسا مع زعماء سكوتلاند وتحريضهم على التمرد ضد الانكليز . كما ان للقرصنتين الفرنسية والانكليزية في عرض البحار الاقليمية عوامل فعالة في تكدير الجو بين الطرفين . اما الاسباب المباشرة فتكمن في موضوعين هما وراثة العرش الفرنسي ومشكلة فلاندرز . وملخص النقطة الاولى ان ادورد الثالث ملك انكلترا ١٣٢٧ — ١٣٧٧ اعتبر نفسه احق بالعرش الفرنسي من فليب فالوا . اما كيفية مجيء الاخير الى العرش فهي : لقد ترك فليب الرابع ثلاثة اولاد حكموا بالتعاقب وهم لويس العاشر ١٣١٤ — ١٣١٦ وفليب الخامس ١٣١٦ — ١٣٢٢ وشارل الرابع ١٣٢٣ — ١٣٢٨ ولم ينجب اي منهم وريثا للعرش . وقد تزوج ادورد الثاني من اختهم ايزابيلا فولدت ادورد الثالث ملك انكلترا . ولهذا فعند انقطاع حبل الوراثة لعائلة كابيه ادعى ادورد الثالث بالعرش الفرنسي . غير ان الفرنسيين رفضوا ذلك الادعاء بعد ان تمسكوا بسابقة دستورية تشير الى انه لا يمكن لاية امرأة ان ترث عرش فرنسا وعليه فلا يحق لادورد المطالبة بالعرش الفرنسي من جهة والدته . هذا مع العلم ان تلك السابقة الدستورية الفرنسية قد اشار اليها القانون السالي الميروفيني الذي سبق ذكره . وعليه فقد وقع اختيار امراء فرنسا على فليب فالوا لانه اقرب وارث من الذكور لعائلة كابيه فهو ابن اخ فليب الرابع[1] .

اما فلاندرز فهي من الامارات التابعة لملوك فرنسا وهي في ذات الوقت من الاسواق الهامة للصوف الانكليزي . وكانت الامارة في نزاع مستمر مع ملوك فرنسا . وحدث ان قامت بها ثورة سنة ١٣٣٧ قادها

(1) Corton, A History of Europe from 1198 - 1378 (London, 1960) 273.

ارباب معامل النسيج وذلك لانقطاع استيراد الصوف من انكلترا بناء على اوامر الملك ادورد لعلاقاته العدائية مع ملك فرنسا . لهذا تعاقد قادة الثورة مع ادورد الثالث على ان يكونوا بجانبه حينما يعلن نفسه ملكا على فرنسا لقاء سماحه باستمرار التجارة بين فلاندرز وانكلترا . وعلى اثر ذلك اندلعت نيران الحرب الاهلية في فلاندرز والتي انقسم فيها السكان الى فريقين . تألف الاول من الطبقة المتوسطة اماالثاني فضم رجال الادارة والاقطاعيين حلفاء ملك فرنسا . واصبح النزاع هناك سافرا بين الجيوش الانكليزية والفرنسية[2] . لذا اعلن فليب فالوا السادس ١٣٢٨ ــ ١٣٥٠ مصادرة كافة الممتلكات الانكليزية في فرنسا سنة ١٣٣٨ ويعتبر هذا التاريخ البداية الرسمية لحرب المائة عام .

لقد خسر الفرنسيون اول معركة بحرية هامة سنة ١٣٤٠ في موقعة سلويس ، كما اندحروا في اول معركة برية كبرى سنة ١٣٤٦ في كريسي . واستولى الانكليز على ميناء كاليه سنة ١٣٤٨ . وانزلت الجيوش الانكليزية هزيمة بجيوش الملك جون الصالح ١٣٥٠ ــ ١٣٦٤ في موقعة بوانيه ووقع اسيرا بيد الجيوش الانكليزية سنة ١٣٥٦ التي كانت تحت قيادة الابن الاكبر لادورد الثالث الملقب بالامير الاسود[3] .

لقد اصبح شارل بن جون الصالح وصيا على العرش طيلة اسر والده (١٣٥٦ ــ ١٣٦٤) وعانت فرنسا في تلك الفترة اهوالا جساما من جراء الفوضى واختلال الامن . اذ كانت عصابات اللصوص وقطاع الطرق تعيث في الاراضي الفرنسية خالقة مصاعب جمة للسلطات . هذا بالاضافة لانتشار وباء الطاعون الذي حصد ثلث الارواح الفرنسية . وادت سوء معاملة الفلاحين الى ثورات عنيفة ذهب ضحيتها جموع غفيرة . لذلك امر الوصي بانعقاد مجلس الطبقات لينظر في الامر . ونظرا لعدم مقدرة النبلاء ورجال الدين على معالجة الوضع فقد حاول ممثلو الطبقة المتوسطة انتزاع الحكم . وقائد الطبقة المتوسطة هو Etienne Marcel من تجار باريس واحد اعضاء مجلس الطبقات . وقد اصدرت الطبقة

(2) Ibid., 275-77.
(3) Ibid., 285.

المتوسطة عدة مراسيم في هـذا الشأن سنة ١٣٥٧ يشار لهـا بالمراسيم الكبرى لكي يسير بموجبها الوصي في حكم البـلاد . الا ان محاولة مارسيل هذه قد باءت بالفشل علـى اثر الشائعات التـي دارت حول مارسيل بانه عميل للملك نافار حليف الانكليز . وانه من المتزعمين لثورة الفلاحين في فرنسا . لهذا نجح الوصي من اشعال ثورة ضده في باريس واعلنه خائنا واسفرت الحادثة عن مقتل مارسيل قائـد الطبقة المتوسطة واستعادة الوصي لحقوقه الاستبدادية واخماد ثورة الفلاحين سنة ١٣٥٨ بشدة متناهية[٤] .

توقفت الحرب موقتا بين الانكليز والفرنسيين بصلح بريتاني سنة ١٣٦٠ الذي اعترفت فيـه فرنسا بسيـادة انكلترا علـى ثلث الاراضي الفرنسية . واتفق فيه على اطلاق سراح الملك جون الصالح على ان يدفع فدية كبيرة . غير ان الاخير لم يتمكن من دفع الاموال الى الانكليز لهذا سلم نفسه ثانية اليهم وبقي اسيرا في لندن حتى وفاته سنة ١٣٦٤[٥] . وقد هيأت الظروف للملك شارل الخامس ١٣٦٤ ــ ١٣٨٠ قائـدا عسكريا موهـوبا هو برتران دو كسكلان Bertram Du Guesclin الـذي حير الانكليز بخططه العسكرية المبتكرة واحرز عدة انتصارات على الجيوش الانكليزية حرر بها اكثرية الاراضي الفرنسية عدا بوردو وبايون وبرست وكاليه وشوربك[٦] .

لقد اصابت فرنسا انتكاسات شديدة على اثر وفاة شارل الخامس . وذلك لان ابنه شارل السادس ١٣٨٠ ــ ١٤٢٢ كان في عمر الثانية عشر فاصبحت السياسة تسير بموجب اهواء اقاربه الذيـن طردوا الوزراء المخلصين من ذوي المواهب الذيـن ساسوا البـلاد بحكمة اثناء حكم والده[٧] . واخذت حاشية شارل السادس تنظر باحتقار الى كبار رجالات

(4) H. Pirenne, History of Europe, from the Invasions to the XVI Century (N.Y., 1955) 432-33.

(5) Corton, op., cit. 289-92.

(6) S. Painter, A History of the Middle Ages, 284-1500 (London, 1963) 345-47.

(7) Cambridge Medieval History, vol. 7, 368.

الدولة الذين لم ينحدروا من اصول ارستقراطية مشيرين لهم بالقرود ، كما انهم بددوا مالية الدولة في مشاريعهم الخاصة . ومع ذلك فقد حاول الملك عند بلوغه السن القانونية اصلاح ما افسدته هذه الزمرة من اهله الا انه اصيب بمرض عقلي سنة ١٣٩٢ افقده الرشد . واستمرت سياسة فرنسا متعثرة طيلة عهود زمر الوصاية[8] .

انقسمت البلاد في تلك الفترة بين فئتين متطاحنتين الاولى تحت قيادة امير برغندي جون الشجاع عضو مجلس الوصاية اما الثانية فتزعمها ارماناك امير اورليان . والسبب المباشر لهذا الانشقاق هو اغتيال الزعيم الاورلياني من قبل خصمه الامير البرغندي ليخلو له الجو في مجلس الوصاية فاندلعت الحروب الاهلية في باريس وخارجها .

استأنفت انكلترا في تلك الفترة الحرجة من تاريخ فرنسا الحرب في عهد هنري الخامس في وقت كانت فيه السيادة على العرش الفرنسي لفئة الارماناك . وتمكن هنري الخامس من دحر الجيوش الفرنسية في موقعة اجنكورت سنة ١٤١٥ وذلك للدور الذي لعبته المدفعية الانكليزية[9] . وبالرغم من انتصارات الانكليز فان الحروب الاهلية في فرنسا بقيت على ما كانت عليه . وقد اضطرت الفئة البرغندية الى الاتفاق مع الانكليز سنة ١٤١٩ للانتقام من اعدائهم فئة الارماناك التي اغتالت هي بدورها جون الشجاع زعيم الفئة الاولى . وكان من بين المتعاونين مع الانكليز ايزابيلا ام شارل السادس التي جعلت ولدها ضحية اخلاقية بتهتكها[10] . وعليه فقد اصبح هنري الخامس وريث العرش الفرنسي على اثر احتلاله باريس وعقده معاهدة تروي سنة ١٤٢٠ .

لقد توفي كل من شارل السادس وهنري الخامس سنة ١٤٢٢ . ومع ان الاخير والمسمى بهنري السادس اعتبر نفسه ملكا على الفرنسيين الا ان قسما من امراء فرنسا التف حول شارل الملقب بالوصي والمطالب بالعرش . وهكذا فقد مثل الاحتلال الانكليزي لباريس وتربعهم على

---

(8) Strayer and Munro, The Middle Ages, 395-1500 (N.Y., 1942) 465.
(9) Orton, op. cit., 294.
(10) W. Waugh, A History of Europe, 1378 - 1494 (London, 1960) 47-48.

العرش الفرنسي اهانة بالنسبة لمشاعر الفرنسيين . لذا فقد كـان الجو مهيئا في دومرمي Domremy على حدود اللورين لقيـام جان دارك . تلك الشابة القروية التي خيل اليها ان القوى الالهيـة ارسلتها لاخراج الانكليز من بلادها وتتويج الوصي ملكا في كنيسة ريمز . لقد تمكنت الفتاة من اقناع الوصي وحاشيته باهمية الرسالة التـي تحملها فجهزها بجيش صغير دكت به اسوار مدينة اورليان التـي يحتلها الانكليز سنة ١٤٢٩ . ثـم توجت جان دارك الوصي شارل فعلا في كنيسة ريمز تحت اسم شارل السابع[١١] .

لقد رغبت جان دارك في الانعزال بعد انتهاء مهمتها والذهاب لاهلها فلم يسمح لها الملك بذلك واستمرت تكافح من اجله . وقد اثارت قيادتها للجيش الملكي حسد القادة وكبرياء الفرسان فسهلوا وقوعها اسيرة بيد امير برغندي الذي باعها الـى الانكليز سنة ١٤٣٠ . وقـد اصر هؤلاء باحالتها الى محكمة دينية ادانتها بالكفر والهرطقة وقضت باعدامها حرقا سنة ١٤٣١ ولها من العمر احدى وعشرين سنة . لقد حرك اقدامها على الموت رافعة الرأس موفورة الكرامة مشاعر المسؤولين عـن حرقها فلم يتمالك احدهم ان صـاح باعلى صوته (لقـد خسرنا الحرب باحراقنا قديسة)[١٢] .

يعتبر سقوط اورليان نقطة التحول في حرب المائة عام . اذ حاول الانكليز عبثا ترسيخ اقدامهم بعد ذلك التاريـخ في فرنسا . حيث سرت موجة وطنيـة عارمـة في البـلاد الفرنسية تمثلت سياسيا في شخصية رشمونت Richmont وزير شارل السابع الذي تمكن من اقصاء كافة الخونة من الحاشية الملكية . وتمكن الفرنسيون مـن استرداد باريس سنة ١٤٣٦ . وقد اضطر الانكليز الى طلب الهدنة التـي استمرت مـن ١٤٤٤ ـ ١٤٤٩ وقد استعد اثنائها الفرنسيون لاسترداد بقيـة اراضيهم وخاصة بعد ان تم الاتفاق بـين زعيم البرغنديين فليب الصالح والملك

(11) Ibid., 71-78.

(12) Robinson, An Introduction to the History of Western, vol. I (Boston, 1946) 177-78.

الفرنسي شارل السابع . وما ان استؤنفت الحرب حتى كانت الانتصارات تتوالى على الفرنسيين ولم يبق بيد الانكليز سنة ١٤٥٣ غير ميناء كاليه[١٣] .

وبالرغم من المصائب التي انتابت فرنسا من جراء الحروب والمجاعات فقد سارت السلطة المركزية بخطوات ثابتة في فرض السيادة الفرنسية داخليا . اذ اصبحت المؤسسة الملكية في عهد لويس الحادي عشر ١٤٦١ ــ ١٤٨٣ مهابة الجانب في ارجاء البلاد خاصة بعد تشتيته التحالف الاقطاعي المسمى برابطة المصلحة العامة الذي هدف الى تقليص الصلاحيات الملكية . ولم تعد هناك معارضة تذكر سوى من جانب امير برغندي الذي تخلص الملك من شره بعد اندحاره وقتله في موقعة مع الجيوش السويسرية[١٤] .

يعتبر لويس الحادي عشر من اغرب الشخصيات الملكية . فقد نعته الكتاب مؤخرا امثال السير ولترسكوت بالانتهازية والكذب وغرابة الاطوار . اما لباسه فكان اكثر غرابة من تصرفاته . اذ دأب على لصق صور القديسين على البسته . كما وقد اطلق عليه لقب العنكبوت العالمي. وقال عنه الاديب الشهير فكتور هوكو بانه يخشى الموت الى درجة الجنون وانه من اشد الناس ايمانا بالخرافات بالاضافة الى خداعه واساليبه الانتهازية[١٥] .

ومهما يكن فان لويس الحادي عشر لم يتصرف الا بما حتمته عليه الاوضاع السياسية في بلاده ويعتبر من مكوني فرنسا الحديثة . اما غرابة اطواره الخاصة فقد تكون نتيجة لمراحل الانتقال العنيفة التي كان يمر بها المجتمع الفرنسي من عصر وسيط الى عصر احدث انعكست مظاهرها في المؤسسات وفي تصرفات الناس . ولقد اعتمد لويس الحادي عشر اعتمادا كليا على الطبقة المتوسطة حتى انه لقب بملك البورجوازيين.

---

(13) Strayer and Munro, op., cit., 470-71.
(14) Ibid., 473.
(15) Ibid., 472.

٢ – انكلترا ١٣٠١ – ١٤٨٥

تتميز هذه الفترة من التاريخ الانكليزي بتنامي الشعور بالوطنية . اذ ساعدت الحروب التي خاضها الانكليز ضد كل من ويلز وسكوتلاند من اجل توحيد البلاد سياسيا وكذلك حروب المائة عام على ازدياد الوعي الوطني . كما عملت التطورات الدستورية وحروب الوردتين على تقوية الطبقة المتوسطة والتأكيد على السيادة الداخلية وتعاظم السلطة الملكية .

لقد حاول الملك ادورد الاول بصورة جدية ضم كل من ويلز وسكوتلاند . اذ حكم الاقسام الجنوبية الويلزية امراء من النورمنديين الموالين اسميا للملك الانكليز . اما الاقسام الشمالية فقد حكمها الامراء الويلزيون المناهضون للسياسة الانكليزية وكانوا تحت زعامة لوليان L yewolyan حين اعتلاء ادورد العرش . وقد تمكن الاخير بمشاريعه العسكرية من الاستيلاء على المناطق الشمالية من ويلز واصبح ولي العهد للعرش الانكليزي منذ سنة ١٣٠١ يلقب بامير ويلز[16] . هذا مع العلم بان الاقسام الجنوبية من ذلك القطر لم توحد نهائيا مع انكلترا الا سنة ١٥٣٥ في عهد هنري الثامن .

اما امراء سكوتلاند فكانوا يعترفون بالولاء الاسمي للملوك الانكليز الا انهم امسوا في استقلال فعلي عند اعتلاء ادورد الاول العرش . وقد حاول الاخير ضم ذلك القطر باساليب سلمية في بادىء الامر . اذ اقترح على ملك سكوتلاند الاسكندر الثالث ١٢٤٩ – ١٢٨٦ تتويج بنته المسماة ماركريت من ابن ادورد الاول . ولم يكتب لهذا المشروع النجاح نظرا لوفاة ماركريت سنة ١٢٩٠ قبل الزواج[17] . وتهيأت الفرص لادورد عند اندلاع الحروب الاهلية في سكوتلاند واستنجاد بعض الاطراف المتخاصمة به لقاء اعترافهم بالتبعية . وتدخل ادورد فعلا بجانب الامير باليول وتمكن في مؤتمر برويك المنعقد سنة ١٢٩٢ من التأثير على الامراء وجعلهم يسندون رئاسة بلدهم الى باليول . ومع ذلك فقد حاول الاخير

(16) C. Orton, The Sharter Cambridge Medieval History, vol. II (Cambridge, 1953) 808-9.

(17) J. Mackie, A History of Scotland (Middlesex, 1964) 72.

جهده للتخلص من التبعية الانكليزية بتحالفه سنة ١٢٩٥ مع فليب الرابع ملك فرنسا . وهكذا اصبح التحالف العسكري بين فرنسا وسكوتلاند ضد انكلترا من اهم المبادىء في سياسة البلدين منذ ذلك التاريخ حتى مطلع القرن الثامن عشر . وعلى كل فقد تمكن ادورد من استعادة نفوذه في سكوتلاند بعد سلسلة حروب انتهت بتأسير باليول سنة ١٢٩٦ ونفيه الى فرنسا[١٨] . وبالرغم من ذلك فلم يلق الاسكوتلنديون السلاح ، اذ التفوا حول قيادة وليم والاس الذي وقع بيد الجيوش الانكليزية سنة ١٣٠٥ فتم اعدامه[١٩] . وقد تجددت المقاومة في عهد ادورد الثاني ١٣٠٧ — ١٣٢٧ بقيادة الزعيم الاسكوتلندي روبرت بروس الذي وافاه النصر على الجيوش الانكليزية سنة ١٣١٤ في موقعة بانوكبورن . وحاول ادورد الثالث فيما بعد ١٣٢٧ — ١٣٧٧ اخضاع سكوتلاند باعتماده على اسرة باليول التي كانت حليفة انكلتره في عهده . ومع ذلك فقد استمرت المقاومة الاسكوتلندية للسياسة الانكليزية تحت زعامة اسرة ديفيد حليفة ملك فرنسا شارل الرابع[٢٠] . وهكذا كونت سكوتلاند مركزا ستراتيجيا في حروب المائة عام .

التطورات الدستورية

لعل من اهم نتائج الحروب الانكليزية الاسكوتلندية وحروب المائة عام تزايد السلطة البرلمانية والتأكيد على السيادة الداخلية . وهنالك عاملان اساسيان نتجا عن ملابسات تلك الحروب نفسها لعبا دورا خطيرا في التطورات الدستورية الانكليزية في تلك الفترة هما : اولا احتياج الملوك الدائم لجباية الاموال من اجل مواصلة الحرب . وثانيا ازدياد النفوذ الاقتصادي للطبقة المتوسطة وجهادها من اجل كسب النفوذ السياسي .

اما فيما يخص العامل الاول فيتوضح في الامتيازات التي قدمها ملوك الفترة الى البرلمان لقاء الموافقة على زيادة الضرائب وجبايتها . وامست من المبادىء الثابتة سنة ١٣٤٠ ان لا يمكن للملك باية صورة من

(18) Ibid., 74-6.
(19) Ibid., 78.
(20) Ibid., 81-88.

الصور جباية الاموال بدون موافقة البرلمان . وقد امر البرلمان تعيين لجنة ماليــة خاصة ١٣٤٠ ــ ١٣٤١ لتدقيــق حسابات الدولة ولمعرفــة طرق صرفها . واشترط البرلمان ايضا سنة ١٣٤٨ ان يشار بصراحة الى الاسباب التي تشرع الضرائب من اجلها[21] . وهكذا فقــد اصبح فرض الضرائب وجبايتها وتخصيص المبالغ وتدقيق الميزانية من حقوق البرلمان . وكسب البرلمان تلك الحقوق نتيجة لمواقفه السلبية من مقترحات الملوك المالية اذ كان البرلمان لا يلبي طلبات الملوك ما لم يوافق سلفا على مطاليب ممثلي الامة[22] .

اما فيما يخص العامل الثاني فيلاحظ في الصراع الدائر بين حاشية الملك القديمة المتألفة من كبار الاقطاعيين ورجــال الدين وبين الطبقــة المتوسطة . اذ كانت الفئة الاولى في عهد ادورد الثالث تحت زعامة أسقف ونجستر وليم اوف ويكام . وقد تمكن الاخير من اقناع مجلس العموم بتهم موجهة ضد امانة بعض وزراء الملك ومحاكمتهم سنة ١٣٧٦ ، وكان هؤلاء من الطبقة المتوسطة العليا[23] . ثم حدث في سنة ١٣٨٨ ان قسما من اعضاء الطبقة المتوسطة في عهــد الملك رشارد الثانــي ١٣٧٧ ــ ١٣٩٩ وجهوا تهمة الخيانة العظمى الى نفر مــن حاشية الملك وصدر الحكم في حق اثنين منهم ووافق الملك مكرها على ذلك . وحينما حــاول الملك ان يثأر من زعماء المعارضة اسفرت النتيجة عن ثورة انتهت بسقوطه مــن العرش . وعلى اثر ذلك انتخب البرلمان هنري اوف لانكستر ملكا ولقب بهنري الرابع ١٣٩٩ ــ ١٤١٣ . وهكذا فقد اصبحت للبرلمان امتيازات وصلاحيات على جانب كبير من الخطورة في تلك الفترة . وبالرغم مــن الصراع والمنافسات الحــادة بــين الفئات البرلمانية وتمسكها في الحروب الاهلية في النصف الثاني من القرن الخامس عشر فان البرلمان الانكليزي من اهم المؤسسات التي قدمها العصر الوسيط التي ساهمت في توحيــد البلاد سياسيا وتوجيه الرأي العام توجيها صائبا .

---

(21) F. Deitz, A Political and Social History of England (N.Y., 1937) 123.
(22) T. Langmead, English Constitutional History (London, 1911) 230.
(23) Orton, op. cit., 890.

لقد اكد ملوك انكلترا والبرلمان الانكليزي في تلك الفترة علـى السيادة الداخلية وذلك بالحد مـن الامتيازات البابوية . وهنـاك جملة عوامل ساعدت على ذلك منها : (١) ان اقامة البابوات في آفينيون في فترة الاسر البابلي ١٣٠٥ ــ ١٣٧٧ وهم تحت تأثيرات ملوك فرنسا اعداء السلطات الانكليزية خاصة اثناء حرب المائة عام وادعاء البابوات بتبعية انكلترا لهم اقطاعيا منذ عهد الملك جون من الامور التي كدرت العلاقة بين الطرفين (٢) الاتجاه الاقتصادي الداخلي للاحتفاظ بثروة البلاد من المعـادن الثمينـة . اذ ان السياسة التجاريـة Mercantilism اخذت تتوضح شيئا فشيئا قبيل نهايـة العصور الوسطى في الاقطـار المتقدمة اقتصاديا . (٣) الحيلولة دون وقـوع الاموال المجباة باسم الدين في ايدي بابوات آفينيون حلفاء ملوك فرنسا . (٤) ان النمو الاقتصادي الذي تميزت به الاقطار الاوروبية عامة وانكلترا خاصة والاتجاه لطلب الارباح والاعراض عن سياسة الكفاف الاقتصادي الدينية شجعت على المواقف السلبية مـن البابوية . (٥) ان التنظيمات الكنسية في انكلترا واتصالها المباشر بكنيسة روما مدعاة للاصطدام وبدت لملوك الانكليز وكأنها تدخلات خارجية[24] .

ويمكن ملاحظة السياسة الانكليزية السلبية تجاه البابوية مما شرع من قوانين في هذا الشأن في عهد ادوارد الثالث . اذ منع قانون بريموناير Statute of Praemunire سنة ١٣٥٣ رفع الشكاوي الى محـاكم خارج انكلترا وقصد بها المحاكم البابوية في آفينيون وروما . ثـم شرع البرلمان سنة ١٣٦٦ قانونا جريئا في هذا المضمار جاء فيـه : حينما جعل الملك جون انكلترا اقطاعا بابويا سنة ١٢١٣ كان ذلك من الاعمال التي لا تأتلف ودستور البلاد اذ لا يجوز ذلك الا بعد موافقة البرلمان[25] .

لقد عبر جون وايكلف عـن المشاعر الانكليزية تجـاه البابوية في النصف الثاني من القرن الرابع عشر . وبالرغم من ان وايكلف هدف الى

---

(24) W. Lunt, History of England (N.Y., 1947) 251-2.
(25) Langmead, op. cit., 240.

اصلاح الكنيسة الا ان فعالياته كانت تعبيرا عـن الاحاسيس الوطنية الانكليزية باطار ديني . اذ اشار الـى وجوب تجرد الكنيسة عن الامور المادية لتتفرغ لواجباتها الروحية كليا ووضع الاملاك الدينية تحت تصرف الدولة ثم قام بترجمة الانجيل الى اللغة الشعبية . ان اراء وايكلف اثارت رجال الدين فقدم الى محكمة دينية ١٣٧٧ ـ ١٣٧٨ وكاد ان يعدم لولا الحماية التي قدمها لورد نورثمبريا وسكان مدينة لندن . وقـد تطرف وايكلف كثيرا بمناداته بعدمضرورة البابوية للعالم المسيحي. وادت آراؤه الى مضاعفات خطيرة كما سيتوضح ذلك في فصل قادم[٢٦] .

مشكلة العرش الانكليزي ١٣٩٩ – ١٤٥٣

ان اعتلاء هنري لانكستر الرابع العرش الانكليزي سنة ١٣٩٩ على اثر خلع رشارد الثاني بداية لسلسلة من المؤامرات والفتن حول العرش توجت بانـدلاع ما يسمى بحروب الوردتين ١٤٥٣ ـ ١٤٨٥ . اذ بقي اتباع شارل شوكة تحز بجانب هنري طيلـة حكمه وامضى حياته قلقا خائفا من الدسائس والمؤامرات التي تحاك في قصره وكـان ابنه وولي عهده عضوا فعالا في المؤامرات ضد الملك . وقـد افلحت المعارضة في اذكاء نار الثورة في ويلز الا ان الانتصار كـان بجانب هنري في موقعة شروسبري سنة ١٤٠٣ . وقد حاول لورد كمبرج الوثوب على التاج في عهد هنري الخامس ١٤١٣ ـ ١٤٢٢ وادى فشله الى اعدامه . لقد هدأت المعارضة لهنري الخامس على اثر الانتصار الذي حققه علـى الجيوش الفرنسية في حرب المائة عـام في موقعة اجنكورت سنة ١٤١٥ ودخوله باريس ظافرا . الا ان المعارضة عادت بشكل فعـال في عهد ابنه هنري السادس ١٤٢٢ ـ ١٤٦١ . اذ كان لهذا تسعة شهور عنـد وفاة والده فاصبحت انكلترا اثنـاء الوصاية مسرحا للمؤامرات . وقـد ازدادت المؤامرات شدة بعد توليه مسئولية الحكم وخاصة اثر الاندحارات التي منيت بهـا الجيوش الانكليزية في فرنسا سنة ١٤٤٩ وخسارتها لمعظـم الاملاك هناك . وساعدت تلك الكارثة على اذكاء عدة ثورات في انكلترا

---

(26) سنأتي على الموضوع في الفصول القادمة

منها ثورة جاكيد سنة ١٤٥٠ . والاخير من عامة الناس تمرد في مقاطعة كنث واحتل لندن برهة من الزمن وانتهت الثورة على اثر مقتله . ومما زاد في الطين بلة اصابة الملك في لوثة عقلية سنة ١٤٥٣ ادت الى كوارث حروب اهلية عامة .

حروب الوردتين ١٤٥٣ — ١٤٨٥

سميت الحروب التي اندلعت في ذلك التاريخ بالوردتين نسبة لشعاري عائلتي يورك ولانكستر . اذ كانت الوردة البيضاء رمز الاولى والحمراء الثانية . بدأ النزاع في اول الامر حول الوصاية على الملك المريض ثم تطور الى من يخلفه من بعد مماته لا سيما انه لم ينجب وريثا بعد . ويمكن تمييز ثلاث مراحل في هذا الصراع . تمتد الاولى من ١٤٥٣ — ١٤٦٠ اذ عين فيها رشارد دوق يورك وصيا على هنري السادس اثناء المرض وقد اوصى بالعرش الى رشارد في حالة عدم ولادة وريث لهنري . غير ان زعماء المعارضة لم يأخذوا بذلك وقد التف هؤلاء حول ماركريت زوجة الملك هنري السادس التي اخذت توجس خيفة من ان رشارد سوف يفوز بالعرش لا سيما وقد ولد لها طفل . واسفرت المعركة بين الطرفين عن مقتل رشارد سنة ١٤٦٠[٢٧] . وامتدت المرحلة الثانية من ١٤٦٠ — ١٤٨٣ اذ آلت فيها القيادة الى ادورد بن رشارد الذي فاز بالعرش على اثر انتصاره على جيوش لانكستر في موقعة تاوتتون سنة ١٤٦١ واستمر في الحكم حتى ١٤٨٣ . اما مرحلة الحروب الاخيرة فامتدت منذ ١٤٨٣ — ١٤٨٥ . وتميزت بالصراع بين هنري تيودر ورشارد الثالث . والسبب في ذلك ان الاخير كان في بداية الامر وصيا على ابن ادورد الرابع والمسمى بادورد ايضا . الا ان رشارد طمع بالملك فاعلن نفسه ملكا باسم رشارد الثالث ولم يستمر طويلا في الحكم اذ فقد حياته في معركة بوسورث سنة ١٤٨٥ التي اسفرت عن انتصار هنري تيودور واعلانه ملكا باسم هنري السابع[٢٨] .

---

(27) Painter, op., cit. 380.

(28) S. Bindoff, Tudor England (Middlesex, 1951) 7-8.

لم تعد تسمية امبراطورية الجرمان بالامبراطورية الرومانية المقدسة حقيقة متجاوبة مع الواقع وخاصة منذ اعدام كونرادينو سنة ١٢٦٨ وخروج الاجزاء الايطالية من السيطرة الجرمانية . ومع ذلك فقد بقي حكامها يحملون ذلك اللقب حتى سنة ١٨٠٦ حيث جردهم منه نابليون الاول .

ولعل اهم ميزات تاريخ الامبراطورية في هذه الفترة اشتداد الاتجاهات اللامركزية الاقطاعية في المانياوالنعرات المحلية Localism التي بلغت شأوا بعيدا في فترة الاضطرابات والفوضى التي انتابت الامبراطورية والمشار لها عادة بالفترة الشاغرة الكبرى The Great Interregnum [٢٩] . هذا مع العلم ان الامبراطور فردريك الثاني كان قد اعترف فعلا بسيادة امراء الاقطاع في مرسوميه لسنتي ١٢٢٠ و ١٢٣٢ Pragmatic . Sanctions . اذ فوض فيهما الامراء حق التصرف المطلق في اماراتهم عند غياب الامبراطور عن المانيا[٣٠] .

لقد لعب رجال الدين والامراء ورؤساء قسم من الدول الاوروبية ادوارا خطيرة في الفترة الشاغرة زادت في الحالة العامة ارتباكا وجعلت من العرش الامبراطوري لقبا اجوفا . اذ انقسم النبلاء في البداية بين كل من وليم الهولندي وامير صوابيا ، وبوفاة الاخير ونتيجة لوساطة رئيس اساقفة كولون وقع اختيار قسم من النبلاء على الامير ادورد اوف كورنوول وهو اخو ملك انكلترا هنري الثالث ، بينما ايد الاخرون الفونسو ملك الكاستيل . ونتيجة للاوضاع المزرية التي تسببت من جراء ضياع الامن ونتيجةلوفاة ادورد سنة ١٢٧١ ولتوسطات البابوية لاعادةهيبة الامبراطورية لاستخدام مواردها للاغراض الصليبية[٣١] ، فقد اتفق على

---

(29) يختلف المؤرخون في تحديد بداية الفترة الشاغرة التي مرت بها الامبراطورية بدون رئاسة امبراطورية حقيقية . اذ اعتبرها البعض منذ وفاة فردريك الثاني سنة ١٢٥٠ واعتبرها قسم اخر منذ مقتل كونرادينو سنة ١٢٦ . اما نهايتها فكانت سنة ١٢٧٣ بانتخاب رودولف هبسبورك .

(30) J. Bryce, The Holy Roman Empire (London, 1950) 2099.

(31) Oéton, op. cit., 795.

انتخاب رودولف اوف هبسبورك ١٢٧٣ ـ ١٢٩٢ .

يمثل ظهور عائلة هيسبورك ميزة اخرى في تاريخ الامبراطورية الرومانية المقدسة . تلك العائلة التي ظلت تلعب ادوارا هامة في حوادث التاريخ حتى سنة ١٩١٨ . وسميت العائلة بتلك التسمية نسبة الى قلعتها (هابس بورك) اي قلعة الصقر المشادة سنة ١٠٢٠ ولم تزل اطلالها قرب الخط الحديدي الممتد من اولتن الى زوريخ . هذا مع العلم ان تلك الاسرة لم تتمكن من جعل العرش وراثيا فيهـا الا في عهد الامبراطور البرت ١٤٣٨ ـ ١٤٨٠ .

وهناك حادثان هامان في سياسة رودولف الاول : الاول الاتفاق الذي تم بينه وبين البابا كريكوري العاشر سنة ١٢٧٥ في مؤتمر لوزان ، حيث تنازل فيه عن الامـلاك الامبراطورية في ايطاليا الى البابوية كما اعترف بمملكة الانجويين في الصقليتين[٣٢] . والثاني هو استيلاؤه على امـارة النمسا Austria التـي كـانت تحت سيطرة اوتوكار ملك بوهيميا . وبقيت النمسا قاعدة للعائلة هبسبورك منذ سنة ١٢٧٨[٣٣] .

لقد اعتلى عرش الامبراطورية في فترة ١٢٩٢ ـ ١٤٣٨ عدة اباطرة من اصول مختلفة هم :

ادولف اوف ناسو ١٢٩٢ ـ ١٢٩٨

سار هذا في سياسة متعثرة في الخارج والداخل . اذ اراد الدفاع عن حدوده الغربية لتحالفه مع ادورد الاول ملك انكلترا فاستفزت تلك السياسة فليب الرابع ملك فرنسا الذي اخذ يحيك المؤامرات بالاتفاق مع قسم من امراء الجرمان ضد الامبراطور . كما ان سياسته الداخلية بالتقارب من المدن للاستفادة منها ضد الامراء عجلت الاطاحة بـه . اذ التف المعارضون حول قيادة البرت هبسبورك واسفرت مجهوداتهم عن خلع الامبراطور وقتله[٣٤] .

---

(32) Bryce, op. cit., 216.
(33) Orton, op. cit., 798.
(34) Bryce, op. cit., 226.

البرت الاول ١٢٩٨ — ١٣٠٨

كان هذا سياسيا بارعا واداريا ماهرا ومستبدا . تحالف مع الطبقة المتوسطة للحد من نفوذ النبلاء الا ان هذا التحالف لم يأت بثمراته المرجوة لاغتيال الامبراطور سنة ١٣٠٨ .

وهو دوق لكسمبورك الذي عرف بطموحه والاهتمام بتقوية نفوذ اسرته وقد فاز بتاج بوهيميا لابنه جون . وهدف الى استعادة ما ضاع من هيبة الامبراطورية . لذا حاول الاستيلاء على ايطاليا . ان مساعيه الرامية لاعادة بناء الامبراطورية الرومانية المقدسة الهمت الشاعر الايطالي دانتي الاشادة بفضائل الامبراطورية وضرورتها للعالم المسيحي وواجب الايطاليين في الانضمام الى لوائها[٣٥] .

لويس البافاري ١٣١٤ — ١٣٤٧

لقد اشتد التنافس حول العرش على اثر موت هنري السابع وذلك بين لويس البافاري وفردريك هبسبورك . وقد تمكن لويس من الانتصار عسكريا سنة ١٣٢٢ على خصمه . ومن اهم المشاكل التي جابهته هي معارضته البابا جون الثاني والعشرين . وقد جعل لويس من مقره وكرا للناقمين على بابوية آفينيون وان المواقف السلبية بين البابا والامبراطور ادت بكل منهما الى اتخاذ اجراءات ضد بعضهما البعض . وما يهمنا منها القرار الذي اتخذه مجلس امراء الالمان في مدينة رنز سنة ١٣٣٧ الذي نص على عدم ضرورة اخذ موافقة البابوية في انتخابهم الامبراطور[٣٦] .

شارل الرابع ١٣٤٧ — ١٣٧٨

كان هذا ملكا على بوهيميا ايضا . اتخذ اجراءات داخلية لها تأثيرات بعيدة المدى . اذ اهتم بنشر التعليم وامر بتأسيس جامعة براغ . ثم اصدر المرسوم الذهبي Golden Bull سنة ١٣٥٦ . وهذا عبارة عن

---

(35) سيرد ذكرها في الفصول القادمة

(36) C. Orton, A History of Europe, 1198-1378, (London, 1960) 305.

وثيقة دستورية اقطاعية شبيهة باهميتها في هــذا الشأن بالعهد الاعظم الانكليزي . اذ اصبح فيهــا لناخبي الامبراطور Electors تأثيرات كبرى في شؤون الامبراطورية[٣٧] . ولم يصدر الامبراطور ذلك المرسوم لرغبة منه وانما اضطر الى ذلك نتيجة لصراع مع الامراء تمت تسويته في مؤتمرات في نورمبرك ومتز . واشار المرسوم الــى جعــل مدينــة فرنكفورت مقر الانتخابــات للعرش الامبراطوري وان يؤخذ بمبــدأ الاكثرية في الاصوات وان تكون السيادة تامــة للامراء في اماراتهم . وهكذا فقد اعترف المرسوم الذهبي بصورة نهائيــة باستقلال الامراء . اما الناخبون الذين يحق لهم انتخــاب الامبراطور فهم : رؤساء اساقفة كل من متز وتريفس وكولون ثــم امراء كل مــن سكونيا والبلاتينات وبراندنبرك وكذلك ملك بوهيميا .

لقد حكم ولدا شارل الرابع على التعاقب وهما ونسلاس ١٣٧٨ ــ ١٤٠٠ وسكسموند ١٤١٠ ــ ١٤٣٨ . وعرف الاول باستهتاره اذ قيل عنه اكبر سكير عرفه التاريخ فاضطر الامراء لخلعه . وبعــد حروب اهلية استمرت عشر سنوات فاز سكسموند بالعرش . وكان هذا في بدايته امير لكسمبورك . حــاول معالجة امــور جسام عنــد توليه الامبراطورية كالاسهام في انهاء الفتنة الدينية الكبرى التي جاءت في اعقــاب الاسر البابلي وكذلك انها مشكلة جون هس المذهبية في بوهيميا[٣٨] . وحاول كذلك يائسا دفع الخطر العثماني المتدفق نحو الغرب . وقــد اضطر في اواخر ايامه ان يعهد بكثير من ممتلكاته الى عائلــة هبسبورك نتيجــة لاتفاق بين الطرفين .

تأصل العرش في أسرة هبسبورك :

انتخب البرت هبسبورك امبراطورا ١٤٣٨ ــ ١٤٤٠ وبقي العرش في صلبه منذ ذلك التاريخ حتى سنة ١٨٠٦ . هذا ولم يكن حكم هــذه

(37) C. Orton, The Shorter Cambridge Medieval History, Vol. II (Cambridge, 1953) 812.

(38) Waugh, op. cit., 171.

الاسرة موفقا في المانيا في القرن الخامس عشر . فمثلا ان فردريك الثالث ١٤٤٠ ــ ١٤٩٣ كـــان مهملا ولــم يحضر اجتماعــات مجلس الامراء (الدايت) ولم يبرح الاراضي البوهيمية . ولم يحــاول النبلاء خلعه بالرغم من تذمرهم من سياسته وذلك لعدم اتفاقهم على من يخلعه .

ان الاحوال السياسية والاجتماعية كانت علـــى جانب عظيم مـــن الفوضى والارتباك في القرن الخامس عشر . وانه مـــن المتعذر تاريخيا الحصول على صورة تقريبية لما كان يحدث بـــين الاجزاء الالمانية مـــن حروب ومعاهدات وضم بعضها البعض وانفصال البعض عـــن الاخر . ومع ذلك فقد برزت قوى جديدة على المسرح تمثلت في قيادات الطبقة المتوسطة لمدن كل من العصبة النسبة Hansteatic League ومدن المانيا العليا (سويسرة) وبداية تعالي شأن عائلة هوهنزولدن الاقطاعية الحاكمة في جهات براندنبرك .

العصبة الهنسية

وهذه عبارة عن اتحاد المدن التجارية الالمانية الواقعة على حوض الراين وفي الاقسام الشمالية الالمانية . ظهرت العصبة بشكلها المتكامل منذ اواسط القرن الرابع عشر . غايتها حماية طرق المواصلات واحتكار التجارة بين مدن ايطاليا والمانيا . وأسست لها مراكز في انكلترا وروسيا وسكندنافية . وتمركزت العصبة في البداية على الاتحاد التجاري بـــين ليوبك وهمبورك سنة ١٢٣٠ . واصبح للعصبة اسطول تجاري وعسكري سيطرت به على تجارة شمال اوروبا حتى اوائل القرن السادس عشر[٣٩] .

عصبة مدن المانيا العليا ــ الاتحاد السويسري

كانت الاراضي التي كونت الاتحاد السويسري تابعـــة الى اسرة هبسبورك ، اما التاريخ الذي بدأ به اتحـــاد تلك المدن فلم يكن واضحا من ناحية تاريخية ويرجح على انـــه بدأ في القرن الثالث عشر في الوقت الذي اصبحت فيه تلك الانحاء مراكز وصل تجارية بين ايطاليا واواسط

(39) Strayer and Munro, op. cit., 490-91.

اوروبا .

تزعمت المقاومة لحكم اسرة هبسبورك ثلاث ولايات تدعى بولايات الغابات تألفت من بوري وشفايز ويونثر فولتن . بدأت المشكلة عندما طالبت تلك الولايات بالاستقلال الذاتي ضمن الامبراطورية بدلا من الرابطة الاقطاعية . فعقدوا بينهم ميثاقا يشار له بالميثاق الدائم سنة ١٢٩١ لتحقيق مطاليبهم عن طريق الحرب . وكتب لهم النصر عسكريا في موقعة مركارتن سنة ١٣١٥ واضطر آل هبسبورك الى الاعتراف باستقلالهم الذاتي . واخذ الاتحاد بالتوسع في النصف الثاني من القرن الرابع عشر على اثر انتماء مدن هامة اليه مثل لوسرن وزوريخ وكلاروس وبرن . وعقد اعضاء الاتحاد فيما بينهم ميثاقا دعي بعهد القساوسة سنة ١٣٧٠ Pfaffenbrief نظموا فيه الامور القضائية ووسائل حماية الطرق التجارية . وحاول آل هبسبورك اعادة الكرة على الاتحاد فدارت الدوائر على جيوش الامير ليوبولد هبسبورك في معركة سمبانع سنة ١٣٨٦ حيث اسفرت عن مقتله . كما حققوا انتصارا اخرا على اسرة هبسبورك سنة ١٣٨٨ في موقعة نافلس [٤٠] .

ان تسمية اتحاد المدن بالاتحاد السويسري لم تكن رسمية الا في القرن السابع عشر وان الاسم السائد قبل ذلك كما قلنا عصبة مدن المانيا العليا . كما بقي الاتحاد تقريبا مقتصرا على الامور الدفاعية حتى نهاية القرن الخامس عشر . وقد اضطرت الامبراطورية الرومانية المقدسة الى الاعتراف صراحة باستقلال الاتحاد التام سنة ١٥٠٠ في عهد الامبراطور ماكسمليان الاول . وقد اعترف دوليا بذلك الاستقلال في صلح ويستفاليا سنة ١٦٤٨ الذي انهى حرب الثلاثين عاما الدينية في اوروبا[٤١] .

ازدياد نفوذ عائلة هبسبورك

ان سياسة المصاهرة التي اتبعتها هذه الاسرة مع العوائل الاوروبية الحاكمة كانت من اهم اسباب زيادة قوتها منذ اواخر القرن الخامس عشر

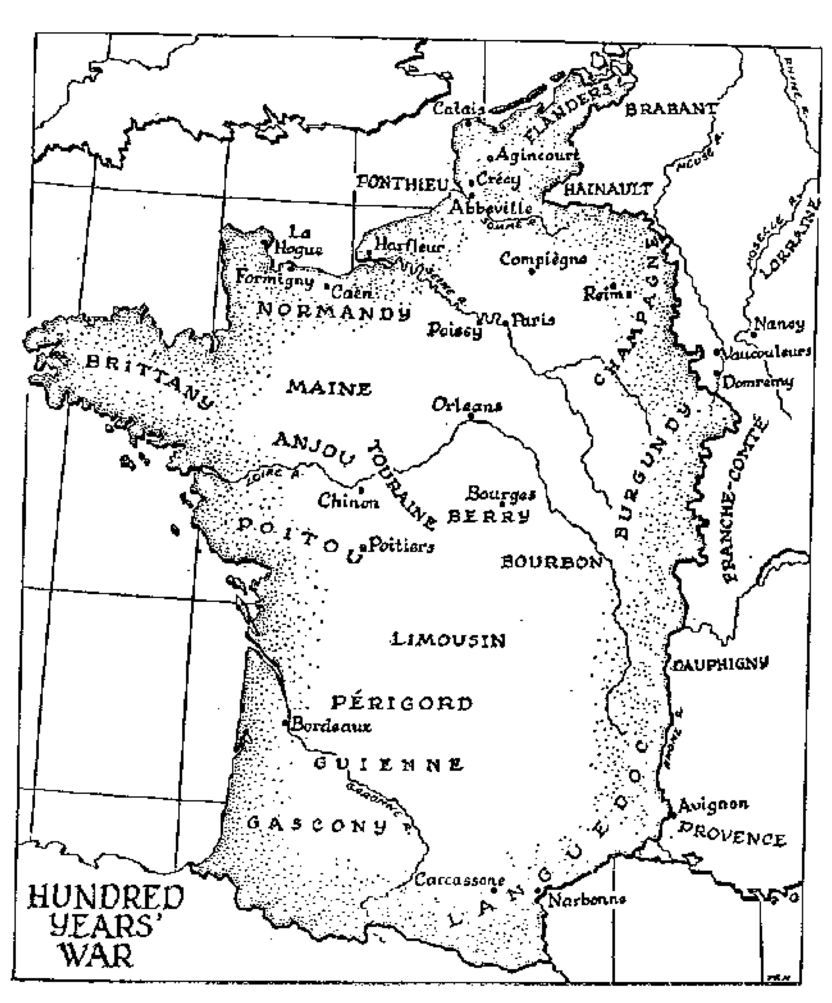
(40) Orton, op. cit., 855-60.
(41) Bryce, op. cit., 354.

فبتلك الطريقة تمكن الامبراطور ماكسمليان الاول ١٤٩٣ ــ ١٥١٩ من الاستحواذ على الاراضي المنخفضة .

ظهرت الاراضي المنخفضة وهي ما تسمى الان هولندا وبلجيكا ، كدولة في النصف الاول من القرن الخامس عشر . ولعب امراء برغندي دورا هاما في توحيد اقليمي فلاندرز وبرابانت (بلجيكا) . حيث استغل هؤلاء ظروف فرنسا في حرب المائة عام فاستأثروا بحكم تلك الاجزاء . وقد تم توحيد القطرين السابقين سنة ١٤٢٠ في عهد فليب الصالح البرغندي ١٤١٩ ــ ١٤٦٧ . وقد آلت الاراضي المنخفضة الى اسرة هبسبورك نتيجة لزواج ماكسمليان سنة ١٤٧٧ من اميرة برغندي الوارثة لتلك الانحاء[٤٢] .

لقد اضاف ماكسمليان اقطارا اخرى لاسرة هبسبورك . اذ اتفق سنة ١٤٩١ مع ملك بوهيميا وهنغاريا ان تكون عائلة هبسبورك الوارثة لعرشه في حالة عدم وجود من يرثه من الذكور . كما قام بتزويج ابنه فليب سنة ١٤٩٤ من الاميرة جوانا وارثة العرش الاسباني . وبذلك اعتبر الامبراطور ماكسمليان الاول المؤسس الثاني لعظمة اسرة هبسبورك . وقد بدت سياسة ذلك الامبراطور التوسعية بذلك الاسلوب التام وكأنها استهدفت السيطرة على اوروبا .

(42) Ibid., 357.



حرب المائة عام

الفصل الثاني عشر

الاوضاع السياسية العامة في ايطالية بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر

ان المتأمل في تاريخ التطورات العامة في ايطاليا اثنـــاء تلك الفترة يراها ميدان صراع عالمي تمثل في قوى كل من المسلمين والامبراطوريتين البيزنطية والجرمانية والبابوية والنورمنديين والمدن الايطالية والفرنسيين والاسبان . وتبلور الصراع في ثلاثة اجزاء هي مملكة الصقليتين وتضم صقلية ونابولي والاجزاء الجنوبية من شبه الجزيرة الايطالية ، ثم المدن الايطالية والولايات البابوية .

الصقليتان

لقد اسفر تصارع القوى في الاقسام الايطالية الجنوبية عن انتصار النورمنديين على القوى الاسلامية والبيزنطية في القرن الحادي عشر . وهنا لا بد للمرء ان يتساءل من اين جاء هؤلاء النورمنديون وكيف رسخوا اقدامهم في الجهات الايطالية ؟ انهم فرع من الشماليين الذين استوطنوا فرنسا تحت قيادة رولو Rollo the Ganger . حيث اضطرت الحكومة الفرنسية في عهد شارل البسيط الى الموافقة رسميا على سكناهم في المنطقة التي عرفت باسمهم اي نورمندي سنة ٩١١ فاعتنق رولو المسيحية وتسمى بالاسم المسيحي روبرت . واصبح النورمنديون بمرور الزمن فرقا عسكرية يتاجرون بفروسيتهم في المجتمع الاوروبي الاقطاعي[١] . وقد ذهبت منهم جماعة من الفرسان في اوائل القرن الحادي عشر سنة ١٠١٩ الى حج بيت المقدس . وادرك هؤلاء عند مرورهم في الاقسام الجنوبية الايطالية مقدار الفرص المؤاتية [illegible] . وكان من بين تلك الجماعة ثلاثة اخوان هم وليم ودروكو وهمفري [illegible] زعيم النورمندي المدعو تانكرد هوتفيل Tancred de Hautevill [٢] . بدأوا حياتهم في ايطاليا كفرقة عسكرية اجيرة في خدمة حاكم مدينة باري الذي استعان بهم ضد السلطات البيزنطية . كما قدموا خدماتهم فيما بعد للبيزنطيين في حرب المسلمين في صقلية سنة ١٠٣٨ .

لقد تطورت فعاليات النورمنديين العسكرية فتحولت من فرق اجيرة الى جيش عسكري مستقل يستهدف تثبيت الاقدام في تلك الجهات . اذ استولى النورمنديون بقيادة وليم على منطقة ابوليا مكونا منها امارة مستقلة حتى وفاته سنة ١٠٤٦ . واستعان النورمنديون في ايطاليا بابناء جلدتهم في فرنسا فوفد عليهم ثلاثة من فرق الفرسان بقيادة كل من روبرت كيسكارد R. Quiscard ووليم وروجر Roger . واستفزت فتوحات هؤلاء في بداية الامر البابا ليو التاسع الذي استعان

---

(1) H. Treece, The Crusades (N.Y., 1964) 55-6.

(2) S. Painter, History of the Middle Ages, 284-1500 (London, 1963) 197.

ضدهم بالقوات البيزنطية . فدارت الدوائر على القوات البابوية — البيزنطية في موقعة سيفيتان سنة ١٠٥٥ ، ووقع البابا اسيرا بيد قوات روبرت كيسكارد . الا ان اندحار البابا تحول الى نصر رائع . اذ اعلن النورمنديون بانهم حماة البابوية وعندما تمرغ روبرت تحت اقدام البابا علت شفتي ليو التاسع ابتسامة الرضا والقبول وخاصة حينما اعلن روبرت بانه مجرد تابع بالمعنى الاقطاعي للبابوية . ثم وعدت البابوية روبرت بان صقلية ستكون له اقطاعا فيما لو استخلصها من المسلمين[٣] . لذا ارسل روبرت اخاه روجر لفتح صقلية التي استدامت فيها العمليات العسكرية حتى سنة ١٠٩١ حيث استكمل النورمنديون فتحها[٤] .

اخذ روبرت يعمل على تصفية الممتلكات البيزنطية في الاقسام الايطالية الجنوبية ويعد العدة للاستيلاء على القسطنطينية . فقد تمكن من الاستيلاء على باري سنة ١٠٧١ المركز البيزنطي الهام في الجنوب الشرقي من الساحل الايطالي في وقت كانت فيه الامبراطورية تخوض معارك ضارية ضد السلاجقة في اسيا الصغرى والتي تأتت منها هزيمة الجيش البيزنطي في موقعة مانزيكرت الخطيرة في السنة ذاتها . هذا وقد جهز روبرت اسطولا دحر فيه القوى البيزنطية سنة ١٠٨١ قرب دورازو . فاستنجد البيزنطيون بجمهورية البندقية التي رأت في التوسع النورمندي خطرا على مواصلاتها ومصالحها التجارية . لذا عقد البنادقة والبيزنطيون في عهد الامبراطور الكسيوس الاول معاهدة حققت للفريق الاول امتيازات اقتصادية واسعة في الامبراطورية سنة ١٠٨٢ مقابل الاشتراك في الحرب ضد النورمنديين[٥] . وأنزلت قوات البنادقة البحرية هزيمة بجيش روبرت في جهات دورازو . غير ان روبرت اعاد الكرة على سواحل الادرياتيك متوغلا في الجهات البلقانية محرزا انتصارات في أبروس وتساليا وكاد ان يصل الى سلانيك . غير انه حدث في ذلك الاثناء ان استنجد البابا كريكوري السابع بروبرت ضد الامبراطور الجرماني

(3) Treece, op. cit., 57.

(4) S. Runciman The Sicilian Vespers (Middlesex, 1960) 19-20.

(5) A. Vasiliev, The Byzantine Empire, 324-1453, Vol. II (Madison, 1964) 381-82.

هنري الرابع الذي اقتحم روما سنة ١٠٨٤ بعـد حصار سنتين . لهـذا اضطر روبرت الى ترك جيشه في تساليا قاصدا ايطاليا . وهنـاك كون فرقة عسكرية ضمت طليان ونورمنديين ومسلمين من اجل اغاثـة البابا ولكن بعد فوات الاوان . ومـع ان هذا الجيش تغلب علـى الحامية الجرمانية الصغـيرة في روما الا ان السيوف النورمندية انقلبت علـى الرومانيين اثر ثورة نشبت في المدينة ضد روبرت اذ امر الاخير باخمادها بشدة ونهبت روما نهبا لم تشهد له مثيـلا في تاريخها سنة ١٠٨٤ . اما مصير جيشه في تساليا الذي تولى قيادته اخوه بوهيمند فقد تغلبت عليه قوات الامبراطور الكسيوس الاول . لذا جهز روبرت حملة ثالثة ضد البيزنطيين والبنادقة تمكن بها من الانتصار على الاسطول البندقي قرب جزيرة كورفو سنة ١٠٨٤ كما استولى على جزيرة سفولونيا **Cepholonia** حيث توفي فيها سنة ١٠٨٥[6] .

لقد تمكن روجر الاول ١٠٨٥ ــ ١١٠١ من اكمال فتح صقلية سنة ١٠٩١ ، واصبحت الصقليتان في عهده دولة قوية لها دورها الفعـال في سماء السياسة الاوروبيـة . اذ كونت تلك الدولـة موقعا ستراتيجيا واقتصاديا هاما في تلك الجهات مـن البحر المتوسط وأمست كل مـن امالفي وسالرنو وبالرمو نقاط الانطـلاق التجاري لكافـة جهات ذلك البحر . وظهرت اهمية هذه الدولة بشكل واضح في عهد روجر الثانـي ١١٠١ ــ ١١٥٤ الذي جعل العاصمة في بالرمو وحول لقبه من كونت الى ملك سنـة ١١٣٠ وامتدت سيطرته الى نابولي وكابوا . ووصف روجر الثاني باليقظة والذكاء وجدية الاعمال وانه (ينجز مـن الاشغال اثناء نعاسه ما يعجز عنه الرجال وهم يقظى)[7] .

لقد اثارت مشاريع روجر الثاني التوسعية كلا من البابوية واباطرة الجرمان والبيزنطيين ومسلمي الشمال الافريقي وكتب له النصر عـلى هؤلاء جميعا وامتدت سطوته الى تونس وسفاقس وبونه وطرابلس .

(6) W. Durant, The Age of Faith, 325-1300 (N.Y., 1950) 453.

(7) C. Waern, Medieval Sicily (London, 1910) 36.

(8) Cambridge, Medieval History, Vol. VI, 131.

اتبع روجر الثاني سياسة ادارية حازمة واعتبرت حكومته من اكثر الحكومات الاوروبيــة تنورا[8] . اعتمد فيهــا على المسلمين واليهــود والاغريق وابقى على التقسيمات الاقطاعية التي كانت سائدة في صقلية في العهد الاسلامي بعد ان جعل الاقطاع خاضعا لاشراف السلطة المركزية. وعمل علــى تقوية الاقتصاد الصقلي بتشجيعه صناعــة الحرير بصورة خاصة . وسمح للمسلمين واليهود بحرية العبادة والتعليم فكان من اكثر حكام اوروبا تسامحا وثقافة انذاك[9] .

اخذ الحكم النورمندي بالتدهور في الصقليتين اثر وفــاة روجر الثاني . اذ لم يتمكن كل من وليم الاول ١١٥٤ ـــ ١١٦٦ ووليم الثاني ١١٦٦ ـــ ١١٨٩ من النهوض باعبــاء الحكم . فقــد لقب الاول بوليم الطالح لتعسفه . وحدثت ثورة في عهده في تونس اسفرت عن تحرير ذلك القطر من السيطرة النورمندية . اما وليم الثاني فعاش خليعا اشبه بالاول ومع ذلك اشار اليــه المؤرخون بوليم الصالح ولعل اللقب لمجرد تمييزه عن الطالح[10] . وقد اختار النورمنديون بعد وفاة وليم الثاني احد احفاد روجر الثاني غــير الشرعيين والمسمى تانكريد ١١٨٩ ـــ ١١٩٤ والذي انتهى في نهاية حكمه العهد النورمندي في الصقليتين .

اسرة هوهنشتاوفن والصقليتان ١١٩٤ — ١٢٦٨

آلت الصقليتان عن طريق المصاهرة والقوة لاباطرة الجرمان مــن اسرة هوهنشتاوفن . اذ ادعى الامبراطور هنري السادس بعرش المملكة لزواجه من عمة وليم الثاني وآزرته في ذلك الادعاء كل من بيزا وجنوا . وتقدم فعلا بجيش كبير الى بالرمو حيث توج فيها ملكا علــى صقلية . وخلفه من بعده ابنه فردريك الثاني الذي عهدت به امه بالوصاية عليــه للبابا انوسنت الثالث[11] .

فردريك الثاني كملك للصقليتين : ١١٩٧ — ١٢٥٠

اشرنا سابقا في موضــوع الامبراطورية الرومانية المقدسة الــى

(9) G. Sarton, Introduction to the History of Science, Vol. II (Baltimore, 1930) 119.

(10) Runciman, op., cit. 21-22.

(11) Ibid., 25-26.

السياسة الامبراطورية العامة لفردريك الثاني. والحقيقة ان الاخير لم يكن مهتما بالمانيا كاهتمامه في مملكة الصقليتين وقد تجلت مواهب فردريك السياسية والفكرية في حكمه الصقليتين . حيث عمل على تنظيم القوانين فاصدر المجموعة القضائيـة المسمـاة Liber Augustalis سنة ١٢٣١

وبالرغم من انه اكد في شريعته التنظيمات الاقطاعية وسطوة الاقطاعيين على الاقنان الا انه الغى التحكيم المحني واستبدل رجال الدين بموظفين مدربين لادارة الدولة . وجعل المحـاكم الرسمية هي التـي تفصل في المنازعـات . واهتم فردريك في الشؤون الاقتصاديـة فوحد الاسعـار للضروريات واشرفت الدولة علـى انتـاج الملح والحديد والاصبـاغ والحرير وغيرها من المرافق الاقتصادية الهامة[١٢] . ووضعت دولتـه اليد على الحمامات العامـة والمجـازر . وعمل فردريك على ايجـاد مزارع نموذجية وتبنى زراعة القطن وقصب السكر واصبحت معظم التجـارة بيد الدولة .

كان فردريك على جانب كبـير من الالمام الثقافـي اذ تكلم تسع لغات واجاد الكتابة في سبع منها ، وقد راسل الكامل الايوبي باللغـة العربية هذا بالاضافة الى كونه من الشعراء . وقـد اتجه نحو الفلسفة والعلم عندما تقادم به العمر . واعجب ايما اعجـاب بالتراث الاسلامي اذ احاط بلاطه بعلماء من المسلمين واليهود وأغدق على المترجمين مـن العلوم الاسلامية الى اللاتينية رواتب سنية . وقد ولع بالرياضيات وأقنع السلطان الكامل بان يرسل له الرياضي المشهور الحنفي . كما كـان في علاقات وثيقة مع عـالم الرياضيات المسيحي ليوناردو . ودأب فردريك على ايجـاد الحلـول للمشاكل العلميـة مستعينا بعلماء مصر وسوريا والعراق . واحتفظ بحقل حيواني من اجل اجراء التجارب وتوصل الـى نتائج ايجابية في نسل الطيـور الداجنة والخيول والجمال والكلاب . واصدر قوانين تحرم الصيد في مواسم التفريخ . كما امر بتأسيس جامعة نابولي سنة ١٢٢٤ بدون اخذه موافقة السلطات الدينية بخلاف العادة في

---

(12) E., Kantorowicz, Frederick the Second, (London, 1931) 282.

انشاء الجامعات انذاك . وتعهد فردريك بتسديد نفقات الطلبة الاذكياء من الفقراء الا انه منع الطلاب فيمملكته من استقاء العلم خارج المملكة[13] .

كانت تحوم حول فردريك الثاني الشبهات بانه لا يؤمن بالدين ، ويعزا ذلك لتأثره بالتراث الاسلامـــي . ففي احد المؤتمرات المقامـــة في مدينة فيولي في المانيا سنة ١٢٣٢ وفد عليه وفد اسلامي ثم احتفل معهم في عيدهم الاسلامي[14] . وقيل عنـــه بانـــه اعتقـــد بالاسلام اكثر مـــن المسيحية . لقد تسامح فردريك مع كافة الاديان ولم يفرق بينهم في فرص العيش غير انه منعهم مـــن التدريس في الجامعـــة او اشغـــال المناصب الحكومية . وفرض علـــى المسلمين واليهود ارتداء ازيـــاء تفرقهم عن المسيحيين ، وكان على المسلمين واليهود دفع الجزية مقابل اعفائهم مـــن الخدمة العسكرية . وحرم على المسيحيين اعتناق الاسلام او اليهودية . هذا ولم يسمح بحرية الفكر في المجالات الدينيـــة في التدريس الجامعي بالرغم من انه كان شغوفا بالمناقشات الحرة في بلاطه[15] . وميز فردريك الثاني اهمية الديـــن وضرورته في حفظ الامن والنظام وتثبيت اقـــدام الحكام . لهذا لم يسمح لعلمائه التطرق لذلك الموضـــوع علنا . وايد ايضا محاكم التفتيش ضد الهراطقة .

لم يستمر حكم اسرة هوهنشتاوفن للصقليتين غير مدة يسيرة بعد وفاة فردريك الثانـــي . اذ ادت السياسة البابوية المعادية لتلك العائلـــة والهادفة الى فصل العرشين الالماني والصقلي عـــن بعضهما البعض كما اشرنا سابقا ، الى وقـــوع العرش الصقلي الى الفرنسي شارل الانجوي احد اخوان لويس التاسع ملك فرنسا بعد الانتصار على جيوش مانفرد سنة ١٢٦٦ وكذلك على كونرادينو سنة ١٢٦٨ .

الصقليتين في عهد الحكم الانجوي

جعل شارل الانجوي عاصمته في نابولي وشكل فيالصقليتين حكومة

---

(13) Ibid., 283.
(14) Ibid., 195.
(15) Ibid., 308.

بيروقراطية فرنسية وعمل على فرنسة الجيش والكنيسة والادارة . واثقل كاهل السكان بالضرائب حتى اخذ هؤلاء يتمنون رجوع حكم اسرة هوهنشتاوفن . كما أثار حكمه ندم البابوية على فعلتها . وأدى هذا التذمر الى اشعال ثورة مهد لها كل من ملك الاراكون وميخائيل الثامن الامبراطور البيزنطي . وذلك لاواصر النسب العائلي بين الاسرتين الاراكونية وهوهنشتاوفن وكذلك لصيرورة الصقليتين منطلقا لكافة العمليات الهادفة لاسقاط الامبراطورية البيزنطية واعادة تشكيل الدولة اللاتينية في القسطنطينية التي كان قد قضى عليها ميخائيل الثامن سنة ١٢٦١ . وحدثت الثورة الصقلية في سنة ١٢٨٢ في عيد الفصح[16] ، حينما كان شارل الانجوي يعد العدة لقيام اسطوله بغزو القسطنطينية . والسبب المباشر للثورة اعتداء احد الجند الفرنسي في بالرمو على امرأة هناك اثناء زفافها . وعمد الثوار الى قتل كل فرنسي فيها . وبلغ هياج المواطنين حدا وحشيا اذ بقروا بطون الحوامل من الصقليات اللواتي تزوجن من فرنسيين وسحق الاجنة بالاقدام . واسفرت الثورة الصقلية عن مقتل الفي فرنسي[17] . وقد سميت الثورة Sicilian Vespers بالغسبر لانها بدأت في دق اجراس وقت الصلاة المسائية . هذا ولم يسلم حتى رجال الدين الفرنسيين من الانتقام . اما شارل الانجوي فاقسم ان يستمر في حرب ثأرية مهما طال به الزمن مهددا بجعل صقلية قاعا صفصفا . واعلن البابا مارتن الرابع ١٢٨١ — ١٢٨٥ تحريم صقلية وامر بتجهيز حملة صليبية ضد سكانها . ونظرا لعدم امكانية سكان تلك الجزيرة الدفاع عن انفسهم بمفردهم ازاء تلك المخاطر طلبوا مساعدة الاسباني بطرس الاراكوني لقاء ان يكون ملكا عليهم . وزحف هذا فعلا بقواه على الجزيرة سنة ١٢٨٢ وذهبت محاولات شارل الانجوي ادراج الرياح في استعادة الجزيرة . واخيرا عقد الصلح بين الاسرتين الاراكونية والانجوية بعد حروب استمرت سبع عشرة سنة منذ وفاة شارل الانجوي

(16) Runciman, op. cit., 236-37.
(17) Ibid., 238.

سنة ١٢٨٥ . فاصبحت نابولي بموجب الاتفاق من حصة الانجويين بينما احتفظ الاراكونيون بصقلية . وقد تمكن الاركونيون من الاستيلاء على نابولي ايضا سنة ١٤٣٥[18] .

المدن الايطالية

مثلت المدن الايطالية في تاريخ ذلك البلد السياسي ادوارا خطيرة يمكن سبر اغوارها باستعراض سريع لتاريخ قسم منها :

١ ــ مدينة سيينا

وهي من جملة المدن اللمباردية التي اوصت بها الاميرة ماتيلدا الى البابوية سنة ١١٠٧ . غير ان البابوية لم تقو على التدخل في شؤون تلك المدينة . كانت هـذه المدينة التاريخية همزة وصل تجارية بين روما وفلورنس ، تكونت فيها سنة ١١٩٢ نقابات تجارية وصناعية واصبحت ذات مركز مالي هام في اوائل القرن الثالث عشر اذ اعتبرت اسرة بونسينوري Buonsiguori من اقوى الاسر الايطالية في مزاولة الاعمال الصيرفية . الا ان المدن اخذت تفقد اهميتها في اواخر القرن الثالث عشر وذلك للصراع المرير بينها وبين فلورنس في فترة ١٢٠٧ ــ ١٢٧٠ . اذ ساندت سيينا الجبهة الامبراطورية ضد البابوية واستمرت هكذا في عهد مانفرد . اتخذت البابوية ضدها اجراءات حاسمة ، اذ فرضت عليها عقوبة التحريم سنة ١٢٦ ومنعت تسديد الديون اليها في الخارج فأشلت حركتها الاقتصادية . واخيرا تمكن شارل الانجوي من ارغام سيينا على الانضمام الى الجبهة البابوية سنة ١٢٧٠ . ومنذ ذلك التاريخ اخذت منافستها فلورنس تحتل مكانتها[19] .

٢ ــ مدينة فلورنس

يرجع تاريخها لقرنين قبل المسيح وسميت بذلك الاسم نسبة الى

(18) Robinson, An Introduction to the History of Western Europe, vol. I (Boston -946) 357.

(19) Durant, op. cit., 727.

رياحينها . وتعود قوتها الاقتصادية لكونها مركزا تجاريا هاما بين ايطاليا وفرنسا . وامتلكت في القرن الحادي عشر اسطولا تجاريا كبيرا وغمرت صناعة منسوجاتها نصف المعمورة انذاك .

كانت هناك علاقات وثقى بين الطبقات الارستقراطية الحاكمة في تلك المدينة والبابوية أملتها على الاغلب ضرورة اقتصادية . اذ مثلت المناطق البابوية اسواق توظيف للاموال الفلورنسية ولتصريف البضائع هذا بالاضافة الى خوفهم على حرياتهم الاقتصادية من التهديدات الامبراطورية[٢٠] . لهذا قدمت البنوك الفلورنسية الاموال الى شارل الانجوي حليف البابوية في حملته على الصقليتين . وقدر القرض الذي قدمته فلورنس الى الانجوي عن طريق البابوية بما يعادل مليونين وستمائة الف دولار . وقد سمح الانجوي للفلورنسيين جباية ممتلكاته ومنحهم حق احتكار صناعة الحرير والسلاح واصدار العملة من اجل تسديد ديونه[٢١] . ولا أدل من التعاون الوثيق بين البابوية واصحاب رؤوس الاموال في فلورنس من (ترديد رجال الدين من على المنابر اربع مرات يوميا قرارا يهدد بالتحريم كل عامل يتعمد في تبذير الاصواف اثناء غزلها وحياكتها)[٢٢] .

امتدت فعاليات المصارف المالية الفلورنسية الى اقطار اوروبية عديدة . فقد ساهم مصرف فرانسيزي Franzesi في تمويل مشاريع الملك الفرنسي فليب الرابع وتوسعت الفعاليات المالية لاسرة مدتشي Medici الفلورنسية في القطر الفرنسي فيما بعد . وبصورة عامة فقد سيطر صيارفة فلورنس على الاقتصاد الفرنسي منذ عهد فليب الرابع حتى القرن السابع عشر . كما امتد نشاطهم المالي الى انكلترا حيث استدان ادورد الاول مصرف فرسكوبالدي Frescobaldi ما يقارب (٢٫١٤٠٫٠٠٠) دولارا سنة ١٢٩٥[٢٣] .

---

(20) M. Beards, History of the Business Man (N.Y., 1938) 240.
(21) Ibid., 241.
(22) Cambridge, Medieval History, vol. VI, 496.
(23) Durant, op. cit., 729.

ان تعثر السياسة البابوية وخاصة في عهد بونيفس الثامن وانتقال البابوية الى آفينيون في مرحلة الاسر البابلي ١٣٠٥ ــ ١٣٠٧ ادت الــى أزمات مالية في فلورنس بشكل خاص وكان من شأنها تعميــق الفوارق الطبقية بين سكانها . اذ تألف المجتمع الفلورنسي من ثلاث طبقات هم : صغار الناس Popola minuto من العمال الماهرين واصحاب الحوانيت الصغيرة . ثم الطبقة الثرية المتخمــة Popola Grasso . والاخيرة طبقة الاقطاعيين Grandi التي تذبذبت مصالحها بين البابوية والامبراطورية على حساب حريات الحكم في فلورنس مــن اجل الاستئثار بالسلطة . ولهذا فكثيرا ما يشاهد اتحــاد طبقة صغار الناس مــع الطبقة الثريــة البورجوازية ضد النبلاء في جبهة واحدة أشاروا اليها بالجبهة الشعبية Popolani . وقد نجحت هذه الجبهة الــى حد ما في ترويض النبلاء المجاورين عسكريا واجبارهم على السكن في داخل المدينة . ومع ذلك فكان النبلاء في خصام فيما بينهم من اجل السيطرة على المدينة . فهناك عصابة يوبرتي Uberti الاقطاعية التي قامت بثورة سنة ١٢٤٧ موالية للغيلين لتأسيس حكومة مواليــة للامبراطور فردريك الثاني وتمكنــوا بمساعدة الامبراطور حكم فلورنس لثلاث سنوات . وقام رجال الطبقة المتوسطة بثورة ناجحة ضد حكم النبلاء سنة ١٢٥٠ اثر وفــاة فردريك الثاني . وكون هؤلاء حكومة شعبية برئاسة قائد شعبي Capitano del Popolo . الا ان هذا الحكم اصبح احتكارا للارستقراطية الجديدة التي سرعان ما فقدت سندها الشعبي فلم تقو على مقاومة مانفرد الذي انزلت جيوشه بها هزيمة كبرى في موقعة مونتابرتا سنة ١٢٦٠ فخضعت فلورنس للنبلاء حتى سنة ١٢٦٨ . حيث تمكن شارل الانجوي من اعادة الحكم الموالي للبابوية . واخذ الانجوي يشرف على حكم فلورنس عن طريق تعينه لرئيس حكومتها المشار له بالحاكم المطلق Podesta والذي يساعده في الحكم مجلسان هما مجلسا الاثني عشر والمئوي[٢٤] .

---

(24) P. Villari, The Two First Centuries of Florentine History (London, 1908) 221.

لقد انتهزت الطبقة المتوسطة انشغـال شارل الانجوي في الثورة الصقلية سنة ١٢٨٢ فاحرزت انتصارات دستورية ، اذ وافق الحاكم المطلق على اشراك ستة ممثلين عن النقابات الكبرى في الحكم ، وقـد اصبحت السلطة الفعلية بمرور الزمن بيد ذلك المجلس السداسي المتكون مـن التجار ورجال الفكر . الا ان النبلاء القدماء لـم يركنـوا للهدوء ، اذ اعادوا تنظيم صفوفهم بزعامة دوناتي Donati مكونين فئة أطلق عليها لقب السود Neri تمييزا لهم عن فئة الطبقـة المتوسطة الملقبة بالبيضاء Bianchi . واخذ السود يتفاوضون سرا مـع البابا بونيفس الثامن لاحداث انقلاب في حكم المدن . ولكـن سرعان مـا افتضحت هـذه المفاوضات فأدانت حكومة المدينة ثلاثة من ممثليها الدبلوماسيين في روما سنة ١٣٠٠ بالخيانة . وعندما حاول دوناتي القيـام بشغب في فلورنس أصدر المجلس السداسي امرا بنفي قسم من الاقطاعيين في المدينة ، وكان الشاعر الايطالي دانتي Danti عضوا في ذلـك المجلس . ونظرا لفشل المحاولة الانقلابية فقد استعان البابا بشارل فالوا ضد فلورنس وتمكن الاخير من احتلال تلك المدينة واعادة السود الى الحكم برئاسة دوناتي . وحكم علـى اعضاء المجلس السداسي بالنفـي سنة ١٣٠٢ ومن بينهم الشاعر دانتي . واستلم شارل فالوا ما يعادل (٤٫٨٠٠٫٠٠٠) دولارا ثمنا لمساعدته النبلاء السود[٢٥] .

بلغت شهرة فلورنس في المجالات الدولية حدا كبيرا في عهد أسرة مدتشي في اعمال البنوك بصورة خاصة في القرن الخامس عشر . وادى ثراء الأسرة الى سيطرتها على الشؤون السياسية لمدينـة فلورنس . اذ ترأس كوسيمو مدتشي Cosimo dei Medici قيـادة الحزب الشعبي سنة ١٤٢٩ واصبح رئيس الحكومـة سنة ١٤٣٤ وبقي مسيطرا عـلى المسرح السياسي حتى وفاته سنة ١٤٦٤ . وقد احتال افراد هذه الاسرة على الانتخابات بأساليب موهت عـلى الناخبين بصورة غـير مبـاشرة

(25) Durant, op. cit., 731.

وحكموا بدون ان يشعروا الناس بفقدان حقهم في اختيار الحكام . ومن حكام الاسرة الشهيرين لورنزو الرائـع Lorenzo Magnificent ١٤٦٩ — ١٤٩٢ الذي اصبحت له صلاحيات دكتاتورية واسعة سنة ١٤٨٠[٢٦] .

لم تكن هناك معارضة جديـة لحكم اسرة مدتشي في فلورنس في اواخر القرن الخامس عشر سوى الثورة الدراماتيكية التي قـام بهـا . سافونارولا على اثر وفاة لورنزو سنة ١٤٩٢ . وسافونارولا راهب مـن الدومنيكان استفزته مظـاهر الترف وبؤس الفقراء علـى حد سواء في فلورنس فقام بثورة استولى فيها على الحكم الى حين . ولقـد اعتبر الجيوش الفرنسية التي اغار بها ملك فرنسا شارل الثامن على الجهات الايطالية من مظاهر العقاب الالهي لمباذل العصر وقد رحب بها على ذلك الاعتبـار . وعلى كـل فلم يستمر حكم ذلك الراهب كثيرا اذ عارضه الرهبان الفرنسسكان واوغروا عليـه صدر البابا الاسكندر السادس الذي امر بالقبض عليه سنة ١٤٩٧ فأدين بالهرطقة ثم صدر الامر باعدامه حرقا في فلورنس ، فعادت عائلة مدتشي الى الحكم ثانية[٢٧] .

٣ — فينسيا (البندقية)

وهي التي كونها اللاجئون هربا من فتك الهون واللمبارد بصورة خاصة[٢٨] ، في سواحل الادرياتيك الشمالية والتف هؤلاء حـول قيادة حكومة ريالتو Rialto سنة ٨١١ . وسميت المدينة بفنسيا نسبة الـى قبيلة Veneti التي كانت قد أضلت الاقسام الشمالية الشرقية من ايطاليا في التاريخ الروماني المبكر . واطلـق اسم Venezia في القرن الثالث عشر على مجموعة جزر اللاجئين في تلك الجهات .

حتم الموقع الجغرافي على فنيسيا الاشتغال بالتجـارة . اذ كـان ينقص السكان هناك الطعام والمياه الصالحة للشرب . لذا تاجروا بالملح والاسماك لقـاء الحصول عـلى المادتين السابقتين . واعترف الاتحـاد

---

(26) Strayer and Munro, the Middle Ages, 395-1500. (N.Y., 1942) 502.
(27) Robinson, op. cit., 327-28.

الفينيسي بتبعيته للبيزنطيين لحماية انفسهم من اللمبارد والجرمان . ثم اصبحت فنيسيا جزءا من الامبراطورية الكارولنجية ٨٠٥ ــ ٨١٢ الا انها عادت الى الحكومة البيزنطية لصلحها مع شارلمان سنة ٨١٢ وتمكنت من الاستقلال في منتصف القرن التاسع[٢٩] .

حكم فنيسيا حتى سنة ٦٩٧ مجلس من اثني عشر عضوا بعدد الجزر الرئيسية . وقد استبدل ذلك الحكم بحكومة اكثر مركزية رئاسية يشار الى رئيسها بالدوج Doge الذي يستمر حكمه مدى الحياة . ومن أشهر هؤلاء الرؤساء انجيلو بادور Angello Badoer ٨٠٩ ــ ٨٢٧ الذي دافع بنجاح عن فنيسيا ضد الفرنجة . ولهذا كافأه المواطنون بالحكم الوراثي في اسرته . وقد تم للفينيسيين في عهد الرئيس اورسيولو Orseolo الثاني ٩٩١ ــ ١٠٠٨ الاستيلاء على مناطق الادرياتيك العائدة لدلماشيا ووضعوا حدا لقراصنة ذلك القطر . واصبح يوم انتصارهم على الدلماشيين سنة ٩٩٨ عيدا وطنيا يحتفل به سنويا . وعملت الارستقراطية لتلك المدينة على انهاء الحكم الوراثي سنة ١٠٣٣ بجعله انتخابيا في مجلس المواطنين .

لقد طلب البنادقة الثراء باية وسيلة كانت . فلم يتحرجوا عن بيع المسيحيين للمسلمين عبيدا ، ومع ذلك فلم تمنعهم تصرفاتهم الدنيوية هذه من القيام ببعض اعمال البر للمؤسسات الدينية . وقد لقبت فنيسيا بالمدينة الذهبية Venetia Aurea لثرائها الطائل . غير أن هذا الثراء اقتصر على الطبقات الارستقراطية الاحتكارية . لذا كان هناك انقسام حاد بين الاغنياء Maggiori والفقراء Minori [٣٠] .

مكن تحالف فنيسيا مع الحكومة البيزنطية سنة ١٠٨٢ من توسيع تجارتها في جهات كل من البحر الايجي والاسود . وبلغ عدد رعاياها في القرن الثاني عشر في القسطنطينية حوالي مائة الف نسمة . وعليه أثارت

---

(28) H. Pirenne, Mohammed and Charlemagne (London, 1958) 176.
(29) Vasiliev, op. cit., Vol. I, 326.
(30) Durant, op. cit., 454.

احتكاراتهم الاقتصادية في الامبراطورية البيزنطيــة نقمــة الامبراطور مانويل الذي امر بمطاردتهم ومصادرة اموالهم سنة ١١٧١ . لهذا اعلنت فنيسيا الحرب ضد البيزنطيين وجهزت اسطولا متألفا من مائة وثلاثين سفينة تحت قيادة الرئيس فيتالي . الا ان الحملــة منيت بالفشل وحمل البنادقة مسؤولية الخسارة لسوء تدبـير فيتالي فاتهم بالخيانة العظمى سنة ١١٧٢ وحكم عليه بالموت[٣١] .

ادى فشل الحملة السابقة الى تغييرات دستورية هامة . اذ استبدل مجلس المواطنين بمجلس اصغر منتخب ليقف حائــلا دون الاندفاعات الاوتوقراطية . اما كيفية اختيار هذا المجلس فكــان بحسب الطريقــة التالية : يقوم المجلس التشريعي الكبير البالغ عــدد اعضائه ٤٨٠ عضوا والذي يمثل المدينة بكاملها ، باختيار ستين من اعضائه لمجلس الشيوخ الذي يشرف على الشؤون الاقتصادية والعلاقات الخارجية . ثم ينتخب ستة من اعضائه لتشكيل مجلس خاص ليحكم اثنــاء الطوارىء . هذا وينتخب الرئيس للجمهورية من بـين اعضاء المجلس الكبـير اذ يرشح الاخير احد عشر عضوا الذيــن يقومون بدورهم باختيــار الرئيس في اجتماع خاص يعقــد امــام الجمهور في كنيسة القديس مارك . ويعتبر هذا الدستور من صنع الاوليكاركية وقــد وضع موضع التنفيذ سنة ١١٧٣[٣٢] . ومن أعاظم رؤساء الجمهورية الفنيسية هو انريكو داندولو الذي انتخب عــام ١١٩٢ وله مــن العمر اربع وثمانون سنة . تمكــن بسياسته الانتهازية من احتلال القسطنطينية سنة ١٢٠٤ بحرفه الحملــة الصليبية الرابعة والانتقــام من الهزيمة التــي لحقت باسطول البنادقة سنة ١١٧١ .

اصبحت البندقية سيدة الموقف في شرق البحر المتوسط في القرن الثالث عشر . هذا ولم يؤثر اعادة بناء الامبراطورية البيزنطية سنة ١٢٦١ كثيرا في المصالح الاقتصادية للبنادقــة . اذ اضطر الامبراطور ميخائيل

---

(31) C. Hazlitt, The Venetian Republic, vol. I (London, 1908) 190.
(32) P. Molmenti, Venice, vol. I (London, 1906) 32.

الثامن االى تجديد امتيازتهم السابقة علـى اثر اندحـار القوى البحرية لحليفته جنوا امام الاسطول الفينيسي سنة ١٢٦٤ .

ان الانتصارات التي حققتها البندقية على منافسيها في اواخر القرن الثالث عشر شجعت الاوليكاركية على اجراء تغييرات دستورية لتشديد قبضتها على الحكم . اذ تمكن الرئيس بيترو كرادنيكو سنة ١٣٠٠ مـن اجراء تعديلات دستورية جعل فيها التمثيل مقتصرا عـلى نسل اولئك الاعضاء الذيـن مثلوا الشعب منـذ سنة ١١٩٣[٣٣] . وأمر بوضع سجل خاص أشير لـه بالكتاب الذهبـي تدون فيـه الولادات والزيجـات الارستقراطية . ثم اوجدت الارستقراطية مجلسا متألفا من عشرة اعضاء ينتخب من بين اعضاء المجلس الكبير لمدة سنة واحدة . وقـد اصبحت مقاليد الامور بيد كـل من ذلـك المجلس الصغير والرئيس . وحاولت الجماهير عبثا الغاء ذلك الدستور عن طريق الثـورة . وهكذا حافظت البندقية على ذلك النـوع من الحكم منـذ ذلك التاريخ مـن استيلاء نابليون عليها سنة ١٧٩٧ .

بالرغم من الخدمات الجلى التـي قدمتها المدن الايطالية للمدينـة الاوروبية فان تاريخها السياسي طيلة العصـور الوسطى تميز بالصراع الحاد فيما بينها في المجالين الخارجي والداخلي . فبالرغم مـن ان بيزا وجنوا تعـاونتا ضد المسلمين ١٠١٣ ـــ ١٠١٥ الا انهما تنازعتا السيادة التجارية واسفر النزاع عـن انتصار الاسطول الجنوي سنة ١٢٨٤ في موقعة مدوريا . كما اشتبكت كل من جنوا والبندقية في حروب امتدت الى الاراضي المقدسة سنة ١٢٥٥ ، اذ قاتل الاسبتارية بجانب الجنويين وقاتل فرسان المعبد بجانب البنادقة ، وقتل في تلك المعـارك ما يقارب العشرين الف شخص . واستمر القتال بين الطرفين حتى سنة ١٣٧٩[٣٥] .

هذا ولعـل الفوضى السياسية في مدينـة ميلان صورة مكملـة

---

(33) Ibid., 84.
(35) W. Thompson, Economic and Social History of the Middle Ages (N.Y., 1928) 421.

لسياسات المدن الايطالية التي سبق ذكرها . اذ أضحت ميلان ضحية للطغاة الامراء Visconti . وبدأ حكم الطغاة سنة ١٢٧٧ بمساعدة رئيس اساقفة ميلان . اذ تمكن من تعيين اقاربه Matteo Visconti رئيسا لتلك المدينة . ومن أشهر طغاة ميلان هو Gian Galeazzo ١٣٨٥ ــ ١٤٠٢ الذي بدأ حكمه بانقلاب دبره ضد عمه فالقى عليه القبض واخمد انفاسه[36] . وتمكن باساليبه الملتوية من توسيع نفوذه في اواخر القرن الرابع عشر على جهات خاصة مثل بافيا وكريمونا واصبحت ميلان تضاهي فنيسيا قوة .

هذا وقد كانت الحروب بين المدن الايطالية تجري عادة عن طريق التعاقد مع فرق اجنبية اجيرة . وغالبا ما يطمح رئيس الفرقة الاجيرة Condottieri باستغلال مواقف الانتصار لمصلحته الخاصة . ومن الامثلة على ذلك ما حصل لمدينة ميلان سنة ١٤٥٠ . اذ تعاقدت المدينة مع القائد فرانسسكو سفورزا لمساعدتهم في الحرب ضد فنيسيا . وعند اتمامه المهمة لم يتمكن الميلانيون من ازاحته عن الحكم . وقد خلفه ابنه كاليزو سنة ١٤٦٦ ــ ١٤٧٦ وهكذا صار الحكم وراثيا في اسرة فرانسسكو سفورزا[37] .

ان السياسة الاستبدادية الانتهازية التي انتهجها رؤساء الحكومات الايطالية قد احسن الكاتب الفلورنسي ماكيافيلي تصويرها في كتابه الامير . والامير عبارة عن مناقشته لاهم الاساليب التي يتمكن بها المغتصب الطاغي من الاحتفاظ بمركزه . بحث فيه ايضا جواز نكث الوعود التي يقطعها الامير على نفسه في الاوقات الضرورية . وان الفضيلة بالانتصار والغاية تبرر الواسطة . وان الحكام الذين ساروا بسياسة من هذا النوع هم اقدر على الحكم من اولئك الذين تمسكوا بالعهود وراعوا الذمم .

(36) W. Waugh, A History of Europe, 1378-1494 (London, 1926) 452.
(37) Ibid., 459.

الدولة البابوية

توضحت معـالم حدود الدولـة البابوية منـذ هبتي بين الثالث وشارلمان في النصف الثاني مـن القرن الثامن . واساس الدولة البابوية الاملاك الوقفية لكنيسة القديس بطرس بما فيها اناني وتيفولي وروما ثم بروجيا Perugia . ثـم توسعت سلطة البابوية الزمنيـة فشملت انكونا وريميني وبولونا ورافينا وفيرارا .

ان روما مركز الولايات البابويـة . وقـد اضحت في هذه الفترة مدينة فقيرة بائسة . اذ أغـار عليها النورمنديون ونهبوها سنة ١٠٨٤ . واصبح عدد سكانها اربعين الفا بعد ان كـان يقارب المليون في قديـم الزمن ، وبقيت محافظة على طابعها الريفي . عـاش نصف سكانها على الحرف البدائيـة وعـاش النصف الاخر علـى الصدقـات . وانقسم الارستقراطيون فيها الى عدة فئات متنافسة تحت قيادات الاسر المتنفذة امثال فرانجيباني وكولونا وكيتاني وكونتي ... وكثيرا ما اشتبكت هذه الفئات في قتال في طرقات روما . وقد اضطر العديد مـن البابوات الى الانهزام منها .

وبالاضافة الى تلك الفوضى في روما فهنالك عدة اتجاهات سياسية في كيفية حكم الدولة البابوية . اذ حـاولت الاخيرة تحقيـق السيطرة التيوقراطية فاصطدمت بأوتوقراطية الاباطرة اوليكاركية النبلاء وديمقراطية الشعب . وقد نجحت الجهة الاخيرة في تكوين حكومة علمانية في روما سنة ١١٤٣ . اذ شكلوا مجلس شيوخ مـن خمسة وستين عضوا يجدد انتخابهم سنويا[٣٨] .

ومن أشهر الشخصيات التي سجلت تاريخا حافلا في النصف الاول من القرن الثاني عشر هو ارنولد برسكيا الذي تتلمذ على يد ابيلار في فرنسا ثم صار راهبا . نادى برسكيا بعدم تملك رجال الدين لاية ثروة مادية وحث على التمسك بشعار الفقر واقترح على الكنيسة التنازل عن

---

(38) Durant, op. cit., 706.

املاكها وسلطاتها السياسية للدولة[39] . ووجه البابا انوسنت الثاني سنة ١١٣٩ انذارا له يأمره بالعدول عن هذه الآراء الا انه استمر جاهرا بها في عهد البابا يوجينوس الثالث . وناشد سكان روما باحياء النظام الجمهوري والاعراض عن حكم رجال الدين . وأقبل الناس فعلا على اختيار حكام علمانيين . فأعلنوا الغاء السلطات السياسية للبابوية وكذلك استقلالهم من سيطرة الامبراطورية الرومانية المقدسة . ثم دعوا الايطاليين كافة الى الانصياع لحكم روما الجمهوري واحياء مجد الرومان . وقد احتلوا كنيسة القديس بطرس وحولوها الى قلعة عسكرية كما سيطروا على الفاتيكان . واضطر البابا يوجينوس الثالث الى الفرار الى فيتربو ومنها الى بيزا سنة ١١٤٦ ، واستمرت الجماهير تحكم روما لعشر سنوات ، ومع ذلك فقد عاد البابا يوجينوس سريعا الى روما متظاهرا بالانصراف الى الاعمال الروحانية . الا ان البابا ادريان الرابع ١١٥٤ — ١١٥٩ اضطر الى وضع روما تحت التحريم الديني سنة ١١٥٥ على أثر مقتل احد الكرادلة وقد تحالفت الارستقراطية مع البابوية على اسقاط الجمهورية . فاضطر ارنولدبرسكيا الى الالتجاء الى كامبانا وهناك القت عليه السلطات البابوية القبض ثم اعدم سنة ١١٥٥[40] . ومع ذلك فقد استمر مجلس الشيوخ يحكم في روما الى عهد البابا انوسنت الثالث اذ امر بالاستغناء عنه سنة ١٢١٦ واستبداله بممثل واحد .

لقد حاول البابوات منذ انتهاء الاسر البابلي سنة ١٣٧٧ تقوية هيمنتهم على الولايات البابوية فلم يحرزوا تقدما يذكر في هذا الشأن . وذلك لان مشاريع الاصلاح كانت متوقفة على حياة البابوات الذين يتولون ذلك المنصب في عمر متأخر عادة ، وكذلك لانجراف البعض في التيارات الدنيوية . ومن امثلة هؤلاء الاسكندر السادس ١٤٩٣ — ١٥٠٣ الذي ينتمي الى اسرة بورجيا الاسبانية وقد سخر المؤسسة البابوية لخدمة مصالح اولاده . اذ حاول ان يكون لابنه قيصر بورجيا امارة في

---

(39) Strayer and Munro, op. cit., 305.
(40) Ibid., 313.

الجهات الشرقية من فلورنس . وقد فاق الاخير اباه . اذ قضى على قسم كبير من خصومه بالقتل غدرا وكذلك اغتال اخاه ورمى بجثته في النهر . ومن الجدير بالملاحظة ان ماكيافيلي اعتبر قيصر بورجيا مثال الحـاكم السياسي الناجح في الدس والمكر والانتهازية[41] .

اراد الاسكندر بورجيا احباط المشاريع التوسعية للملك الفرنسي شارل الثامن ١٤٨٣ ــ ١٤٩٨ على حساب الاراضي الايطالية . لهذا دخل في مفاوضات مع العثمانيين للاستعانة بهم ضد الفرنسيين ، ومع ذلك فلم يتمكن من منع شارل الثامن من دخول روما . الا ان الانتصارات التي حققها شارل في ايطاليا اثارت مخـاوف فرديناند الاراكوني في صقلية وكذلك أثارت اعتراض الامبراطور ماكسمليان . لذا اضطر شارل الى الانسحاب سنة ١٤٩٥ . وقد كان لهذه الحملة الفرنسية نتائج لا تخلو من اهمية . اذ انها أثبتت للاوروبيين انذاك عمليا بعدم وجود وعي وطني في ايطاليا . واصبح ذلك القطر منذ ذلك التاريخ حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر خاضعا لحكمي النمسا واسبانيا بالدرجة الاولى .

(41) Robinson, op., cit., 359.

الفصل الثالث عشر

ـ فقدان الكنيسة الغربية لمركزها القيادي ـ

بدأت الكنيسة الرومانية تفقد هيمنتها في المجالين الزمني والروحاني منذ العقد الاخير من القرن الثالث عشر . ولعل من بين الاسباب الهامة التي سببت ذلك ، تزايد الاتجاهات الدنيوية بين مجتمعات اوروبا الغربية . فالاتجاهات الاقتصادية المتنامية لمدن أوروبا امست تتعارض بشكل رئيسي مع ما تأمر به الكنيسة . فالتهافت على طلب الارباح خلق تناقضا قويا بين رغبات الافراد وايمانهم ولم يعد للتعاليم الكنسية في مكافحة طلب الارباح الوفيرة ذلك الوازع الخلقي . هذا وان الصراع

التاريخي بين البابوية واسرة هوهنشتاوفن الذي انتهى بانتصار الجهة الاولى سنة ١٢٦٨ لم يكن في حقيقته الا نصرا وهميا . اذ استبدلت البابوية التسلط الالماني بالفرنسي حتى سنة ١٢٨٢ في الصقليتين . وجرت سياسة الفرنسيين في صقلية الى ثورة أسفرت عن اشتباك الفرنسيين والاراكونيين الاسبان من اجل السيادة على الاقسام الجنوبية الايطالية . فاضطرت البابوية ان تعلن حربا صليبية بمساعدة ملك فرنسا فليب الثالث ضد الاراكونيين في ايطاليا واسبانيا . وأدت هذه الحروب الى التقليل من الهيبة البابوية في الاوساط الاوروبية العليا . كما صرفتها عن مواصلة الحرب الصليبية في الاراضي المقدسة وأعاقت مشروع تحالفها العسكري مع المغول للاطباق على العالم الاسلامي من اجل تخليص الدولة الصليبية . وكان لانشغال البابوية في معمعة السياسة الاوروبية المتصارعة في ايطاليا اثر بالغ في انهيار الدولة الصليبية نهائيا سنة ١٢٩١ . كما ان ازدياد الاتجاهات العلمانية لدول اوروبا الغربية وسعي الملوك لفرض سياساتهم المركزية في داخل اقطارهم ادى الى الاصطدام مع السلطة العالمية المتمثلة في كنيسة روما . وذلك بمحاولة تلك السلطات السياسية الاغارة على الامتيازات الاقتصادية والقضائية التي تتمتع بها الكنيسة في داخل بلدانها . وادت الظاهرة الاخيرة الى صراع بين البابوية وكل من انكلترا وفرنسا .

لقد تمثل التدهور القيادي لكنيسة روما في فترة ١٢٩٦ — ١٤٩٣ بما يأتي :

١ — سياسة البابا بوليفس الثامن ١٢٩٦ — ١٣٠٣

اتسمت سياسة البابا بونيفس الثامن بتصرفات أثارت عليه النقمة منذ البداية . اذ عمد الى اقناع البابا كلستين الخامس Celestine بالاستقالة بعد خمسة اشهر من اعتلاء الاخير البابوية . ثم وضعه تحت المراقبة المشددة في روما . وحاول كلستين الهروب عدة مرات واخيرا امر البابا بونيفس الثامن بسجنه اذ مات فيه بعد عشرة اشهر سنة ١٢٩٦

في عمر يناهز الثمانين عاما[1] .

وقد منيت اجراءات بونيفس الدبلوماسية بفشل ذريع . اذ حاول عبثا اقناع فردريك الاراكوني الابتعاد عن التاج الصقلي . فأصدر البابا عقوبة التحريم ضد فردريك وجزيـرة صقلية بأكملها سنة ١٢٩٦ ولـم يكترث الصقليون لذلك العقـاب . كما فشل ايضا في الوساطة لحـل النزاع بين فينيسيا وجنوا لتوحيد جهودهما من اجل تجهيز حملة صليبية لاسترداد الاراضي المقدسة . ولما أعياه الامر مع مدينة فلورنس في اعادة حكمها الـى النبلاء (السود) امر بتحريمها ثم اوعز الـى شارل فالوا الفرنسي ان يعيد الامن في ايطاليـا بقوة السلاح سنة ١٣٠٠ . ولم يجن بونيفس من ذلك سوى زيادات الاتجاهات السلبيـة نحوه . وحـاول بونيفس ان يصلح بين الكردنالين المتخاصمين بيترو Pietro وجاكوبو Jacobo فلما أخفق في ذلك أصدر ضدهما التحريم . فتقـدم بيترو وجاكوبو بشكوى خطية وضعاها علـى مذبح كنيسة القديس بطرس يطلبان فيها عقد مؤتمر ديني سنة ١٢٩٧ للحكم بينهما وبين البابا . ومع ذلك فقد أكد البابا قراره السابق ضدهما وأغار علـى مقاطعاتهما بفرق عسكرية[2] .

ادت سياسة البابا بونيفس الى انتكاسة كبرى في العلاقات مع كل من انكلترا وفرنسا . اذ احتاج كل من الملكين ادورد الاول الانكليزي وفليب الرابع الفرنسي المزيد من الاموال نتيجـة لحربهما ضد بعضهما البعض . لهذا فرض ادورد الاول جبايـة خمس الواردات الكنسية في بلاده بينما جبى فليب واحدا بالمائة اولا ثـم اثنين بالمائة مـن مجموع واردات الكنيسة في فرنسا . ولكن على علم بانه لا مانع لدى الكنيسة من جباية املاكها من قبل السلطات السياسية ولكن على شرط استخدامها للاغراض الصليبية . وكان سخط البابا عنيفا ضد فليب الرابـع بصورة خاصة ، لانه رأى في تصرفات ذلك الملك حيال الكنيسة سياسة عدائية

---

(1) Catholic Encyclopedia, 11, 662 d.

(2) W. Durant, The Age of Faith, 325-1300 (N.Y., 1950) 812.

صريحة . اذ امر فليب الرابع بالاستغناء عن رجــال الديــن في الجهاز الحكومي وفي البلاط . وقدم رهبان السسترسيان في فرنسا شكوى الى البابا ضد سياسة فليب الرابع . وعليه اصدر البابا في شباط (أوكست) سنة ١٢٩٦ مرسوما فريدا من نوعه هو Clericis Laicas جاء فيه :

> تشير الاخبار منذ القديم الى ان السلطات العلمانية مــن اشد اعداء الكهنوت . وما زالت تلك الظاهرة قائمـــة للوقت الحاضر . وعليه فبموجب سلطتنا الحواريه وبالاتفاق مع رفاقنا رسمنا ... ان اي رجل من رجال الكنيسة يقوم بدفع اي جزء من موارده الدينية الى السلطات العلمانية بدون موافقة البابوية فانه يعرض نفسه الــى عقوبة التحريــم . كما سوف يتعرض لعقوبة التحريم كافة الاشخاص مهما علت مراتبهم فيما اذا طلبوا الضرائب مــن رجــال الديــن او تسببوا في مصادرة امــلاك الكنيسة ...[3]

اتخذ فليب خطوة اقتصادية جريئة للرد على البابوية . وذلك بمنعه تصدير سبائك الذهب والفضة من فرنسا الى روما فحرم الكنيسة جزءا كبيرا من وارداتها[4] . وأثرت هذه الخطوة في عرقلة العمليــات المصرفية لمدينة فلورنس بصورة خاصة . لهذا اضطر بونيفس الى الاذعان لسياسة فليب . حيث اصدر في ايلول سنة ١٢٩٦ المرسوم المعروف Ineffabilis Amor وافق البابا فيــه علــى مساهمة الكنيسة مساهمة اختيارية في تقديم الاموال للدفاع عن الدولة في اوقات الضرورة . وقد ترك للملك تعيين تلك الضرورة[5] .

عاد النزاع بين السلطتين الروحية والزمنية في فرنسا ظاهرا هــذه المرة في التناقض بــين الامتيازات القضائية للبابوية وبين سياسة فليب الرابع المركزية . اذ أمر الاخير بالقاء القبض على أسقف مدينة بامير الا وهو برنار سيسه Bernard Saisset بتهمة التحريض علــى الثورة

---

(3) O. Thatcher and E. McNeal, Source Book for Medieval History (N.Y., 1905) 311.

(4) Strayer and Munro, the Middle Ages, 395-1500 (N.Y., 1942) 404.

(5) Durant, op. cit., 813.

وغيرها من التهم الملفقة ثم احيل الى رئيس اساقفة ناريون ليشرف على حراسته سنة ١٣٠١ . وفي الوقت ذاته طلب فيليب من البابا ان يجرد برنار من منزلته الدينية لكي تقوم السلطات السياسية الفرنسية بتطبيق العقوبة بحقه . وهنا رأى البابا هجوما سافرا على حصانة رجال الدين ، فأصدر المرسوم البابوي Salvator mundi في كانــون الاول (ديسمبر) سنة ١٣٠١ الغي فيه كافة التنازلات التي اجراها سابقا لملك فرنسا ثــم اردفه بمرسوم اخر في الوقت ذاته يشار لــه Ausculta Fili والذي اعلن فيه اخطاء ملك فرنسا والدعوة لكافة رجال الدين في فرنسا لعقد مؤتمر من اجل اتخاذ الاجراءات الضرورية لحمايــة حقوق الكنيسة وحرياتها والنظر في اصلاح الدولة الفرنسية وتعديل الملكية[6] . وحينما هم الرسول البابوي تقديم المرسوم بعد قراءته الى فليب خطفه الكونت أرثوا مــن يده ملقيا به في موقد النار .

لقد تعقدت العلاقات بين البابا وفيليب الرابع بشكل اكبر في شباط (فبراير) سنة ١٣٠٢ . حيث احتفل الملك بصورة رسمية بنسخة مشوهة من المرسوم السابق علنا . ثم وجه الدعوة الى الطبقات الثلاث لكل من رجال الدين والنبلاء وسكان المدن لعقد اجتماع عام في باريس في شهر نيسان (ابريل) . واصدرت كل طبقة على انفراد قراراتها التي ارسلت للبابوية مستنكرة مواقفها . وعقد البابا مجلسا دينيا في روما في تشرين اول (اكتوبر) سنة ١٣٠٢ حضره قسم مــن رجال الديــن في فرنسا ، توصل فيه البابا في تشرين الثاني (نوفمبر) الى اصدار مرسوم Unam Sanctum ، أشار فيــه الى نظريــة السيفين وان السيف الذي يحملــه السلطان هو للكنيسة ومن اجلها ، وان السلطة الروحية المتمثلة في البابا اعلى شأنا من السلطة الدنيوية ، وعلى كافة الناس الخضوع الى الحبر الأعظم[7] . وقد رد احد اعوان الملك المسمى بيير فلوت Flote على

---

(6) C. Orton, A History of Europe, 1198 - 1378, (London, 1960) 233-4.
(7) F. Ogg, Source Book of Medieval Hostory (N.Y., 1907) 383-8.

ذلك متهكما بقوله (ان سيف سيدي قُدَّ مـن فولاذ بينما يحمل البابا سيفا من ورق)[8] .

وصلت العلاقات بين الطرفين درجتها الحرجة في سنة ١٣٠٣ . حيث عقد فيليب الرابع اجتماعين مع مجلس الطبقات في شهري اذار (مارس) وحزيران (يونيه) من تلك السنة اتهم فيهما البابا بالطغيان والشعوذة وسفك الدماء والكفر ... وطالب في اقالته من قبل مجمع ديني عام[9] . ثم ارسل الملك سرا احد اعوانه المسمى نوكاريت Nogaret الى ايطاليا من اجل اختطاف البابا وجلبه مخفورا الى فرنسا من اجل محاكمته . وتمكن نوكاريت بمساعدة عدو البابا سكيارا كولونا من اقتحام القصر البابوي في اناني Anagni في اليوم السابع من ايلول سنة ١٣٠٣ . فوجد البابا مضطجعا على فراشه حاملا الصليب وقال لاعدائه (دونكم عنقـي ... دونكم رأسي ...)[10] وكان عمر بونيفس آنذاك خمسا وسبعين سنة وقد بقي اسيرا في قصره لثلاثة ايام قـام اثنائها فرسان كولونا بنهب القصر البابوي . وعنـد ذلك هب سكان اناني بقيـادة رئيس اسرة اورسيني لتحرير البابا . وبالرغم من نجاح اورسيني في مهمته والانتقال بالبابا الى روما الا ان الاخير توفي بعد ثلاثة ايام متأثرا من هول الصدمة في الحادي عشر من تشرين اول سنة ١٣٠٣ . وقد اصدر البابا الذي خلفه الا وهو بندكت الحادي عشر ١٣٠٣ ــ ١٣٠٤ التحريم ضد نوكاريت وعصابته .

وافت الفرصة فيليب الرابع عند وفاة بندكت الحادي عشر . اذ وقع الاختيار على انتخاب رئيس اساقفة بوردو المسمى برتران دي كو Bertrand de Got الى البابوية . وقـد تم الاتفـاق بين ذلك المرشح وفيليب مقابل حصوله على تأييد الملك الفرنسي لبابويته وتعهد برتران باتبـاع سياسة معتدلة تجاه فرنسا وان يرفع التحريم عن نوكاريت وجماعته وان يسمح في جبايـة الاراضي الكنسية في فرنسا بنسبة عشرة بالمائة سنويا

---

(8) Orton, op. cit., 235.

(9) B. Adams, Law of civilization and Decacy (N.Y., 1921) 173

(10) Orton, op. cit., 235.

ولمدة خمس سنوات وان يشجب تصرفات بونيفس[11] .

عرف برتران باسم البابا كليمنت الخامس ١٣٠٥ ــ ١٣١٤ وقــام بنقل المقر البابوي من روما الى افينون Avignon بناء على رغبة كل من فيليب الرابع واقتراح الكرادلة الذين كان معظمهم من الفرنسيين . وتقع مدينة افينون على مقربة من الحدود الفرنسية انذاك وكانت في برغندي التابعة نظريا من ناحية اقطاعية الى الامبراطورية الرومانية المقدسة غــير ان النفوذ الملكي الفرنسي كان سائدا فيها[12] .

٢ ــ الاسر البابلي Balylonish Captivity : ١٣٠٥ ــ ١٣٧٧

سميت تلك الفترة بالاسر البابلــي للاعتقــاد السائد بان اقامــة البابوات في آفينون كانت اجبارية وتحت النفوذ الفرنسي تشبيها لها في سبي بني اسرائيل من قبل بختنصر واكراههم على السكن في بابل . لقد عاين بابوات الاسر البابلي في آفينون في بذخ مسرف . وجلبت عليهــم تلك الاقامة التهم بانهم صنائع ملوك فرنسا ولا همّ لهم سوى طلب المزيد من الاموال .

حقا ، لقد اضطر البابوات في آفينون لطلب المزيد من الاموال نظرا لانقطاع قسم كبير مــن مواردهم الايطالية بالاضافة لتلافــي مصاريف القصر البابوي . وزادت النقمة علــى البابوية في المجتمــع الكاثوليكي للاساليب المشددة التي اتبعت في جباية الضرائب الدينية ولزيادة نسبة المساهمات المادية التــي تطلب من الاساقفة عنــد اول تسلمهم المنصب وكذلك كان الامر بالنسبة لرؤساء الاساقفة ولمضاعفة الاجور القضائية على المترافعين في المحاكم البابوية ولتوزيع المناصب الادارية على المقربين من البلاط البابوي الذين اصبحوا يشكلون فئة من الموظفين لا همّ لهم سوى جمع الاموال تحت ستار ديني[13] .

---

(11) F. Guizot, History of France, vol. I (London, 1872) 601.
(12) S. Painter, History of the Middle Ages, 284-1500 (London,, 1963) 405.
(13) Robinson, An Introduction to the History of Western Europe, vol. I (Boston, 1946) 258.

أثارت سياسة بابوات آفينون الاقتصادية انكلترا وخاصة ان القطر الاخير في علاقات عدائية مع فرنسا التي انفجرت بشكل حرب عامة بين الطرفين فيما يسمى بحرب المائة عام منذ سنة ١٣٣٦ . لهذا اصدر البرلمان الانكليزي قانونا سنة ١٣٥٢ أشار الى ان كل من يستلم منصبا دينيا في انكلترا من البابوية يعتبر عدوا للانكليز وملكهم . وقد قدرت العوائد المالية في انكلترا للبابوية سنة ١٣٧٦ بانها اكثر من ميزانية الملك بخمسة اضعاف[١٤] .

ولم تكن التهم الموجهة الى بابوات آفينون بانهم صنائع ملوك فرنسا لتباعد الحقيقة . لان اعتلاء رئيس اساقفة بوردو البابوية والاقامة في آفينون كان بتأثيرات فيليب الرابع وحاشيته . ثم اخذ نوكاريت يطالب البابا كليمنت الخامس منذ البداية بان يصرح بان سلوكه السابق تجاه بونيفس كان صائبا . وحاول كليمنت لست سنوات المماطلة في اصدار ذلك التصريح . واخيرا اضطر البابا الى عقد هيئة قضائية لتحقيق في تصرفات كل من بونيفس ونوكاريت . كما طالب الاخير بنبش قبر بونيفس واحراق عظامه علنا . وعلى كل فان البابا تجنب ذلك الاجراء المنكر بالاتفاق مع السلطات الفرنسية على حل وسط ، الا وهو الغاء كافة المراسيم التي صدرت ضد فيليب واتباعه والتصريح بان سياسة الملك الفرنسي ازاء بونيفس كانت عين الصواب[١٥] .

لقد استخدم فيليب الرابع السلطة البابوية لتحقيق مصالحه المالية على حساب ثروات فرقة فرسان المعبد في فرنسا . وهذه عبارة عن فرقة ديرية في بدايتها اسسها الفرنسي هيو بايّن Hugh of Payens مع بضعة شركاء له سنة ١١١٨ في القدس بعد موافقة الملك الصليبي بلدوين الاول الذي خصص لهم رواقا في المسجد الاقصى في ساحة معبد سليمان بن داود[١٦] . اتبعت الفرقة في اول امرها التعاليم البندكية ثم تحولت الى مؤسسة دينية ــ عسكرية بعد موافقة البابا سنة ١١٢٧ . وقد اصبحت

---

(14) Ibid., 259.
(15) Painter, op. cit., 406.
(16) Ibid., 210.

الفرقة تجارية ايضا لما حصلت عليه مـن العوائد الاقطاعيـة والنهب في الاراضي المقدسة فكانت لها اسواق ماليـة رائجة في اوروبا وخاصة في فرنسا وانكلترا . وعاش هؤلاء عيشا مترفا في مقاطعاتهم الاوروبية بعد انتهاء مهمتهم الصليبية سنة ١٢٩١ على اثر سقوط عكا . وسال لعـاب فيليب الرابع لغنى هذه الفرقة فعمل بمساعدة اعوانه على فبركة التهم ضد الفرسان لاضطهادهم ومصادرة اموالهم . ومن التهم التـي وجهها فيليب الى هؤلاء عدم التقيد بشعاراتهم الدينية الاولى والانزلاق في التيارات المعاكسة للعقيدة وانكار المسيح والسعـي وراء الشيطان . لهذا اصدر اوامره سنة ١٣٠٧ بالقاء القبض علـى الفرسان وكـان عددهم حوالي الالفين ، وتفتيش منازلهم وتعذيبهم من اجـل الاعتراف بالتهم المسندة اليهم . وقد اضطرت غالبيتهم الى قبول تلـك التهم تفاديا للموت تحت التعذيب . وأشار احد فرسان المعبد قائلا (انني اقبل اية تهمة مسندة الي حتى قولهم باني قتلت المسيح تجنبا للاعدام حرقا)[17] ومع ذلك سارت عملية حرقهـم في مختلف الارجاء الفرنسية . وقـد اضطر فيليب البابا كليمنت الخامس الى الرضوخ للامر الواقـع . فاصدر الاخير مرسوما ارضاءا للسلطة الفرنسية ولضميره اعلن فيه سنة ١٣١٢ حل فرقة فرسان المعبد غير انه لم يوجه اللعنة اليها .

وبينما كانت آفينون تدخـل بالرخاء المادي امست روما في أزمات شديدة وذلك لانقطاع الحجاج عنهـا ولاضطراب الامن لصراع الفئات الارستقراطية من اجل الاستئثار بالسلطة . لهذا ظهرت فيها بضعة حركات تنادي باحياء مجد روما وجعلها ثانية العاصمة الروحية والسياسية للعالم المسيحي . اذ تمكن القائد الشعبي كولادي رنزي Coladi من اعادة الامن والقضاء على تنافس الامراء سنة ١٣٤٧ ونـال تأييد رجال الدين في روما . غير انه اثار بطموحه المتطرف مخاوف امراء ايطاليا وجلب على نفسه نقمة السكان فأطاحت بحكمه ثورة في السنة المشار اليها. ثم حاول

(17) Orton, op. cit., 237-8.

الكردنال البورنوز Albornoz سنة ١٣٥٤ الهيمنة علـى روما واعادة ولائها للبابوية[١٨] .

حببت السياسة التي اتبعها البورنوز الى البابوات فكرة الرجوع الى المقر القديم في عهد البابا أوربان الخامس ١٣٦٢ ـ ١٣٧٠ ، خاصة وان آفينون لم تعد ذلك المركز الامين[١٩] كما كانت عليه في النصف الاول من القرن الرابـع عشر . اذ أدت حرب المائة عـام وما نتج عنها مـن انتشار عصابات اللصوص المسلحة الى تعريض آفينون الى الخطر كما اصبحت تلك المدينة في كثير مـن الاحيـان بقرة حلوبا لعصابات قطـاع الطرق . واستهدف البابا مـن الرجوع الى روما العمل على الاصـلاح الكنسي وتوجيه الدعوة من المركز المسيحي القديـم لمواصلة الكفـاح الصليبي ضد العثمانيين . وقد سافر البابا اوربان الخامس فعلا الى روما سنة ١٣٦٧ بالرغم من تحذيرات الحكومة الفرنسية ومعارضة الكرادلة ، فاستقبلته روما استقبالا رائعا . ولكن سرعان ما خاب ظن البابا بالمركز القديم ، اذ تجددت فيه الاضطرابات والمؤامرات فقفل راجعا الى آفينون بعد سنتين . ومع ذلك فقد راودت فكرة العـودة الى روما خلفه البابا كريكوري الحادي عشر ١٣٧٠ ـ ١٣٧٨ وما أن حل في روما بضعة اشهر حتى كان يعد العدة للانهزام الى آفينون حينما دهمته الوفاة[٢٠] .

٣ ـ ردود الفعل لبابوية الاسر البابلي :

كاد التذمر ان يكون عاما مـن سياسة بابوات آفينون في الارجاء الكاثوليكية . فقد أدت سياسة البابا جون الثاني عشر ١٣١٦ ـ ١٣٣٤ الى زيادة المواقف السلبية تجـاه الكنيسة وذلك لما اتبعه مـن اساليب صارمة في الامور الادارية . اذ حاول جعل السلطة البابوية اكثر مركزية على املاكها . وادى ذلك الـى بيروقراطية متزمتة هدفها الاول جباية اوروبا وارسال الاموال الى آفينون واسفر عن ذلك طغيـان الاتجاهات

(18) Strayer and Munro, op. cit., 426.
(19) Orton op. cit., 358.
(20) Strayer and Munro,op. cit., 427.

الدنيوية على الواجبات الروحيـة . وقـادت سياسة ذلك البابا الـى اصطدامه مع كل مـن فرقة الفرنسسكان الروحية والامبراطور لويس البافاري . اذ نادت فرقـة الفرنسسكان الروحية نبذ المـادة والتمسك بشعار الفقر لكافة رجال الدين طالما ان المسيح لم يملك ثروة ماديـة . فعلى الكنيسة اذن ان تنفض عنها غبار الدنيا وتعود بالمسيحية الى طبيعتها الاولى . اثارت هذه الدعوة غضب البابا جون الثاني عشر الذي رأى في الاملاك الكنسية والضرائب الدينيـة ضرورة لازمـة للمحافظة عـلى المسيحية ورفع شأنها والدفاع عنها . لذا صرح بان كـل من يدعو الى تجريد الكنيسة من ثرواتها انما هو مارق دينيا . ودعا الروحيون مـن فرقة الفرنسسكان الى ضرورة احياء المؤتمرات المسيحية العالمية لاتخاذ قرارات في المشاكل الدينية . وان قرارات تلـك المؤتمرات اسمى مـن القرارات البابوية ، وان العصمة من الزلل لم تكن للبابا وانما هي لتلك المؤتمرات . لهذا كانت نقمة البابا جون الثاني عشر شديـدة ضد هؤلاء الفرنسسكان الذين اضطر قسم منهم الى الالتجاء الى بلاط الامبراطور لويس البافاري حيث واصلوا من هناك نقدهم اللاذع للبابوية والدعوة للاصلاح[21] .

اما المشكلة بـين جون الثاني عشر والامبراطـور لويس البافاري فهي جزء من الصراع بين السلطتين الدينية والزمنية ، ومع ذلك فلم يكن لذلك الصراع في الامبراطورية الرومانية المقدسة اهميته السابقـة نظرا لان المؤسستين العالميتين الامبراطورية والبابوية ما هما الا شبحا الماضي السحيق . بدأت المشكلة باغارة لويس البافاري على ايطاليا وتنصيبه بابا مناوىء لبابا آفينون . واهمية الحادث كائنة في كثرة البحوث الفلسفية والتاريخية حول أحقية كل من الامبراطور والبابا في الصلاحيات الزمنية ، ناهيك ان تلك البحوث لعبت دورا خطيرا في اضعـاف مركز الكنيسة القيادي .

---

(21) Ibid., 423-24.

ظهر في فترة الاسر البابلي العديد من الفلاسفة الذين جهروا بضرورة وضع حد للاوضاع الدينية المتردية ووضع حد للصراع بين السلطتين الزمنية والسياسية مقترحين مخططات مختلفة . ومن اشهر هؤلاء بيير دوبوا P. Dubois احد قضاة فيليب الرابع الذي اشار الى ان : الكنيسة لا يمكنها اصلاح نفسها ما دامت تحاول الجمع بين سلطاتها الروحية وبين التحلل والسيطرة الزمنية . وعلى الكنيسة تكييف نفسها للتطورات الاجتماعية المتغيرة . ان المحافظين الذين يعارضون الاصلاح بحجة المحافظة على التقاليد ما هم الا ادوات لتنفيذ رغبات الشيطان . وعلى الحكومة مصادرة الاملاك الدينية محافظة على نقاوة الدين[٢٢] . وأشار وليم اوف اوكام W. of Ockham ١٣٠٠ ـ ١٣٤٩ الى ان الحقائق الدينية يجب ان تستقى من الانجيل وليس من كيان الكنيسة المجرد . وان البابوات معرضون للخطأ . ويجب الفصل بين السلطتين الزمنية والسياسية . وكان يساند في اراءه الامبراطور لويس البافاري[٢٣] . وقال مارسليو البادوي المتوفي عام ١٣٤٣ في كتابه (المدافع عن السلام Defender of Peace) الصادر عام ١٣٢٤ : لا شيء يجعل التقدم البشري ممكنا غير السلام . ومن بين اسباب الحروب امتلاك البابوات السلطات الزمنية والثروات الطائلة . ان الكنيسة عبارة عن مجتمع الافراد المسيحيين الذين أراق المسيح دمه في سبيلهم جميعا ، لا فرق بين قساوستهم وعلمانيهم . وأنكر على البابوية الادعاء بزعامة العالم المسيحي وتشكك في النظرية الحوارية البطرسية ثم تساءل عن مدى صحة الرواية القائلة بمجيء بطرس الى روما[٢٤] . واشار الى انه من حق المواطنين كافة الاسهام في التشريع ولا قوة هناك مهما تسامت في هذه الدنيا اعلى من الارادة الشعبية[٢٥] . نعم قد تكون الجماهير حقا جاهلة ونزقة الا انها تعرف حاجاتها الاساسية وتجد في طلبها . ثم اقترح ان

---

(22) Robinson, op. cit., 369-70.

(23) G. Leff, Medieval Thaught from St. Augustin to Ockham (Middlesex, 1962) 280.

(24) G. Sahine, A History of Political Theory (N.Y., 1964) 300-1.

(25) Ibid., 204.

تكون البابوية انتخابية يشترك فيها كافة المسيحيين[٢٦] . ونادى بترك حرية اختيار المذهب الديني للافراد فلا اكراه في الدين . ولا يجوز للكنيسة انزال العقاب على الهراطقة لان الله وحده يحكم في امورهم في الحياة الاخرى . ويجب ان يستفاد من الاملاك الدينية للمصالح العامة وللدفاع[٢٧] . هذا وقد اشارت البابوية الى هذا المصلح واتباعه بانهم (زبانية الجحيم)[٢٨] .

لقد تمثل فقدان الكنيسة قيادتها الروحية للجماهير في الثورات الفلاحية التي استعرت في انكلترا متخذة من آراء جون وكلف شعارات لها . ولد وكلف في يوركشير سنة ١٣٢٠ واتجه اتجاها دينيا واصبح مدير كلية باليول في اكسفورد سنة ١٣٦٠ ثم حاز على شهادة الدكتوراه في علوم الدين سنة ١٣٧٢ . استفزته سياسة البابوات في آفينون فراح يوجه نقدا لاذعا لها منذ سنة ١٣٦٦ وذلك على اثر مطالبة اوربان الخامس السلطات الانكليزية بتسديد المبالغ التي بذمتها للبابوية منذ عهد الملك جون ، على اعتبار ان الاخير جعل من بلاده اقطاعا للبابا انوسنت الثالث . ونظرا لعدم معقولية الطلب ولكون ما كان شائعا في الاوساط السياسية آنذاك بان بابوات آفينون صنائع ملوك فرنسا الذين هم في حرب المائة عام مع انكلترا ، فقد قرر البرلمان الانكليزي بانه لم يكن من حق الملك جون الاقدام على ذلك العمل بدون موافقة البرلمان . وعليه شمر وكلف عن ساعد الجد لمؤازرة ملكه للبرهنة على صحة قرار البرلمان. كما وقد استهوت آراء وكلف الفقراء وقسم من رجالات الفكر وانفار من الطبقة الارستقراطية الطامعة في الاستحواذ على الاملاك الكنسية . وساعدت آراؤه على اذكاء ثورة الفلاحين في انكلترا الذين رأوا في تعاليمه منهجا ثوريا لهم سنة ١٣٨١ وعرفت تلك الفئة الثائرة باللولارديين Lollards [٢٩] وقد عمدت السلطات الانكليزية الى اضطهادهم بشدة ولم يقض على اخر حركاتهم الا في سنة ١٤١٧[٣٠] .

---

(26) Ibid., 302.
(27) Ibid., 299.
(28) Strayer and Munro, op. cit., 425.
(29) F. Deitz, A Political and Social History of England (N.Y., 1937) 106.
(30) Painter, op. cit., 424.

٤ – الفتنة الكبرى The Great Schism

لم تكد البابوية لتنتهي من فترة الاسر البابلي سنة ١٣٧٧ بعـودة البابا كريكوري الحادي عشر الى روما حتى دهمتها مشكلة ادهى وأمَرّ الا وهي الفتنة الكبرى او الانشقاق الديني الكبـير . اذ عزم الكرادلة وغالبيتهم من الفرنسيين اثر وفاة كريكوري الحادي عشر سنة ١٣٧٨ على انتخاب احدهم ليعود بهـم الى آفينون[31] . اذ لم تعـد روما لمستواها المعيشي الواطىء واضطراب جوهـا السياسي تصلـح للبابوية حسب رأيهم . غير ان السكان الهائمين في روما اجبروا الكرادلة علـى انتخاب اوربان السادس سنة ١٣٧٨ . وصرح الاخير علنا بعدم رغبته مغادرة روما وأمر الكرادلة باتباع حياة تقشفية . لهذا تجمع الكرادلة في اناني بعـد مدة وجيزة وانتخبوا لهم بابا اخر هو كلمنت السابع مبررين عملهم بان اوربان السادس قد فرضته عليهم الجماهير ، وعليه اخذ كليمنت السابع يعد العدة للرجوع الى آفينون .

بدأت الفتنة الكبرى في تاريخ الكنيسة الرومانية بوجود البابوين السابقين المتنافسين دامت اربعـين سنة تعرضت فيهـا البابوية لهجـوم سافر على كافة الجبهات . نعم حدث حقا في تاريخ تلك الكنيسة ان تقلد عدة بابوات العرش البطرسي في آن واحد نتيجـة لتدخلات السلطات الزمنية غير ان المسيحيين المؤمنين يعرفون حقا من هو البابا الشرعي ومن هو المزيف . اما في وقت الفتنة الكبرى فقد التبس الامر على الناس ولم يتبينوا صحة الامر بالنسبة للبابوين اللذين تم انتخابهما من قبل مجلس واحد في ظروف مرتبكة . اذ ساندت ايطاليا اوربان السادس بينما ايدت فرنسا كليمنت السابع ، ونظرا للعلاقات العدائية بـين حكومتي فرنسا وانكلترا فقد دعمت الثانية البابا اوربان السادس[32] .

أدت الفتنة الكبرى الى انقسام حاد في الصف المسيحي والاجهزة الكنسية وأثارت نقاش المفكرين حول اهميـة المؤسسة البابوية ومدى

---

(31) H. Fisher, A History of Europe... (London, 1957) 348.

(32) Robinson, op. cit., 374.

شرعيتها والتساؤل عن امكانية وجود سلطة فوق السلطة البابوية ووجد هؤلاء ضالتهم المنشودة في السوابق التاريخية المتمثلة في المؤتمرات المسيحية العالمية الاولى .

٥ ـ حركة المؤتمرات الدينية Conciliar Movement ١٤٠٩ – ١٤٤٩

شغلت فكرة اصلاح البابوية ومعالجة الفتنة الكبرى اذهان المفكرين وخاصة في الاوساط الجامعية في باريس على الاخص . ولعل من ابرز دعاة الاصلاح في باريس Pierre D'Ailly ١٣٥٠ – ١٤٢٠ . طعن هذا في اوتوقراطية المؤسسة البابوية من ناحية تاريخية وانه من الافضل للعالم المسيحي ان يتولى شؤونه مجلس اعلى لادارة اموره الدينية وان تسود قرارات ذلك المجلس على السلطة البابوية[٣٣] . وهكذا اصبحت فكرة المجالس الدينية سائدة في الاوساط المسيحية الغربية .

ومما عجل في ظهور فكرة الرجوع الى المؤتمرات الدينية العالمية ادراك قسم كل من كرادلة آفينون وروما للمخاطر التي تهدد العالم المسيحي من جراء استمرار الفتنة الكبرى . اذ حدث ان انتخب الايطاليون البابا كريكوري الثاني عشر سنة ١٤٠٦ بينما اختار الكرادلة الفرنسيون بندكت الثالث عشر سنة ١٣٩٤ . لهذا نهض جماعة من كرادلة البابوين السالفين بالمسؤولية في دعوة مؤتمر ديني في مدينة بيزا سنة ١٤٠٩ لوضع حد للمشكلة . ونظرا لعدم حضور البابوين الاجتماع قرر المؤتمر اقالتهما وانتخاب الاسكندر الخامس الذي لم يستمر غير سنة واحدة اذ اعقبه جون الثالث والعشرين ، ولم يكن اختيار الاخير لاهلية دينية وانما رأى فيه المؤتمرون القابلية العسكرية لمناهضة اطماع ملك نابولي في الاراضي الكنسية وفي روما . ومع ذلك فقد رفض البابوان السالفان التخلي عن مركزيهما . وبذلك فقد اصبح للعالم المسيحي نتيجة لمساعي مؤتمر بيزا ثلاثة بابوات في وقت واحد مما زاد الوضع حراجة[٣٤] .

---

(33) Strayer and Munro, op. cit., 431.
(34) Robinson op. cit., 376.

حتم الفشل الذي مني به مؤتمر بيزا عقد مؤتمر اخر . وقد وجد دعاةحركة المؤتمراتالدينيةحليفا لهمفي سكسموند امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة الذي اخذ على عاتقه مشروع اصلاح البابوية . وقد اضطر البابا جون الثالث والعشرين على الموافقة لعقد مؤتمر ديني سنة ١٤١٤ في كونستانس[٣٥] . استمرت اجتماعات مؤتمر كونستانس لثلاث سنوات وقد حضر افتتاحه البابا جون الثالث والعشرين وتسع وعشرون كردينالاً وثلاثة وثلاثون من رؤساء الاساقفة ومائـة وخمسون رئيسا ديريا ومائة امير وجموع غفيرة من صغـار القساوسة والعلمانيين[٣٦] . حاول المؤتمر معالجة ثلاثة امور اساسية : (١) اطفـاء جذوة الهرطقة المتمثلة بصورة خاصة في حركة جون هس Huss في بوهيميا (ب) رأب الصدع المسيحي الذي نتج عن الفتنة الكبرى (ج) اصـلاح الكنيسة بصورة عامة .

أ ـ الحركة الـهية

وجدت الاراء الوكلفية ترحيبا عنـد بعض اساتـذة اللاهوت في جامعة براغ ، ومن بين الذين تبنوا تلك الآراء ودافعوا عنها هو جيروم البراغي . وقـد اضطرت الهيئات التدريسية وجلها مـن الاجانب الـى التصويت ضد الآراء الوكلفية وقد عارض الاستاذ جون هس سنة ١٤٠٣ ذلك القرار فكان ذلك بداية نشاطه الديني . ولد جون هس سنة ١٣٧٣ فحاز عـلى الليسانس سنة ١٣٩٣ والماجستير سنة ١٣٩٦ ولم يتقـدم لدراسة الدكتوراه . وكـان هذا مـن الخطباء المشهورين في المجالات الدينية ومن المتحمسين لاصلاح البابوية واصبح رئيسا سنة ١٤٠٩ لجامعة براغ . غير ان ذلك الاجراء اثار غضب السلطات الكنسية في براغ فأمرت بمنع الاساتذة من القاء الخطب الدينية . اصطدم هس بالبابوية بشكل فعال سنة ١٤١٢ حينما اعلن البابا جون الثالث والعشرين حربا صليبية

(35) W. Waugh, A History of Europe, 1378-1494 (London, 1962) 171.
(36) Ibid., 172.

ضد ملك نابولي . اذ اصدر ذلك البابا صكوك الغفران لمن يشترك عمليا في الحملــة او يساهم ماديا فيها[٣٧] . لذا انبرى هس لمهاجمــة السياسة البابوية وجاء بنظرية متطرفة اشارت الى عدم شرعية الاوامر البابوية ان تناقضت مع شريعة المسيح . وصرح بعدم الاعتراف بالبابوية واخضاع المحاكم والاملاك الدينية للسلطة المركزية والرجوع الى الانجيل في تفسير المشاكل الدينية . وعليه اصدر البابا ضده عقوبة التحريم فنحّته السلطات البوهيمية مع اتباعه عن الجامعة . وقد انتشرت آراء هس بين الطبقات الفقيرة ايضا فكانت سببا في ثورة الفلاحين في ذلك القطر التــي سببت مشاكل مزمنة للسلطتين الدينية والزمنية[٣٨] .

لقد دعا مؤتمر كونستانس هس للحضــور والدفــاع عن الآراء المسندة اليه ، واعتقد هس بامكانيته في اقناع المؤتمرين بصواب آرائه ثم زوده الامبراطور بتوصية خاصة من اجــل عدم التعرض له بسوء في كونستانس . ومع ذلك فقد سجن عند اول وصوله سنة ١٤١٤ ولم تجده شفاعات سكسموند له شيئا . اذ ان تهمة المروق الديني مــن الجرائم الكبرى وليست هي مــن اختصاص السلطات السياسية . وقــد حاول المؤتمر عبثا اقناع هس بالتراجع عن مبادئه في اليوم السادس من حزيران سنة ١٤١٥[٣٩] . لهذا اعلنته المحكمة الدينية مارقا عنيدا لا تجد التوبــة الى قلبه سبيلا وسلمته الى السلطات المدنيــة في كونستانس مــن اجل اعدامه حرقا وذر رماده في نهر الراين[٤٠] وهكذا قضى مؤتمر كونستانس على حياة هس غير انه فشل في القضاء على الحركة الهسية التي استفحل امرها بعيــد ذلك الحادث واسفرت عــن عداء مزمن بــين البوهيميين والمورافيين والالمان ذلك العداء الذي دام حتى العصور الحديثة .

ب ـ معالجة الفتنة الكبرى

وهي مــن المهمات الرئيسية لذلــك المؤتمر . وادت تحقيقاته في

(37) Painter, op. cit., 425-26.
(38) R. Rocher, Nationalism and Culture, tr. by R. Chase (N.Y., 1937) 107-109.
(39) Painter, op. cit., 427.
(90) Robinson, op. cit., 377.

تصرفات البابوات الى اثارة مخاوف البابا جون الثالث والعشرين . اذ خشي هذا ان يستمر التحقيق فيشمل سلوكه الشائن قبل توليه البابوية ، لهذا أطلق ساقيه للريح خلسة تاركا كرادلته في حيرة من امرهم[41] . كما اوقع انهزامه صدمة على المؤتمرين الذين خشوا بدورهم من مغبة الامر . الا ان المؤتمر توصل الى قرار مؤداه ان قراراته هي فوق السلطة البابوية وذلك من اجل تلافي الاجراءات السلبية التي قد يتخذها جون في المستقبل . كما قرر المؤتمر انزال العقوبات الصارمة في حق البابوات الذين يرفضون الانصياع لقراراته كما اصدر امرا باقالة جون الثالث والعشرين وكريكوري الثاني عشر وبندكت الثالث عشر . ثم سمح المؤتمر للكرادلة في انتخاب مارتن الخامس سنة ١٤١٧ وبذلك انتهت الفتنة الكبرى[42] .

ج ــ اما محاولة مؤتمر كونستانس لوضع برنامج اصلاحي شامل للكنيسة فكان عملا لا طاقة لهم به . اذ يحتاج ذلك المشروع الى وقت طويل بالاضافة الى انهم سئموا الاجتماعات التي استمرت زهاء ثلاث سنوات . غير انهم اصدروا قرارا قبل انفضاض المجلس في التاسع من تشرين اول سنة ١٤١٧ جاء فيه : ان اهمال البابوية للمجالس الدينية العالمية من اهم الاسباب التي دفعت بالكنيسة الى المزالق الخطرة . لهذا يجب عقد المؤتمرات الدينية من الان فصاعدا كل عشر سنوات مرة على الاقل[43] . وهكذا اعتقد المؤتمرون بانه سوف يكون بالامكان الحد من استبدادية البابوية .

تمكن مؤتمر كونستانس من معالجة الفتنة الكبرى بنجاح وهذه في الحقيقة اهم منجزاته . الا انه من ناحية اخرى لم يسترجع للكنيسة هيبتها المضاعة ولم ينجح في اصلاح اجهزة الكنيسة في القمة او القاعدة . كما باءت محاولته تقليص الصلاحيات البابوية بالفشل لان البابوات الذين اختارهم المؤتمر عملوا على النقيض من ذلك . وهكذا استمرت الالسن الحداد تلسع الكنيسة لسعات مؤلمة طيلة القرن الخامس عشر .

(41) Ibid., 378.
(42) Waugh, op. cit., 176-86.
(43) Robinson, op. cit., 381.

لقد عـاد المؤتمر الديني للانعقاد في مدينتي بافيا وسيينا في ايطاليا سنة ١٤٢٣ لمعالجة المشكلة الهسّية التي استفحل امرها على اثر اعـدام هس وكذلك لاصلاح جباية الاموال الدينية . الا ان الدبلوماسية الماهرة التي اتبعها البابا مارتن الخامس ١٤١٧ ـ ١٤٣١ واعوانه شلت جهـود المؤتمر . ولهذا قرر المؤتمرون عقد اجتماعهم القادم في باسل سنة ١٤٣١ بعيدا عن التأثيرات الايطالية. ولقد انتهز البابا يوجينوس الرابع ١٤٣١ـ١٤٤٧ محاولة مؤتمر باسل للوصول الى تسوية مع الهسّيين من ناحية عقيدية فأمر بحله . ومع ذلـك استمر المجلس مواصلا اجتماعاته لاصـلاح الامور المالية . وقد اعلن البابا ثانية حل المؤتمر وبطـلان قراراته ثم امر بعقد مجلس عالمي اخر على مسؤوليته سنة ١٤٣٧ . واعلن هذا المجلس بطلان الرأي القائل بان المؤتمرات العالمية المسيحية فوق السلطات البابوية . ومع ذلك فقد استمر مؤتمر باسل في جلساته حيث قرر اقالة البابا يوجينوس الرابع سنة ١٤٣٩ منتخبا بدله فليكس الخامس ١٤٣٩ ـ ١٤٤٩ . هذا ولم يتمكن مؤتمر باسل من مواصلة كفاحـه في هـذا المضمار اذ اعلن اكثرية اعضائه سنة ١٤٤٩ الاتفاق مـع البابا نيقولا الخامس ١٤٤٨ ـ ١٤٥٥ . وهكذا اضطر البابا فليكس الخامس علـى الاستقالة وقبوله منصب كردينال في روما . وبذلك جـاءت حركة المجالس الدينية الـى نهايتها في العصر الوسيط[44] .

٦ ـ اتجاهات علمانية في المؤسسة البابوية :

توضحت تلـك الاتجاهات جليا في سياسة بابوات القرن الخامس عشر . اذ حاول مارتن الخامس تحقيق هدفين اولهما اخضـاع البابوية لسيطرته المباشرة والثاني العمل على ازدهار روما . ولم يكـن في هذين الهدفين ما يؤاخذ عليه . الا أن اساليب الجباية التي اتبعها البابا كـانت مثار النقد الشديد الذي زعزع الايمان بالبابوية . اذ أشارت ملاحظات احد رسل فرسان التيوتون الذي جاء لروما بمهمة رسمية قبل وفاة البابا مارتن بسنة واحدة الى : ان الطمـع يسود البـلاط البابوي في روما .

(44) Painter, op. cit. 415.

وترى هناك رجال الدين يتفننون في كل يوم في ابتداع اساليب جديدة لامتصاص اموال الجرمان باسم الدين . سوف تؤدي هذه الظاهرة الى مشاكل في المستقبل القريب ، وسوف يتحرر الناس من ولائهم للبابوية هربا من تعسف الطليان[45] .

لقد غمرت الاتجاهات العلمانية البابوية في النصف الثاني من القرن الخامس عشر . اذ كرس نيقولا الخامس طاقاته للحركة الثقافية (الانسانية) ولقبه البعض بامير الانسانيين ودفعه ذلك الميل الى تأسيس مكتبة الفاتيكان الشهيرة[46] . أما بيوس الثاني ١٤٥٨ ــ ١٤٥٤ فقيل عنه بان اقتطف من ملاذ الحياة ثمراتها قبل توليه المنصب وعند ذاك عزف عن الدنيا وزهد فيها[47] . كما ان سياسة البابا سكستوس Sextus الرابع ١٤٧١ ــ ١٤٨٤ . جعلت من ايطاليا مسرحا للحروب . ومع ذلك فقد كتب على قبره : مات باسم السلام العظيم . وقد استحوذ كل من انوسنت الثامن ١٤٨٤ ــ ١٤٩٣ والاسكندر بورجيا ١٤٩٣ ــ ١٥٠٣ على البابوية بالرشوة والتهديد .

لقد شهد القرن الخامس عشر اذن فشل المساعي الاصلاحية التي قامت بها المؤتمرات الدينية وفشل البابوية في اصلاح نفسها . ودفع بالمجتمع المسيحي الكاثوليكي الى مستقبل مظلم حاولت البروتستانتية فيما بعد تبديد بعض ظلماته .

---

(45) Strayer and Munro, op. cit. 438.
(46) Wough, op. cit. 470.
(47) Ibid., 474.

الفصل الرابع عشر

ـ دول الاطراف الاوروبية ـ

١ ـ روسيا :

مع ان العنصر السلافي لم يزل طاغيا على روسيا قديما وحديثا فان تسمية تلك البلاد بروسيا لم تكن تسمية سلافية . اذ انقسم المؤرخون حيال التسمية واصولها الى فريقين . اخذ الاول بالرأي القائل بان التسمية نسبة الى احدى قبائل الالف السرماتية المسماة بالقبيلة الساطعة Rukhs . ويستندون في ذلك على الاخبار التي اشارت اليها باللغة السريانية في القرن السادس بكلمة Rus . اما الفريق الثاني فيعتبر كلمة

روسيا هي اسم لاحدى قبائل الشماليين من الفرع السويدي غزت البلاد في القرن الثامن فطبعت اسمها على ذلك القطر وسكانه .[1]

استمدت روسيا كيانها الاجتماعي والسياسي من امتزاج جموع متعددة من المستوطنين . ومن اوائل هؤلاء الصقالبة الذين سكنوا مناطق السهوب ويرجع هؤلاء لغويا الى الشعوب الايرانية اما اجتماعيا فهم اقرب في العادات الى الشعوب المغولية . ظهروا في الاقسام الجنوبية الروسية منذ القرن السابع قبل الميلاد وكانت لهم علاقات تجارية مع المستعمرات اليونانية في تلك الجهات . واشار اليهم هيرودوت في القرن الخامس قبل الميلاد بانهم منتشرون في مناطق الدانوب والدنيبر والدون[2] . ويقول المؤرخ بينز Baynes بان الرومان اطلقوا على السلاف السكلاف حيث التسمية العربية الصقالبة Sclavenes ، وكانوا يتجولون مع قبائل مشابهة لهم في جهات الدانوب الشمالية في اواسط القرن السادس[3] .

ومن بين أوائل المستوطنين جهات روسيا هم السرماتيون Sarmatians وينتمون الى الاصل الايراني وقد أموا تلك البلاد في القرن الرابع قبل الميلاد ومن اشهر قبائلهم هم الالن Alans . وقد وقعت مناطق السرماتيين في جهات روسيا بحيازة قبائل الغوط الجرمانية في القرن الثالث الميلادي. وقد اصبح كل من الالن والغوط فريسة لقبائل الهون في اواخر القرن الرابع الميلادي .

كانت الاقسام الروسية الشمالية المسماة بمنطقة الغابات الكائنة على سفوح جبال الاورال مرتعا للفنلنديين وهم من الشعوب الاسيوية بينما سكن الى جنوبهم المجريون . واستوطنت اقوام بلطيقية لتوانيه الاقسام الشمالية الغربية حول الانهر وتمت تلك الاقوام الى الاصل الاندور اوروبي . كما سكنت قبائل انتز Antes المغولية نهري دونتز Donets والبوك Bug وفي شبه جزيرة القرم في فترة الغزو الهوني .

---

(1) G. Vernadsky, A History of Russia (Yale, 1954) 21-22.

(2) Ibid., 20.

(3) N. Baynes and H. Moss, Byzantium, An Introduction to East Roman Civilization (Oxford, 1961) 338.

ثم وقع هؤلاء تحت رحمـــة شعوب آسيوية غازية في النصف الثاني من القرن السادس الا وهي القبائل الافارية[4] .

لقد تمكنت الاخلاط القبلية المدعوة بالخزر من زحزحة الافار عن مواطنهم في الاقسام الجنوبية من روسيا مؤسسة دولـــة عرفت بذلـــك الاسم حول الدون والفولكا وامتدت الى القفقاس في النصف الثاني من القرن السابع . واختار الخزر الديانة اليهودية تجنبا لتأثيرات البيزنطيين والمسلمين السياسة . وقاتل الخزر في جهات القفقاس ضد المسلمين وانزل بهم المسلمون هزيمة كبرى سنة ٧٣٧ وامتد النفوذ الاسلامي انذاك من القفقاس الى جهات نهر الدون .

تعرضت روسيا لموجة من الشماليين منـــذ اواسط القرن الثامن . حيث غزتها القبائل السويدية التي اعترفت في بداية الامر بالتبعية لدولة الخزر . وقد تحررت تلك القبائل من السيطرة الخزرية علـــى اثر ضربة قاصمة وجهها المسلمون للجيوش الخزرية سنة ٨٢٥[5] .

دولة كييف :

شكل الخزر حاجزا اقتصاديا بـــين تجـــارة الشماليين في الاجزاء الروسية الشماليـــة والمناطق البلقانيـــة . ولم يكن بمقـــدور الشماليين السويديين القيام بحركة عسكرية عامة ضد الخزر لقلتهم عدديا لذا وجهوا الدعوة الى ابناء جنسهم من الشماليين سنـــة ٨٥٦ فاستجاب الزعيـــم روريك لهذه الدعوة . وكان هذا حاكما علـــى الاقسام الجنوبية مـــن جوتلاند وفرايزلاند وقاد جموعه نحو الجهات الروسية فانشأ نوفوكورود وجعلها مقرا لامارته سنة ٨٦٠ . تولى حكم نوفوكورود بعد وفاة روريك سنة ٨٧٣ الامير اوليك Oleg بصفته وصيا على ايكوري روريك . ويعتبر اوليك المؤسس الحقيقي لدولة كييف[6] . اذ تمكن من الاستيلاء على تلك المدينة سنة ٨٧٨ التي كانت تحت حكـــم السويديين القدماء

(4) Vernadsky, op. cit. 23-25.

(5) Ibid., 27-29.

(6) Ibid., 30-32.

والتي اصبحت منذ ذلك الوقت عاصمة لاسرة روريك الحاكمة وادى توسع دولة كييف جنوبا الى الاصطدام مع البيزنطيين وقد تمثل ذلك في حملة ايكور الفاشلة على القسطنطينية سنة ٩٤١ . وادى مجموع العلاقات السلبية والايجابية الناتجة عن الحروب او التجارة بين دولة كييف والامبراطورية البيزنطية الى تغلغل النفوذ الارثوذكسي الى الجهات الروسية . فقد اعتنقت الاميرة اولكا Olga الارثوذكسية عند زيارتها سنة ٩٥٧ العاصمة البيزنطية[٧] ، وكانت هذه وصية على ابنها سفايتوسلاف Sviatoslav بن ايكور في فترة ٩٤٥ ـــ ٩٦٤ .

بدأ عهد دولة كييف التوسعي في زمن الامير سفايتوسلاف ٩٦٤ ـــ ٩٧٢ ، اذ تمكن من تدمير دولة الخزر سنة ٩٦٥ . وقاد حملة اخضع فيها البلغاريين سنة ٩٦٧ في جهات الدانوب بموافقة البيزنطيين في بداية الامر[٨] . واخذ البيزنطيون يوجسون خيفة من توسع نفوذ دولة كييف في جهات البلقان الشمالية لذا خاض الامبراطور جون تمسكس معركة ضد سفايتوسلاف اجبره فيها على الانسحاب من بلغاريا سنة ٩٧١ . كما اشتبك الاخير عند رجوعه الى كييف في معركة مع القبائل البشناقية التي اخذت تنهال على الجهات الروسية في اسيا ، والتي اسفرت عن مصرع الامير سفايتوسلاف[٩] .

أسفرت الحروب الاهلية بين اولاد الامير السابق عن فوز احدهم الا وهو فلاديمير في حكم كييف سنة ٩٧٨ . ومن الحوادث الهامة في تاريخ ذلك الامير اعتناقه المسيحية الارثوذكسية وفرضها على اتباعه[١٠] . اذ قيل انه تقابل مع اربعة وفود دينية تمثل الاسلام والكاثوليكية والارثوذكسية واليهودية . وبعد مناقشات دينية مع هؤلاء قرر الامير اعتناق الارثوذكسية سنة ٩٨٨ لاعتبارات اقتصادية

---

(7) Baynes and Moss, op. cit. 119.

(8) A. Vasiliev, History of the Byzantine Empire, vol. 1 (Madison, 1964) 319.

(9) Vernadsky, op. cit. 35.

(10) H. Pirenne, A History of Europe from the Invasions to the XVI Century (N.Y., 1955) 464.

وسياسية وثقافية بين الروس والبيزنطيين . وامر رعاياه بالتعميد جملة سنة ٩٩٠ كرها وطواعية . وهناك رواية طريفة تفيد ان الامير فلاديمير رفض الاسلام لتحريمه الخمرة واشار : باننا لا نطيق العيش بدونها[11] .

لقد اعقبت وفاة فلاديمير حروب اهلية اسفرت عن انتصار ابنه ايروسلاف ١٠١٩ ــ ١٠٥٤ . وقد اهتم هذا بتشريع القوانين وتقوية الكنيسة الارثوذوكسية . واعتمد في سياسته الدينية على الزعيم الروحاني الروسي هيلاريون مؤسس الحركة الديرية الروسية المسماة بالديرية الكهفية Monastery of the Caves [12] .

لم يكن في تاريخ دولة كييف في فترة ١٠٥٤ ــ ١٢٤٠ ما يسترعي الانتباه سوى تنافس الامراء وحروبهم الاهلية وتحالفهم مع الهنغاريين والبولنديين والكومان ضد بعضهم البعض .

روسيا في العهد المغولي

بدأت غارات المغول الاستطلاعية في روسيا منذ سنة ١٢٢٣[13] ، ثم غزوها كفاتحين بعد اربع عشرة سنة فسيطروا على جهاتها الغربية لمدة قرن وعلى جهاتها الشرقية لقرنين من الزمان . ويعتبر ذلك الغزو المغولي عادة اخر الاندفاعات البدوية لقبائل منطقة يوراسيا الى الجهات الغربية . فقد تمكن القائد المغولي باتو من تدمير دولة البلغار على الفولكا سنة ١٢٣٧ ثم زحف منها بريازان وموسكو وعاثوا في كييف سنة ١٢٤٠ واستولوا على نوفكورود سنة ١٢٤٢ .

ومع ذلك فلم يحكم المغول بصورة مباشرة جهات ما وراء نهر الدون . اذ اكتفوا بتبعية امراء الروس لهم ودفعهم الجزية وتنفيذ التعهدات العسكرية . لقد عرفت دولة المغول التي اسسها باتو في روسيا بدولة القبيلة الذهبية[14] Golden Horde نسبة الى قبيلة جنكيزخان . واخذت تلك الدولة بالتدهور على اثر وفاة الخان يوزبك ١٣١٣ــ١٣٤١

(11) Baynes and Moss, op. cit. 119.
(12) Vernadsky, op. cit. 40.
(13) H. Lamb, Genghis Khan, Emperor of All Men (N.Y. 1965) 136.
(14) Ibid., 92.

الذي اعتنق الاسلام . ومن اسباب الانحطاط الهامة النزاع حول الملك بين امراء المغول وكذلك الضربات العنيفة التي سددها اليهم تيمورلنك في اواخر القرن الرابع عشر واوائل القرن الخامس عشر . وقد مكنت تلك الظروف الروس من استعادة حرياتهم على يد امراء موسكو . ومما هو جدير بالملاحظة ان المغول انفسهم ساعدوا امراء موسكو في زيادة نفوذهم على حساب بقية الامراء الروس اذ منحوا امير موسكو لقب الامير الاعظم ووقعت مهمة جباية الامراء الروس على عاتق ايفان الاول ١٣٢٨ — ١٣٤١ . لذا اخذ ينظر الى موسكو منذ ذلك الحين بعين الهيبة والاحترام وخاصة بعد ان انتقلت اليها القيادة الروحية من مدينة كييف . وحاول الامير ديمتري دنسكوي ١٣٦٣ — ١٣٨٩ عبثا تجريد موسكو من المغول عن طريق القوة . وقد نهض الامير ايفان الثالث ١٤٦٢ — ١٥٠٥ بنجاح في تحرير موسكو بقضائه على دولة المغول الذهبية بتحالفه مع امارة شبه جزيرة القرم المغولية المعادية للدولة الذهبية[١٥] .

٢ — بولندا

سكنت المنطقة الممتدة من الاودر غربا الى الفستولا شرقا ومن جبال الكاربات جنوبا الى البلطيق شمالا ثلاث مجموعات قبلية سلافية. اذ استوطن البولونيون في وادي الاودر والفارتا ، والمازوريون في حوض الفستولا ، والبومورزانيون في الجهات الساحلية[١٦] . وقد اعترف الامير البولوني مايزكا سنة ٩٦٣ بتبعيته الى الامبراطور الجرماني أوتو الاول . ويعتبر مايزكا من اوائل الامراء البولونيين الذي اعتنق المسيحية حسب طقوس كنيسة روما سنة ٩٦٧ لزواجه من الاميرة دوبروفا أخت ملك بوهيميا[١٧] . وتوسعت بولونيا شرقا على حساب المناطق السلافية الروسية في عهد ابن مايزكا بولسلاف الاول ٩٩٢ — ١٠٢٥ الذي تمكن من فرض

---

(15) Pirenne, op. cit. 466.
(16) W. Durant, The Age of Faith, 325-1300 (N.Y. 1950) 658.
(17) S. Neill, A History of Christian Missions (Middlesex, 1966) 92.

سلطته على الامراءالمجاورين مكونا من بولندا مملكة لاول مرة في تاريخها وقد اعترف به البابا سنة ١٠٢٤ رسميا[18] .

انتابت بولندا موجة من الاضطرابات والحروب الاهلية على أثر وفاة بولسلاف الثالث ١١٠٢ ــ ١١٣٩ . اذ قسم هذا المملكة بين اولاده الاربعة الذين عصفت المنازعات بوحدة بلادهم وادت الى اشتداد سواعد امراء الاقطاع . وقد راح الامراء يتبارون في طلب مساعدة الجرمان والبوهيميين واللتوانيين ضد بعضهم البعض . وهكذا بقيت بولندا مفككة الاوصال حتى دهمها المغول سنة ١٢٤١ فانزلوا بمدنها الدمار وخاصة العاصمة كراكاو . ثم أنهالت عليهم موجة من الجرمان في الاجزاء الغربية على أثر انحسار المد المغولي هناك كما اصبحت بعض الاجزاء البولونية ملاذا لليهود الفارين من المطاردة الالمانية[19] حيث رحب بهم بولسلاف الخامس سنة ١٢٤٦ .

لقد اختار البولونيون لعرشهم ملك بوهيميا ونسلاس ١٢٩٥ ــ ١٣٠٥ ، الذي تميز حكمه ومن جاء بعده في بولونيا بتقوية النفوذ الالماني على حساب الامراء البولونيين وسلخ سلسيا عن بولندا وضمها الى بوهيميا . وقد ادت تلك الاحداث الى ثورة الامير البولندي لادسلاوس الذي فاز بالعرش ١٣٢٠ ــ ١٣٣٣ وحاول هذا وضع حد لازدياد النفوذ الالماني وتوسع فرسان التيوتون على حساب الاراضي البولندية .

تميز تاريخ بولندا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ببضعة حوادث هامة انطلقت من سياسة الملك كاسمير الثالث ١٣٣٣ ــ ١٣٧٠ في المجالين الداخلي والخارجي . أذ حاول القيام باصلاحات واسعة لتقوية السلطة المركزية على حساب الاقطاعيين ولرفع مستوى الفلاحين . واتجه لتقوية اقتصاديات المدن البولونية بتسهيل عقد الاتفاقات التجارية مع عصبة المدن الهنسية الالمانية . ثم ساعد على تشجيع الحركة الثقافية بتأسيسه جامعة كراكاو سنة ١٣٦٤ . ومع ذلك

(18) Ibid., 93.
(19) Durant, op. cit. 660.

اثارت سياسته المركزية كراهية امراء الاقطاع الذين اطلقوا عليه لقب ملك الفلاحين . أما سياسته الخارجية فهدفت الى التوسع في جهات المناطق الروسية والاعتراف بالامر الواقع من ناحية سيطرة بوهيميا على سلسيا واحتفاظ التيوتون بمنطقة بومرليا .

أسفر مشروع كاسمير الثالث الرامي الى الاحتفاظ بالعرش البولوني في أسرته الى نتائج بعيدة المدى في تاريخ البلاد . اذ اوصى بالعرش الى ابن أخته لويس ملك هنغاريا ١٣٧٠ — ١٣٨٢ . واضطر الاخير الى كسب تأييد النبلاء باصدار مرسوم منح فيه حريات واسعة للنبلاء سنة ١٣٧٤ على حساب السلطة الملكية وكان لذلك أسوأ الاثر في الحكم المركزي وفي مستقبل بولندا[٢٠] .

لقد انفصل العرش البولندي عن الهنغاري عند وفاة الملك لويس . وذلك لان لويس خلف بنتا تسمى هدويك أجبرها النبلاء على الزواج من جاجلون Jagellon امير لتوانيا ، الذي أعتنق المسيحية حسب طريقة روما عند زواجه من هدويك وسمي نفسه بالملك لادسلاس الثاني ١٣٧٧ — ١٤٣٤ . وبذلك اتحد العرشان البولوني واللتواني وارتبط القطران دينيا ايضا مع الكنيسة الغربية بعد ان أزيلت معالم الوثنية من القطر الثاني[٢١] .

خاض اللتوانيون والبولنديون صراعا دمويا ضد فرقة فرسان التيوتون رأس الحربة الالمانية في الزحف نحو الشرق . اذ كانت لتوانيا انذاك في علاقات عدائية مع الفرسان الذي دأبوا على التوسع فيها تحت ستار الدين ولم يكفوا عن مشاريعهم التوسعيه في ذلك القطر حتى بعد نبذ اللتوانيون للوثنية واعتناق الكثلكة في عهد لادسلاس الثاني . وقد انزلت الجيوش اللتوانية والبولندية هزيمة كبرى في جيوش الفرسان سنة ١٤١٠ في موقعة تاننبرك . هذا ولم يتمكن لادسلاس الثالث ١٤٣٤ — ١٤٤٤ من مواصلة سياسة سلفه لانشغاله في حملة صليبية ضد العثمانيين حيث فقد فيها حياته في موقعة فارنا سنة ١٤٤٤ . غير أن الملك كاسمير

(20) Pirenne, op. cit. 474-75.
(21) Neill, op. cit. 112.

الثالث ١٤٤٥ — ١٤٩٢ احرز نجاحا كبيرا ضد الفرسان واجبرهم على التنازل عن بروسيا الشرقية الى بولندا سنة ١٤٦٦ . أما الاقسام البروسية الاخرى فقد بقيت بيد الفرسان بعد اعتراف الفرسان بالتبعية الاقطاعية لملوك بولنـدا[٢٢] .

٣ — الدول الاسكندنافية

سميت شبه الجزيرة الاسكندنافية بذلك الاسم نسبة الى تسميـة المؤرخ الروماني بليني للسويديين باسم Skane ثم عمت هذه على شبه الجزيرة اذ أخذ الرومان يشيرون لـها بسكانديا . ذكـرنا سابقا ان اسكندنافية موطن الشماليين Nordmen الاوائل الذين ينتمون الى العنصر الجرماني[٢٣] . سكنتها ثلاث مجموعات قبلية كبرى نجحت كل منها في تكوين دولة هي الدانيمارك والسويد والنرويج . اخذت الاولى تسميتها من زعيمها دان ميكيلاتي اذ تفيد كلمة الدانيمارك الولاية العائدة الـى دان . ودعيت السويد بذلك الاسم تبعا لقبيلة سدين ، أما النرويـج فمعناها الطريق المؤدي الى الشمال Norway .

أخذت الدانيمارك تمثل ادوارا هامة في السياسة الاوروبية في فترة ٨٦٠ — ١٠٣٥ نتيجة لجهود بعض ملوكها . أذ يعتبر كورم ٨٦٠ — ٩٣٥ اول من وضع اسس تلك الدولة واشتهر بعدائه للمسيحية[٢٤] . ويعـود الفضل في نشر المسيحية في الدانيمارك الى الملك ذي الاسنان الزرقاء ٩٣٥ — ٩٨٥ . وتمكنت الدانيمارك في عهد الملك سوين ٩٨٥ — ١٠١٤ من الاستيلاء على انكلترا وقد تربع كانوت عـلى عرش الامبراطورية ضمت الدانيمارك والنرويج وانكلترا وحصل على امارة هولشتاين نتيجة لاواصر نسب بين كانوت والامبراطور هنري الثاني[٢٥] . وسرعان مـا تداعت امبراطورية كانوت اثر وفاته سنة ١٠٣٥ .

---

(22) Pirenne, op. cit. 477.

(23) W. Horn, History of the Literature of the Scnadinavian World (Chicago, 1895) 13.

(24) Neill, op. cit. 102.

(25) Z. Brooke, A History of Europe, 911-1198, vol. II (Condon, 1962) 84.

حكم الدانيمارك بضعة ملوك تميز حكمهم ببعض الحوادث الهامة في المجالين الداخلي والخارجي في فترة ١١٥٧ — ١٢٨٢ . أذ قام الملك والدمار الاول ١١٥٧ — ١١٨٢ بمشاريع اصلاحية اعتمد فيها على رئيس اساقفة مدينة لوند الدانيماركية أنذاك والمسمى أباسلون[٢٦] . فعمل على مكافحة القرصنة وتشجيع التجارة وامر ببناء ميناء كوبنهاجن سنة ١١٦٧ . أما في عهد والدمار الثاني ١٢٠٢ — ١٢٤١ فقد استولت الدانيمارك على همبرك والاقسام الشمالية الشرقية من حوض الالبا ، وقاد ثلاث حملات ضد السلافيين في جهات البلطيق واستولى على استونيا واسس مدينة ريفول[٢٧] . الا أنه وقع اسيرا بيد قوات الامير الجرماني هنري شفرين لمدة سنتين ونصف ولم يطلق سراحه الا بعد تنازله عن كافة فتوحاته في الاراضي الالمانية والسلافية عدا منطقة روجن . ومع ذلك فقد بلغت مساحة الدانيمارك عند وفاته ضعف ما كانت عليه اذ اشتملت على الاقسام الجنوبية من السويد وروجن واستونيا . هذا وقد أخذت السلطة المركزية بالتدهور منذ سنة ١٢٨٢ وذلك نتيجة للامتيازات التي اكره ملوك الدانيمارك على منحها لرجال الدين وامراء الاقطاع .

أما تاريخ السويد فيتميز بانتشار المسيحية وتعسف الاقطاع . اذ اعتنق الملك اولوف المسيحية وعمل جهده على نشرها[٢٨] ٩٩٤ — ١٠٢٢ . وتمكنت الكنيسة من تاسيس اسقفية في اوبسالا سنة ١١٦٤ . وكانت السويد مسرحا لصراع امراء الاقطاع حول الاستئثار بالعرش في القرنين الثاني عشر والثالث عشر . وتمخض ذلك الوضع عن زيادة نفوذ الامير بركر ١٢٤٨ — ١٢٦٦ . وعمل هذا على التخفيف عن كواهل الفلاحين بالغاء كثير من القيود الاقطاعية التي تشدهم الى الارض كما وحّد الشرائع وانشأ مدينة ستوكهولم سنة ١٢٥٥ وهو المؤسس لاسرة فولكونك Folkung الملكية ١٢٥٠ — ١٣٦٥ وذلك بتتويج ابنه والدمار ملكا على السويد .

---

(26) Ibid., 355.
(27) Pirenne, op. cit. 330.
(28) Neill, op. cit. 103.

والدولة الاسكندنافية الثالثة هي النرويج التي كانت تتألف سنة ٨٠٠ من احدى وثلاثين ولايـة يفصل الانهار والخلجان والجبال بعضها عن البعض الاخر . وتمكن الملك هولدين الاسود ٨٦٠ ـ ٩٣٣ مـن توحيد كافة القطر . اعتنقت النرويج المسيحية في عهد ملكها اولاف ترايكفسون Tryggvesson ٩٩٥ ـ ١٠٠٠ الذي اشتبك في معارك ضد السويد والدانيمارك اسفرت عن مصرعه واقتسـام النرويـج[٢٩] . واستمر ذلك الصراع في عهد الملك النرويجي الملقب بالقديس هارالدسون ١٠٠٠ ـ ١٠٣٥ . وتمكنت النرويج من تحرير نفسها من سيطرة الدانيمارك في عهد ملكها ماكنوس الصالح ١٠٣٥ ـ ١٠٤٧ وذلك على اثر وفـاة كانوت وانحلال امبراطوريته . ثم أجبر ملك الدانيمارك هارديكانوت على الاعتراف بتبعيته للنرويج وبقيت الدانيمارك تابعة للقطر الاخيـر حتى وفاة جون الصالح[٣٠] .

لقد أخذت السلطات الكنسية والاقطاعية تشكل خطرا علـى المؤسسة الملكية في النرويج منذ القرن الثاني عشر وسادت البلاد موجـة من الحروب الاهلية . وأتبع الملك سفيري ١١٨٢ ـ ١٢٠٢ سياسة عنيفة ضد الامتيازات الكنسية وقاوم بعناد البابا انوسنت الثالث[٣١] . واضطرت الكنيسة بالكف عن التدخلات في الامور السياسية في عهد الملك هاكون الخامس ١٢١٧ ـ ١٢٦٣ بموجب اتفاقية عقد سنة ١٢٤٧ بين الطرفين .

ولعل أهم ما يميز تاريخ الدول الاسكندنافية الثلاث في اواخـر العصر الوسيط توحيد عروشها وذلك على اثر الاتفاقية المعقودة بيـن زعماء تلك الدول والمسماة باتفاقية كالامار سنة ١٣٩٧ . وقد لعبـت الصدف دورا هاما في عملية الاتحاد هذه . اذ توفي ملك الدانيمارك والدمار الثالث سنة ١٣٧٥ ، وكانت ابنته ماركريت زوجة لملك النرويـج هاكون السادس ووريث عرش السويد . وتمكنت ماركريت من اسنـاد عرش الدانيمارك لاحد اولادها . وقد هيمنت على شؤون النرويج عند

---

(29) Ibid., 104-5.
(30) Brooke, op. cit. 353.
(31) Ibid., 358.

وفاة زوجها سنة ١٣٨٠ وعلى الدانيمارك عند وفاة ابنها سنة ١٣٨٧ كما بايعها زعماء السويد ايضا . وبذلك تكوّن اتحاد كالامار الذي وحد بين الدول الاسكندنافية[٣٢] منذ سنة ١٣٩٧ حتى سنة ١٤٤٨ . ومع ذلك فلم تستقر الاوضاع بين دول الاتحاد وجاء الى نهايته الفعلية في بداية النصف الثاني من القرن الخامس عشر ولو أنه استمر من ناحيــة نظرية حتى سنة ١٥٢٣ . وكانت مواقف السويديين السلبية من هذا الاتجــاه مــن العوامل الهامة التـــي عجلت في فنائه . وقد تحررت السويد مــن السيطرة النرويجيه بصورة تامة على اثر ثورتها الفلاحية سنة ١٥٢٠ التي اسفرت عن اعتلاء احد النبلاء العرش الا وهو كوستاف اريكسون سنة ١٥٢٣ والذي عرف ايضا بكوستاف فاسا[٣٣] . وقد حاولت اســرة اولدنبرك التي فازت بعرشي النرويج والدانيمارك منذ سنة ١٤٥٠ مــن أستعادة السويد .

هذا مع العلم ان العرشين الدانيماركي والنرويجي بقيا متحدين حتـــى سنة ١٨١٤ [٣٤] .

المجتمع الاسكندنافي

بالرغم من الفوارق السياسية وتباين اللهجات اللغوية وأختـــلاف العوارض الطبيعية فان هناك خطوطا عامة لتصرفهم الاجتماعي . والوحدة الاساسية في المجتمع الاسكندنافي الروابط العائلية . اذ كانوا يتخلصون من الاطفال غير الاصحاء ويهتمون بالدرجة الاولى بتربية أبنائهم تربية عملية حسبما يتطلبه محيطهم القاسي فالسباحة والتزلق على الجليــد والمصارعة والصيد والقتال والحرف اليدوية من الامور التــربــويــة اللازمة . وكانوا يستحسنون تعلم القراءة والكتابة بالنسبة للجنسين .

مارست تلك الاقوام تعدد الزوجات حتى القرن الثالث عشر . وأن

---

(32) E. Knapton, Europe, 1450-1815 (London, 1958) 90.

(33) H. Fisher, A History of Europe from the Earliest Times to 1713 (London, 1957) 258.

(34) W. Waugh, A History of Europe, 1378-1494 (London, 1962) 373.

رضاء الوالدين شرط اساسي للزواج . وان حدث خلاف ذلك فيحاسب الزوج قانونا ويحق للوالدين قتل الزوج[35] . ويجوز للزوج تطليق زوجته اذا قدم اسبابا معقولة والا فيجوز لذوي المطلقة قتله . ويحق لاي من الزوجين طلب الطلاق فيما اذا لبس احدهما ازياء الجنس الاخر ، ويكفي للمرأة ان تطلب الطلاق اذا ظهر زوجها مكشوف الصدر امام الرجال . ويجوز للزوج قتل اي شخص يشتبه بعلاقته مع زوجته[36] .

يعتبر العمل فضيلة عند الأقوام الاسكندنافية لذا برعوا في القضايا التجارية . وكان العمل عندهم يسوده التعاون بين الافراد . اذ على البيئة الاجتماعية تعويض من يتعرض من افرادها لاضرار مادية بنصف خسارته . وينضوي الافراد طبقيا تحت كيانات الاسياد والفلاحين الاحرار والعبيد . وقد أقرّ الله منازل الناس الاجتماعية ولا يصح التبرم بها[37] . ويحتل الاسياد المناصب الادارية العليا وهي وراثية عادة .

يستندون في الامور القضائية على العرف وبعض القوانين المدونه. ومع ان الثأر من الظواهر المألوفة الا انه يمكن الاستعاضة عنه في بعض الحالات بالغرامة . وكانت قوانينهم صارمة ضد الدعارة ، اذ يعاقب الزاني والزانية بالشنق أو رميهما تحت حوافر الخيل . وتطبق عقوبة الاعدام في حق من يرتكب جريمة قتل الوالدين او الاقارب او الخيانة العظمى . ويعدم التمرد ضد الحكم بشده الى حصانين متباعدين او سحلهم من قبل ثيران وحشية[38] . ولبعض دول اسكندنافيه دساتير مدونه . فمثلا دونت النرويج دستورها في عهد ماكنوس الصالح ١٠٣٥ ــ ١٠٤٧ على الرقوق . وتألف ذلك الدستور من ثمان عشرة مادة بحثت في الموازين والمقاييس وحراسة الاسواق والموانىء وواجب الدولة نحو الفقراء والمرضى .

تمثل بعض القطع الادبية للشماليين نظرتهم الاجمالية للحياة . فالقصائد المكتشفة سنة ١٦٤٣ والمسماة أيدا Edda والمدبجة في

---

(35) S. Grammaticus, Danish History, vol. I (London, n.d.) 23.
(36) P. Challa, The Vicking Age, Vol. II (N.Y., 1889) 1.
(37) Ibid., 2.
(38) Grammaticus, op. cit. 25.

اقطار شمالية مختلفة وازمان متباعدة تمثل الى حد ما عقلية الاسكندنافيين انذاك اذ جاء فيها : (لا تضع سرك في قلب امرأة . احتفظ بسرك والا فعاقبتك الندم . الحكمة المعتدلة خير من الحكمة المتطرفة . من النادر ان يكون قلب الحكيم سعيدا) . ومن أدبهم الفروسي قصة البارون سكالا كريمسون التي اتسمت بالفردية والعاطفة الجامحة . اذ فقد هذا في اواخر عمره ولده الذي مات غريقا . فتسلى بالشعر ليبعد عنه كابوس الهم القاتل . فنظم القصة الشعرية المعروفة بالابن المفقود عبر فيها عن ثورته ضد السماء وكم كان أسفه شديدا حينما لم يعثر على تلك القوى التي سببت موت ولده ليقاتلها حتى الموت[٣٩] .

٤ – شبه جزيرة أيبريا

٢ – الاسبان ٧١١ – ١٤١٠

حقا ان الميزة الكبرى لتاريخ الاسبان كانت في الصراع مع المسلمين الا أن ما أريق من الدماء في الحروب الاهلية بين الاقطاعيين المسيحيين الاسبان اكثر مما سفك من دماء في الحروب المديدة بين المسيحية والاسلام في ذلك القطر . وقد ادى تصارع القوى الاسبانية الى تحولات خطيرة في كيان ذلك البلد السياسي اسفرت عنها الدولة الاسبانية الحديثة .

اضطر الفتح الاسلامي جموعا غفيرة غوطية غربية وسويفية وكلتيه الى الاعتصام بجبال كنتابريان في الشمال الغربي من اسبانيا . ومع ان المسلمين قد تعقبوا تلك الفلول الاسبانية الا أن الاخيرة احرزت نصرا عسكريا في موقعة كوفادانكو سنة ٧١٨ بقيادة الزعيم الغوطي بيلايو الذي أعلن نفسه ملكا على منطقة استورياس[٤٠] . كما أن أندحار المسلمين في موقعة بواتيه على يد شارل مارتل سنة ٧٣٢ ساعدت الفونسو الاول ٧٣٩ – ٧٥٧ أن يوسع حدود استورياس على حساب المناطق المجاورة وتمكن حفيده اوردونو ٧٩١ – ٨٤٢ من ضم منطقة ليون الى أملاكه

---

(39) Horn, op. cit. 41.
(40) Brooke, op. cit., 113.

وجعل مدينة اوفيدو عاصمة له ، وسمى مملكته الجديدة باسم ليـون بدلا من استورياس[41] .

حدثت في عهد اوردونو حادثة فريدة كانت لها تاثيرات بعيدة المـدى في تاريخ الصراع بين الاسبان والمسلمين رغما عن أنها أقرب الى الخرافة منها الـى الواقـع . اذ ان راعيا هدته السماء الى جدث قيل فيـه بقايا جثمان القديس جيمس الذي هو أخو السيد المسيح . وقام الناس ببنـاء كنيسة حول الجدث حولت الى كتدرائية كبرى عرفت بكتدرائية القديس سنتياغو التي أصبحت مزارا تلي في الاهمية القدس وروما . وصـار القديس جيمس حاميا رمزيا للاسبان وبأسمه تبرع المسيحيون فـي كافة أرجاء أوروبا الغربية بسخاء لمواصلة الحرب ضد المسلمين[42] .

وتقع أمارة نافار الى جانب مملكة ليون استورياس على السفوح الغربية لجبال البيرينيس وسكانها مـن الكلتيين وبرابرة شمال افريقيا . مكنتهم مناطقهم الجبلية من الدفاع عن استقلالهم ضد كل من المسلمين والفرنجة . وتحولت تلك الامارة الى مملكة سنة ٩٠٥ في عهد الملك سانكو الاول جاعلا من مدينة بامبلونة عاصمة له . وتمكنت مملكة نـافـار في عهد سانكـو الثاني الملقب بالعظيم ٩٩٤ ـ ١٠٣٥ من الاستيلاء على ليون وكاستيل وأراكون ، ولقب سانكو الثاني نفسه بملك الاسبان[43] . ومثل عمله هذا خطوة أولية في الوحدة الاسبانية . غير أنه سرعان مـا عادت تلك الاجزاء الى تفككها وذلك لتقسيم سانكو المملكة بين ورثته الاربعة . وادى التنافس بين هؤلاء الورثة الى تعاظم قوى كل مـن مملكتي الكاستيل والاراكون حيث قدر لهما فيما بعد أقتسام كـافـة اسبانيـا .

أما دولة الكاستيل فكانت حصنا في بدايتها يقابل المسلمين توسعت على حساب المناطق المجاورة وصار لها كيان مستقل في سنة ٩٣٠ واتخذت بوركوس عاصمة لها . غير أن سانكو العظيم تمكن من ضمها الى مملكته

---

(41) Ibid., 114.

(42)(41) W. Atkinson, A History of Spain and Portugal (Middlesex, 1960) 63-4.

(43) Ibid., 68.

نافار ثم اصبحت بعد تقسيم سانكو لمملكته بين اولاده الاربعة من حصة الملك فرديناند الاول ١٠٣٥ ــ ١٠٦٥ الذي تمكن من الاستيلاء على مملكة ليون التي أرتبط مصيرها بمصير الكاستيل منذ ذلك الوقت المبكر[٤٤] .

كما توسعت مملكة الاراكون في منتصف القرن الحادي عشر جنوبا على حساب المسيحيين وتمكنت في عهد ملكها راميرو الاول سنة ١٠٧٦ من االاستيلاء على مملكة نافار . وبذلك اصبحت الاراكون قوة كبرى في الاقسام الشمالية الاسبانية . ولم ينافسها سوى دولة قطالونيا في الجهات الشمالية الغربية المتمركزة حول برشلونه . وكان يحكمها امراء فرنسيون منذ استيلاء شارلمان عليها سنة ٧٨٨ . الا انها اصبحت دولة مستقلة في سنة ٩٨٧ . واخيرا اندمجت مع الاراكون بعد قرن ونصف من ذلك التاريخ .

كانت المناطق المسيحية الاسبانية من اقل الاجزاء الاوروبية ثراءا واكثرها نزاعا وفوضى . ولعل تصرفات الفارس رودريكو دياز الرامزة لقيم الفروسية واتجاهاتها المتطرفة من الامثلة الموضحة لطبيعة ذلك العصر من ناحية اديولوجية . لقبه المسلمون بالسيد El Cid وأطلق عليه المسيحيون لقب البطل El Campeador . ولد هذا في بيفار سنة ١٠٤٠ قرب عاصمة كاستيل ، فشب على المغامرات العسكرية اذ قاتل مع اي جانب يدفع له ثمنا اكبر . وذاع صيته في الكاستيل وعرف عنه بانه لا يتحرج من قتال المسيحيين لحساب المسلمين والعكس بالعكس . ارسله ملك الكاستيل الفونسو السادس ليجبي له الاتاوة من المعتمد امير اشبيلية فاتهم اثناء عودته باحتجازه قسم من الاموال فامر بنفيه سنة ١٠٨١ خارج مملكة الكاستيل . فكون له عصابة سخرت جهودها للمسلمين والمسيحيين حسب العرض والطلب . ثم دخل في خدمة امير ساراكوسا لثمان سنوات وساعد على مد السيطرة الاسلامية على مناطق عائدة الى الاراكون . وأغار سنة ١٠٨٩ بفرقة قوامها سبعة آلاف مقاتل

---

(44) Brooke, op. cit. 115.

جلهم من المسلمين على مدينة بلنسية مستحصلا أتاوة شهرية قدرها عشرة الاف دينار[45] . وعمد سنة ١٠٩٠ الى اختطاف امير برشلونة المسيحي ولم يطلق سراحه الا بعد حصوله على مبلغ كبير . وأغـار ثانية على بلنسية سنة ١٠٩٤ وصادر ممتلكات الاثرياء فوزعها على اتباعه . وحكم بلنسية حتى وفاته سنة ١٠٩٩ . هذا وقد جعل الخيال من السيد هذا بطلا يسعى لخدمة المسيحيين واصبح قبره في بوركوس مزارا دينيا[46] .

ان الاوضاع المتردية في الاجزاء الاسلامية مكنت الاسبان من احراز انتصارات على المسلمين في القرن الحادي عشر . اذ ان سقوط الخلافـة الاسلامية هناك سنة ١٠٣٦ واختلاف دول الطوائف هيأت فرصا مناسبة لالفونسو السادس ملك الكاستيل لتوسيع رقعة بلاده[47] . حيث استولى على طليطلة سنة ١٠٨٥ بمساعدة المعتمد امير اشبيلة جاعلا منها عاصمة له . واتخذت المقاومة الاسبانية طابعا عنيفا منذ بداية القرن الثاني عشر فآزرها البابوات بكل قواهم واشترك فيها ايضا قسم من فرسان المعبد . وتألفت في اسبانيا ثلاث فرق من الفرسان لمواصلة المقاومـة هي فرقـة فرسان كالاتراف Knights of Calatrav وفرسان سانتياكو وفرسان القنطرة[48] . وتمكن ملك الاراكون الفونسو الاول سنة ١١١٨ من احتلال ساراكوسا. ثم اخذت المراكز الاسلامية الاخرى تتهاوى تباعا في النصف الاول من القرن الثالث عشر بعد صدهم الموحدين فيموقعة لاس نافاس سنة ١٢١٢ . اذ تمكن الملك جيمس الاول ١٢١٣ – ١٢٧٦ ملك الاراكون من الاستيلاء على بلنسية سنة ١٢٣٨ . كما وقعت كل من اشبيلية سنة ١٢٤٨ وقادش سنة ١٢٥٠ بيد ملك الكاستيل فردناند الثالث ١٢١٧ – ١٢٥٢ .

لقد شهدت اسبانيا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر تعاظم كل من دولتي الكاستيل والاراكون ونمو مؤسسات الحكم المركزي والمحلي

---

(45) Atkinson, op. cit. 71-2.
(46) Durant, op. cit. 459.
(47) Atkinson, op. cit. 69.
(48) Ibid., 81.

في هاتين الدولتين . اذ اصبحت اشبيلية عاصمة لدولة الكاستيل في عهد فردناند الثالث واهتم ابنه الفونسو التاسع ١٢٥٢ — ١٢٨٤ بالحركة العلمية معتمدا على المسلمين واليهود في ترجمة التراث الاسلامي . فأسس مدرسة خاصة لعلم الفلك ثم شكل لجنة من المؤرخين لوضع تاريخ اسبانيا والعالم . وكان هذا شاعرا ونسبت اليه حوالي ٤٥٠ قصيدة . وأمر بترجمة الانجيل عن العبرية مباشرة . واصبحت لغة الكاستيل واسطة للتعبير الادبي الاسباني منذ ذلك العهد . وكان الفونسو التاسع يطمح في عرش الامبراطورية الرومانية المقدسة وصرف على ذلك اموالا طائلة . وادى احتياجه لمزيد من الاموال الى تلاعبه في العملة وزيادة الضرائب . وقد اثقلت سياسته كاهل اتباعه ماليا فخلعوه عن العرش[٤٩] .

وتبوأت مملكة الاراكون مركزا مرموقا في تلك الفترة . اذ تم توحيد قطالونيا والاراكون في سنة ١١٦٢ في عهد بترونيلا ١١٣٧—١١٧٣ نتيجة لاواصر نسب بين العائلتين الحاكمتين . وازدهرت الحياة الاقتصادية في الاراكون لسياسة ملكها بيدرو الثاني ١١٩٦ — ١٢١٣ الذي ولى ميناء برشلونه عناية خاصة لاهميته الاقتصادية فاتخذ منه عاصمة له . وقد ضمن هذا وراثة العرش لابنه البالغ من العمر خمس سنوات بجعل مملكته تابعة اقطاعا الى البابا انوسنت الثالث . وقد حاول النبلاء في عهد الوصاية على جيمس الاول بدون جدوى الاستئثار بالحكم[٥٠] . وقد اظهر جيمس فيما بعد مقدرة على الحكم ولقب بالفاتح اذ تمكن من انتزاع جزر البليارد من المسلمين ١٢٢٩ — ١٢٣٥ . كما حاول الاستيلاء على الاجزاء الجنوبية من فرنسا بطرق التآمر الا ان سياسة لويس التاسع الفرنسي حالت دون ذلك .

لقد فتحت الاراكون صفحة جديدة في علاقاتها الخارجية في عهد الملك بيدرو الثالث ١٢٧٦ — ١٢٨٥ الا وهو الموضوع الصقلي . اذ ارتبط هذا بأواصر نسب عائلية مع مانفرد هوهنشتاوفن ملك الصقليتين فطالب بوراثة ذلك العرش حينما انتزعه شارل الانجوى بمساعدة

---

(49) Durant, op. cit. 698.
(50) Ibid., 6999.

البابوية . لهذا امر بالغاء تبعية اراكون الاقطاعية للبابوية ولم يأبه لقرار التحريم الذي اصدره البابا ضده . وقاد حملة لاحتلال صقلية سنة ١٢٨٢ بناء على طلب ثوارها الذين اطاحوا بالحكم الانجوي[٥١] .

شهدت تلك الفترة قيام الاقطاع وتدهوره في كـل من الكاستيل والاراكون . اذ تمكنت السلطات المركزية بمساعدة المدن مـن اخضاع الاقطاعيين . ووضع الفونسو العاشر ١٢٥٢ ـ ١٢٨٤ الدستور الكاستيلي المتكون من سبعة فصول ١٢٦٠ ـ ١٢٦٥ ، ويعتبر هذا الدستور السباعي Siete Partidas مـن دساتير اوروبا الهامة[٥٢] . استند واضعوه علـى قوانين القوط الغربية وشريعة جستنيان واصبح في سنة ١٤٩٢ مطبقا على كافة اسبانيا .

لقد تكون في القرن الثاني عشر البرلمان الاسباني المعروف كورتز Cortes حيث ظهر اول مرة في ليون سنة ١١٣٧ وكـان يضم في بادىء امره الاقطاعيين ورجال الدين ثم احتوى سنة ١١٨٨ على ممثلي المدن . وبذلـك فيعتبر الكورتز اول برلمان تمثيلـي في اوروبا واصبحت لـه تأثيرات في سياسة الملوك عند اعلانهم الحرب او عقدهم السلم[٥٣] . ومع ان البرلمان الاسباني لا يملك سلطة التشريع عن طريق الملك فان الملوك كثيرا ما ينصاعون لرغبات المجلس لاحتياجاتهم المتكررة للاموال . كما شكل اعضاء البرلمان لجنة تضم ممثلين عن كافة الطبقات يشار لها Junta مهمتها الاشراف على سير القوانين في فترات انقطاع جلسات البرلمان[٥٤] .

حدث في القرن الثالث عشر انقلاب للقاعـدة الاسلامية في التفريق بين المسلمين والذميين . اذ امسى الكثير من المسلمين طبقة ذميين بالنسبة للمسيحيين وامسك المسلمون مـع اليهود باكثرية المشاريـع الصناعية وعاش كل منهما في مستويات لا بأس بها . وكان الملك الفونسو التاسع يلقب نفسه بامبراطور الديانتين[٥٥] . غير ان على المسلمين واليهود ارتداء

---

(51) S. Runciman, the Sicilian vespers Middlesex, 1960) 249-50.
(52) Atkinson, op. cit., 87-88.
(53) E. Chapman, History of Spain (N.Y., 1930) 90.
(54) Cambridge Medieval History, vil. VII, 695-702.
(55) C. Lea, History of the Inquisition in Spain. Vol. I (N.Y., 1906) 58.

ازياء تميزهم عن المسيحيين وان يعيشوا في احياء معينة وكان يقع عليهم العبء الاكبر من الضرائب . ولقد حركت ثروات المسلمين واليهود التي وقعت في حيازة الاراكون اطماع ملكهما جيمس الاول فأمر باجلائهم عن بلاده سنة ١٢٤٧ وقدر عددهم بمائة الف نسمة . وادى ذلك العمل الى انحطاط الصناعة في الاراكون منذ ذلك التاريخ .

استكمال الوحدة الاسبانية

يعتبر اتحاد العرشين الكاستيلي والاراكوني في اواخر القرن الخامس عشر البداية الحقة لتاريخ اسبانيا الحديثة . وجاء ذلك الاتحاد على اثر سلسلة من الحوادث .

فقد اشتبك هنري الرابع ١٤٥٤ ـ ١٤٧٤ ملك الكاستيل في نزاع مع رجال الدين والنبلاء حول ولاية العهد . حيث فضل هذا اسناد العرش من بعده الى ابنته جوانا انصياعا لرغبة امها البرتغالية . لهذا عقد النبلاء ورجال الدين مؤتمرا في أفيلا سنة ١٤٦٥ قرروا فيه اسناد ولاية العهد الى اخيه الفونسو . غير ان وفاة الاخير اربك الوضع مجددا . وقد اتجهت انظار المعارضة الى اخته ازابيلا زوجة فرديناند وريث عرش الاراكون سنة ١٤٦٩ . وقد بايع اتباع جوانا بعد وفاة هنري زوجها ملك البرتغال الذي اشتبك في حروب مع الكاستيل لخمس سنوات انتهت سنة ١٤٧٩ بانتصار جيوش ازابيلا . كما وحدث ان اعلن في نفس السنة اعتلاء فرديناند عرش الاراكون[٥٦] . وبذلك اتحد العرشان الاراكوني والكاستيلي بشكل دائم مكونين الدولة الاسبانية الحديثة .

اتبعت ازابيلا ١٤٧٤ ـ ١٥٠٤ سياسة مركزية قضت فيها على النبلاء المتمردين مستعينة بمنظمة الاخوة المقدسة Santo Herman في تنفيذ الاوامر الحكومية . ونالت موافقة البابوية في ضم فرق الفرسان الثلاث الى الدولة وجعلها خاضعة للسلطة المركزية . وكان شعار ازابيلا الوحدة الاسبانية المتمثلة بسلطان واحد ودستور واحد ودين واحد . واعتمدت

---

(56) Atkinson, op. cit. 102-5.

ايضا في تحقيق ذلك الشعار على محاكم التفتيش بعد ان كيفتها لمقتضيات الدولة . وهكذا اوجدت ايزابيلا نوعا جديدا مـن هذه المحاكم الدينية سنة ١٤٧٨ يشار لها Holy Office ووجهت تلك المحـاكم نقمتها سنة ١٤٨٠ على اليهود والمسلمين . ثم شرعت ايزابيلا بالاستيلاء عـلى اخر الامارات الاسلامية الا وهي غرناضه . وكانت هذه تمتد من شمال جبل طارق الذي وقع بيد الكاستيل منذ سنة ١٤٦٢ ، الى الجنوب الشرقـي حيث قرطاجة الاسبانية ويبلغ طولهـا الساحلي ثلثمائة ميـل وتتراوح اعماقها الداخلية بين الثلاثين والتسعين ميلا وقد استولت عليها ايزابيلا سنة ١٤٩٢ . كما امرت بطرد اليهود من الاراكون والكاستيل في السنة ذاتها[٥٧] . ووضعت ايزابيلا الحجر الاساسي للامبراطورية الاسبانية عند اكتشاف كولومبس عن طريق الخطأ العالم الجديد سنة ١٤٩٢ .

د ــ البرتغال :

سميت بذلـك الاسم نسبة الى الميناء الروماني Portus Cale . ويرجع منشأ الدولة البرتغالية الى اواخر القرن الحادي عشر . حيث كافأ ملك الكاستيل الفونسو السادس الامير البرغندي هنري سنة ١٠٩٥ على جهاده الصليبي في تلك الجهات بتزويجه مـن بنته تريزا واعطاءه بعض المناطق التي كانت عائدة للمسلمين سنة ١٠٦٤ حول نهر منهو Minho وبذل الزوجان الجهود بجعل اقطاعهما امـارة مستقلة . وتمكنت تريزا بعد وفاة زوجها سنة ١١١٢ مـن تكوين جيش منظم واحاطت بلاطهـا بمظاهر العظمة غير انها خلعت من الامـارة لسلوكها الشائن[٥٨] ، فماتت منفية مع عشيقها سنة ١١٣٠ . فخلفها ابنهـا هنريك (الفونسو الاول) ١١٢٨ ــ ١١٨٥ الذي استحصل موافقة ملك الكاستيل بان يكون سيدا مطلقا في الاراضي التي يستولى عليها من المسلمين في المناطق المجاورة . واستولى فعلا اوريك سنة ١١٣٩ واعلن نفسه ملكا على البرتغال واعترفت

(57) Ibid., 107-12.
(58) B. Sterling, The Story of Parzival (N.Y., 1911) 20.

به البابوية رسميا سنة ١١٤٣ مقابل اتاوات سنوية[٥٩] . كما انتزع كلا من سانتارم ولشبون من المسلمين سنة ١١٨٥ ووسع حدوده الى جهات نهر تاكوس ووصلت حدود البرتغال الى ما هي عليه اليوم في عهد الفونسو الثالث ١٢٤٨ — ١٢٧٩ واصبحت لشبون العاصمة منذ سنة ١٢٦٣ .

اخذت السلطة الملكية تتركز بشكل اقوى في البرتغال في عهد الملك دينيز Dinez ١٢٧٩ — ١٣٢٥ . اذ احتفظ هـذا بعلاقات سلمية مـع الكاستيل مكرسا جهوده لاعمار بلده . فأسس مدرسة للزراعة وشجع التجارة ببناء السفن ومنح الحريات للمدن وعقد اول معاهدة تجارية مع انكلترا سنة ١٢٩٤ . ولقبه شعبه بالملك العامل ، كما جعل اللغة الشعبية البرتغالية لغة رسمية . واشتركت البرتغال في عهد ملكها الفونسو الرابع ١٣٢٥ — ١٣٥٧ في حرب منتصرة مع الكاستيل ضد المسلمين سنة ١٣٤٠ في موقعة سالادو[٦٠] .

تميزت الفترة ١٣٥٧ — ١٣٨٣ بالحروب الاهليـــة والنزاع مـع الكاستيل . ومع ذلك فقد خرجت منها في اوائل القرن الخامس عشر ولها من القوة الكافية لملاحقة المسلمين برا وبحرا في جهـات افريقيا . فقـد استولت على سبته سنة ١٤١٥ وطنجة سنة ١٤٣٧ في عهدي جون الاول ١٣٨٥ — ١٤٣٣ وادورد الاول ١٤٣٣ — ١٤٣٨ . وفي ذات الوقت بـدأ اهتمام الامير هنري ابن الملك جون الاول بالدراسات الجغرافية وارسال البعوث الاستكشافية مـن اجل استطلاع السواحل الافريقية الغربيـة والوصول منها الى الشرق لاغراض تجارية ولايجاد حلفاء ضد المسلمين . واستمرت البرتغال في عهدي الفونسو الخامس ١٤٣٨ — ١٤٨١ وجون الثاني ١٤٨١ — ١٤٩٥ في مواصلة المشاريـع الاستكشافية . واصبحت البرتغال في عهد جون الثاني قوة دولية نافست اسبانيا على سيادة البحار. ووصل التنافس اشده عند اكتشافات كولمبس . حيث اقترحت البرتغال في اول الامر تقسيم مناطق النفوذ الجديدة عن طريق خط افقي يقطع جزر الايزورس . فتكون المناطق المكتشفة شماله الى اسبانيا وتكون المناطق

(59) H. Milman, History of Latin Christianity, vol. V (N.Y., 1860) 61.
(60) Atkinson, op. cit., 92-3.

التي يعثر عليها جنوبا الى البرتغال ولم توافــق الحكومة الاسبانية على ذلك الاقتراح . ومع ذلك فقد عقدت بين الطرفين معاهدة تورد سيلاس سنة ١٤٩٤ بواسطة البابوية . ونصت المعاهدة على ان يكــون للاسبان ما يكتشفونه غرب خط وهمي يمر بالقطبين على مسافة (٣٧٠) درجة من جزر كيب‌فرد وان يكون للبرتغال ما يعثرون عليه مــن مناطق شرق ذلك الخط[٦١] .

(61) Ibid., 115-17.

الفصل الخامس عشر

ـ تحولات اجتماعية وفكرية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ـ

٢ ـ تداعي الكيانات الاقطاعية

ان اهم التطورات الاجتماعية التي طرأت على المجتمع الاوروبي الغربي في تلك الفترة هو انحطاط الكيانات الاقطاعية وازدياد نفوذ الطبقة المتوسطة ، طبقة سكان المدن المجاهدة لايجاد محل لائق بين الطبقتين الممتازتين الا وهما نبلاء الاقطاع ورجال الكنيسة . اخذ الاقطاع بالضمور والانحلال في الجهات الغربية من اوروبا نتيجة للتحولات الاساسية في الوظائف التي تؤديها المؤسسات الرئيسية التي قام عليها

الاقطـاع الا وهي التبعية Vassalage والضيعية Fiefdom ثم القضائية . اذ استندت التبعية كما رأينا بالدرجة الاولى على التعهدات العسكرية فكانت الجهاز العسكري في الاقطـاع او بمعنى اخر جهـاز الفروسية الاقطاعية . ودأبت الدول الناشئة في كل مـن فرنسا وانكلترا بصورة خاصة تنتهج سياسة مركزية من شأنها اضعـاف الجهاز الحربي الاقطاعي . ولعل اهم الاجراءات المتخذة في هذا الشأن تحويل مـا على الاقطاعيين مـن تعهدات عسكرية للدولة الـى تعهدات نقديـة بشكل ضرائب ، والاستغناء عـن الجيوش الاقطاعيـة باستبدالها بفرق ذات رواتب معينة وتشرف عليها السلطات الحكومية مباشرة يشار لها بالفرق الاجيرة Mercenaries [1] . واستخدمت هذه الفرق بدورها للضرب على ايدي المتمردين من امراء الاقطاع .

لقد ازرى الدهر بالفروسية في اواخر ايامها ، فأمست مثار سخرية الطبقة المتوسطة وحتى الارستقراطية نفسهـا[2] . فالامير الفرنسي شارل الجسور امير برغندي ، كان مولعا في اخبار البطولات التاريخية وخاصة بطولات هنيبال . وقد حدث ان احاط به الاعداء في احدى معاركه من كل جانب لرعونة خطته واساليبه البالية فناداه احد قواده باعلى صوته بتهكم (سيدي ... لقد تهنبلنا الان تماما)[3] .

لقد ابدى المؤرخون آراء جدية في تقييم الفروسية . فمنهم مـن اعتبرها (منشأ كل شيق وجميـل منسجم مـع الطبيعة الانسانية وانها افضل مؤسسة ابتكرها البشر)[4] . وهناك من اعتبرها وصمة عار في جبين الدهـر . فالمؤرخ هويزنكا يقول بانها (متعارضة مـع جوهر الديـن لارتكازها على فكرة الغرور والغطرسة الاقطاعية)[5] ويشير لهـا بوكل بانها (مؤسسة ملعونة في المخبر والمظهر سيطرت على عقول الناس ردحا من الزمن ، فامتزجت في الاذهان خزعبلات الرهبان ودعـارة الفرسان

---

(1) R. Coulborn, Feudalism in History (Princeton, 1956) 292-93.
(2) The New Modern Cambridge History, Vol. I (1493)-1520) 60.
(3) J. Huizinga, The Waning of the Middle Ages, Middlesex 1955) 89.
(4) G. James, History of Chivalry (London 1830) 14.
(5) Huizinga, op. cit. 89.

وجلبت الويل والثبور)[6] . اما الاستاذ فريمان فيكتفي بالقـول (انها مؤسسة اقطاعية تسلطت على مصالح المواطنين الطيبين)[7] . ويراها المؤرخ كرين (انها مؤسسة تظاهرت بالبطولات والحب والمجاملة لابعاد كل ما هو شريف حقا وفتحت المجال للتسلط الطبقي الاقطاعي الجشع ، وقـد استهترت بآلام الناس)[8] . ويتساءل الاستاذ ستوبس عن معنى الفروسية (الم يكن هو ذلك الاثم المستند على المعصية والانانية وازدراء حقوق الانسان ؟)[9] .

وبالرغم مـن فقدان الفروسية لاهدافهـا ومضامينها الاقطاعيـة واتجاهاتها الكسموبوليتانية الكاثوليكيـة ، فقـد بقي الامراء والملوك يرددون صداها في بلاطاتهم وفي الاستعراضات العامـة باشكال رمزية فقط .

اما الضعف الذي انتاب (الضيعية) فكان نتيجة لانهيـار الاساس الاقتصادي الذي استندت عليه الا وهو القنانة الماكنة البشرية الانتاجية الكبرى في العصور الاقطاعية . لقد اشرنا سابقا الـى ان القنانة مرحلة تاريخية اعلى من مرحلة العمل العبودي السائد في العصـور الرومانية . ومع ذلك فلم تكن حالات أقنان الوراثـة او الشراء لتفرق عن العبيـد بالرغم مما لديهم من نزر يسير من معالم الحرية . فالقن يباع مع الارض ان بيعت او بدونها سواء اكانت مهنته الفلاحة او حرفة ضيعية اخرى ولا مساواة له امام القانون مع سيده . اذ جاء في احـد السجلات القضائية الانكليزية في القرن الثاني عشر ان روبرت سيفر واست بـاع الطحان ولوريك الى احدى الكنائس المجاورة وجرت صفقة البيع كالآتي (لقد وهبت روبرت الطحان العائد لي وكل ما يعملـه الان وفي المستقبل الى كنيسة ميسندن بلا قيد ولا شرط ، يمكنهم التصرف به حسبما شاءوا ... وتسلمت مقابله خمسة شلنات)[10] .

---

(6) Quoted in, James, op. cit. 14.

(7) A Freeman, History of the Norman Conquest of England, VoVl. IV (London, 1870) 482.

(8) J. Green, Short History of English People (N.Y., 1897) 182.

(9) W. Stubbs, Lecture on European HistOry (London, 1902) 137.

(10) D. Stenton, English Society in the Early Middle Ages, 1066-130 (Middlesex, 1955) 142.

قاد الانتعاش الاقتصادي منذ القرن الثاني عشر الــى تغييرات في علاقات الانتاج مما ساعدت قسما من الاقنان في بضعة اقطار اوروبية على التحرر والانعتاق . فكانت هناك عقود جديدة في الاراضي المستصلحة من اهوار او بحيرات او خلجان او غابــات ، تم بها تحويــل التعهدات النوعية والجسمية التي ينوء بها الاقنان الى تعهدات نقدية . كما اصبحت المدن الحرة او المرخصة مراكز انطــلاق البورجوازية ، ملاذا للاقنــان وواسطة لتحريرهم . فان مكث القن مثلا في المدينة سنة فلا يحق لسيده ارجاعه ان عثر عليه بعد ذلك التاريخ ولو بيوم واحد . هذا مع العلم ان النقود كانت مغرية بالنسبة للاقطاعيين وخاصة عندما يتكاثر نسل الاقنان فأخذوا يسمحون للايدي الزائدة عن العمل الضيعي ان تشتري حرياتها (لقاء الاشتغال المستقل في المدينة)[11] او في حقول اخرى .

ادت زيادة النفوس في المجتمعات الاقطاعيــة لغرب اوروبا بــين القرنين الثاني عشر والرابع عشر وازدهار الاعمال بتشعب فعاليات الطبقة المتوسطة الى تحلل الروابط الاقطاعية المستندة علــى المؤسسة الضيعية وكان من مظاهرها تحرر الاقنان . هذا وان السلطات في تلك المجتمعات وخاصــة في انكلترا اخذت تتساهل في القرن الثالث عشر في الدعــاوى المقامة لاستعادة الاقنان الابقين او لتجريدهم من حقوق التملك . وهناك عدة حالات قضائية مسجلة . اذ اقــام آدم ريجينال الدعوى في لنكلن سنة ١٢١٦ على ارملة ورثت ارضا من صداقها وكانت بعض اجزاء هذه الارض الى آدم . وقد اعترض ابن الارملة نيابة عن امه على آدم بقوله انه قن من اقنانه ولا يحق له اقامة الدعوى ضده ، وان كــل ما يملكه القن هو لسيده . ولاجل اثبــات ذلك فقــد احضر ابن الارملة عم آدم ليشهد بجانبه حيث اعترف عم آدم بقنيته . ودافع آدم بقوله ان عمه هذا اصغر اخوان والده ولعل الدهر ازرى بــه فافقده حريته . وقد اصدر القضاة قرارهم المشير الى ان والد المشتكي حــاول عبثا اثبات ان والد آدم هو قن ... وهكذا فاز آدم بدعواه[12] .

(11) H. Pirenne, Medieval Cities, tr. Halsey (Princeton, 1939) 126.
(12) Stenton, op. cit. 144-5.

ومن المعلوم ان عملية تحرير الاقنان لم تسر على وتيرة واحدة في المجتمعات الاقطاعية اذ انها بوجه الاجمال بطيئة وذات اساليب مختلفة . غير انها تجسمت في المؤسسات الضيعية في ظاهرة الانتقال من نظام الزراعة القنية Serf Tenure الى الزراعة المستندة على الايجار نقدا Copy holdings [١٣] . وكان ذلك التطور واضحا في انكلترا وفرنسا منذ نهاية القرن الثاني عشر حتى منتصف القرن الرابع عشر . اذ اصبحنا نلحظ بعد ذلك التاريخ انتكاسات في عملية تحرير الاقنان وقيام حركات اقطاعية رجعية عنيفة ضد ذلك الاتجاه وكان من جرائها اندلاع الثورات الفلاحية المتعددة والمتكررة في معظم الاقطار الاوروبية من اجل استعادة حرياتهم بالقوة . فما علة ذلك يا ترى ؟ لقد باتت التناقضات واضحة بين مركز القن الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية للاقطاع المستندة على القنانة من جهة وبين علاقات الانتاج البورجوازية من جهة اخرى . وامسى الاقطاعيون يدركون تماما في منتصف القرن الرابع عشر بان تفكك عرى القنانة من اسباب تدهورهم الاقتصادي . واصبحت تلك الحقيقة ماثلة للعيان على اثر موجة الوباء الاسود ١٣٤٧ ـ ١٣٥٠ التي اجتاحت اوروبا فحصدت ثلث سكانها او نصفهم على بعض التقديرات[١٤] ، ونتج عنها ازمة عمالية في الضياع والمدن على حد سواء . وادت الندرة العمالية الى ازدياد الطلب عليهم من قبل المدن وباجور عالية فاخذ قسم كبير مما تبقى من الاقنان يهربون من الضياع الى المدن للتحرر وطلب المكاسب . وكانت النتيجة ارتفاعا في الاسعار وتحسن احوال الاجراء وتضخما في العملة وتقليصا لموارد الاقطاعيين واصرار هؤلاء على الرجوع لقاعدة التعامل النوعي او العيني القديمة .

لقد اخذ يعني تحرير الاقنان وارتفاع مستوى معيشتهم في اذهان الاقطاعيين خرابهم المادي والاجتماعي . وعليه فقد شمروا عن سواعدهم بمؤازرة السلطات لكبح جماح ذلك التيار . اذ اصبحت السلطات في هذا

---

(13) R. Tawney, Religion and the Rise of Capitalism (N.Y., 1947) 63-4.

(14) D. Munro and R. Sontag, the Middle Ages, 395-1500 (London, 1940) 220-2.

الدور تتملــق الاقطاعيين وترعى رفاههم المادي بعــد ان جردتهم مــن مؤسساتهم العسكرية وقضت على اتجاهاتهم اللامركزية الى حد بعيد في فرنسا وانكلترا . ويلاحظ المرء منــذ ذلك الوقت تحالفا وتجاوبا بــين سائر مراتب الفلاحــين والعمــال وفئات البورجوازية الصغــيرة ضد الارستقراطية . فقــد شرع البرلمان الانكليزي في فترة ١٣٥١ ــ ١٣٦٨ عدة قوانين من شأنها العودة الى السوابق الاقطاعية في مجالات العمل . اذ اشار قانون سنة ١٣٦٨ بصراحة الى كل شخص سليم لا يعيل نفسه (ان يؤجر نفسه الى سيد اقطاعي يحتــاج الى خدماته حسب الاجور السابقة سنة ١٣٤٧)[١٥] . وعلى العموم امست التشريعات صارمة وتعسفية بالنسبة للعمال والاقنان خاصة في عهد رشارد الثاني في انكلترا ١٣٧٧ ــ ١٣٩٩ وحتى نهايــة القرن الخامس عشر (فالسجن والوسم بالحديــد المتوهج على الصدور والجباه اصبح مألوفا للاقنان المقيمين في الضياع او المقبوض عليهم بعــد الفرار)[١٦] . وشهدت الفترة استغلال الاقنــان وعوائلهم ابشع استغلال في سائر الاقطار الاوروبية . ففي انكلترا مثلا (على كل رجل له بنت في عمر الثامنة عشر وغــير متزوجة ان تلتحق في خدمة سيد اقطاعي . وان رفضت ذلك فجزاؤها السجن ، ولا يجوز لاي طفل ان يتعلم صناعة يدوية الا اذا كان والده يملك مساحة مــن الارض تدر عليه عوائد سنوية) . وتقــدم البرلمان بمذكرة الى رشارد الثانــي اشارت الى (عــدم السمــاح للاقنان بارسال اولادهم للمدارس منعا لتحررهم باشغالهم مناصب في الكنائس . لان التعليم والاشتغال في تلك المؤسسة شرف مقتصر على احرار البــلاد)[١٧] . وطلب الى رجال الدين التشدد مــع الفلاحين اثناء عمليــة الاعتراف الديني فيما اذا اعترفــوا بتكاسلهم عن العمل قصدا[١٨] .

ادت هذه السياسات الرجعية الاقطاعية الى تعميق حدة التناقضات

---

(15) F. Deitz, A Political and Social History of England (N.Y., 1937) 125-6.

(16) T. Langmead, English Constitutional History (London, 1911) 240.

(17) Ibid., 75.

(18) Deitz, op. cit., 125.

الطبقية وقادت الى حروب اهلية اتخذت طابع الصراع الدموي بواجهات دينية وحقائق اقتصادية . فكان منها ثورة اللولارد في انكلترا سنة ١٣٨١ التي تضمنت مطاليبهم (الغاء القنانة والعبودية وتثبيت الايجارات باربعة بنسات للاكبر الواحــد والاستعاضة بها عن الخدمة النوعيــة ، وحرية التجارة في الاسواق والمدن والغاء الرسوم)[١٩] . وبالرغم من الشدة التي قمعت بها هذه الحركة والحركات التي تلتها في القرن الخامس عشر في انكلترا فان الزمن مع الاقنان . فما ان عادت الاحوال الطبيعية الى ذلك البلد بتزايد السكان ونمو الطبقة المتوسطة وانهيار النبلاء الوراثيين في حروب الوردتين على الاخص ١٤٥٥ ــ ١٤٨٥ وازديــاد اهمية التعامل النقدي وتفوق انتاج العمل الاجير على العمل الفني وتحويل المزارع الى مراع ، حتى اخذت مؤسسة القنانة بالتداعي والتدهور والاختفاء نهائيا في القرن السابع عشر في انكلترا بدون تشريع رسمي[٢٠] . هذا وان اخر دعوى قضائية في هذا الشأن كانت في عهد جيمس الاول ١٦٠٣ ــ ١٦٢٥ اذ جاء فيها : ان بكت اقام الدعوى ضد كالي . لان الاخير استولى على حصان الاول متذرعا بان كالي قن ولا يجوز له التملك . فقــال الاخير بانه حر ولا يعترف بالقنانة اصلا . وقد صدر قرار القضاة بجانب كالي . ومنذ ذلك التاريخ لم يعترف بالقنانة قانونيا في انكلترا[٢١] .

اما في فرنسا فقد سببت الاحكام الجائرة في حق الاقنــان الثورة الفلاحية المعروفة بالجاكري Jacquerie سنة ١٣٥٨ التي نــالت ايضا تأييــد بعض فئات الطبقة البورجوازية الفرنسية . اذ حاول رئيس نقابة الغرفة التجارية في باريس وعضو مجلس الطبقات في الوقت ذاته والمسمى مارسيل الاستيلاء علــى السلطة بمؤازرة الفلاحين ضد النبــلاء الا ان محاولته الانقلابية اصابها الفشل . واسفر تظافر جهود النبلاء والسلطات عن مقتل خمس وعشرين الف فلاحا[٢٢] . وبالرغم من هذه الانتكاسة فان

---

(19) G. Trevelyan, A Shortened History of England (Middlesex, 1960) 193.

(20) Deitz, op. cit. 126.

(21) Langmead op. cit., 242.

(22) A. Guerard, A Short History of France (N.Y., 1946) 100.

ازدهار المشاريع الاقتصادية ونموها بعد حرب المائة عام والمتمثلة في ظاهرة المشاغل والمانيفكتورا حتمت على النبلاء الفرنسيين وخاصة في القرنين السادس عشر والسابع عشر تحويل التعهدات النوعية الى نقدية وبذلك ساعدت على التحرر من قيد القنانة لنسبة لا يستهان بها من الاقنان . الا ان القنانة لم تلغ رسميا في فرنسا الا في الثورة الفرنسية الكبرى سنة ١٧٨٩ حيث الغي الاقطاع هناك جملة وتفصيلا .

اما القنانة في ايطاليا فكانت ضعيفة كضعف المؤسسات الاقطاعية الاخرى . وذلك لانتعاش التجارة والصناعة في وقت مبكر وتفوق الاديولوجية البورجوازية المتمثلة في حكومات مدن ذلك القطر على العقلية الاقطاعية . اذ حتمت المعاملات الاقتصادية هناك الاعتماد على العمل الاجير مما ساعد على تقويض القنانة في النصف الثاني من القرن الثالث عشر[٢٣] . غير ان شروط العمل الزراعي الاجير بقيت تعسفية وخاصة في الارجاء الجنوبية الايطالية في المقاطعات المسماة باللاتيفونديا حتى العصر الحديث .

وللقنانة تاريخ حافل بالمآسي في الامبراطورية الرومانية المقدسة . فالفعاليات الاقتصادية لعصبة مدن المانيا العليا (سويسرا) والمدن الهنسية Hanseatic League اثرت كثيرا في تخلخل الروابط الاقطاعية وخاصة مؤسسة القنانة[٢٤] . فكان القن هناك كسائر اقرانه في المجتمعات الاقطاعية الاخرى بين قوتين . الاولى قوة النبلاء الاقطاعية الرجعية التي تشده الى الارض . والثانية قوة البورجوازية المتنامية التي تحتم اهدافها الاقتصادية فك القن من عقاله لاطلاق طاقات العمل . وحاول القن هناك ايضا استرداد حرياته الطبيعية بمختلف الاساليب كالشراء والانهزام والعنف في اكثر الاحيان . ولعل ابرز محاولات التحرر عن طريق العنف تمثلت في ثورة الفلاحين في بوهيميا في القرن الخامس عشر وثورة الفلاحين في المانيا في القرن السادس عشر . فالدعوة التي اثارها

---

(23) Strayer and Munro, the Middle Ages (N.Y., 1942) 124-5.
(24) J. Bryce, The Holy Roman Empire (London, 1950) 227.

كل من جون هس وجيروم البراغي في بوهيميا تطورت الى صراع بين البورجوازية الصغيرة والفلاحين من جهة وبين النبلاء ورجال الدين والامبراطور من جهة اخرى ، بالرغم من واجهاتها الدينية والعنصرية خاصة بعد نجاح المذهب الهسي[25] . ان الانتصار الذي احرزه سكان بوهيميا لم يحل مشكلة الاكثرية لهذا انقسموا الى طبقات ثلاث . دعيت الاولى باصحاب الاكواب Calixtine والثانية باصحاب الهيئتين Utraquists ، ودعيت الثالثة بالطابوريين نسبة الى مدينة طابور الجبلية الحصينة . وتتألف الطبقتان الاولى والثانية من الامراء ورجال الدين والبورجوازية العليا ، بينما ضمت الثالثة الفلاحين بسائر مراتبهم والعمال والبورجوازية الصغيرة . وكان من مطاليب الطابوريين الرئيسية تحرير الفلاحين والغاء العقوبات الكيفية والانتقامية (كقلع العينين وقطع اليدين والقدمين المطبقة ضد الاقنان) . وادت تلك الحوادث الى مجزرة رهيبة سنة ١٤٣٤ في ليبان ذهب ضحيتها اكثر من ثلاثين الفا من الطابوريين[26] .

كما اخذت الدول الاوروبية تجرد الاقطاعيين من سلاحهم الثالث الا وهو السلطة القضائية . اذ ان نزاهة المحاكم الملكية واستنادها الى القوانين الرومانية ومسايرتها لما تتطلبه التطورات الاقتصادية جعلت الافراد يفضلون عرض مشاكلهم على المحاكم الملكية مبتعدين عن اجراءات الاقطاع القضائية .

هذا مع العلم ان هناك عوامل اخرى ثانوية ساعدت على اضعاف سلطة الاقطاعيين . فالحروب الصليبية وحروب المائة عام وحروب الوردتين ، جرفت العديد من امراء الاقطاع وسهلت مهمة الدول الناشئة من فرض سيادتها في الداخل والقضاء على الاتجاهات اللامركزية للاقطاعيين . كما اصبحت القوى العسكرية التي تمتلكها الدول الاوروبية وامكانياتها المادية في تقوية الجيوش واخذها بالمخترعات الحديثة انذاك التي استندت على المتفجرات ، كفيلة بالقضاء على اية مقاومة اقطاعية .

---

(25) R. Rocker, Nationalism and Culture, tr. Chase (N.Y., 1937) 107-8.
(26) Ibid., 109.

ويعتقد البعض ان القضاء على الفوضى الاقطاعيـة في دول غرب اوروبا مدينة الى درجة ما الى الملوك الذين حكموا تلك الاقطـار في النصف الاخير من القرن الخامس عشر . اذ تمكن هؤلاء من احياء المثل القديمة وتسخيرها لخدمة الاهداف الجديـدة . ومن امثلـة ذلك في المجالات السياسية التأكيد علـى الولاء للاسرة الحاكمـة . حيث علمت التجارب الناس بان التمسك بقاعدة وراثة الحكم الملكي خير ضمان ضد الفوضى والحروب الاهلية واصبحت طاعة الملك في تلك المجتمعات مـن الفضائل السياسية الكبـرى . واعتبر التمسك بالامتيازات والحكم الاقطاعـي المحلي من اسوأ الشرور السياسية . وقد امست كل من الملكية والوطنية تعنيان شيئا واحدا تقريبا في دول غرب اوروبا في اواخر العصر الوسيط .

ب ــ النهضة الايطالية ومداها الاوروبي :

تحدث قسم ممن يعنيهم التاريـخ الى وقت قريب وكأنهم على ثقة من الحديث ، من ان هناك فترتين متميزتين تاريخيا هما العصر الوسيط وعصر النهضـة الاوروبيـة Renaissance . وشبه الاول بفترة آسنة فكريا كانت فيه اوروبا ساجدة للهياكل الدينية وخاضعة لها في العقيـدة والسلطة والفلسفة . وشبه الثاني بنهوض اوروبا مـن كبوتها وولادتها الثانية لوصل حاضرها بماضيها الكلاسيكي ، وهي الفترة التي تحررت فيها العقول منطلقة من قماقمها كاشفة لاسرار الطبيعة . اذ قام الايطاليون في القرنين الرابع عشر والخامس عشر بتصميم قناطر العبور من الوسيط الى الحديث نافخين في الاحداث روحا جديـدة تميزت بعداء الجهـل متكاتفة مع كافة القوى الخيرة للنهوض بالمعرفة وآخذة بيد الانسان نحو الحرية . غير اننا اصبحنا نلاحظ اناسا قلة في هذه الايام ممن يعمدون الى امثال تلك التعميمات المطلقة . فالقرنان الثاني عشر والثالث عشر حسبما رأينا ابعد عن كونهما فترة سبات عميق . اذ ان الفن الغوطي مثلا يعكس لنا جمالا يجعـل الفرد ان يغض الطرف عن تسميته مـن قبل رجالات النهضة الايطالية بالفن البربري . وفي تلك الفترة ايضا قـامت الجامعات

وظهرت الآداب في اللغات الشعبية كتابة ونما فيها الاقتصاد وخطت فيها بريطانيا خطواتها البرلمانية الاساسية . وهكذا فقد اوحت الظواهر الاخيرة الى فئة من المؤرخين الاعراض عن الاعتقاد بوجود النهضة اصلا مجردة من مظاهر وقيم العصور الوسطى[27] .

أنتحت كل من هاتين النظرتين منحا متطرفا يقود الى التضليل نعم لقد حاول الايطاليون حقا الانفلات من تقاليد العصر الوسيط واستبدالها بقيم جديدة في المجالات الادبية والفنية . فالنهضة الايطالية حسب هذا الاعتبار محاولة لتبرير جديد للاتجاهات التي ظهرت في ذلك القطر بارجاع اصولها الى الماضي السحيق . وهي ايضا محاولة لحل النزاع النفسي بين ما هو كائن وما يجب ان يكون[28] .

حاولت ارستقراطية المدن الايطالية التجارية تجاهل تقاليد العصور الوسطى اقتصاديا وسياسيا وثقافيا . وكان تحرر تلك الفئة من الروادع الدينية والاعراف لا نظير له في البقاع الاوروبية الاخرى . اذ هدف رجال الاعمال هناك الى طلب الربح الوفير صراحة وامسكت بزمام الحكم في المدن الايطالية فئات لم تكن لها احقية مشروعة به وثبتت اقدامها بالارهاب والرشوة والاغتيال . وقد ضحى اصحاب الثروات الطائلة بكل شيء من اجل المصالح الدنيوية العملية الواقعية . فلم يكترثوا بالمساجلات الدينية ولا بآداب الفروسية وانما هفوا الى ادب من شأنه تمجيد حياتهم اليومية واسعادهم بها . ولم يجد المتنفذون صعوبة في العثور على ادباء وفنانين وحتى على مؤرخين لاشباع رغباتهم .

ومما ساعد رجالات النهضة في ايطاليا على اداء مهمتهم ان ايطاليا لم تقطع صلتها بماضيها كلية . فهي مهبط الحضارة الرومانية ولم تنغمر تماما في العادات البربرية حيث بقي التراث الثقافي والمادي للرومان يذكر الايطاليين بماضيهم المجيد في كل منعطف في الحياة . لهذا لم يكن عسيرا عليهم الاعراض عن تراث العصر الوسيط وايجاد قيم ادبية وفنية مستندة الى الماضي الروماني .

(27) Strayer and Munro, op. cit. 506.

(28) Ibid., 507.

يلحظ الانتقال من تراث العصر الوسيط الى عصر النهضة في ايطاليا في الانتاج الادبي لثلاثة من عظماء الادب الايطالي هم دانتي وبترارك وبوكاشيو .

دانتي : ١٢٦٥ – ١٣٢١

ولد دورانت اليغيري Durante Alighieri في فلورنس واشتهر كأديب وسياسي . الهمته بياترس الشعر . وفتاة احلامه بنت ثري فلورنسي . التقى بها مرتين : الاولى وهو في التاسعة من عمره في احدى المناسبات العامة وهي اصغر منه انذاك بسنة واحدة . والثانية حينما بلغت الثامنة عشر من عمرها[٢٩] . ويقول عن اللقاء الثاني :

ظهرت امامي صدفة في الطريق نفس الفتاة الجميلة ببدلة بيضاء وهي تتوسط سيدتين اقدم منها عمرا . وقد صوبت نظراتها الى حيث وقفت مسمرا ساهما فحيتني بصمت . فأحسست وكأني ثمل . فرحت اروح عن نفسي بمناجات الشعر منذ ذلك الحين[٣٠] .

ومع ان بياترس قد تزوجت سنة ١٢٨٧ من ارستقراطي فلورنسي فقد استمر دانتي يستلهم وحيه الشعري منها . وقد ظهر اسمها في شعره صراحة لاول مرة بعد وفاتها سنة ١٢٩٠ .

بلغ دانتي قمة مجده في ملحمته الكوميديا الالهية التي تعكس امتزاج الخيال الشعري بالمعتقد الديني في وصفه الجنة والنار وحكمه على الشخصيات التاريخية في شتى المجالات . وقد اولى دانتي في الكوميديا احتراما كبيرا لشعراء الوثنية وفلاسفتها ، اذ جعلهم في مركز وسط بين الجنة والنار ، فلا يعلو الحزن او الفرح وجوههم . ويعتقد بان آراء دانتي في وصفه الآخرة مقتبسة من مصادر شرقية واسلامية بصورة

---

(29) Dante, The Divine Comedy, I : Hell, tr. Sayers (Moddlesex, 1960) 26-7.

(30) Dante, La Vita Nuova, tr. Rossetti (Portland, 1898), 20.

خاصة كليلة الاسراء ووصف الجنة والنار في القرآن ورسالة الغفران لابي العلاء المعري والفتوحات المكية لابن الاعرابي[٣١] .

اصبـــح دانتي عضوا في مجلس الادارة لحكومـــة فلورنس سنة ١٣٠٠ . غير ان الارستقراطية الاقطاعية المتمثلة في حزب السود Neri تمكنت من الاستيلاء على الحكم بالقوة سنة ١٣٠١ فحكم عـــلى دانتي بالنفي لتسع عشرة سنة . لقد مجد دانتي مثل العصر الوسيط في الملكية De Monarchia . اذ اعتقد بان المجتمع المسيحي لا يسوده السلام الا في ظل الامبراطورية ، ولا يمكن للفرد ايجاد الهناء الروحي الا بخضوعه الى التعاليم الدينية . وعليه فالكنيسة والامبراطورية مؤسستان ازليتان ارادهما الله للبشر[٣٢] . وغاية المعرفة الهداية الى الله . وان السعادة الحقة في هذه الدنيا هي في الاعداد للحياة الاخرى . وبذلك يعتبر دانتي اقرب في آرائه الى التراث الوسيط منه الى عصر النهضة .

بترارك : ١٣٠٤ – ١٤٧٤

عاش في أوائل حياته في توسكاني ودخل في خدمة البابوية ، ثـــم كرس حياتـــه للآداب وقرض الشعر . ترك حب الاقدمـــين الذي أظهره دانتي حماسا ملتهبا في نفس بترارك الذي قيل عنـــه الرجـــل العصري الاول . فهو اول من دعا الى نبذ قيم العصر الوسيط والرجوع الى التراث الكلاسيكي واستطلاع جماله وخفاياه . هذا ولـــم ير القاريء لكتابات بترارك ذلك الهدو والايمان والثقة بالنفس الذي تميزت بهـــا كتابات دانتي بالرغم مما قد تعرض اليه الاخير من خيبة امل في حياته العاطفيـــة والسياسية . بل يشاهد الانسان في انتاج بترارك الادبي قلقا نفسيا عنيفا يمثل حقا مخاض الانتقال من عصر وسيط الى آخر جديد . اذ قال عن نفسه (ولدت في الأحزان وترعرعت فيها)[٣٣] وجاء في رسالته الى الاجيال المقبلة (لقد احبني وتودد الي ملوك العصر . انهم على علم بسبب هذه

---

(31) Asin Palacios, Islam and the Divine Comedy, tr. Sunderland (London, 1926) 55-61.

(32) Strayer, op. cit. 45-6.

المودة ... اما انا فلا ادري لماذا . ان علاقتي بهم تشعرني بأنهم ضيوف علي لا انا ضيفهم)[34] . وقد يعود حزن بترارك الى عدم الوئام بين مشاعره الوجدانية وواقع الحياة . فقد احب الهدوء والعزلة ومـع ذلك فهو في سفر دائم .

احتقر بترارك تراث العصر الوسيط وحث على طلب العلم وبالرغم من تناقضه فكان يعلوه الغرور . اذ انتقص ايضا من آراء ارسطو وخاصة حول السعادة في بحث الاخير للاخلاق . حيث اشار بترارك : دع النقاد يقولون ما شاؤا فان ارسطو على تمام الجهل بالسعادة الحقة . ان المرأة العجوز او الصياد او الراعي او الفـلاح لهم آراء حـول السعادة اكثر واقعية مـن آراء ارسطو[35] . غـير ان بترارك اعجب بالتراث الروماني الكلاسيكي وانبرى لمحاكاة سيسرو الذي قال عنه في مناجاته له :

يا ابا الفصاحة الرومانية العظيم . لم اكن الوحيد الذي يقدم الشكر لك بل كل انسان تذوق جمـال خطبك اللاتينية واقتدى بها ... ان مـا تعلمناه عنك هو قليل من شذا عبيرك[36] . ان حب بترارك للتراث الروماني من الحوافز الهامة في تأليفـه كتاب افريقيا . وهذا عبـارة عن تمجيـد لبطولات الرومان في حروبهم المنتصرة ضد قرطاجة .

بوكاشيو : ١٣١٣ — ١٤٧٥

وهو من اشهر المولعين ببترارك واظهر رغبة شديدة في تعلم الآداب الكلاسيكية وساهم بشوق بالتفتيش عن المخطوطات القديمة . ومع ذلك فقد حرمته الظروف من اجادة اللاتينية فراح يكتب في اللغة الشعبية الايطالية أراده والده ان يكون تاجرا فلم يوفق في مسعاه . غير ان اسفاره التجارية في ايطاليا وفرنسا وسعت مداركه وصقلت مواهبه . لقـد تجلت مقدرته الادبية في نابولي تحت رعايـة الملكة جوانا حيث وضع كتابه القصصي ديكاميرون De Cameron وهو عبـارة عن مجموعة قصص رويت في

(33, 34)...Quoted in Strayer and Munro, op. cit. 503-9.
(35) Laven, P., Renaissance Italy, 1464-1534 (London, 1966) 151.
(36) Strayer and Munro, op. cit. 510.

عشرة ايام . وبالاضافة الى ان الديكاميرون قطعة ادبية نفيسة فهو وثيقة تاريخية هامة . ويستشف قارئه مــن بين اسطره المثل التي هدف اليها الايطاليــون في القرنــين الرابــع عشر والخامس عشر . وشبه صـــدور الديكاميرون باعصار شديد اجتــاح ايطاليا بنجاحه المنقطع النظير . ومع ذلك فلم يكن بوكاشيو متحليا بالوقار العلمي في قصصه حيث قال هو عن نفسه (سيقول الكثيرون بان هذه القصص مليئة بالهمز واللمز والغرور وانه لا يليق برجل محترم ان يكتب بذلك الاسلوب)[٣٧] .

وبجانب الاتجاهات القديمــة في قصصه وخاصة عند تحدثه عــن الفروسية يلحظ القاري لها اتجاهات جديدة ايضا . فقد اكد على الحظ مثلا وانه القوة المتحكمة في هذا العــالم . وان الابطــال في قصصه هم الذين يعرفون من اين تؤكل الكتف . ولا محل للابرياء والبسطاء في هذه الدنيا . وان الله لا يساعد من لا يساعد نفسه .

طبيعة النهضة الايطالية :

لنكن على علم باننا حينما نتحدث عــن النهضة الايطالية لا نقصد بان كافة الايطاليين ساهموا فيهــا . فسواد الفلاحــين المثقل بالضرائب والعمل كان منشغلا بهمومه عما يدور حوله من مظاهر النهضة ولم يكد ليفهم بانه يعيش في عصر يختلف عما عاشه اجداده . ويعوذ بالرحمن منك ان قلت له بان المثــل الدينية لم تعد لهــا الهيمنة التي كانت لها عــلى اسلافه . ان النهضة الايطالية ظاهــرة ارستقراطية اقتصرت تقريبا عــلى الطبقة العليا مــن الطبقة المتوسطــة والامراء وبعض البابوات . ويرينا التأكيد على دراسة اللغتين الكلاسيكيتين اليونانيــة والرومانية على انها مقتصرة على قسم من المثقفين ، وان القارىء لبوكاشيو مثلا يدرك مدى ارستقراطيتها باحتقارها الفلاحين والعمال وحتى الاغنياء الاحداث .

لعل من ابرز خصائص النهضة الايطالية الظاهرة الثقافيــة المعروفة بالانسانية Humanism . والانسانيون Humanists اولئك النفر مــن

---

(37) Ibid., 513.

الناس الذيـن كرسوا جهودهم لمحاكاة الآداب الرومانية اولا واليونانية متأخرا واشتقت الكلمة الانسانية مـن Humanitas التي يقصد بهـا الانسانية دينا جديدا للاجيال الثقافية التي اعقبت بترارك .
الثقافة المتعلقة بالامور البشرية بمعزل عن اللاهوت . واصبحت الدراسات
ان احياء التراث الوثني الذي صحب الحركة الانسانية ادى بقسم من الانسانيين الى نبذ آراء العصر الوسيط في العلاقة بين الحياتين الدنيا والآخرة . واشاروا الى ان الفرد يمكنه التمتع في هذه الحيـاة كما يشاء بلا خوف من الحساب . وهاجم قسم منهم التعاليم الكنسية صراحة وبقي القسم الاخر على موالاة ظاهرية لها[٣٨] .

ان اهم ميزات الحركة الانسانية هي :

١ ـ الاقبال الكبير علـى التفتيش عن المخطوطات الكلاسيكية . وساهم في ذلك اصحاب البنوك والتجار ايضا . اذ اوعزت عائلة مدتشي الى بنوكها الفرعيـة تخصيص جزء مـن ارباحهـا لشراء المخطوطات واستنساخها . وعاش الكثير من الانسانيين كموظفين عنـد هواة جمع المخطوطات . فشمروا عـن ساعد الجد في اقتنائها بالشراء او السرقـة احيانا . وقد (جلب احـد العلماء الايطاليين الـى فلورنس سنة ١٤٢٣ ثلثمائة وثمانية وثلاثين مخطوطا من القسطنطينية)[٣٩] . وانتشرت ظاهرة اقتناء المخطوطات الكلاسيكية من فلورنس الى امهـات المدن الايطالية الاخرى عدا فينيسيا . وادت الى نشوء معـاهد علمية للدراسات العليا كالاكاديمية الافلاطونية في فلورنس .

٢ ـ النقد العلمي Criticism : قاد التهافت على طلب المخطوطات الى التأكد من صحتها ، وبذلك ساعد على نشوء البحث العلمي عن طريق النقد . ويقصد بذلك فحص الوثائق داخليا مـن حيث المحتويات المروية وخارجيا بمقارنـة الخطوط قديمها وحديثهـا ونوعيـة الورق والحبر وازمانهما . ومـن اشهر النقـدة العلميين في القرن الخامس عشر هـو

---

(38) J. Robinson, An Introduction to the History of Western Europe, Vol. I (Boston, 1946) 321.
(39) Ibid., 328.

لورنزو فالا ١٤٠٦ ــ ١٤٥٧ الذي اثبت بتلــك الطريقــة ان (منحــة قسطنطين) عبارة عن وثيقة مزورة[٤٠] .

٣ ــ الانتقاص مــن العصر الوسيط : اصطحبت تلك الدراسات الجديدة باحتقار تراث الفترة الكائنة بين عهدي سيسرو وبترارك واطلقوا عليها العصر الوسيط لوقوعها بين عصرين هما العصر الكلاسيكي المتميز بالمدنية والرقي وعصر النهضــة . معتبرين العصر الوسيط عصر ظــلام دامس . ومن اوائل الانسانيين الذين جاؤا بتسمية الفترة بالعصر الوسيط هو المؤرخ فلافوا بايوندي في كتابه Decades الذي حاول فيه تلخيص ما اسماه بالتاريخ المظلم لاوروبا خلال الفا سنة ٤١٠ ــ ١٤١٠ .

٤ ــ الفردية Individualism : وذلك بالتأكيــد عــلى حريــة الفرد وتمجيد اعماله الدنيوية والرضاء عــن النفس . والفردية كرد فعل لظاهرة نكران الذات المتمثلة بصورة خاصة في التعاليم الكنسية .

وهنا لا بد وان نتساءل عــن مواقف الكنيسة الغربية مــن هذه الاتجاهات في النهضة الايطالية . من الغريب حقا ان لا نجد معارضة جدية من قبل الكنيسة في تلك المرحلة . نعم لقد توجس رجال الدين خيفة في الابتداء لخشيتهم من انبعاث الوثنية ، الا ان الكنيسة ساهمت فيها هادفة احاطتها بالاطــار المسيحي عــلى قدر الامكــان . اذ يعتبر البابا نيقولا الخامس ١٤٤٧ ــ ١٤٥٥ من اكابر الانسانيين بانشائه اكاديمية للدراسات الكلاسيكية وكذلك مكتبة الفاتيكان[٤١] . كما اشتهر ايضا في ذلك الصدد البابا بيوس الثاني ١٤٥٨ ــ ١٤٦٤ .

فن النهضة الايطالية :

اتجه الفنانــون الايطاليون الــى التراث الكلاسيكي في استيحاء قيمهم الفنية في البناء والنحت والتصوير . اذ توخوا في البناء البساطــة والتناسق على قدر الامكان حسب الطراز الكلاسيكي . وقــد اتجه الفن

---

(40) C. Hayes, A Political and Cultural History of Modern Europe, Vol. I (N.Y., 1944) 105.

(41) Ibid., 108.

في مجالات النحت والتصوير اتجاهات واقعية غير انها مفعمة بالمبالغات . واشتهر في النحت كل من نيقولا بيزانو وابنه جيوفاني في اواخر القرن الثالث عشر واوائل القرن الرابع عشر . حيث درس الاول بقايا التماثيل القديمة في بيزا وتمثلت موهبته في دقة صناعة منبر كنيسة بيزا . واشتهر الثاني بتماثيله في كنيسة سيينا بايطاليا[42] .

اما التصوير الشائــع في اوائــل النهضة فكان علــى الجدران في الكنائس او القصور ويشار له بالتصوير الحائطي المجصص Fresco .

امـا تصاوير الالواح المتحركة Easel فلم يعـم انتشارها الا في القرن السادس عشر . ومن اشهر الرسامين في القرن الرابع عشر في ايطاليا جيوتو ١٢٧١ — ١٣٣٧ الذي اتجه اتجاها ذاتيا فجاءت رسومه معبرة عن المشاعر الانتكاسة الاقتصادية التي اصابت المدن الايطالية نتيجـة لتحول مركز جيوتو بنـاءا ونحاتا ايضا . ومن مشاهـير الرسامين في فلورنس غبرتي مصمم زخـارف الابواب النحاسية لكنيسة فلورنس والتي قـال عنهـا ميخائيل انجيلو بانها تليق بان تكون ابواب الجنة[43] ، وقد عـاش غبرتي في فترة ١٣٧٨ — ١٤٥٥ . وهناك الفنان ماساشيو ١٤٠١ — ١٤٢٨ الذي اصبحت رسومه قدوة لاجيال الفنانين في فلورنس خاصة . وعبر الفنان بوتيتشلي ١٤٤٥ — ١٥١٠ بتصاويره الدينية عن طموح الانسان واحزانه وكفاحه اليائس وشبح الموت . كما اشتهر الفنـان الفلورنسي ليوناردو دفنشي ١٤٥٢ — ١٥١٩ بعدة فنون ومن اهم رسومه الخالـدة العشاء الاخير . ولعل من اعظم الفنانين في ايطاليا هو ميخائيل انجيلو ١٤٧٥ — ١٥٦٤ الذي برع في التصوير والنحت والهندسة والشعر . ومن اعمالـه تمثال داود في فلورنس ثم كنيسة القديس بطرس والتصاوير الحائطية في القصر البابوي في الفاتيكان التي ترينا قصة الخليقـة والطوفان ومشهد يوم الحساب[44] .

---

(42) Peter and L. Murry, A Dictionary of Art and Artists (Middlesex, 1965) 246-7.

(43) Ibid., 125-6.

(44) Ibid., 205-10.

لم تخلق النهضة الايطالية نمطا من السلوك الاجتماعي العام ولم تفلح في ايجاد مثل عليا عامة توحد بين الايطاليين وكان الفشل في ذلك على حد سواء بين الفنانين وغيرهم. فالفنان قد يعبر عن مثل عصره بالسلب او الايجاب ولكنه لا يخلق المثل . ولم يحاول رجالات النهضة الحد من الاتجاهات الفردية الانانية المتطرفة التي كانت الداء العضال في الطبقة المتوسطة العليا الايطالية . هذا وقد انهارت النهضة الايطالية على اثر الانسانية ولعل اهم رسومه الحائطية مشهد القديس فرانسس ، وكان الثقل التجاري القرن السادس عشر الى جهات اوروبا الغربية المطلة على الاطلسي وكذلك للصراع بين الاسبان والفرنسيين في الاراضي والمياه الايطالية .

المدى الاوروبي للنهضة الايطالية :

لقد استند الفن الاوروبي الى عدة قرون على الفن الايطالي ، اما في المجالات الفكرية فلم يكتب لايطاليا ذلك النجاح . غير ان اهمية النهضة الايطالية لاوروبا فكانت في احياء الدراسات الكلاسيكية التي اصبحت مستندا للمؤسسات التعليمية في ذلك المضمار . ومن اهم رجالات التربيــة في ايطاليا فيتورينو الذي فتح مدرسة لاولاد الامراء في مانتوا سنة ١٤٢٥ توافد اليها الطلاب من مختلف بقاع اوروبا وكانت الدراسات الكلاسيكية تكوّن الحجر الاساسي في تلك المدرسة[٤٥] .

ان الاقطار الاوروبية فيما وراء الالب لـم تزل تطغى عليهـا قيم العصر الوسيط اثناء النهضة الايطالية . فقد ظلت الارستقراطية متمسكة بمظاهر الفروسية بالرغم من فقدان اهميتها كمؤسسة عسكرية اقطاعية . وتميز العصر في تلك الاقطار بالعنف والتعسف الاقطاعي في معاملة الناس وهذا ما عبرت عنه ثورات الاقنان وبسطاء العمال المتكررة والاسراف في سفك الدماء . ولعل ذلك العنف احد الاسباب التي طبعت الاذهان في اقطار ما وراء الالب بطابع اليأس والتفكير الدائم بالموت كوسيلة للخلاص

---

(45) Strayer and Munro, op. cit. 524.

من احزان الدنيا وكوارثها . ومع ذلك فهناك اتجاهات حياتية ناشئة قدر لها ان تنمو وتتأصل وتصبـح اسس المجتمع الاوروبي الحديث . فقـد تمكن مثلا ملوك انكلترا وفرنسا في النصف الاخير مـن القرن الخامس عشر من استعادة قواهم بعد ان تجرأ عليها النبلاء اثناء حروب المائة عام والحروب الداخلية . ثـم ساعدت السياسة المركزية وخاصة في انكلترا وفرنسا واسبانيا والبرتغال عـلى نمو الطبقة المتوسطة المتزايد واخراج الاقتصاد المنحصر في المدن الى اقتصاد وطني مركانتيلي .

اتسمت النهضة الايطالية كما ذكرنا بعدم الاكتراث للشؤون الدينية في الاعم الاغلب بينما نـلاحظ عكس ذلك الاتجـاه في اقطـار اوروبا الاخرى . فقد حاولت الانفس المؤمنة ان تجد لها معينا وهاديا روحيا في الظواهر الرمزية الدينية . اذ عبر كتاب العصر عن تلك الاتجاهات ولعل اشهرهم توماس اكمبيس في كتابه الاقتداء بالمسيح Imitation of Christ حيث جاء في احدى فقراته :

وكأنـي اسمع الله يتحدث ... بوركت النفس التـي ترهف السمع لصوت الله وتهدأ بكلماته ... بوركت الآذان التي افلحت في استيعاب ما اسره الله فيها . بوركت العيون التـي اسبلت الاجفـان عـن الدنيـا وتبصرت في مشاكل نفسها ...[٤٦] .

كانت الاتجاهات الرمزية الدينية ذات تأثيرات عميقـة في المجتمع الاوروبي ومن الممهدات لحركات الاصلاح . ومن اهم الرمزيين المطالبين بالاصلاح الديني هو اكهارت المتوفي عام ١٣٢٧ . اشتغل هذا في تدريس اللاهوت ثم انصرف للوعظ الديني والمطالبة بالاصـلاح[٤٧] . ومن اشهر الجمعيات التي اتجهت ذلك الاتجـاه جمعية اخوان الحياة المشتركة التي اسسها جيرارد كروت في الربع الاخير من القرن الرابع عشر في الاراضي المنخفضة . مارست نشاطها عن طريق المدارس وانتشرت الحركة في المانيا

---

(46) Ibid., 528.
(47) C. Orton, The Shorter Medieval History, Vol. II (Cambridge, 1953). 841.

وسيطرت على المعاهد التعليمية[48] . وهنا يلحظ الفرق بين ما هدف اليه التعليم في كل من ايطاليا واجزاء اوروبا فيما وراء الالب . اذ كان التعليم في ايطاليا غاية في حد ذاته وانه عبارة عن حلية ارستقراطية ، بينما كان التعليم في المانيا بصورة خاصة وسيلة من اجل حياة طاهرة وانه مفتوح امام الجميع .

هذا وقد نحا الانسانيون الالمان والانكليز في معالجتهم مشاكل الحياة الدينية وغيرها مناحي خلقية دينية بالرغم من تباين اساليبهم في النقد للاوضاع الراهنة من اجل الاصلاح . وهذا ما تميزت به كتابات كل من جون كوليت وتوماس مور في انكلترا وكذلك ديزداريوس ارازمس . كما ان الانسانيين من غير الايطاليين لم يولوا التراث الكلاسيكي تلك العناية التي اولاها الايطاليون ولعل ذلك يعود لشعور الشعوب الجرمانية بعدم علاقتهم بذلك التراث الايطالي القومي .

ان اوائل علامات النهضة الاوروبية في النصف الاخير من القرن الخامس عشر توضحت بظاهرتين هامتين هما :

١ ـ الطباعة :

يشكل كل من الورق والحروف المتحركة والحبر مستلزمات الطباعة الحديثة . حقا لقد اهتدى الناس للورق منذ القديم . اذ استعمل اليونان والرومان لمخطوطاتهم كالمصريين القدماء ورق البردي وكان هذا غاليا وثقيلا . ثم اضبحت الرقوق الجلدية للمخطوطات سائدة في العصر الوسيط ومع ذلك فهي كاوراق البردي لا تصلح للطباعة . ويعود تاريخ الورق الحديث الاوروبي الى الورق الصيني المصنوع من الحرير منذ القرن الثاني قبل الميلاد . واستعاض المسلمون عن ورق الحرير في اواسط القرن الثاني بالورق المصنوع من القطن الذي اخذ يعرف بالدمشقي نظرا لاستيراده من هناك . اما المسلمون في اسبانيا فاستعملوا الورق المصنوع من الكتان الذي انتشر الى الكاستيل في القرن الثالث عشر

(48) Ibid., 1092.

ومنها الى فرنسا وسائر الجهات الاوروبية . ومع ذلك فقد فضل الاوروبيون استعمال الرقوق الجلدية للوثائق لدوامها . ولم يعم استعمال الورق في اوروبا الا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر[٤٩]

اما الحروف المتحركة فتعود في اصولها الى الاختام . وظهرت الحروف المتحركة على الاكثر في مدينة هارلم حيث استعملها لورنس كوستر . ثم قام يوحنا كوتنبرك بمزاولة الطباعة بالحروف المتحركة سنة ١٤٥٠ في مدينة مينز واول ما طبعه صكوك الغفران سنة ١٤٥٤ واجزاء من الانجيل[٥٠] . ودخلت هذه الطريقة الى ايطاليا سنة ١٤٦٦ واصبحت في اوروبا سنة ١٥٠٠ اكثر من اربعين مطبعة انجزت طبع ثمانية ملايين مجلدا[٥١] .

٢ ـ الاستكشافات الجغرافية :

تميز النصف الثاني من القرن الخامس عشر بحركة استكشافية جغرافية كبرى تمخضت عن العثور على طرق جديدة بين الشرق والغرب واكتشاف عالم جديد مصادفة سمي فيما بعد بامريكا . جاءت الحركة على اثر استزادة الجغرافيين من معلومات حول الاوضاع المادية والمعنوية لمجتمعات الشرق الاقصى وعن تقدم النظريات الجغرافية عن البحار وكروية الارض وتسهيل الملاحة باستعمال ادوات ملاحية نافعة . اذ عرفت مدن ايطاليا مثلا البوصلة منذ القرن الثالث عشر وكذلك الاصطرلاب الذي يعين ارتفاع النجم القطبي ، وعمد الملاحون الى استعمال الخرائط البحرية المعرفة بورتولاني Portlani [٥٢] .

يعزا توسع المدارك الجغرافية الى حد ما لنتائج عرضية عن الحروب الصليبية وما رافقها من فعاليات تبشيرية في جهات الشرق الاقصى . حيث ساهمت البابوية بصورة مباشرة عن طريق التبشير

(49) Hayes, op. cit. 97.
(50) Ibid., 100.
(51) Robinson, op. cit. 328-9.
(52) Hayes, op. cit. 70.

والسعي لايجاد حلف مغولي صليبي ، علـى توسيع المدارك الجغرافية . اذ ارسل البابا انوسنت الرابع في نيسان سنة ١٢٥٦ الراهب كاربيني الى امبراطور المغول في قراقوروم بمهمة تتعلق بتكوين حلف ضد المسلمين[٥٣] . ووضع هذا عند رجوعه كتابا دون فيه مشاهداته في الشرق الاقصى . ثم ارسل الملك الفرنسي لويس التاسع اثناء اولى حملتيه الصليبيتين الراهب روبروك سنة ١٢٥٣ الى امبراطور المغول من اجل تجديد المباحثات التي بدأتها البابوية . ووضع هذا كتابا وصف فيــه تاريــخ المغول وعاداتهم وطرق المواصلات ومراكز الثراء . وهنا عرف الجغرافيون لاول مرة منابع نهري الدون والفولكا وطقوس الدالاي لاما وحالة النساطرة في الصين والتمييز بين اجناس المغول .

ومن اوائل الرواد الذين ساعدوا في زيادة المعلومات الجغرافية في الغرب هم افــراد اسرة بولو التجارية الايطالية . اذ كــان لاندريا بولو ثلاثة اولاد هم ماركو ونيقولا ومافيو وقد اشتغل جميعهم في التجارة مع البيزنطيين في القسطنطينية . ومن هنــاك امتدت تجــارة كل من نيقولا ومافيو الى بخارى حيث مكثا فيها بضعة سنوات لاندلاع حروب اهلية بين المغول سنة ١٢٦٢ ثم غادراها الى شانكتون حيث قابلا الامبراطور المغولي كوبلياخان الذي ارسلهم بمهمة رسمية الى البابا كليمنت الرابع . وسافر الاخوان ثانيــة الى الصين سنة ١٢٧١ واصطحب نيقولا ابنــه الصغير ماركو الذي كان في السابعة عشر من عمره . ومكث هؤلاء في الصين سبع عشرة سنــة حيث عــادوا بحرا عــن طريــق جــاوا ــ سومطرة ــ سنغافورة ــ سيلان ــ خليج البصره ــ بلاد الرافدين ثم اتبعوا الطريق البري الى طربزون ثم ركبوا البحر الاسود الى القسطنطينية ومنها الى فنيسيا . وحدث ان اشترك ماركو في الحرب الدائــرة بــين البنادقــة والجنويين فوقــع اســيرا لدى الجنويين واحتجز لمدة سنــة في السجن سنة ١٢٩٨ حيث دون فيه اسفاره التي كانت خير معين فيما بعد للمغامرات الجغرافية . اذ اقبل الناس بعد قرن ونصف على قراءة اخبار ماركو بولو

---

(53) S. Neill, A History of Christian Missions, (Middlesex, 1966) 121-23.

بعد ان سهلت المطابع تدوالها[٥٤] . وتعتقد الاستاذة ايلين باور (ان كتاب ماركو بولو قد اوحى الى كولومبس القيام برحلاته . وان ماركو بولو الذي اكتشف بنفسه الصين في القرن الثالث عشر قد اكتشف ايضا امريكا ميتا)[٥٥] .

ان الرغبة في الحصول على التوابل كانت من العوامل الهامة التي دفعت الاوروبيين للوصول الى مصادره في الشرق. وكانت التوابل ضرورية انذاك كوسيلة لحفظ الطعام من التفسخ وخاصة اللحوم اثناء خزنها اوقات الخريف والشتاء . هذا وان تقدم العلوم الجغرافية وتراكم الخبرات وما اقتبسوه عن العرب في هذا الشأن مما جعل انفارا من المعنيين يفكرون بامكانية الوصول الى جزر الهند الشرقية عن طريقي الاطلسي والهندي .

الاستكشافات البرتغالية

لقد رعت الدول الحديثة وليست مدن ايطاليا الاستكشافات الجغرافية . ومن اوائل تلك الدول هي البرتغال . اذ كانت هذه في اشتباك مزمن مع المسلمين واحرزت مواقع هامة في الطرف الشمالي الغربي من الساحل الافريقي على حساب المسلمين . وادى ذلك الى وضع الخطط للسير بمحاذاة الساحل الافريقي الغربي وعند منتهاه يمكن الاتجاه شرقا الى الهند والصين . وبذلك يتخلصون من السيطرة الاحتكارية الاقتصادية لمدن ايطاليا وتجار المسلمين . وقد تبنى ذلك المشروع الامير البرتغالي المعروف بهنري الملاح ١٣٩٤ ـ ١٤٦٠ ، ولم يكن هنري ملاحا بذلك المعنى . غير انه دأب على وضع النظريات الجغرافية السائدة انذاك موضع التنفيذ بدافع نشر المسيحية وتوسيع رقعة بلاده وانهاضها ماديا . فأسس مدرسة ملاحة في لشبون جلب اليها اشهر ملاحي ايطاليا وعلماء الجغرافية . ثم تابع منها ارسال البعوث الاستطلاعية والفرق البحرية والتجار والمبشرين سنة بعد اخرى . وتمكن هؤلاء من اكتشاف جزر

(54) Marco Polo, The Travels, tr. Latham (Middlesex, 1965) XIII-XXII.
(55) Ibid., XXIII.

ماديرا والازورس ثم اتجهـوا تدريجيا نحو السواحل الغربية والجنوبية لافريقيا . هذا ولم تسفر جهود هنري عند وفاته عن غير اكتشاف النصف الشمالي من الساحل الافريقي الغربي[56] .

استمرت عمليات الاستكشاف بعـد وفاة ذلك الامير ، حيث نجح بارثلميو دياز من الوصـول الى اقصى الجنوب مـن الساحل الافريقي الغربي سنة ١٤٨٨ واسمى النقطة القصوى برأس العواصف غير ان الملك البرتغالي جون الثاني اطلق عليها اسم رأس الرجاء الصالح تيمنا . وقـد اكمل مشروع الوصول الى الشرق البحار فاسكو داكاما حيث دار حول الرجاء الصالح سنة ١٤٩٧ وسار بمحاذاة الساحل في الاتجاه الشمالي من الساحل الشرقي حتى مالندي اذ وجد بحارا عربيا قـاده خلال المحيط الهندي الى الهنـد . فوصل كاليكوت في مايس سنة ١٤٩٨ ، ثـم قفل راجعا الى لشبون سنة ١٤٩٩ بحمولة تعادل ستين مرة اكثر من تكاليف الرحلة . واخذ البرتغاليون منذ ذلك التاريخ يتاجرون مـع الشرق عن ذلك الطريق[57] .

الاستكشافات الاسبانية

حاولت الحكومة الاسبانية ايجاد طريق الى الشرق بالسير غربا عبر الاطلسي . وصاحب الفكرة كريستوفر كولمبس ١٤٤٦ ـــ ١٥٠٦ البحار الجنوي الذي تزود بخبرة الملاحة والمعلومات الجغرافية وشارك الاعتقاد القائل بكرويـة الارض وان اسيا تقع الى الغرب مـن اوروبا . دخل كولمبس في خدمة الملك البرتغالي جون الثاني ورجـاه الاعانة على تنفيذ مشروعه الاستكشافي فلم يستجب جون للرجاء نظرا لانشغال البرتغال في طريـق رأس الرجاء الصالح . لهذا اضطر الـى مفاتحة الحكومـة الاسبانية . وبعد محاولات عدة فاز بموافقة الملكة الاسبانية ايزابيلا في وقت كان فيه زوجها فرديناند يخضع اخر معقـل اسلامي في اسبانيا الا

---

(56) W. Atkinson, A History of Spain and Portugal (Middlesex, 1960) 99-100.

(57) Hayes, op. cit. 72.

وهو غرناطة سنة ١٤٩٢ .

اقلع كولمبس من بالوس في شهر آب سنة ١٤٩٢ بحملة استطلاعية قوامها ثلاث سفن صغيرة تحمل سبعا وثمانين رجلا ، مزودا برسالة الى امبراطور الصين[٥٨] . وبعد بضعة اسابيع وصل اليابسة في ١٢ تشرين اول اي بعد مسيرة اثني وثلاثين يوما مـن جزر الكناري وسميت الارض التي وصلها سان سلفادور التـي ظنها جزر الهند الشرقية . وقـد رجع كولمبس من رحلته الاولى سنة ١٤٩٣ مخبرا الحكومة الاسبانية بوصوله الى جزر الهند الشرقية . ثم قـام كولمبس بثلاث سفرات اخر في ١٤٩٤ و ١٤٩٨ ، ١٥٠٢ كشفت عن الساحل الرئيسي من هندوراس الى فنزويلا. ومع ذلك فقد مات ولم يعلم بان ما اكتشفه هو عالم جديد وليس بجزر الهند الشرقية[٥٩] .

لقد اخذ يتوضح للاوروبيين تدريجيا بان ما اكتشف من ارض عبر الاطلسي لم تكن اسيا وانما هي عالم جديد . اذ قـام مغامر ايطالي من مدينـة فلورنس امريكو فسبوشي Amerigo Vespucci في فترة ١٤٩٩ ــ ١٥٠١ باستطـلاع معظم ساحل امريكا الجنوبية . وكان هذا يشتغل لحساب عائلة مدتشي في كل من البرتغال واسبانيا ، كتب مقالا سنة ١٥٠٣ ادعى فيه بانه اكتشف العالم الجديد . وبعد اربع سنوات من ذلك التاريخ كتب احد اساتذة الجغرافيا الالمان الا وهو Martin Waldseemaller مقالا جاء فيه ان ما اكتشف من يابسة يمثل ربع العـالم ويجب تسميته بامريكا نسبة الى امريكو[٦٠] .

كلمة ختامية :

حقا ان النصف الثاني من القرن الخامس عشر لمن الفترات الخطيرة في تاريخ العصر الوسيط من الناحيتين الداخلية والخارجية . ففي المجال

(58) Ibid., 73.
(59) Knapton, Europe, 1450-1815 (London, 1958) 114.
(60) Ibid., 115.

الاول ثبتت الملكيات الغربيـة اقدامها بتأكيدها على السيادة الداخليـة وجردت الاقطاعيين مـن نزعاتهم اللامركزية الانفصالية . وعملت فكرة السيادة هذه بمظهريها الخارجي والداخلي على ظهـور ما يسمى بالدولة الحديثـة . وما الدول الحديثـة انذاك الا حصيلـة ردود الفعل ضد الكوسموبوليتانية الكنسية والامبراطورية من جهة وضد الاقطاع من جهة ثانية . كما انها مرحلة اقتصادية انتقالية كبرى تمثلت في توسع فعاليـات الطبقة المتوسطة التي مهدت لظهور ما يسمى بالرأسمالية الحديثة انذاك في القرن السادس عشر . اما في المجـالات الخارجية فهي مـن الفترات الحاسمة في تاريخ اوروبا . اذ زالت فيها الامبراطورية البيزنطية بسقوط القسطنطينيـة سنة ١٤٥٣ وطربيزون سنة ١٤٦٣ وبذلـك بدأت مرحلة صراع جديدة بـين الاسلام والمسيحية متمثلة في الدولة العثمانية ودول اوروبا عامة . غير ان المد الاسلامي في الجهـات الجنوبية الشرقية مـن اوروبا صحبه انحسار في الاجزاء الجنوبية الغربية من تلك القارة بسقوط غرناطة سنة ١٤٩٢ اخر المعاقل الاسلامية هنـاك . كما اطلت تلك السنة على المجتمع الاوروبي بحوادث اكتشاف العـالم الجديد الذي قدر له منذ ذلك التاريخ ان يؤثر تأثيرا عميقا في الشؤون الاوروبية عامة .



البابوات (1)

١٥٠٣ — ٤٤٠

Leo I., The Great	٤٤٠	John IV	٦٤٠
Hilary	٤٦١	Theodorus I	٦٤٢
Simplicius	٤٦٨	Martin I	٦٤٩
Filix III	٤٨٣	Engenius	٦٥٤
Gelasius	٤٩٢	Vitalian I	٦٥٧
Anastasius II	٤٩٦	Deusdedit II	٦٧٢
Symmachus	٤٩٨	Donus I	٦٧٦
Laurentius, Anti-	٤٩٨	Agatho	٦٧٨
Hormisdas	٥١٤	Leo II	٦٨٢
John I	٥٢٣	Benedict II	٦٨٤
Felix IV	٥٢٦	John V	٦٨٥
Boniface II	٥٣٠	Canon	٦٨٦
Diocurus, Anti-Pope	٥٣٠	Sergius I	٦٨٧
		Paschal, Anti-P	٦٨٧
John II	٥٣٢	Theodorus, Anti-Pope	٦٨٧
Agapitus I	٥٣٥		
Silverius	٥٣٦	John VI	٧٠١
Vigilus	٥٣٨	John VII	٧٠٥
Pelagius	٥٥٥	Sisinnius	٧٠٨
John III	٥٦١	Constantine	٧٠٨
Benedict I	٥٧٥	Gregory II	٧١٥
Pelagius II	٥٧٨	Gregory III	٧٣١
Gregory I, The Great	٥٩٠	Zacharias	٧٤١
		Stephen II	٧٥٢
Sabinianus	٦٠٤	Stephen III	٧٥٢
Boniface III	٦٠٧	Paul I	٧٥٧
Deusdedit	٦١٥	Constantine Anti-Pope	٧٦٧
Boniface V	٦١٨		
Honorius I	٦٢٥	Stephen IV	٧٦٨
Severinus	٦٢٨	Hadrian I	٧٧٢

(1) **Bryce, The Holy Roman Empire (London, 1950) XXI - XXVIII.**

Leo III	٧٩٥
Stephen V	٨١٦
Paschal I	٨١٧
Eugenius II	٨٢٤
Valentinus	٨٢٧
Gregory IV	٨٢٧
Sergius II	٨٤٤
Leo IV	٨٤٧
Benedict III	٨٥٥
Aanastasius, Anti-Pope	٨٥٥
Nicholas I	٨٥٨
Hadrian II	٨٦٧
John VIII	٨٧٢
Martin II	٨٨٢
Hadrian III	٨٨٤
Stephen V	٨٨٥
Formosus	٨٩١
Boniface VI	٨٩٦
Stephen VI	٨٩٦
Romanus	٨٩٧
Theodore II	٨٩٧
John IX	٨٩٨
Benedict IV	٩٠٠
Leo V	٩٠٣
Christopher	٩٠٣
Sergius III	٩٠٤
Anastasius III	٩١١
Lando	٩١٣
John X	٩١٤
Leo VI	٩٢٨
Stephen VII	٩٢٩
John XI	٩٣١
Leo VII	٩٣٦
Stephen VIII	٩٣٨
Martin III	٩٤١
Agapetus II	٩٤٦
John XXI	٩٥٥
Leo VIII	٩٦٣
Benedict V, Anti-Pope	٩٦٤
John XIII	٩٦٥
Benedict VI	٩٧٢
Boniface VII, Anti-Pope	٩٧٤
Domnus II	٩٧٤
Benedict VII	٩٧٤
John XIV	٩٨٣
John XV	٩٨٥
Gregory V	٩٩٦
John XVI, Anti-Pope	٩٩٦
Sylvester II	٩٩٩
John XVII	١٠٠٣
John XVIII	١٠٠٣
Sergius IV	١٠٠٩
Benedict VIII	١٠١٢
John XIX	١٠٢٤
Benedict IX	١٠٣٣
Sylvester, Anti-Pope	١٠٤٤
Gregory VI	١٠٤٥
Clement II	١٠٤٦
Damasus II	١٠٤٨
Leo IX	١٠٤٨
Victor II	١٠٥٤
Stephen IX	١٠٥٧
Benedict X	١٠٥٨
Nicholas II	١٠٥٩
Alexander II	١٠٦١
Gregory VII	١٠٧٣
Clement, Anti-	١٠٨٠

Pope	
Victor III	١٠٨٦
Urban II	١٠٨٧
Paschal II	١٠٩٩
Albert, Anti-Pope	١١٠٢
Sylvester, Anti-Pope	١١٠٥
Gelasius II	١١١٨
Gregory, Anti-Pope	١١١٨
Calixtus II	١١١٩
Celestine, Anti-Pope	١١٢١
Honorius II	١١٢٤
Innocent II	١١٣٠
Anacletus, Anti-Pope	
Victor, Anti-TiPope	١١٣٨
Celestine II	١١٤٣
Lucius II	١١٤٤
Eugenius III	١١٤٥
Anatasius IV	١١٥٣
Hadrian IV	١١٥٤
Alexander III	١١٥٩
Victor, Anti-Pope	١١٥٩
Paschal, Anti-Pope	١١٦٤
Calixtus, Anti-Pope	١١٦٨
Lucius III	١١٨١
Urban III	١١٨٥
Gregory VIII	١١٨٧
Celestine III	١١٩١
Innocent III	١١٩٨
Honorius III	١٢١٦
Gregory IX	١٢٢٧
Celestine IV	١٢٤١
Innocent IV	١٢٤٣
Alexander IV	١٢٥٤
Urban IV	١٢٦١
Clement IV	١٢٦٥
Gregory X	١٢٧١
Innocent V	١٢٧٦
Hadrian V	١٢٧٦
John XX	١٢٧٧
Nicholas III	١٢٧٧
Martin IV	١٢٨١
Honorius IV	١٢٨٥
Celestine V	١٢٩٤
Boniface VII	١٢٩٤
Benedict XI	١٣٠٣
Clement V	١٣٠٥
John XXI	١٣١٦
Benedict XII	١٣٣٤
Clement VI	١٣٤٢
Innocent VI	١٣٥٢
Urban V	١٣٦٢
Gregory XI	١٣٧٠
Urban VI	١٣٧٨
Clement VII, Anti-Pope	
Boniface IX	١٣٨٩
Benedict, Anti-Pope	١٣٩٤
Innocent VII	١٤٠٤
Gregory XII	١٤٠٦
Alexander V	١٤٠٩
John XXII	١٤١٠
Martin V	١٤١٧

Eugene IV	١٤٣١	Paul II	١٤٦٤
Felix, Anti-Pope	١٤٣٩	Sixtus IV	١٤٧١
Nicholas V	١٤٤٧	Innocent VIII	١٤٨٤
Calixtus IV	١٤٥٥	Alexander VI	١٤٩٣
Pius II	١٤٥٨	Pius III	١٥٠٣

الغوط الغربيون في اسبانيا[2]

Euric	٤٠٠ — ٤٨٤	Gundemar	٦١٠ — ٦١٢
Alaric II	٤٨٤ — ٥٠٦	Sisebut	٦١٢ — ٦٢١
Theodoric and	٥٠٦ — ٥٢٦	Richard II	٦٢١
Amalric		Swinthila	٦٢١ — ٦٣١
Amalric alone	٥٢٦ — ٥٣١	Sisenand	٦٣١ — ٦٣٦
Theudis	٥٣١ — ٥٤٨	Chintila	٦٣٦ — ٦٤٠
Theudegesil	٥٤٨ — ٥٤٩	Tulga	٦٤٠ — ٦٤٢
Agila	٥٤٩ — ٥٥٤	Chindaswinth	٦٤٢ — ٦٥٢
Athangild	٥٥٤ — ٥٦٧	Receswinth	٦٥٢ — ٦٧٢
Leova I	٥٦٨ — ٥٧٢	Wamba	٦٧٢ — ٦٨٠
Leovigild	٥٦٨ — ٥٨٦	ErWig	٦٨٠ — ٦٨٧
Ricard I	٥٨٦ — ٦٠١	Egica	٦٨٧ — ٧٠١
Leova II	٦٠١ — ٦٠٣	Avitiza	٧٠١ — ٧٠٩
Witterich	٦٠٣ — ٦١٠	Roderick	٧٠٩ — ٧١١

اللمبارد في ايطاليا[3]

Albion	٥٦٨ — ٥٧٢	Grimoald	٦٦٢ — ٦٧١
Cleph	٥٧٢ — ٥٧٤	Perctarit (again)	٦٧١ — ٦٨٨
Authari	٥٨٤ — ٥٩٠	Cunipert	٦٨٨ — ٧٠٠
Agiluf	٥٩٠ — ٦١٦	Luitpert	٧٠٠
Adaloald	٦١٦ — ٦٢٦	Aribert II	٧٠٠ — ٧١٢
Arioald	٦٢٦ — ٦٣٦	Ansprand	٧١٢
Rothari	٦٣٦ — ٦٥٢	Luitprand	٧١٣ — ٧٤٤
Rodoald	٦٥٢	Hildebrand	٧٤٤
Aribert I	٦٥٢ — ٦٦١	Ratchis	٧٤٤ — ٧٤٩
Godepert	٦٦١ — ٦٦٢	Aistulf	٧٤٩ — ٧٥٦
Perctarit	٦٦١ — ٦٦٢	Desiderius	٧٥٦ — ٧٧٤

(2) (3) **Deanesly, A History of Mediaeval Europe, from 476-911 (London, 1960) 581.**

الاباطرة الكارولنجيون [4]

Charles the Great	٨٠٠ — ٨١٤	Charles III, The Fat	٨٨٧ — ٨٨١
Louis the Pious	٨١٤ — ٨٤٠	Guy of Spoleto	٨٩١ — ٨٩٤
Lothar I	٨٤٠ — ٨٥٥	Lambert of Spoleto	٨٩٤ — ٨٩٨
Louis II	٨٥٥ — ٨٧٥	Arnulf of Carinthia	٨٩٦ — ٨٩٩

اباطرة الامبراطورية الرومانية المقدسة [5]

Otto the Great	٩٦٢	Conrad IV	١٢٥٠
Otto II	٩٧٣	Richard, Alfonso, rivals	١٢٥٧
Otto III	٩٨٣	Rudolf of Hapsburg	١٢٧٣
Henry II	١٠٠٢	Adolf of Nassau	١٢٩٢
Conrad II	١٠٢٤	Albert I or Hapsburg	١٢٩٨
Henry III	١٠٣٩	Henry VII, Luxemburg	١٣٠٨
Henry V	١٠٥٦	Lewis IV, Bavaria	١٣١٤
Rudolf, rival	١٠٧٧	Frederick of Austria, rival	
Hermann, rival	١٠٨١	Charles IV, Luxemburg, Ghinther, rivals	١٣٤٧
Conrad, rival	١٠٩٣	Wenzel, Luxemburg	١٣٧٨
Henry V	١١٠٦	Rupert, Palatinate	١٤٠٠
Lothar II	١١٢٥	Sigmund, Luxemburg	١٤١٠
Conrad III	١١٣٨	Albert II, Hapsburg	١٤٣٨
Frederick I	١١٥٢	Frederik III	١٤٤٠
Henry VI	١١٩٠	Maximilian I	١٤٩٣
Philip, Otto, IV rivals	١١٩٧		
Otto IV	١٢٠٨		
Frederick II	١٢١٢		
Henry Raspe, rival	١٢٤٦		
William of Holland, rival	١٢٤٦ — ٧		
Richard II	١٣٧٧ — ١٣٩٩		

(4) Ibid., 579. (5) Bryce, op. cit., XXXV — XXVIII

ملوك الانكليز منذ عهد وليم الفاتح [6]

William I	١٠٦٦ — ١٠٨٧	Henry IV	١٣٩٩ — ١٤١٣
William II	١٠٨٧ — ١١٠٠	Henry V	١٤١٣ — ١٤٢٢
Henry I	١١٠٠ — ١١٣٥	Henry VI	١٤٢٢ — ١٤٦١
Stephen	١١٣٥ — ١١٥٤	Edward IV	١٤٦١ — ١٤٨٣
Henry II	١١٥٤ — ١١٨٩	Edward V	١٤٨٣
Richard I	١١٨٩ — ١١٩٩	Richard III	١٤٨٣ — ١٤٨٥
John	١١٩٩ — ١٢١٦	Henry VII	١٤٨٥ — ١٥٠٩
Henry III	١٢١٦ — ١٢٧٢		
Edward I	١٢٧٢ — ١٣٠٧		
Edward II	١٣٠٧ — ١٣٢٧		
Edward III	١٣٢٧ — ١٣٧٧		

ملوك فرنسا منذ هيو كابيه [7]

Hugh Capet	٩٨٧ — ٩٩٦	Charles IV	١٣٢٢ — ١٣٢٨
Robert The Pious	٩٩٦ — ١٠٣١	Philip Count of Valois	١٣٢٨ — ١٣٥٠
Henry I	١٠٣١ — ١٠٦٠	John the Good	١٣٥٠ — ١٣٦٤
Philip I	١٠٦٠ — ١١٠٨	Charles V	١٣٦٤ — ١٣٨٠
Louis VI The Fat	١١٠٨ — ١١٣٧	Charles VI	١٣٨٠ — ١٤٢٢
Louis VII	١١٣٧ — ١١٨٠	Charles VII	١٤٢٢ — ١٤٦١
Philip II Augustus	١١٨٠ — ١٢٢٣	Louis XI	١٤٦١ — ١٤٨٣
Louis VIII	١٢٢٣ — ١٢٢٦	Charles VIII	١٤٨٣ — ١٤٩٨
Louis IX (St. Louis)	١٢٢٦ — ١٢٧٠		
Philip III	١٢٧٠ — ١٢٨٥		
Philip IV	١٢٨٥ — ١٣١٤		
Louis X	١٣١٤ — ١٣١٦		
Philip V	١٣١٦ — ١٣٢٢		

---

(6) (7) Painter, A History of the Middle Ages, 284 - 1500 (London, 1963) Tables : IV, VI, VII.

ملوك قشتالة منذ ١٠٣٣ [8]

Ferdinand	١٠٦٥ — ١٠٣٣	Peter the Cruel	١٣٦٩ — ١٣٥٠
Alfonso VI	١١٠٩ — ١٠٦٥	Henry II	١٣٧٩ — ١٣٦٩
Urraca (Queen)	١١٢٦ — ١١٠٩	John I	١٣٩٠ — ١٣٧٩
Alfonso VII	١١٥٧ — ١١٢٦	Henry III	١٤٠٦ — ١٣٩٠
Sancho III	١١٥٨ — ١١٥٧	John II	١٤٥٤ — ١٤٠٦
Alfonso VIII	١٢١٤ — ١١٥٨	Henry IV	١٤٧٤ — ١٤٥٤
Henry I	١٢١٧ — ١٢١٤	Isabella	١٥٠٤ — ١٤٧٤
Ferdinand III	١٢٥٢ — ١٢١٧		
Alfonso X	١٢٨٤ — ١٢٥٢		
Sancho IV	١٢٩٥ — ١٢٨٤		
Ferdinand IV	١٣١٢ — ١٢٩٥		
Alfonso XI	١٣٥٠ — ١٣١٢		

ملوك اراكون منذ ١٠٣٥ [9]

Ramiro I	١٠٦٣ — ١٠٣٥	Peter IV	١٣٨٧ — ١٣٣٦
Sancho Ramirez	١٠٩٤ — ١٠٦٣	John I	١٣٩٥ — ١٣٨٧
Peter I	١١٠٤ — ١٠٩٤	Martin I	١٤١٠ — ١٣٩٥
Alfonso I	١١٣٤ — ١١٠٤	Ferdinand I	١٤١٦ — ١٤١٢
Ramiro II	١١٣٧ — ١١٣٤	Albonso V	١٤٥٨ — ١٤١٦
Petronilla	١١٦٢ — ١١٣٧	John II	١٤٧٩ — ١٤٥٨
Alfonso II	١١٩٦ — ١١٦٢	Eno Cathalie	١٥١٦ — ١٤٧٩
Peter II	١٢١٣ — ١١٩٦		
James I	١٢٧٦ — ١٢١٣		
Peter III	١٢٨٥ — ١٢٧٦		
Alfonso III	١٢٩١ — ١٢٨٥		
James II	١٢٩٦ — ١٢٩١		
Frederick	١٣٢٧ — ١٢٩٦		
Alfonso IV	١٣٣٦ — ١٣٢٧		

(8) (9) **Ibid., Tables IX - X.**

المصادر

Adams, B., Law of Civilization and Delay (N.Y., 1921)

Addison, D., Arts and Crafts in the Middle Ages (Boston, 1908)

Arnold, W., The Legacy of Islam (Oxford, 1931)

Ashley, J., An Introduction to English Economic History and Theory, (2 vols. (N.Y., 1894).

Asin, P., Islam and the Divine Comedy, tr. Sunderland (London, 1926).

Asquith, H., The Legacy of Rome (Oxford, 1923)

Atkinson, W., A History of Spain and Portugal (Middlesex, 1960).

Atiya, A., Crusade, Commerce and Culture (London, 1942).

Augustin, st., The City of God, Abridged from the translation by Gerard Walsh... ed., Brouke (N.Y., 1958).

., Confessions, tr. Coffin (Middlesex, 1964).

Barnes, E., Economic History of Western World (N.Y., 1942).

Baynes, N., and Moss, H., Byzantium (Oxford, 1963).

Beard, M., History of the Business Man (N.Y., 1938).

Bebel, A., Women Under Socialism (N.Y., 1923).

Bede, A History of the English Church and People, tr. Price (Middlesex, 1965).

Beer, M., Social Struggle in the Middle Ages (London, 1924).

Bindoff, S., Tudor England (Middlesex, 1951).

Bloch, M., Feudal Society, tr. Manyon (London, 1962).

Boissonnade, P., Life and Work in Medieval Europe (N.Y., 1927).

Bridge, H., Life and Work of Roger Bacon (London, 1914).

Braun, S., Dictionary of French Literature (N.Y., 1964).

Brook, Z., A History of Europe, 911 - 1198 (London, 1962).

Bryce, J., The Holy Roman Empire (N.Y., 1950).

Bullough, S., Roman Catholicism (Middlesex, 1963).

Burgh, G., The Legacy of the Ancient World, 2 vols. (Middlesex, 1953).

Bury, J., A History of the Later Roman Empire, 395 - 800, 2 vols. (London, 1923).

Cambridge Medieval History, 8 vols. (N.Y., 1924).

Castiglione, A., History of Medicine (N.Y., 1941).

Catholic Encyclopedia (N.Y., 1912).

Copleston, F., Aquinas (Middlesex, 1965).

Coulton, G., Medieval Panorama (N.Y., 1944).

., Five Centuries of Religion, 3 vols., (Cambridge, 1923).

., The Inquisition (N.Y., 1929).

., Inquisition and Liberty (London, 1938).

Crump, C., and Jacob E., The Legacy of the Middle Ages (Oxford, 1962).

Dante, The Divine Comedy, 1, Hell, tr. by Sayers (Middlesex, 1960)

Deanesly, M., A History of Mediaeval Europe, 476-911 (London, 1960).

Deitz, F., A Political and Social History of England (N.Y., 1937).

Day, C., A History of Commerce (London, 1926).

Du Chaillu, P., The Viking Age, 2 vols. (N.Y., 1889).

Du Chesne, L., Early History of the Christian Church, 3 vols. (London, 1933).

Durant, W., The Age of Faith, 325-1300 (N.Y., 1950).

Eversley, L., The Turkish Empire, its Growth and Decay (Lahore, 1959).

Fisher, H., A History of Europe, from the Earliest Times to 1713 (London, 1957).

Funk, Y., Manual of Church History, 2 vols. (London, 1960).

Ganshof, F., Feudalism, tr. Grierson (London, 1964).

Garrison, F., History of Medicine (Phila. 1929).

Gibbon, E., The Decline and Fall of the Roman Empire, 6 vols. (London, 1962).

Glover, T., The Ancient World (Middlesex, 1966).

Green, J., Short History of English People (N.Y., 1897).

Haskins, C., The Renaissance of the Twelfth Century (Cambridge, 1922).

Haynes, C., A Political and Social History of Modern Europe, 2 vols. (N.Y., 1944).

Hitti, phil., History of the Arabs (London, 1961).

Horn, W., History of the Literature of the Scandinavian North (Chicago, 1895).

Huizinga, J., The Waning of the Middle Ages (Middlesex, 1955).

Joinville and Villehardouin, Chronicles of the Crusades, tr. Shaw (Middlesex, 1967).

Kantorowiez, E., Frederick the Second (London, 1931).

Katz, S., The Decline of Rome and the Rise of Mediaeval Europe (Cornell, 1963).

Knapton, E., Europe 1450 - 1815 (Massachusetts, 1958).

Langmead, T., English Constitutional History (London, 1911).

Laven, P., Renaissance Italy, 1464 - 1534 (London, 1966).

Lea, C., Historical Sketch of Sacerdotal Celibacy (Boston, 1884).

., History of the Inquisition in the Middle Ages, 3 vols. (N.Y., 1888).

Leff, G., Medieval Thought, from Augustin to Ockham (Middlesex, 1958).

Lunt., W., A History of England (N.Y., 1937).

Mackie, J., A History of Scotland (Maddlesex, 1964).

Marco Polo, The Travels, tr. Latham (Middlesex, 1965).

Marcellinus, Roman History, tr. Ralfe (Cambridge, 1935).

Momigliano, A., The Conflict Between Paganism and Christianity in the Fourth Century (Oxford, 1963).

Neill, S., A History of Christian Missions (Middlesex, 1966).

Ogg, F., Source Book of Medieval History (N.Y., 1907).

Orton, C., A History of Europe, 1198 - 1378 (London, 1960).

., The Shorter Cambridge Medieval History, 2 vols. (London, 1953).

Painter, S., A History of the Middle Ages, 284 - 1500 (London, 1963).

Peter and Murray, A Dictionary of Art and Artists (Middlesex, 1965).

Piganiol, A., L'Empire Chrétien (Paris, 1947).

Pirenne, H., Medieval Cities, tr. by Halsey (Princeton, 1939).

., History of Europe, from the Invasions, to the XVI Century (N.Y., 1958).

., Mohammed and Charlemagne (London, 1958).

Power, E., Mediaeval People (Middlesex, 1954).

Renard, G., Guilds of the Middle Ages (London, 1918).

Robinson, J., An Introduction to the History of Modern Europe, 2 vols. (Boston, 1946).

Richmond, J. Roman Britain, I, (Middlesex 1955).

Rocker, R., Nationalism and Culture, tr. by Chase (N.Y., 1937).

Rostovtzeff, M., The Social and Economic History of the Roman Empire, 2 vols. (Oxford, 1926).

Runciman, S., The Sicilian Vespers (Middlesex, 1958).

Russel, B., History of Western Philosophy (N.Y., 1945).

Sabine, G., A History of Political Theory (N.Y., 1964).

Sayers, D., The Song of Roland (Middlesex, 1959).

Stenton, D., English Society in the Early Middle Ages, 1066 - 1307 (Middlesex, 1954).

Stephenson, C., Mediaeval Feudalism (N.Y., 1956).

Strayer, J., and Munro, D., The Middle Ages, 395 - 1500 (N.Y., 1942).

Stubbs, W., Lectures on European History (London, 1902).

Tawney, R., Religion and the Rise of Capitalism (N.Y., 1949).

Taylor, O., The Mediaeval Mind, 2 vols. (London, 1927).

Thompson, W., Economic and Social History of the Middle Ages, 300 - 1300 (N.Y., 1928).

., The Ages, 2 vols. (N.Y., 1931).

Thatcher and McNeal, Source Book for Mediaeval History (N.Y., 1905).

Treece, H., The Crusades (N.Y., 1964).

Trevelyan, G., A Shortened History of England (Middlesex, 1960).

Ullman, W., A History of Political Thought in the Middle Ages (Middlesex, 1965).

Vacandard, E., The Inquisition (N.Y., 1908).

Vernadsky, G., A History of Russia (New Haven, 1954).

Waddell, H., The Wondering Scholars (Middlesex, 1954).

Walbank, F., The Decline of the Roman Empire in the West (N.Y., 1935).

Ware, T., The Orthodox Church (Middlesex, 1964).

Waugh, W., A History of Europe, 1378-1494 (London, 1962).

Periodical Literature.

Baynes, W., «The Decline of the Roman Empire in Western Europe; Some Modern Explanations,» Journal of Roman Studies, 1943).

Huntigton, E., «Climatic Cnange and Agricultural Exhaustion as Element in the Fall of Rome,» Quarterly Journal of Economic, 1916.

Simokhovich, G., «Rome's Fall Reconsidered», Journal of Political Science 1916.

Westerman, W., «The Decline of Ancient Cultures», The American Historical Review, 1915.

الاب بولس اليسوعي ، خلاصة الدين المسيحي (بيروت ، ١٩٦٥) .

يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الاوروبية في العصر الوسيط (دار المعارف بمصر ، ١٩٦٥) .

للمؤلف : الامبراطورية البيزنطية (بيروت ، ١٩٦٦) .

جدول الخطأ والصواب

الصفحة	سطر	الكلمة الخطأ	الصواب
٦٠	١٦	St. Ambrase	St. Ambrose
٧٥	٥	سيكيا	سكولا ستيكيا
١٢٧	١٣	Eschat	Escheat
١٢٨	١٣	Sarfdom	Serfdom
١٢٩	١٢	عهد	مهد
١٢٩	١٢	قرنه	فرنسا
١٣٢	١٧	جديد	من حديد
١٣٥	١٨	صرت	صيرت
١٣٧	١٤	المتذمتون	المتزمتون
١٤٢	١١	فاولد	فاولر
١٤٢	١٢	فاولد	فاولر
١٤٢	٢١	فاولد	فاولر
١٥٤	٢٦	ترسالا	نهر سالا
١٦٠	١٧	جدية	حدية
١٦١	١٠	بولي	نابولي
١٧٧	١٨	قوبلاي حوفري	جوفري
١٨٠	٦	*By*	By Jury
١٨٣	٢٠	نحو	نمو
٢٠٠	٣	حياتنا	حياتها
٢١٧	٩	القعرية	التعرية
٢١٩	١٤	Schalasticism	Scholasticism
٢٢٣	٢	ايطوليا	بطوليا
٢٣٠	١	لكلية	على طلبة
٢٤١	١٣	تكتب	ترتكب
٢٧٦	١٠	النسبة	الهنسية
٢٧٦	١٠	Hansteatic	Hanseatic

الصفحة	سطر	الكلمة الخطأ	الصواب
٢٧٨	١٧	التام	النافذ
٢٨٧	٢٣	الصقليتين	الصقليتان
٣٠٥	١٤	بنسخة	باحراق نسخة
٣٠٧	١٢	عال	عاش
٣٠٩	١٨	تدخل	ترفل
٣١٦	١٣	السهية	الهسية
٣٣٤	١١	٢ ـــ	أ ـــ
٣٤١	١٢	د ـــ	ب ـــ
٣٤٣	٤	٣٧٠	٣٧
٣٤٥	١	٢ ـــ	أ ـــ